# المنهج الإعلامي للسيرة النبوية




تور منير محمد الغضبان

دار الوفاء

الجزء الأول

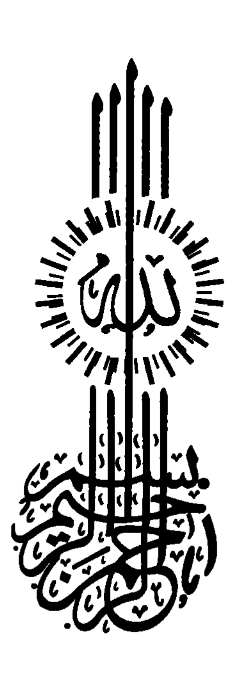
# المنهج الإعلامي للسّيرة النبوية

## الشّعر في عهد النّبوة ﷺ

الدكتور منير محمّد الغضبان

الجزء الأول

دار الوفاء



الطبعة الأولى
١٤٢٨ هـ ــ ٢٠٠٧م

الوفاء للطباعة والنشر

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع-ج.م.ع-المنصورة

الإدارة: ش.الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص ب: ٢٣٠
ت/ ٢٢٥٦٢٣٠ فاكس ٢٢٦٠٩٧٤/٠٥٠ محمول ٠١٠/١٧٠٥٦٥٨
E-MAIL:darelwafa@HOT M AIL.COM
WWW.EL-WAFAA.COM

# بين يدى البحث

المنهج الإعلامى للسيرة النبوية هو الموجه للجماهير يُعرِّفها على المسلمين أولاً وعلى الإسلام ثانياً . وقد تمثل هذا المنهج بالشعر فى عهد النبوة . إن تربية الأمة المسلمة إنما كان بالقرآن الكريم المنزل من عند الله عزّ وجلّ . أما الإعلام الإسلامى ، فقد اختاره رسول الله ﷺ اختياراً مقصوداً لذاته من خلال الشعر .

فعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: « اهجوا قريشاً ، فإنه أشد عليها من رشق بالنبل » . فأرسل إلى ابن رواحة فقال: « اهجهم » فهجاهم ،فلم يرض . فأرسل إلى كعب بن مالك ثم أرسل إلى حسان بن ثابت . فلما دخل عليه قال حسان: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه .ثم أدلع لسانه ، فجعل يحركه فقال:

والذى بعثك بالحق لأفرينهم بلسانى فرى الأديم .فقال رسول الله ﷺ :« لا تعجل . فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها . وإن لى فيهم نسباً ، حتى يلخِّص لك نسبى» فأتاه حسان ، ثم رجع فقال : يا رسول الله ، قد لخَّص لى نسبك . والذى بعثك بالحق ، لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين .

قالت عائشة : فسمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان :

« إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله » .

وتحدثنا عائشة ﵂ كذلك عن تحقيق الإعلام الإسلامى لهدفه بقولها :

سمعت رسول الله ﷺ يقول:

« هجاهم حسان فشفى واشتفى » (١) .

والعجيب أن يتأخر هذا البحث إلى اليوم. مع العلم أن عشرات الكتب والرسائل الجامعية قد تناولت كل شاعر على حدة من شعراء هذا العصر ،أو

---

(١) صحيح مسلم ، فضائل الصحابة ٤/ ١٩٣٥ ، ١٩٣٦ ح ١٥٧ .

تناولت قضية من قضايا هذا الشعر .

وفى اعتقادى أن هذا تابع لطبيعة التعامل مع السيرة النبوية بشكل عام ، إذ كان تناولها يتم بصورة جزئية انتقائية فى جانب التحليل ،ويؤدى إلى كثير من الأخطاء ،حين لا تفهم السيرة منهج حياة. وبالعودة إلى تراثنا الأدبى واللغوى لا نجد بين أيدينا إلا شرح مفردات هذا الشعر المنبث فى داخل السيرة [١] التى تم الاصطلاح على تسميتها بسيرة ابن هشام . وكما قلت فقد نجد شرحاً وافياً لبعض قصائد هذا الشعر عند كبار شعراء العصر . أما الشرح الوافى لشعر عهد النبوة ـ إسلامى وجاهلى ـ فلا وجود له البتة فى هذا التراث .

وأنا أقدم أذن على محاولة شاقة ـ على قصر باعى ـ قد يكتنفها الكثير من الأخطاء والعثرات ،فطبيعة العمل الرائد دائماً أن تكون كذلك ،لتأتى الخطوات اللاحقة ،تكمل ما فات ، وتصحح ما كبا ،وتثرى الموضوع أيما إثراء .

**الدراسات السابقة [٢]:**

أقدم ما يطالعنا من دراسات حول هذا الموضوع يعود إلى خمسة وأربعين عاماً تقريباً نذكرها حسب تاريخ نشرها .

**أولاً**: تاريخ الشعر السياسى للأديب الكبير أحمد الشايب ،حيث تناول فى فصل من فصوله [٣] الشعر فى عهد النبوة واستعرض نبذة من أشعار هذه الفترة،وأبرز نقاطاً ثلاثة فيها :

١ـ يرى أن أسلوب الشعر لم يتغير ( فالأسلوب جاهلى خالص عند بعض الشعراء كالحطيئة والخنساء وكعب بن مالك وابن رواحة ، وشعراء مكة وشواعرها ) [٤].

---

(١) هو الشرح الذى قام به العالم النحوى اللغوى أبو ذر الخشنى، والذى اعتمده كل شعراء السيرة المعاصرين . وهو مصعب بن محمد المتوفى سنة ٦٠٤ هـ ، من العلماء بالحديث والسير والنحو، أصله من مدينة حيان بالأندلس وله شرح غريب السيرة النبوية بثلاثة أجزاء .

(٢) كان الفضل لأستاذنا الدكتور محمد الحسن فضل المولى الذى لفت نظرى إلى العديد من هذه الدراسات ، فعدت إليها وكانت هذه الفقرة ،كما أشار إلى مصادر أخرى لم أتمكن من العثور عليها .

(٣) الفصل من ص ٩٤ إلى ١٣٠ وعنون لهذا الفصل : فى سبيل الأمة العربية .

(٤) تاريخ الشعر السياسى ، للأستاذ أحمد الشايب ص ١١٧،ط ٢، القاهرة ١٩٥٣ م.

٢ـ أشار إلى اختلاط العصبية القبلية القرشية ضد يثرب عند ضرار بن الخطاب ، وطالب بن أبى طالب حيث كانا يمدحان آل هاشم بعد بدر ويهجوان الأوس والخزرج رغم عدائهما لمحمد وصحبه .

٣ـ أشار إلى ضعف شعر حسان فى الإسلام وقال: ( وربما كان حسان بن ثابت هو الشاعر الفذ الذى حاول أن يسلم سريعاً فى صياغته وأسلوبه،وأن ينسلخ عن موهبته الأصيلة ، فحاول أمراً غير ممكن وسقط بين كرسيين ،وضعف شعره الإسلامى ) (١).

**ثانياً**: تاريخ النقائض فى الشعر العربى للمؤلف نفسه .

وقد خصص الفصل الثانى فى كتابه المذكور للشعر فى عهد النبوة تحت عنوان: النقائض والغزوات،ثم ذكر فى الفصل الثالث خواص هذه النقائض نلخصها فيما يلى:

١ـ معانى النقائض جاهلية وإسلامية .

٢ـ صار الإسلام موضوعاً للنقائض .

٣ـ الأساليب أصابها اختلاف واضطراب ما بين قوة جاهلية وسهولة أو هلهلة إسلامية خضوعاً للتجديد أو السرعة أو تغير الموضوع ، وقد ظهر ذلك عند حسان خاصة ، فضعف شعره الإسلامى كما نبهنا ، وقد نلحظ ذلك حين نوازن بين شعر الزبرقان بن بدر الجاهلى وشعر حسان (٢).

٤ـ تمتاز النقائض الإسلامية بأنها قصيرة العمر ، أو ضرورة وقتية استدعتها المهاجاة بين مكة والمدينة ، ودخلت العرب الإسلام فلم يبق هناك مجال للمناقضة فسكتت .

٥ـ ( النقائض الإسلامية الأولى لم تشتمل على خمش،أو جرح للأعراض ، أو انتهاك للحرمات ، كالذى نراه زمن الأمويين ) (٣) .

---

(١) المصدر نفسه ص١١٧ .

(٢) والغريب إصدار مثل هذا الحكم مع أن الزبرقان اعترف مع وفد تميم بقوله عن حسان: شاعره أشعر من شاعرنا . انظر : السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٥٦٧ . وفد تميم .

(٣) تاريخ النقائض فى الشعر العربى للأستاذ أحمد الشايب ص١٥٦ ، ١٥٧ ، مكتبة النهضة، ط ٣، القاهرة ١٩٦٦م .

**ثالثاً** : شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه للدكتور يحيى الجبورى ، وكانت الطبعة الأولى عام ١٩٦٣م والطبعة الثانية عام ١٩٧٩م ، وذكر فى مقدمة الطبعة الثانية قوله : ولا أظن كذلك أن دراسة ما قامت فى هذا الميدان فأضافت إليه أو غيرت فيه على الرغم من كثرة ما نشر من دواوين لها صلة بشعر هذه الفترة .فإنها إن أضافت بيتا يعزز شاهداً من شواهده ، أو حقيقة تثبت نتيجة من نتائجه ، فهى حتى الآن لم تغير من أحكامه أو تحور نظرته (١). أما فى مقدمة الطبيعة الأولى فقال :( وجئت أتعرف على الجهد الذى بذل فى أدب هذه الفترة الإسلامية فإذا هو جهد على قلته ، منصب على أفراد بارزين فيها،وذلك الجهد لم يكن ليقصد الفترة ذاتها وإنما تناول جانباً منها أو ظاهرة من ظواهرها .وقد اتخذ هذه الفترة وسيلة أو مجازاً للانتقال من العصر الجاهلى إلى العصر الأموى، وكأنما لم يكن لهذه الفترة من المكانة ما يستحق الوقوف عندها والتفرغ لدراستها) (٢).

وهذا الكتاب فى الحقيقة هو أجود ما كتب فى الحديث عن الشعر فى عهد النبوة، ولذلك سنستعرض الأفكار الرئيسية التى عالجها الكتاب وحللها ،علماً بأن المرحلة الزمنية التى تحدث عنها الكتاب تتناول عهد النبوة وعهد الراشدين ، بينما يتناول موضوع الرسالة عهد النبوة فقط أى إلى السنة العاشرة للهجرة . وعند الدكتور الجبورى يتناول الشعر حتى عام واحد وأربعين من الهجرة. وقد ذكر الدكتور الجبورى من الدراسات السابقة إضافة إلى الكتابين السابقين للأستاذ الشايب .

أ ـ كتاب الدكتور شوقى ضيف ( التطور والتجديد فى الشعر الأموى ) وخلاصة رأيه أن الشعراء لم يتطوروا بشعرهم على هدى الإسلام إلا تطوراً محدوداً ، وكأنما عاقتهم الصورة القديمة التى ألفوها فى صناعة الشعر (٣).

ب ـ الأستاذ محمد محمد حسين وكتابه ( الهجاء والهجاؤون فى الجاهلية ) ورأى أول ما رأى أن الشعر قد حافظ على نهجه الجاهلى فى الهجاء والمديح على السواء ،وأن شعراء المسلمين لم يستطيعوا أن يصوغوا المعانى الإسلامية بشعرهم

---

(١) وكان هذا بعد ثلاثة عشر عاماً من دراسته الأولى .

(٢) شعر المخضرمين للدكتور يحيى الجبورى ص ٥ .

(٣) التطور والتجديد فى الشعر الأموى ١٢ ـ ٢٣ ، د . شوقى ضيف ، القاهرة ، دار المعارف ، ط الثامنة .

إلا بطريقة فاسدة متكلفة قوامها نقل الآيات ونظمها نظماً فاسداً [1].

جـ ـ وفى كتابه الثانى( الهجاء والهجاؤون فى صدر الإسلام ) تناول حركة الردة ودوافعها العصبية ومظاهر تلك العصبية [2].

د ـ وكتاب طه إبراهيم ( تاريخ النقد الأدبى عند العرب ) تناول فيها ضعف الشعر فى العصر الإسلامى .

هـ ـ كتاب د . طه الحاجرى ( تاريخ النقد والمذاهب الأدبية ) تناول الموضوع من وجهة نظر الأحداث الإسلامية والنظم الجديدة فى ضعف الشعر.

و ـ تاريخ الشعر العربى للأستاذ البهيتى تناول فيه موضوع ضعف الشعر وأثر القرآن فيه .

ز ـ مقالات خلف الله : دراسات فى الأدب الإسلامى تناول فيها موضوع الجهاد فى سبيل الله [3].

وكأنما مهمة كل الدراسات السابقة أن تتحدث عن ضعف الشعر الإسلامى ولا شىء غير ذلك .

يتحدث الدكتور الجبورى عن كتابه فيقول:

وأما من حيث الفترة التى نريد أن نرصد فيها الشعر وأثر الإسلام فيه فهى الفترة التى تبدأ بقيام رسول الله ﷺ فى الدعوة إلى الإسلام فيها ، وتنتهى فى أيام الخلافة الراشدة ، وقيام الدولة الأموية سنة إحدى وأربعين فيكون ما قبل الهجرة وما بعدها ثلاثاً وخمسين سنة [4].

والنظرية الجديدة التى يسوقها فينفد فيها ادعاءات ضعف الشعر فيقول:

بيد أن هذا التحديد لا يعنى بحال من الأحوال أننا نؤرخ للشعر فيه بعامة ، لا بل إننا نَصُبُّ عنايتنا على الشعر الذى يكون للإسلام فيه نصيب ، سواء أكان ذلك

(١) الهجاء والهجاؤون فى الجاهلية ، د . محمد محمد حسين، مكتبة الآداب ، القاهرة ١٩٤٧م .

(٢) الهجاء والهجاؤون فى الإسلام ، د . محمد محمد حسين ، مكتبة الآداب ، القاهرة ١٩٤٨م .

(٣) شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه ، مقتطفات من ص ٥ ـ ٨ ، د . يحيى الجبورى ، مؤسسة الرسالة ، ط ٤ ، ١٩٩٣م .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٦٤ .

الأثر فى شعر المسلمين أم فى شعر الخصوم المشركين .والشعر الذى مثل الدين فى هذه الفترة إنما قيل إبان الحرب الكلامية بين مكة والمدينة قبل الفتح . فهذه الفترة فى حقيقة الأمر هى فترة الازدهار الخصب . . . وحين يتحدث عن حسان بن ثابت فيقول : وكان لمكانة حسان هذه فى الجاهلية أن مزردا أخا الشماخ كات يفاخر به كعب بن زهير حيث رد عليه مزرد بقوله:

فلست كحسان الحسام بن ثابت ولست كشماخ ولا كالمخبل

فحسان بقية الجاهليين الفحول،ولم يبق فى عصره من يطاوله مكانة غير لبيد وكعب بن زهير والحطيئة ، ولم يستطع واحد من هؤلاء أن يبرز ويساير الدعوة مثله. وينقل قول ابن سلام : ( إن المدينة كانت أشعر القرى العربية وأشعر شعرائها حسان بن ثابت) (١) .

ثم يستعرض بعدها فى الفصل الأول : المدينة وشعراؤها فى عرض سريع لشعراء المدينة حسان وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة .ثم يستعرض فى الفصل الثانى من الباب الأول شعر المهاجرين ، وينتقل فى الباب الثانى ليحدث عن شعر المعارضة فى مكة والطائف والقرى اليهودية . أما فى الباب الثالث فيستعرض شعر البادية المتأثر بالإسلام وهو استعراض أشخاص وشعراء فى العصرين النبوى والراشدى إلى أن ينتقل إلى الباب الرابع الذى يطلق عليه شعر المخضرمين ومبلغ تصويره للأحداث الإسلامية ،ويقسمه إلى فصلين : الفصل الأول من ص ٢٦٠ ـ ٣٠٥ ويتناول الشعر زمن الرسول ﷺ وطبيعة شعر هذا العصر ، وهذا الفصل هو الذى ينطبق بالضبط على الموضوع فى رسالتى هذه ، أما الفصل الثانى فهو خارج عن نطاق بحثى وهو الشعر زمن الخلفاء الراشدين . فهدف شعر المخضرمين هو الشاعر ،أما الخط الذى سرت فيه هو الحدث ، ومدى قدرة الشاعر على تصويره .

ويصف الشعر فى هذه المرحلة ثانية بقوله :( وقد كانت الأحداث الكبرى التى مكنت للدعوة ونشرت الدين أهم عامل لازدهار الشعر فى عصر النبوة ، فالفترة الواقعة بين الهجرة إلى حنين والطائف كانت فترة ازدهار الشعر وقوته ،

(١) شعر المخضرمين ،للدكتور الجبورى ص ٦٤ .

لأن الخصومة كانت قائمة على حدتها وشدتها ) [١] .

ويتحدث فى الفصل الثالث عن خصائص شعر المخضرمين ننقل مقتطفات منه :

أ ـ لقد بقى شعر المخضرمين فى غالبه محافظاً على نمطه الجاهلى وأسلوبه متمسكا بالمثالية التى كان يصدر عنها الشعر قبل الإسلام،فهو بعامته يتسم بالإيجاز وقوة التعبير، وجزالة اللفظ ، وتعدد الموضوعات ، وبراعة الأوصاف ، وقد لا يميز القارئ شعر البادية فى هذا العصر ، وشعر مكة عن الشعر الجاهلى. أما شعر المدينة المتأثر بالإسلام ففيه بعض التجديد من حيث المعنى والأسلوب فنجد العذوبة والسلاسة، ورقة الألفاظ، ووضوح المعانى فى القصائد والمقطعات .أما من حيث العموم فالنهج الجاهلى هو السائد فى أساليب الشعراء فى المديح والهجاء والفخر والرثاء ، وهذا يعنى أنه لم يحدث تطور واسع فى القصيدة العربية على هدى الإسلام وهذا أمر طبيعى[٢] . . . ولذلك فليس غريباً أن يكون الطابع الجاهلى هو الذى يصبغ شعر العصر ، بل إن روح القبيلة ظاهر فى شعر الشعراء المسلمين أنفسهم على الرغم من أن الإسلام جاء لينفض هذه الروح ، ويضع فى نفوس القوم مفهوم الأمة مكان القبيلة [٣].

ب ـ وقد امتاز شعر المخضرمين بأنه مثل العصر ، وأرخ الأحداث فقد كانت الحرب دائرة بين المسلمين والمشركين شديدة عنيفة ،وكان الشعر من أسلحة تلك الحرب. . . والنقائض إنما تزدهر فى الحروب والأيام فقد كانت فترة العشر سنوات الأولى من الهجرة فترة حروب متلاحقة دامية ، كان الشعراء فيها يترادون قصائدهم .فلما كان الفتح وما بعده ، ودخلت قريش فى دين الله، صار العرب أمة واحدة [٤].

جـ ـ وننظر فى فنون الشعر عامة ، فنجد أن بعض الفنون ينمو ويزدهر وينشط ، وبعضها يختفى أو يكاد . . . فمنذ أن بدأت المعركة الأولى بين المسلمين والمشركين فى بدر رافق الشعر هذه المعركة . . . وفى الحروب تزدهر فنون الفخر والزهو بالقوة وحسن البلاء والحماسة ،والهجاء ،والرثاء ، والمديح أيضاً . وكل

---

(١) شعر المخضرمين ،ص ٢٣ .
(٢) المصدر نفسه ،ص ٣٤٨، ٣٤٩ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٥١ .
(٤) شعر المخضرمين ، ص ٣٥٤ .

هذا تستدعيه الحرب وتثيره ،أو تكون سبباً فى إثارته .

د ـ وإذا ما أتيح لبعض الفنون أن تنشط وتزدهر فـإن فنوناً أخرى لم يكن لها مجـال للازدهار ،فشـعر الغـزل والتشـبيب بالنسـاء لم يكن له حظ إلا فى بعض القصـائد التى حافظت علـى نهجهـا الجاهلى . . . ومـا يقال عن الغـزل يقال عن الخمر ووصفها . . . وقد اتخذ شعراء المسلمين أسلوباً فى مديح الرسول ﷺ ذلك هو مـزج الصفـات الدينيـة بصفـات المروءة، ولعل لانصـراف المسلمين عن المديح الكاذب دور فى خـمـول شعـر المديح. . . ومن كل مـا تقـدم نجد أن الأحـداث الإسلامـية ساعـدت على ازدهار بعض الفنون كمـا عملت على اضمـحلال فنون أخرى (١).

وعلى أهمية هذه الدراسـة التى تعتبر أجود ما كـتب فى هذا المضمار ،إلا أننا نقول: إن النظرة للشعـر لم يتغلغل فى أعماقه، ولم تنصهـر فى أحداثه ، فجاءت الأحكام مع الإضافـات المهمة الجديدة التى أضـافتها تكرر بعض الأحكام السـابقة السريعة . ولكنها بحق هى الرائدة فى هذا المجال.

**رابعاً**: الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية للدكتور مصطفى الشكعة « كتاب الشعر » .

ونعرض لبعض الفقرات والآراء فيه :

أ ـ فلما جـاءت الرسالة الإسلامـية بدأ هذا الأدب يرقى غاية ويتـسع نطاقاً ، ويتعدد أبواباً ، ويتأثر بتلك الحضارة ، الأمر الذى جعل أفقه أكثر رحابة ، وفنونه أغنى خصوبة ، والمبدعين له أوفر عدداً وأكرم إنتاجاً (٢).

ب ـ ( لعل من نافلة القول أن نعـترف بأن الشعر قـد خبت جذوته، وتوارت بلاغتـه فى أيام البعثـة النبوية وخلالهـا على أن هناك لوناً واحداً من الشـعر الذى بقى،ولم يكن السبب فى بقائه جرأة منه على مواجـهة الأحداث الجديدة الغالبة ، أو ثقة فى نفسه أمام روعة الكتاب العزيز وإنما كان يسير فى ركاب الدعوة نفسها إما

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٣٦٥ ـ ٣٧٥ .

(٢) الأدب فى موكب الحضـارة الإسلامية « كتـاب الشعر » ص ٨ ، للدكتور مصـطفى الشكعة ، دار الكتاب اللبنانى ،ط ١، ١٩٧٣م ، ط٢ ، ١٩٧٤م .

مدافعًا عنها منافحًا عن رسولها، أو مهاجمًا لها، مصطدمًا مع الذين آمنوا بها ) [١].

جـ - ( على أن لواء القول كان معقودًا على حسان دون شك. فلقد كان يضرب بشعره فى مقاتل قريش، ويجسد كل طاقاته البيانية فى إطار إيمانه العميق، وحبه للرسول ) [٢].

د - ( ومن هنا جاء الشعر أغزر معنى، وأقل أسلوباً، ولعل حسانًا نفسه قد أحس بذلك، فكان يعمد بين الحين والحين إلى الأسلوب الجزل الذى كان يطرب هو نفسه له) [٣].

هـ - وفى حديثه عن همزية حسان يقول: والقصيدة طويلة موسومة بالفحولة، ولم يتحرج الشاعر فيها من ذكر الخمر ( عفت ذات الأصابع فالجواء ) إرضاء لشيطان شعره الأصيل [٤].

و - ولقد كان شعر حسان وأصحابه من شعراء الرسول ﷺ يجمعون بين فحولة الشعر الجاهلى وبين المعانى الإسلامية فإذا كان حسان جاهليا [٥] فى قصدته الهمزية التى مر ذكرها رغم أنها قيلت فى أعز مناسبة إسلامية أراد أن يخلدها بكل طاقاته ومواهبه فأطلق لشاعريته العنان بغير تحرر [٦].

ز - على أن هناك شعراء من الفحول، أبوا التحول عن التزام مدرسة الجزالة الجاهلية والأسلوب القديم مثل الحطيئة وبجير وكعب بن زهير.

حـ - وبصدد حديثه عن قصيدة كعب بن زهير يقول: على أن القصيدة من النهج الجاهلى صياغة ومذهبًا فأكثر أبياتها مجرد مدح لا يكاد يرتفع إلى مقام الممدوح [٧].

ط - ومهما كان الأمر، ومهما كان اتجاه الشعر وأساليبه فقد حافظ على وجوده فى نطاق الدعوة الجديدة وحدها، ولم تثبت له قدم، ولم ترتفع له هام فى

---

(١) الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية « كتاب الشعر »، ص ٩٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٥. (٣) المصدر نفسه، ص ٩٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ٩٧.

(٥) التعبير الأدق هو أنه كان جاهلياً فى مقدمة قصيدته إسلامياً فى بقيتها سلاسة وجزالة وعقيدة.

(٦) الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية ص ٩٧.

(٧) الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية ص ٩٨.

ميدان آخر من الميادين التى تعود أن يصول فيها ويجول قبل مجىء الدعوة الجديدة التى جعلته يطأطئ الرأس لهـا إجلالاً، ويتوارى خجلاً واستحـياء،وكان ذلك أمراً طبيعياً فى الفترة التى أنزل فيها القرآن بسحره وإعجازه (١).

كانت هذه الفقرات فى فصل واحد من ص ٩١ ـ ١٠١ .

**خامساً** : الحياة الأدبية فى صدر الإسلام : للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى وقد طبع عام ١٩٨٠م ، نأخذ منه بعض الفقرات التى تتحدث عن موضوعنا الذى نحن بصدده :

أ ـ أثر الإسـلام فى اللغة العـربيـة : ( ١ـ وحدة اللغـة. ٢ـ انتـشار اللغـة وشيوعها . ٣ـ اتساع أغراض اللغة .

أما فى المعانى فقد كان التطور فى: ١ـ اتســاع مادة المعانى . ٢ـ حسن نظامها ومراعاة الوفاق بينها . ٣ـ دقة المعانى وعمق تركيبها .

وبالنسبة للألفاظ فكان التطور فى : ١ـ تهـذيب ألفاظ اللغة . ٢ـ نشأة ألفاظ إسلاميـة محضة . ٣ـ التوسع فى دلالات الألفاظ . ٤ـ مـوت ألفاظ منع الشارع من استعمالها . ٥ـ دخول طائفة من الألفاظ الأعجمية فى الكلام . ٦ـ التأنق فى صوغ الأساليب والتفنن فى تنوعها وإحكام نظامها).

ب ـ تناول فى الفصل الخامس من كتابه : الشعر فى صدر الإسلام ( ١٣٣ ـ ٢٠٥) ومما يقوله : والواقع أن تحول الـشعر عن روحه ومشـربه فى الجاهلية إلى روح جديدة ،ومعان جديدة ربما ضاقت به شيـاطين الشعراء ، وتخلفت فيه أخيلة الشعراء، هذا التحول قد عاد إلى الشعر بشىء من الضيق وانقباض الأفق. وجعل شعراء الإسلام يجفلون كل معنى يتسم بسمـة جاهلية ، وفرق بين شاعر لا يتهيب كل معنى يعن له،وبين شـاعر يستولى عـليه التحرج من كل مـا يخالف دينه ،ولا يلتئم مع عقيدته (٢).

جـ ـ وهذا حسـان بن ثابت قد امتـزج الإسلام بلحمـه ودمه، فترك مـا كان

---

(١) الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية ، ص ١٠١ .

(٢) الحياة الأدبية فى صـدر الإسلام، للدكتور محمد عبـد المنعم خفاجى ص ١٦٣ ، دار الكتاب اللبنانى ، ط ث ١٩٨٠ ، ص ٢٣٦ .

يتعاطاه شعراء الجاهلية ولم نر له شعراً بعد ذلك قوياً إلا فى منافحة أعداء الإسلام، ومكافحة خصوم الرسول ﷺ ، وفيما عدا ذلك فقد تحول شعره عما كان عليه فى الجاهلية من القوة إلى الضعف (١).

د ـ وكان الفصل السادس عنده تحت عنوان: حسان شاعر الإسلام ( ٢٠٥ ـ ٢٢٨ ) وفيه دراسة لقصيدته اللامية: أسألت رسم الدار أم لم تسأل . . . ( ٢١٨ ـ ٢٢٨) ويتحدث عن شعره فى الإسلام فيقول:

* وأما شعره فى الإسلام فيقول النقاد فيه: إنه قد لان وضعف بعض الشىء، وإن كان النقاد ومن لهم بصر بالشعر يرون أن شعره فى الإسلام كان لا يزال كعهده فى زمن الشباب ، قوياً حصينا رصيناً فى مواضع ، خاصة فى هجائه للمشركين، وبمعارضة شعرهم ، وفى فخره وحماسته ، يرون أيضاً أن كثيراً مما وجد فيها من شعر ليناً أو ضعيفاً لم تكن نسبته إليه صحيحة ، وإنما وضعه المستكثرون من الشعر، قال الأصمعى مرة: حسان أحد فحول الشعراء، فقال أبو حاتم: تأتى له أشعار لينة ، فقال الأصمعى : تنسب له أشياء لا تصح عنه (٢).

* وعلى الجملة فإن شعر حسان فى مناقضة شعراء المشركين ، والرد عليهم والدفاع عن الإسلام والرسول كان قوياً جزلاً رائعاً، وكان لا يزال كشعره زمن الشباب قوياً مصيغاً رصينا ، وكان رسول الله ﷺ إذا سمع هجاءه فى أعداء الإسلام يقول : « لهذا أشد عليهم من وقع النبل » ، وكذلك فخره وحماسته لهما فى الإسلام قوة شعره فى الجاهلية ، فلما استسلم المشركون ودخلوا فى الإسلام ، وسكت صوت المعارضة سكتت شاعرية حسان ، وأخذ ينظم شعراً هادئاً ليناً ضعيفا لا قوة فيه ولا فخامة له كما كان شعره فى عهد قوته فى صدر الإسلام والجاهلية (٣).

وأخلص بعد هذا كله إلى أن الدراسات السابقة كلها لم تتناول الشعر فى عهد النبوة بالشمول الذى تناولته ، ولا تلغى أياً من النتائج التى توصلت إليها كما سأشير فى نهاية البحث (٤).

---

(١) الحياة الأدبية فى صدر الإسلام ص ١٦٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢١١ . (٣) المصدر نفسه ص ٢١٣ .

(٤) قدم أصل هذا البحث رسالة لنيل الدكتوراه بجامعة القرآن الكريم بجمهورية السودان الشقيق بإشراف =

## المصادر :

أما من حيث المصادر فقد كان لسيرة ابن هشام المقام الأول فهى المصدر الأول للشعر فى عهد النبوة؛ لأن ابن هشام العالم اللغوى العظيم قد سد ثغرة ضعف ابن إسحاق فى الشعر فيما عرض له من تهذيب وتشذيب ، ثم شرح السيرة للإمام السهيلى (١) المعروف بالروض الأنف . ورافق هذا المصدر دواوين الشعراء الكبار مثل ديوان أبى طالب لابن جنى ، وديوان حسان بن ثابت وديوان كعب ابن مالك . ويلى سيرة ابن هشام فى الأهمية دلائل النبوة للبيهقى ،وسبل الهدى والرشاد للصالحى (٢) ، والمغازى للواقدى ، والطبقات الكبرى لابن سعد .

أما المراجع فكل كتب السيرة الأخرى المنبثة فى ثنايا البحث ، مع كتب تراجم الصحاب ، وكتب التاريخ الإسلامى ، وكتب التاريخ الأدبى ، وبعض الدراسات الحديثة المعاصرة . والتى نقدم فهرسًا عنها فى نهاية البحث .

راجيًا الله تعالى أن تكون هذه الدراسة لبنة جديدة فى عالم الأدب ، وعالم السيرة كذلك والله نسأل التوفيق والسداد من عنده . والحمد لله رب العالمين .

---

= الأستاذ الدكتور عباس محجوب محمود . وعضوية الأستاذ الدكتور عبد النبى محمد على والأستاذ الدكتور محمد الحسن فضل المولى . شاكرًا للجميع سديد الملاحظات التى قدموها لى .

(١) السهيلى : هو الإمام عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمى السهيلى المتوفى سنة ٥٨١ هـ ، حافظ عالم باللغة والسير،ضرير ، ولد فى مالقة ، عمى وعمره سبع عشرة سنة ، فاتصل خبره بصاحب مراكش ، فطلبه، وأكرمه ، وصنف فيها كتبه ، إلى أن توفى فيها ، والروض الأنف من أهم كتبه .

(٢) هو محمد بن يوسف الصالحى الشامى المتوفى سنة ٩٤٢ هـ ، ولد فى صالحي دمشق محدث ، عالم بالتاريخ من أهم كتبه : سبل الهدى والرشاد ، المعروف بالسير الشامية ، وقد طبع فى ثلاثة عشر مجلدًا دون تحقيق ، بينما طبع منه اثنا عشر جزءًا محققة ، إصدار المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة ، وله كتب أخرى فى فنون متنوعة .

# الباب الأول

# الشعر الجاهلى



# الفصل الأول

# ماذا نعنى بالشعر الجاهلى ؟

نحن مضطرون ابتداء إلى التعرف على ( الجاهلية ) و ( الجاهلى ) لالتباس هذا المفهوم بالمعنى اللغوى للجهل الذى يقابل العلم ، و( الجاهلية ) و( الجاهلى ) مصطلح إسلامى صرف انصب على العصر الذى سبق الإسلام حيث كان الناس فى جاهلية جهلاء وضلال عمياء كما يقول عز وجل : ﴿ **الٓر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢)** ﴾ [إبراهيم ] .

يقول الحافظ ابن كثير[١] بصدد قوله تعالى : ﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)** ﴾ [ المائدة ] :( ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير ، الناهى عن كل شر ، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التى وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله . كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم )[٢] .

ولو عدنا إلى شيخ المفسرين الطبرى[٣] فى تفسيره للجاهلية ،نراه يؤكد هذا

---

(١) إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضو البصروى ثم الدمشقى ،أبو الفداء ، عماد الدين : حافظ ، مؤرخ ، فقيه . ولد فى قرية من أعمال بصرى الشام سنة ٧٠١ هـ ، وانتقل مع أبيه إلى دمشق سنة ٧٠٦ هـ ، ورحل فى طلب العلم . . . وتوفى بدمشق سنة ٧٧٤ هـ ،من كتبه : «البداية والنهاية » و « تفسير القرآن العظيم » و « جامع المسانيد » .

(٢) تفسير ابن كثير ، طبعة دار المعرفة ٢/ ٧٠ .

(٣) محمد بن جرير بن يزيد الطبرى ، أبو جعفر : المؤرخ المفسر الإمام .ولد فى آمل طبرستان سنة ٢٢٤هـ ، واستوطن بغداد وتوفى بها سنة ٣١٠هـ ، له : « أخبار الرسل والملوك » يعرف بتاريخ الطبرى فى ١١ جزءًا، و « جامع البيان فى تفسير القرآن » يعرف بتفسير الطبرى فى ٣٠ جزءًا،و« اختلاف الفقهاء » وغير ذلك . وهو من ثقات المؤرخين ، قال ابن الأثير : أبو جعفر أوثق من نقل التاريخ ، وفى تفسيره ما يدل على علم غزير وتحقيق وكان مجتهدًا فى أحكام الدين لا يقلد أحدًا ، بل قلده بعض الناس، وعملوا بأقواله وآرائه . وكان أسمر ، أعين ، نحيف الجسم ، فصيحاً .

المعنى، وهو من الصدر الأول فى الأمة إذ يقول :

( . . . حكم الجاهلية : يعنى أحكام عبدة الأوثان من أهل الشرك )[١] .

وعلى هذا فالشعر الجاهلى هو ما كان قبل الإسلام من جهة . أو قاله شعراء جاهليون من عبدة الأوثان ولم يدخلوا الإسلام بعد نزول هذا الدين على قلب رسول الله ﷺ .

لكن إلى أى عهد يعود هذا الشعر الجاهلى ؟ وإلى أى مكان يبسط سلطانه ؟ حيث اللهجات العربية بل اللغات المختلفة فى جزيرة العرب، وكيف وصلنا بلسان قريش ؟

أسئلة ثلاثة ، نجد الباحثين القدامى والمحدثين يعالجونها .

أما الامتداد الزمانى . فقد قدر الجاحظ [٢] هذا الزمن بمائتى عام على الحد الأقصى إذ يقول :

( أما الشعر العربى فحديث الميلاد صغير السن . أول من نهج سبيله ،وسهل الطريق إليه امرؤ القيس والمهلهل بن ربيعة ، فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له خمسين ومائة عام .وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتى عام )[٣] .

( ومن أجل ذلك كله نقف بالعصر الجاهلى عند هذه الفترة المحدودة أى عند مائة وخمسين عاماً قبل الإسلام . وما وراء ذلك يمكن تسميته بالجاهلية الأولى )[٤].

ويرى ابن سلام[٥] فى كتابه طبقات فحول الشعراء، أن القصائد المطولة إنما

---

(١) تفسير الإمام الطبرى ٦/ ١٧٧ .

(٢) عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى بالولاء الليثى ،أبو عثمان ، الشهير بالجاحظ : كبير أئمة الأدب ، ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة .ولد فى البصرة سنة ١٦٣ هـ،وبها توفى سنة ٢٥٥هـ . فج فى آخر عمره . وكان مشوه الخلقة . ومات والكتاب على صدره . قتلته مجلدات من الكتب وقعت عليه . له تصانيف كثيرة ، منها : « الحيوان » أربعة مجلدات ، و « البيان والتبيين » ، ومجموعة رسائل .

(٣) الحيوان للجاحظ ١/ ٧٤ .

(٤) العصر الجاهلى ، د . شوقى ضيف ص ٣٩ ، طبعة دار المعارف .

(٥) محمد بن سلام بن عبيد الله الجمحى بالولاء ،أبو عبد الله: إمام فى الأدب . من أهل البصرة ، ولد سنة ١٥٠ هـ،وتوفى ببغداد سنة ٢٣٢ هـ، له كتب منها:« طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين» و « بيوتات العرب » و « غريب القرآن » . وكان يقول بالقدر ، فقال أهل الحديث: يكتب عنه الشعر،أما الحديث فلا .

هى قريبة العهد . . . بينما نقل إلينا من قبل إنما هو البيت والأبيات .( ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل فى حاجته . وإنما قصدت القصائد وطول الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف .وذلك يدل على إسقاط شعر عاد وثمود وحمير وتبع )[١] .وإن كان محقق الكتاب الأستاذ العلامة محمود شاكر لا يقر بهذا الرأى قائلاً : ( وهو عندى باطل ، فالشعر أقدم مما يزعم ،وطويله أعتق مما يتوهم)[٢] .وعهد هاشم يعود تقريباً إلى عشرين ومائة قبل الإسلام كما يرى أستاذنا الشيخ محمد سعيد الطنطاوى [٣] .

ولكننا إذا ربطنا بين القولين ، قول الجاحظ : إن أول من نهج سبيله ، وسهل الطريق إليه امرؤ القيس بن حجر ،ومهلهل بن ربيعة فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له إلى أن جاء إليه بالإسلام خمسين ومائة عام .وبين قول ابن سلام : إنما قُصِّدت القصائد وطوِّل الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف . نرى أن كلام ابن سلام أدق من حيث التاريخ من كلام الجاحظ .

فالمهلهل بن ربيعة إنما أنشأ قصائده ووسَّعها بعد مقتل أخيه كليب . والذى تشير المصادر إلى أن مقتله كان عام ٤٩٤م[٤] . وامرؤ القيس إنما كان تقدير ميلاده فى أوائل القرن السادس الميلادى[٥] .وهذا يعنى أن أول القرن السادس هو ابتداء تقصيد القصائد وتطويل الشعر. والبعثة النبوية المطهرة إنما كانت عام ٦٢٢م . فهذا يعنى أن بضعة وعشرين ومائة هى بداية نضج الشعر الجاهلى، والذى رافق وجود هاشم بن عبد مناف وابنه عبد المطلب بن هاشم .

**البدايات :**

ونحن لا نرى تناقضاً بين الأقوال حين نعيد البدايات إلى ما قبل مائتى عام كما يذكر ابن سلام ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل فى حاجته. ولكن القضية المهمة فى الأمر هى كيف أصبح الشعر العربى فى الشمال

---

(١) طبقات فحول الشعراء ٢٦/١ .    (٢) المصدر نفسه ، هامش ٢٦.

(٣) محمد سعيد الطنطاوى : علامة الشام فى السيرة والتاريخ الإسلامى ،ولد سنة ١٩٢٣م. عمل فى التدريس، ثم فى بناء المناهج ووضع السياسات التعليمية فى أكثر من دولة عربية . ولم يشتهر كشهرة أخيه الأديب الكبير على الطنطاوى لأنه نادراً ما يكتب علمه .

(٤ ، ٥) الشعر الجاهلى . د . شوقى ضيف ص ٢٣٦ .

والجنوب إنما هو بلغة قريش . فمما أدى إلى ذلك استقرار قريش فى مكة البيت الحرام . منذ أن أصبحت راعية البيت على يد زعيمها قصى بن كلاب . وذلك حوالى ثلاثمائة عام قبل الإسلام . فقصى هو جد هاشم (١).

( ثم إن قصى بن كلاب خطب إلى حُلَيل بن حُبْشيَّة (٢) ابنته حُبَّى ، فرغب به حليل فزوجه، فولدت له عبد الدار ،وعبد مناف ، وعبد العزى، وعبدا فلما انتشر ولد قصى، وكثر ماله،وعظم شرفه، هلك حليل . . . ) (٣) .

( وكانت صوفة ـ من بنى خزاعة ـ تدفع بالناس من عرفة ، وتجيز بهم إذا نفروا من منى ) (٤). ( فأقام قصى بن كلاب بمن معه من قومه من قريش وكنانة وقضاعة عند العقبة ، فقال : لنحن أولى من هذا منكم ، فقاتلوه ، فاقتتل الناس قتالاً شديداً . ثم انهزمت صوفة ، وغلبهم قصى على ما كان بأيديهم من ذلك ، وانحازت عند ذلك خزاعة وبنو بكر عن قصى . . . فلما انحازوا عنه باداهم ، وأجمع لحربهم ،وثبت معه أخوه رِزاح بن ربيعة بمن معه من قومه من قضاعة ، وخرجت له خزاعة وبنو بكر فالتقوا، فاقتتلوا قتالاً شديداً بالأبطح ،حتى كثرت القتلى بين الفريقين جميعاً .فحكموا يعمر بن كعب . . . بن كنانة، فقضى بينهم أن قصياً أولى بالكعبة وأمر مكة من خزاعة . . . وأن يخلَّى بين قصى وبين الكعبة ومكة ) (٥).

( وقريش إذ ذاك حلول (٦) صرم (٧) وبيوتات متفرقون فى قومهم من بنى كنانة )(٨) فولى قصى أمر مكة ،وجمع قومه من منازلهم إلى مكة ، وتملك على قومه وأهل مكة فملَّكوه . . . فكان قصى أول بنى كعب بن لؤى أصاب ملكاً أطاع له به قومه . فكانت إليه الحجابة (٩)،والسقاية(١٠) ،والرفادة (١١) ،

---

(١) هو هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب .

(٢) حليل بن حبشى آخر من ولى البيت من خزاعة.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام مع شرح الخشنى . ط ١٩٨٨ ،مكتبة المنار ١/ ١٦٤ .

(٤) المصدر نفسه ١/ ١٦٦ .

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٧١ ، ١٧٢.

(٦) حلول : جماعة البيوت المجتمعة .

(٧) الصِرم : الجماعات المتقطعة .

(٨) المصدر نفسه ١/ ١٦٦ .

(٩) الحجابة :أن تكون مفاتيح الكعبة عنده فلا يدخل الكعبة أحد إلا بإذنه .

(١٠) السقاية : سقاية الحجيج الماء ممزوجاً بعسل أو لبن أو نبيذ .

(١١) الرفادة : إطعام الحجيج.

والندوة[1] ، واللواء[2] . فحاز شرف مكة كله ، وقطع مكة رِباعاً بين قومه، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التى أصبحوا عليها . . . فكان أمره فى قومه من قريش فى حياته ، ومن بعد موته كالدين المتبع لا يعمل بغيره ، واتخذ لنفسه دار الندوة ،وجعل بابها إلى مسجد الكعبة . ففيها كانت قريش تقضى أمورها .

قال ابن هشام [3]: ( وقال الشاعر :

قُصىٌّ لعمرى كان يُدعى مُجمّعاً     به جمّع الله القبائل من فِهْرِ

قال ابن إسحاق :حدثنى عبد الملك بن راشد عن أبيه قال: سمعت السائب ابن جناب صاحب المقصورة يحدث: أنه سمع رجلاً يحدث عمر بن الخطاب ،وهو خليفة، حديث قُصى بن كلاب ،وما جمع من أمر قومه،وإخراجه خزاعة وبنى بكر من مكة ، وولايته البيت وأمر مكة. فلم يردّ ذلك عليه ولم ينكره ) [4].

وهكذا أخذت قريش موقعها الطبيعى فى سدانة البيت ،ورعاية الحرم. الذى هو أقدس ما عند العرب . وبه كانوا يضعون أصنامهم .واعترفت العرب كلها التى تحج إلى البيت لقريش بهذا الفضل ، ولم ينازعها به أحد ، فلا غرابة أن يغدو الشعر العربى كله بلسان قريش صريح ولد إسماعيل ، ومركز أقداس العرب .

**أصل قريش :**

ونحن مضطرون لهذا العرض ، لأن أستاذنا الدكتور شوقى ضيف نحا منحىّ بعيداً فى هذا الموضوع ، حيث اعتبر قريشاً إحدى قبائل الشمال النازحة إلى مكة،والتى اتصلت بالحضارة الفارسية والرومية ،ورقت لغتها فصارت اللغة الفصحى للعرب جميعاً! إذ يقول :( ولا يعرف بالضبط أصل قريش ،وهل هى من عرب نجد أو من العرب الأنباط،الذين تراجعوا ناحية الجنوب أمام غزو الرومان لبلادهم .وقد دعم مكانتها غزو الأحباش المسيحيين لليمن ،فتحولت أفئدة

---

(١) الندوة : الاجتماع للمشورة والرأى فى الندوة .

(٢) اللواء: حمل اللواء فى الحرب .

(٣) عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى المعافى ، أبو محمد ، جمال الدين : مؤرخ ، كان عالماً بالأنساب واللغة وأخبار العرب .ولد ونشأ فى البصرة ، وتوفى بمصر سنة ٢١٣ هـ ، أشهر كتبه « السيرة النبوية » المعروفة بسيرة ابن هشام ، رواه عن ابن إسحاق . وله « القصائد الحميرية » فى أخبار اليمن وملوكها فى الجاهلية ، و « شرح ما وقع فى السير من الغريب » ، وغير ذلك .

(٤) سيرة ابن هشام ١/ ١٧٢ ، ١٧٣ .

العرب الوثنيين إليها . وفزعت أرستقراطيتهم الشمالية والجنوبية إلى هذا المركز البعيد عن أعدائهم ) (١).

وإذا كان الدكتور ضيف تحدث بأدب العالم عن أصل قريش، ولم يقطع برأى فى ذلك ، وهل هى من عرب نجد، أو من العرب الأنباط ، فالأحاديث الصحيحة تقطع بأن نسب قريش هو من صريح ولد إسماعيل . كما يقول عليه الصلاة والسلام: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشا، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم»(٢). والقرآن الكريم يؤكد أن إسماعيل عليه الصلاة والسلام هو أول من قطن مكة مع أمه هاجر، وجرهم إنما أوت إليهم: **﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧)﴾** [ إبراهيم ] (وتوفى إسماعيل بن إبراهيم ، وولى البيت بعده ابنه نابت بن إسماعيل ما شاء الله أن يليه. ثم ولى البيت بعده مُضاض بن عمرو الجرهمى )(٣) .

وبقيت جرهم التى أوت إلى البيت استجابة لدعاء الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام: **﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾** هى راعية البيت. (ثم إن جرهماً بغوا بمكة ، واستحلوا خلالاً من الحرمة، فظلموا من دخلها من غير أهلها ، وأكلوا مال الكعبة الذى يهدى لها، فرَقَّ أمرهم . فلما رأت بنو بكر بن عبد مناة من كنانة، وغبشان من خزاعة ذلك أجمعوا لحربهم وإخراجهم من مكة . فآذنوهم بالحرب فاقتتلوا فغلبتهم بنو بكر وبنو غبشان فنفوهم من مكة . وكانت مكة فى الجاهلية لا تقر فيها ظلماً ولا بغياً )(٤) .

وبالعودة إلى الحديث السابق الذى رواه مسلم ، نلاحظ أن الله تعالى اختار

---

(١) انظر :الشعر الجاهلى ، للدكتور شوقى ضيف ص ٤٩ .

(٢)رواه مسلم، باب : فضل نسب النبى ﷺ ٢/ ٢٤٥ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٥٩ .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٦٠ ، ١٦١ .

لجوار بيته من اصطفاهم من ولد إسماعيل . «واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة » فخزاعة فرع من بنى كِنانة، وقريش فرع من بنى كنانة ،كانوا حول الحرم مقيمين حين أصبح البيت بيد خزاعة .ثم جاء قصى بن كلاب من قريش ،وتغلب على خزاعة بعد بغيها .وصار صريح ولد إسماعيل عليه الصلاة والسلام والذين حكم لهم الشداخ على خزاعة هم حماة البيت ورعاته .واختار الله تعالى من اصطفاهم من ولد كنانة ليكونوا ولاة البيت . « واصطفى من بنى كنانة قريشاً ».

فقريش إذن لم ترد من الشمال أو الجنوب ،وليست نبطية ولا نجدية ،إنما هى من صريح ولد إسماعيل ، ومقيمة بجوار الحرم فترة طويلة من الزمن . ثم أصبحت حامية الحرم وراعيته،وأقرت العرب لها بذلك من أيام قصى بن كلاب ، الذى قدّرنا أن استلامه مكة كان فى أوائل القرن الرابع للميلاد،وذلك انطلاقا من رواية أبى نعيم فى دلائل النبوة التى ذكرت (وكان بين موته ـ كعب بن لؤى ـ ومبعث النبى ﷺ خمسمائة وستون سنة ). رواه أبو نعيم وغيره(١) .

وقصى هو الجد الرابع لرسول الله ﷺ . بينما كعب هو الجد السابع .

**عربية إسماعيل :**

هذا وقد اضطر أستاذنا الدكتور ضيف ليثبت أن الشعر الجاهلى قد وصل إلينا باللغة الفصحى ـ لغة قريش ـ إلى التعسف والجهد الشديد لإثبات ذلك ،من خلال النقوش التى ظهرت شمال الجزيرة العربية ،والقريبة من لغة قريش . وكيف أن هؤلاء العرب قد انسحبوا إلى داخل الجزيرة العربية خوفاً من سيطرة الرومان والفرس ،وكانت قريش إحدى هذه الموجات .

والأمر فى حقيقته مقلوب تماماً ، فأصل العرب المستعربة صريح ولد إسماعيل من مكة المكرمة ،وعندما ضاقت بهم مكة مضوا فى هجرات متعددة إلى الوسط والشمال والجنوب .

( ثم نشر الله ولد إسماعيل بمكة ،وأخوالهم من جرهم ولاة البيت والحكام بمكة، لا ينازعهم ولد إسماعيل فى ذلك لخؤولتهم وقرابتهم ، وإعظاماً للحرمة أن

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ١/ ٣٣٠ ، ط القاهرة ١٣٩٢هـ، .بإشراف المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، .وهو عند أبى نعيم ١/ ٥١ ، والوفا ١/ ٧٣، والروض الأنف ١/ ٦.

يكون بها بغى أو قتال . فلما ضاقت مكة على ولد إسماعيل انتشروا فى البلاد ، فلا يناوئون قوماً إلا أظهرهم الله عليهم بدينهم فوطئوهم )[1] .

( ولما تكاثر أولاد عدنان ، تفرقوا فى أنحاء شتى من بلاد العرب ، متتبعين مواقع القطر ، ومنابت العشب ، فهاجرت عبد القيس ، وبطون من بكر بن وائل، وبطون من تميم إلى البحرين فأقاموا بها . وخرجت بنو حنيفة إلى اليمامة فنزلوا بحجر قصبة اليمامة . وهاجرت بطون كهلان إلى اليمن . وانتشرت فى أنحاء الجزيرة .

وأقامت سائر بكر بن وائل فى طول الأرض من اليمامة إلى البحرين إلى سيف كاظمة إلى البحر ، فأطراف سواد العراق فهيت . وأقامت تغلب بالجزيرة الفراتية. ومنها بطون كانت تساكن بكراً .

وسكنت بنو تميم ببادية البصرة . وأقامت بنو سليم بالقرب من المدينة : من وادى خيبر إلى شرق المدينة إلى حد الجبلين إلى ما ينتهى إلى الحرة . وسكنت ثقيف بالطائف. وهوازن فى شرق مكة بنواحى أوطاس ، وهى على الجادة بين مكة والبصرة . وسكنت بنو أسد شرقى تيماء وغربى الكوفة ، بينهم وبين تيماء ديار بحتر من طيئ ، وبينهم وبين الكوفة خمس ليال . وسكنت ذبيان بالقرب من تيماء إلى حوران . وبقى بتهامة بطون كِنانة. وأقام بمكة وضواحيها بطون قريش ، وكانوا متفرقين لا تجمعهم جامعة، حتى نبغ فيهم قصى بن كلاب فجمعهم ، وكوّن لهم وحدة )[2] .

فلا بد من تصحيح النظرية ابتداءً ، وهى أن أصل العرب العدنانيين من مكة، وضاقت بهم مكة فانتشروا فى الأرض العربية. وعدنان من صريح ولد إسماعيل. ثم ننتقل بعدها إلى النقطة الجوهرية الثانية التى نأخذ معلوماتها الموثقة من رسول الله ﷺ. وهى أن إسماعيل عليه الصلاة والسلام هو أول من نطق بالعربية الفصحى ، وعلمها لأولاده من بعده ، لقد نسى لغته الأصلية ـ لغة أبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام ـ وتجاوز لغة جرهم التى عاش بينهم ، وغدوا بعد من العرب البائدة ، وعلمه الله تعالى اللغة العربية الفصيحة ، والتى أخذها عنه أولاده،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٦٠ .

(٢) الرحيق المختوم لصفى الدين المباركفورى ملخصاً ص ٢٥ ـ ٢٧ .

وبدؤوا يبتعدون عنها كلما ابتعدوا عن بؤرة النور مكة المكرمة .

فعن على ﷺ وابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « أول من فتق لسانه بالعربية المبينة إسماعيل وهو ابن أربع عشرة سنة » (١).

فالله تعالى علّم نبيه إسماعيل العربية الفصحى ، وقريش وحدها التى بقيت محافظة عليها، ولم تغادر مكة وتتأثر ببيئات أخرى ، وعرف العرب ذلك لهم ، فكانوا يصححون لغتهم عليها .

فـ ( أول من تكلَّم بالعربية المحضة، وهى عربية قريش التى نزل بها القرآن إسماعيل . وأما عربية قحطان وحمير فكانت قبل إسماعيل. ويقال لمن يتكلم بلغة هؤلاء: العرب العاربة، ويقال لمن تكلَّم بلغة إسماعيل: العرب المستعربة وهى لغة الحجاز وما والاها ) (٢).

وقال أبو عمرو بن العلاء فى ذلك: ( ما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا ، ولا عربيتهم بعربيتنا ) (٣) وينقل لنا أستاذنا الدكتور ضيف شهادتين من أوثق الشهادات حول لغة قريش ، وإجماع النقاد على أن قريشاً أفصح العرب :

( ويقول أبو نصر الفارابى (٤) : ( كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعاً ، وأبينها إبانة عما فى النفس ) . ويقول أحمد بن فارس(٥) نقلاً عن إسماعيل بن عبيد الله: ( أجمع

---

(١) الشيرازى فى الألقاب عن على، والطبرانى عن ابن عباس ، وانظر : الأحاديث الصحيحة للألبانى ٢ / ٣٥٥ ح (٢٨٧٥) .

(٢) إنسان العيون فى سيرة الأمين والمأمون ، لعلى بن برهان الدين الحلبى ، ط ١، ١٩٦٤م شركة ومطبعة مصطفى الباب الحلبى .

(٣) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١١.

(٤) محمد بن محمد بن طرخان بن أولخ ، أبو نصر الفارابى : أكبر فلاسفة المسلمين . تركى الأصل ، مستعرب . ولد فى فاراب على نهر جيحون سنة ٢٦٠ هـ ، وانتقل إلى بغداد ، فنشأ فيها ، وألف بها أكثر كتبه. ورحل إلى مصر والشام، واتصل بسيف الدولة بن حمدان . وتوفى بدمشق سنة ٣٣٩هـ . ويعرف المعلم الثانى ، لشرحه مؤلفات أرسطو ( المعلم الأول ). له نحو مائة كتاب منها : « الفصوص » و « إحصاء العلوم والتعرف بأغراضها » و « آراء أهل المدينة الفاضلة » .

(٥) أحمد بن فارس بن زكريا القزوينى الرازى ، أبو الحسين : من أئمة اللغة والأدب قرأ عليه البديع الهمذانى والصاحب بن عباد وغيرهما من أعياد البيان . ولد سنة ٣٢٩ هـ، أصله من قزوين ، وأقام مدة فى همذان، ثم انتقل إلى الرى فتوفى بها سنة ٣٩٥هـ ، وإليها نسبته. من تصانيفه : « مقاييس اللغة » ستة أجزاء، و «المجمل » ، و « فقه اللغة » . وله شعر حسن .

علماؤنا بكلام العرب ،والرواة لأشعارهم ،والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومقالتهم،أن قريشاً أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة . . .) [1].

وندع التفصيل فى هذا الأمر للفصل اللاحق .غير أننا ننتهى هنا إلى أن الشعر الجاهلى الـذى ابتدأ نموه مع استـقرار قـريش فى مكة ،ثم نضج أيام عبـد المطلب وهاشم،على لسـان امـرئ القـيس والمهلهل ومن أتـى بعدهـما . إنما مـثل قـمـة الفصـاحة العربيـة ، وأنه صيغ بلغة العـرب الفصحى التى علّمـها الله تعالى نبـيه إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، وحافظ على جوهرها ونقائها أهل الحجاز عامة ، وقريش بشكل أخص؛ لأنهـا بقيت فى بيئـتها حول مكة ابتـداء،وفى داخل الحرم بعد ذلك .وألقت العرب لها قيادها فى ذلك .

---

(١) الشعر الجاهلى،للدكتور ضيف ص١٣٢ . نقلاً عن المزهر للسيوطى ١/ ٢١١،وفقه اللغة للصباحى ص٢٣ .

# الفصل الثانى

## ثبوت الشعر الجاهلى

لقد تعـرّض الشعر الجاهلى لما تعـرض له الحديث النبوى فى قضـية الوضع ، وقيـض الله تعالى للشـعر كـما قـيَّض للحديث رواة نقـاداً صُدُقاً كـشفـوا الزيف والوضع ،وقدموا الصحيح الفصيح الجيد .

يقول ابن سلام :( وكان أول من جمع أشعـار العرب وساق أحاديثها: حمّاد الرواية ، وكان غير موثوق به ،وكان ينحل ) [١].

ويعرض علينا ابن سلام منهـجه فى أخذ الشعر ، كما يـعرض علماء الحديث علم مصطلح الحديث ،فيقول :( وفى الشعر مصنوع مـفتعل موضوع كثير لا خير فيه . . . لم يأخذوه من أهل البادية ،ولم يـعرضوه على العلماء .وليس لأحد إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شىء منه أن يقبل من صحيفة ولا يُروى عن صحفى .وقد اختلف العلماء بعد نـقض الشعر. كما اختلفت فى سائر الأشياء، فأما ما اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخرج منه )[٢].

كما يقـول :( وللشعر صناعة وثقـافة يعرفها أهل العلم كـسائر أصناف العلم والصناعات،منها ما تثقفه العين،ومنها ما تثقفه الأذن ،ومنها ما يثقفه اللسان )[٣].

فكما فى الحديث النبوى نقد للسند والمتن ، فكذلك فى رواية الشعر الجاهلى نقد للسند ،ونقد للمتن .وهو الذى سـماه ابن سلام :صناعة وثقافة يـعرفها أهل العلم .

ويقدّم أستاذنا الدكـتور ضيف عرضاً تاريخياً لرواية الشعـر الجاهلى ، يتحدث فيه عن أن : ( رواية الشـعر فى العصر الجـاهلى كانت هى الأداة الطبيعـية لنشره وذيوعه . وكـانت هناك طبقة تحـترفهـا احترافـا ـ أى الرواية ـ هى طبقة الشـعراء

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ٤٨/١ .
(٢) المصدر نفسه ٤ .
(٣) المصدر نفسه ٥ .

أنفسهم. فقد كان من يريد نظم الشعر وصوغه ، يلزم شاعراً يروى عنه شعره ،وما يزال يروى له ولغيره حتى يتفتق لسانه، ويسيل عليه ينبوع الشعر والفن )[1] ولم يكن الشعراء وحدهم الذين يهتمون برواية هذا الشعر ، فقد كان يشركهم فى ذلك الاهتمام أفراد القبيلة جميعهم، لأنه يسجل مناقب قومهم وانتصاراتهم فى حروبهم، كما يسجل مثالب أعدائهم . . . ولم يكن أبناء القبيلة وحدهم الذين يشيعون شعر شعرائها، فقد كان كثير من أفراد القبائل الأخرى يشتركون معهم فى أشاعته، إذ كان بينهم جم غفير من الحفظة كانوا يتناقلون الشعر ،وينشدونه فى محافلهم ومجالسهم وأسواقهم ،إذ لم يكن لهم شاغل سواه ،وكان يسجل مآثرهم ومثالبهم وأنسابهم وأيامهم وأخبارهم .

**الرسول ﷺ ورواية الشعر الجاهلى :**

ليس بين أيدينا نص محدد فى المرحلة المكية نتعرف منه على توجيهه ﷺ فى هذا المجال ، فقد كانت عملية البناء فى المرحلة المكية منصبة على تكوين جيل منبثق مباشرة من القرآن الكريم، لكن بين أفراد هذا الجيل قمم شامخة فى الجاهلية، كانت تملك مقومات وثقافة عصرها، ومن أهم هؤلاء وزيرى رسول الله ﷺ، وخيرة هذه الأمة بعد نبيها عليه الصلاة والسلام ، وهما أبو بكر وعمر رضوان الله عليهما .

فقد كان بيت أبى بكر فى الجاهلية منتدى شباب قريش ومثقفيها وتجارها . وكان أبو بكر أعلم قريش بأنساب العرب وأشعارها. وهو الرفيق الدائم لرسول الله ﷺ فى لقاءاته التى كانت تتم فى مكة مع القبائل من خلال موسم الحج . كما كان يحضر معه مواسم العرب وأسواقها وخاصة فى عكاظ يدعوهم إلى الإسلام، ويحضر مواسمهم الثقافية . ولعمر ﷺ نظرات نفاذة تناقلتها كتب الأدب واللغة تدل على مدى عمق معرفته بهذا الأدب وتعاطيه له ، وتمييزه لجيده من رديئه .

وإذا دلفنا إلى المرحلة أو العهد المدنى تطالعنا نصوص تعطينا إضاءات حول هذا الموقف :

١ـ على أبواب العهد المدنى يحدثنا كعب بن مالك [2] الذى حضر لموسم

(١) الشعر الجاهلى ١٤٣ / ١٤٤ .

(٢) كعب بن مالك بن عمرو بن القين ، الأنصارى السَّلَمىّ الخزرجى : صحابى ، من أكابر الشعراء .من =

الحج وقدم لنا عرضاً وافياً لبيعة العقبة الثانية يحدثنا عن لقائه الأول مع رسول الله ﷺ فيقول:

( فخرجنا نسأل عن رسول الله ﷺ وكنا لا نعرفه ،ولم نره قبل ذلك. فلقينا رجلاً من أهل مكة، فسألناه عن رسول الله ﷺ .فقال: هل تعرفانه ؟ فقلنا :لا .قال: فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمه ؟ قلنا : نعم ـ وقد كنا نعرف العباس ، كان يقدم علينا تاجراً ـ قال :فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس . قال : فدخلنا المسجد فإذا العباس جالس ورسول الله ﷺ جالس معه . فسلمنا ثم جلسنا إليه . فقال رسول الله ﷺ للعباس :« أتعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل ؟ » قال:نعم. هذا البراء بن معرور سيِّد قومه ،وهذا كعب بن مالك .

قال:فوالله ما أنسى قول رسول الله ﷺ:« الشاعر ؟ » قال: نعم. . .) [1].

فمعرفة رسول الله ﷺ بكعب بن مالك قبل أن يلقاه ، هو من خلال ما سمعه من شعره حتى عرَّفه بذلك .

٢ـ ( عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وَعك أبو بكر وبلال قالت: فدخلتُ عليهما ، فقلت : يا أبت كيف تجدك ؟ ويا بلال كيف تجدك؟ فقالت: فكان أبو بكر أذا أخذته الحمى يقول :

كل امرئ مصبح فى أهله والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول:

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بوادٍ وحولى إذخر وجليل
وهل أردن يومًا مياه مجنةٍ وهل يبدون لى شامة وطفيل) [2]

( وزاد ابن إسحاق فى روايته عن عائشة :

ثم دنوت إلى عامر بن فهيرة وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب . فقلت : كيف تجدك يا عامر ؟ فقال:

---

= أهل المدينة . اشتهر فى الجاهلية ،وكان من شعراء النبى ﷺ وشهد الوقائع ،وهو أحد الثلاثة المتخلفين عن غزوة تبوك .عمى فى آخر عمره ، وعاش سبعاً وسبعين سنة .توفى سنة ٥٠ هـ . له ثمانون حديثاً.

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٩١ .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٢٦٢ ( ح ٣٦٢٩ ).

لقد وجدت الموت قبل ذوقه　　إن الجبان حتفه من فوقه
كل امرئ مجاهد بطوقه　　كالثور يحمى جسمه بروقه

قالت عائشة : فقلت : يا رسول الله إنهم ليهذون وما يعقلون من شدة الحمى. والزيادة فى قول عامر رواها مالك أيضاً فى الموطأ ) (١).

ولا نتصور أنهم يهذون وينشئون شعراً ، إنما هو شعر تمثلوا به لمن هو قبلهم على غالب الظن .

٣ـ ثم نجد أثراً خطيراً لتداول شعرالجاهلية فى قلب الصف المسلم .

( وقال ابن إسحاق: ومرَّ شاس بن قيس ـ وكان شيخاً قد عسا (٢)، عظيم الكفر ، شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد ـ لهم على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج فى مجلس قد جمعهم ، يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم ـ صلاح ذات بين على الإسلام، بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية ـ فقال: قد اجتمع ملأ بنى قيلة (٣) بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار .فأمر فتى شاباً من يهود كان معهم ، فقال: اعمد إليهم فاجلس إليهم ، ثم اذكر يوم بعاث وما كان قبله ،وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار . . . ففعل . فتكلم القوم عند ذلك، وتنازعوا وتفاخروا ،حتى تواثب رجلان من الحيين على الرُّكب أوس بن قيظى أحد بنى حارثة من الأوس ،وجبار بن صخر أحد بنى سلمة من الخزرج ،فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم رددناها الآن جذعة (٤)، فغضب الفريقان جميعاً وقالوا: قد فعلنا. موعدكم الظاهرة ـ والظاهرة :الحرة ـ السلاح ،السلاح . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال: « يا معشر المسلمين، الله، الله، أبدعوى الجاهلية، وأنا بين أظهركم ، بعد أن هداكم الله للإسلام ، وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر ،وألف بين قلوبكم ؟! » .

فعرف القوم أنها نزغة (٥) من الشيطان ، وكيد من عدوهم ،فبكوا وعانق

(١) المصدر نفسه ٧/ ٢٦٣ .
(٢) عسا: أسن وولى .
(٣) بنو قيلة : هم الأنصار . وقيلة : اسم جدة كانت لهم .
(٤) رددناها جذعة : أى رددنا الآخر إلى أوله .
(٥) النزغة : الإفساد بين الناس .

الرجال من الأوس والخزرج بعضُهم بعضاً ) [1].

فنحن إذن أمـام منع لرواية أشعـار بعاث فى الجـاهلية ،لأنهـا أدت إلى تمزيق الصف المسلم ،وإثارة النزعات العصبية فيه ،واعتُبرت بديلاً عن الإسلام .

٣ـ لكننا نجد أن هذا المنع يزول ،وتقوم الإباحة لرواية هذا الشعر عندما تؤمن غائـلة إثارة الأحقـاد والضـغائن ، وتنصبَّ على التـحدث عن المـفاخر . ( فـعن عائشة ﵂ أن أبا بكر دخل عليـهـا والنبى ﷺ عندها يوم فطر أو يوم أضـحى، وعندها قينتان تغنِّيان بمـا تقاذفت الأنصـار يـوم بعـاث . فقـال أبـو بكـر : مزمـار الشيطان ؟! ـ مرتين ـ فقال النبى ﷺ :

« دعهما يا أبا بكر .إن لكل قوم عيداً ،وإن عيدنا هذا اليوم »[2].

فـقـد أمنت الفـتنة هنا ، وأدخلت هـذه الأشعـار التى تُغـنى على الدف من الجارتين شعـور البهجة والسرور فى يوم العيـد فأباحها عليه الصـلاة والسلام بهذا الهدف .

٤ـ بل نجد رسـول الله ﷺ إذا تقدمنـا خطوة أخرى يسـتنشد بعضـاً من هذا الشعـر .ففى الأغانى :( جلس النبـى ﷺ فى مجلس ليس فيـه إلا خزرجى ، ثم استنشدهم قصيدة قيس بن الخطيم [3]:

أتعـرف رسـماً كاطـراد المذاهـب  لعمرة وحـشاً غـير مـوقف راكب

فأنشده بعضهم إياها ، فلما بلغ إلى قوله :

أجالدهم يوم الحديقة حاسراً  كأنه يدى بالسيف مخراق لاعب

فالتفت رسول الله ﷺ فقال:« هل كان كما ذكر ؟ » .

فشـهد له ثابت بن قيس وقـال له : والذى بعثك بالحق يا رسـول الله ، لقد خرج إلينا سابغ عرسه عليه غلالة وملحفة مورسة ، فجالدنا كما ذكر ) [4].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٤ . ، وقد رواه الطبـرى ، وابن المنذر ،وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ ، كما فى الدر المنثور للسيوطى .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٢٦٤ ( ح ٣٩٣١) .

(٣) قيس بن الخطيم : شاعر أوسى افتخر بانتصار الأوس على الخزرج يوم بعاث .

(٤) الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ٢/ ١٧٥ .

٥ـ وها هو الشريد بن سويد الثقفى يفد على رسول الله ﷺ ، فيستنشده شعر أمية. كما يذكر ابن حجر[١] فى الإصابة : ( روى مسلم وغيره من طريق عمرو بن الشريد عن أبيه ، قال: استنشدنى النبى ﷺ شعر أمية بن أبى الصلت ) [٢].

وعند ابن سعد [٣] : (استنشدنى النبى ﷺ شعر أمية بن أبى الصلت فأنشدته ، فأخذ النبى ﷺ يقول : « هيه ، هيه ». حتى أنشدته مائة قافية ) [٤].

٦ـ وانتقلت القضية بعد هذه المواقف النبوية من الشعر الجاهلى ، إلى أن أصبح من الطبيعى أن يتناشد الصحابة الشعر بين يديه ﷺ . فيقرهم على ذلك ، ويشاركهم فى أجوائهم هذه .

يقول جابر بن سمرة : ( جالست رسول الله ﷺ أكثر من مائة مرة ، فكان أصحابه يتناشدون الأشعار فى المسجد ، وأشياء من أمر الجاهلية ، فربما تبسم رسول الله ﷺ ) [٥].

## الجيل الأول :

### ١ـ عائشة أم المؤمنين أول الرواة :

وقد درجت عائشة رضوان الله عليها فى بيت نسابة العرب أبى بكر الصديق والخبير بالشعر الجاهلى وأهله ، ثم انتقلت إلى كنف المصطفى ﷺ ، وكانت ذات ذهن وقاد ، وبصيرة نافذة برزت بصفتها أكبر رواة الحديث النبوى .

---

(١) أحمد بن على بن محمد الكنانىّ العسقلانى ، أبو الفضل ، شهاب الدين ، ابن حجر : من أئمة العلم والتاريخ. أصله من عسقلان بفلسطين ، ومولده بالقاهرة سنة ٧٧٣هـ، وفاته بها كذلك سنة ٨٥٢هـ ولع بالأدب والشعر ثم أقبل على الحديث ، ورحل إلى اليمن والحجاز وغيرهما لسماع الشيوخ ، وعلت له شهرة فقصده الناس للأخذ عنه ، وأصبح حافظ الإسلام فى عصره، وكان فصيح اللسان، راوية للشعر، عارفاً بأيام المتقدمين ، وأخبار المتأخرين، صبيح الوجه . . وولى قضاء مصر مرات ثم اعتزل . أما تصانيفه فكثيرة جليلة ، منها: « فتح البارى شرح صحيح البخارى »و « الإصابة فى تمييز الصحابة » و تقريب التهذيب » و « تهذيب التهذيب » فى رجال الحديث ، وغيرها .

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة ٢/ ٣/ ٢٠٤ ( ت ٣٨٨٧ ) .

(٣) محمد بن سعد بن منيع الزهرى مولاهم ، أبو عبد الله : مؤرخ ثقة ، من حفاظ الحديث . ولد فى البصرة سنة ١٦٨ هـ، وسكن بغداد ، فتوفى بها سنة ٢٣٠هـ. وصحب الواقدى المؤرخ ، زماناً ، فكتب له وروى عنه ، وعُرف بكاتب الواقدى . قال الخطيب فى تاريخ بغداد : محمد بن سعد عندنا من أهل العدالة وحديثه يدل على صدقة ، فإنه يتحرى فى كثير من رواياته . أشهر كتبه : « طبقات الصحابة » اثنا عشر جزءاً ، يعرف بطبقات ابن سعد .

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد .

(٥) أخرجه الترمذى ، كتاب الأدب ( ٧٠ ) .

( فعن عروة بن الزبير رضي الله عنهما [1] قال : لقد صحبت عـائشة ،فما رأيت أحداً قط كان أعلم بآية أنزلت ،ولا بفـريضة ولا بشعـر،ولا أروى له،ولا بيوم من أيام العرب، ولا بنسب ولا بكذا ، ولا بكذا ، ولا بقضاء ولا طيب منها ) [2].

فقد كـانت عالمة بشعر العـرب وراوية له بشهادة عروة بن الزبيـر أعرف الأمة بالسير.

ولا يستغرب عروة علمها بشعر العرب إذ يقول لها :

( يا أمتاه ،لا أعجب من فـقهك أقول:زوجة نبى الله ، وابنة أبى بكر، ولا أعـجب من عـلمك بالشـعـر وأيـام الناس ، أقـول : ابنة أبى بكـر وكـان أعلم الناس. . . )[3].

فهو يعيد علمها بالشعر لأبيها الصديق رضي الله عنه .هذا ولم تكن تأتى فى مجالسها بالشعر شـواهد فقط ،كما يتـوهم بعض الناس ، بل ( ربما روت عائشة القـصيدة ستين بيتاً أو أكثر ) [4].

بل يحدثنا الشعبى أكثر من هذا فيـقول: ( إن عائشة قالت: رويت للبيد نحواً من ألف بيت )[5] .

ولا شك أن المئـات الذين رووا عنها الأحـاديث ، قـد تلقفـوا الأشعـار التى كانت ترويه ترويهـا ،وهضموهـا وتناقلوها إلى من بعدهم ،فـهى تراث من تراث الأمة . وكـان الشعبى يذكـرها ويتعجب من فقـهها وعلمها ،ثم يـقول: ما ظنكم بأدب النبوة ؟!

### ٢ـ عبد الله بن عباس :

وهو حبر الأمة ،وربانيها وترجمان القرآن ،والذى وصفه عمر بقوله :

( ذاكم فتى الكهول ،له لسان سؤول وقلب عقول) [6].

---

(١) وكان عروة ابن أختها أسماء .

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى ٢/ ١٨٣ . ، وقال المحقق فيه : رجاله ثقات .

(٣) المصدر نفسه . وقال المحقق فيه : أخرجه أحمد .وذكـره الهيثمى فى مجمع الزوائد . وقال : فيه عبد الله ابن معاوية ، وفيه ضعف ، وبقية رجاله ثقات .

(٤) سير أعلام النبلاء ٢/ ١٨٩.　　　　(٥) المصدر نفسه ٢/ ١٩٧ .

(٦) الإصابة فى تمييز الصحابة ٢/ ٤/ ٩٢ ( ت ٤٧٧١ ) .

ويصف عطاء مجالسه ،ونصيب كل فن منها فيقول :

( ما رأيت قط أكرم من مجلس ابن عباس ،وأكثر فقهاً، وأعظم خشية ، إن أصحاب الفقه عنده ، وأصحاب القرآن عنده ،وأصحاب الشعر عنده يُصدرهم كلهم من وادٍ واسع ) (١).

فقد كان القرآن والفقه والشعر يكوّنون ثقافة الأمة ،وإن الشعر المروى ثلث هذه الثقافة .

وهذا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة يصف هذه المجالس التى يجلس للناس يعلمهم فيها هذه الثقافات قائلاً :

( وما رأيت أحداً كان أعلم بما سبقه من حديث رسول الله ﷺ ،ولا بقضاء أبى بكر وعمر وعثمان منه ولا أفقه فى رأى منه ،ولا أعلم بشعر ولا عربية ولا بتفسير القرآن،ولا بحساب ولا فريضة منه،ولا أثقب رأياً فيما احتيج إليه منه)(٢).

وهو لا ينقل لنا جانب علمه فقط . إنما ينقل لنا جانب روايته للشعر ، وتخصيص يوم له فيقول:

( ولقد كان يجلس يوماً ،ولا يذكر فيه إلا الفقه،ويوماً للتأويل ، ويوماً للمغازى، ويوما للشعر ،ويومًا لأيام العرب ،ولا رأيت عالمًا جلس إليه إلا خضع له ،وما رأيت سائلاً قط سأل مسألة إلا وجد عنده علماً ) (٣).

ولا شك أن أيام العرب التى كان يجلس ، لها للشعر فيها أوفر النصيب ، فالشعر هو الذى أرّخ لهذه الأيام ، ورأينا كيف أن الشعر ولد أو وصل إلينا مع امرئ القيس والمهلهل بن أبى ربيعة، وكلاهما ركن ركين من أيام العرب .

**الجيل الثانى :**

**قتادة بن دعامة السدوسى :**

ونحن نتحدث عن التخصص المباشر ،حيث ذكرنا من اشتهر من الصحابة فى

(١) الإصابة فى تميز الصحابة ٢/ ٤/ ٩٣ .
(٢) أسد الغابة لابن الأثير ، ط . دار الشعب ٣/ ٢٩٣ .
(٣) المصدر نفسه ٣/ ٢٩٣ .

ذلك ، وأبرزهما عـملاقان من جـيل الحفظة وصغار الصـحابة ، وهما عـائشة أم المؤمنين وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما لنصل إلى جيل التابعـين ، وحين يجمع العلماء على سعة علم ابن عباس وعظمة تخصـصاته ،نجد قتادة قد بلغ الشأو الأعلى ففى الحفظ ،والإتقان . فـهو من أعلى القوم فى مراتب التوثيق ،حيث يقـول فيه ابن حجر: ( ثقة ثبت )[١] وهى أعلى مراتب التوثيق عنده حيث يقول عن المراتب:

( فأولها الصحـابة فأصرح بذلك لشرفهم . الثانية من أُكِّد مـدحه إما بأفعل: كأوثق الناس ،أو بتكرير الصفة، لفظاً :كثقة ثقة .أو معنى كـ : ثقة ، حافظ ) . وقد كرَّر المعنى هنا حيث ذكر ( ثقة ثبت ) [٢].

ونذكر من حفظه ما قـال له بكر بن عبد الله المزنى : ( من أراد أن ينظر إلى أحفظ أهل زمانه فلينظر إلى قتادة ،فما أدركنا الذى هو أحفظ منه )[٣].

ويحدثنا قتادة عن نفسه فيقول: ( لزمت سعيد بن المسيَّب أربعة أيام يحدثنى ، فقال يومـاً : ليس تكتب ! فهل يصيـر فى يدك شىء مما أحدثك به ؟ قلت له: إن شئت حدّثتك بما حدَّثتنى به ، قال: فأعدتها عليه ، قال: فبقى ينظر إلىَّ ويقول : أنت أهل أن تحدّث ، فسل فأقبلت أسأله ) [٤].

ويروى معـمر عنه قـوله : ( تكرير الحديث فى المجلس يذهـب بنوره ، وما قلت لأحد قط أعد على ) [٥].

وقد قدّر للعربية وشعرها أن يكون قتادة هو أحد أعلامها وحملة رايتها ، كما يقول ابن سلاّم الجمحى :

(وكان قتـادة بن دعامة السدوسى من رواة الـفقه ، عالمًا بالعرب وأنـسابها ، ولم يأتنا من أحد من رواة الفقه من علم العرب أصحُّ من شىء أتانا عن قتادة .

وقال : أخبرنا عامر بن عبد الملك قال: كان الرجلان من بنى مروان يختلفان فى الشعـر ، فيرسلان راكـباً فينيخ ببـابه ( يعنى قتادة بن دعـامة ) فيـسأل عنه ثم يشخص.

---

(١) تقريب التهذيب ، ط . دار المعرفة ٢/١٢٣ ( ت ٨١ ).
(٢) المصدر نفسه ١/٥ .
(٣) حلية الأولياء لأبى نعيم ٢/ ٣٣٣ .
(٤) حلية الأولياء ٢/ ٣٣٤ .
(٥) المصدر نفسه ٢/ ٣٣٤ .

وأخبرنى سعيد بن عبيد عن أبى عوان أنه قال: شهدت عامر بن عبد الملك يسأل قتادة عن أيام العرب وأنسابها وأحاديثها ،فاستحسنته ؛ فعدت إليه ،فجعلت أسأله عن ذلك . فقال: مالك وهذا ؟ دع هذا العلم لعامر ، وعد إلى شأنك .

ويروى عن بعض أصحابنا قال: رأيت راكباً قدِم من الشام فأناخ على قتادة فسأله: من قتل عمراً وعامراً التغلبيين يوم فِضّة ؟ قال جَحدر: فأعادوا إليه الرسول، كيف قتلهما جميعاً ؟ قال: اعتوراه فطعن هذا بالسنان ، وهذا بالزج ، فعاد بينهما ،ثم رحل مكانه .

وكان أبو المعتمر الشيبانى كثير الحديث عن العرب وعن معاوية وعمرو بن العاص وزياد وطبقتهم .وكان يقول :أخذته عن قتادة .وكان أبو بكر الهذلى يروى هذا العلم عن قتادة ) (١).

**الجيل الثالث :**

**أبو عمرو بن العلاء :**

( وأهم هؤلاء الرواة أبو عمرو بن العلاء ،وحماد الرواية . وخلف الأحمر، ومحمد بن السائب الكلبى ، والمفضل الضبى ، وقد استقوا روايتهم من القبائل والأعراب البدو. وكان بعضهم يرحل أحياناً إلى نجدٍ ليستقى الأشعار والأخبار الجاهلية من ينابيعها الصحيحة ) (٢).

( ولا نكاد نمضى فى العصر العباسى حتى يكوِّن هؤلاء الرواة مدرستين متقابلتين : مدرسة فى الكوفة ، ومدرسة فى البصرة ، وعُرِف الأولون بأنهم لا يتشددون فى روايتهم تشدد الآخرين . ومن ثم تضخمت رواياتهم ودخلها موضوع ومنتحل كثير . . . وربما كان السبب الحقيقى فى تقدم البصرة على الكوفة فى الرواية أن رأس رواتها وهو أبو عمرو بن العلاء كان أميناً ،بينما كان رأس رواة الكوفة حماداً ،وكان متهماً كثير الوضع لا يوثق بما يرويه ) (٣).

ووقف الدكتور الأسد فى كتابه مصادر الشعر الجاهلى وقفة عظيمة تسجل له،

---

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١/ ٦١ ، ٦٢ .

(٢) الشعر الجاهلى للدكتور شوقى ضيف ص ١٤٨ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٤٩ .

حين وقف أمام الروايات التى تتهم حماداً وخلف الأحمر بالانتحال والوضع ، وفندها كلها بروايات أخرى أصح وأوثق وحلل الأسباب التى دعت إلى اتهامهما بذلك .

يقول: ( فهذه خلاصة شاملة لما فى المصادر العربية من أخبار حماد الرواية،وهى تميل فى أكثرها إلى النيل منه ، وتضعيف رواياته ، واتهامه بالوضع والنحل،ولكن كل خبر من هذه الأخبار يحمل فى تضاعيفه ما يستوقف الباحث ويسترعى انتباهه، ويحمله على التقصى فى البحث والنقد ، ومن أجل ذلك سنعود إلى هذه الأخبار خبراً خبراً نستنطقه لعله يكشف لنا عن خبيء فيه ينتهى بنا إلى اليقين أو ما يشبه اليقين) [1].

فيعالج أولاً الخبر ما بين المفضل وحماد وأعاد هذا الخبر إلى تلاميذ المفضل الذين راحوا ينصرونه لما كان بين المفضل وحماد من منافسة شديدة ، وربما بلغت حد الخصومة والاتهام ولهوى كليهما فحماد هواه أموى ،والمفضل هواه عباسى، كما يسقط الخبر الأول لاضطرابه تاريخياً ورفض صحته من هذا الجانب .

كما يعالج الخبر الثانى ما بين الأصمعى وحماد ويعيد هذا إلى التنافس ما بين البصرة والكوفة ، كما تنقل الروايات الأخرى التى تدحض تضعيف الأصمعى له بروايات توثقه، وإذا أخذ شعر امرئ القيس كله عن حماد ( إلا نتفا سمعتها من الأعراب وأبى عمرو بن العلاء ) وقوله فيه : كان حماد أعلم الناس إذا نصح .

ويعالج فى الخبر الثالث ما بين أبى عمرو بن العلاء وحماد فيحمل فى تضاعيفه توثيق حماد لا الطعن فيه . وأن ابن العلاء كان يقدمه على نفسه( فقد روى أبو الفرج أن أبا عمرو قال: ما سألت أبا عمرو بن العلاء قط عن حماد الرواية إلا قدمه على نفسه،ولا سألت حماداً عن أبى عمرو إلا قدمه على نفسه).

ويعالج فى الخبر الرابع ما بين ابن سلام وحماد . وابن سلام بصرى وحماد كوفى بينهما معاصرة .ويعالج فى الخبر الخامس ما بين خلف الأحمر وحماد، فيسوق ثلاثة نصوص لخلف توثق حماداً مقابل نص واحد يضعفه .ثم يناقش بعد ذلك الأخبار عن خلف الأحمر جرحاً وتعديلاً ويخلص أخيراً إلى قوله: فنحن

---

(١) مصادر الشعر الجاهلى للدكتور ناصر الدين الأسد ص ٢٢٢ .

إذن بعدما عرضنا هذه الأخبار وبينا ما فيها من زيف ،نميل إلى أن نعد أكثر ما اتهم به حماد موضوعاً دعت إلى وضعه عوامل عدة منها : هذه العصبية التى كانت متأججة بين البصرة والكوفة ومنها تلك المنافسات والخصومات الشخصية التى كانت بين المفضل وحماد، ومنها العصبية السياسية ( ما بين الأمويين والعباسيين ) ومنها : أن حماداً كان ـ باعتراف الرواة ـ كثير الرواية واسع الحفظ، فكان يروى ما لا يعرفه غيره ويحفظ ما لا يحفظون ، فاتهاموه بالتزيد والوضع ، وقد ساعد على كيل هذا الاتهام له وتضعيفه وتجريحه أنه كان ماجناً مستهتراً بالشراب مفضوح الحال (١).

أما أبو عمرو بن العلاء فهو ( من مؤسسى المدرسة النحوية فى البصرة ،وأحد القراء السبعة الذين أخذت عنهم تلاوة الذكر الحكيم ،ولد سنة ٧٠ للهجرة ، وتوفى سنة ١٥٤) (٢) . وكان أعلم الناس بالغريب والعربية ، وبالقرآن وبالشعر وبأيام العرب وأيام الناس ، وكانت كتبه التى كتبها عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف) (٣).

يقول عنه الحافظ ابن حجر:

( أبو عمرو بن العلاء المازنى النحوى القارئ: ثقة ،من علماء العربية من الخامسة مات سنة أربع وخمسين وهو ابن ست وثمانين سنة ) (٤).

وكما مرَّ الحديث النبوى بمرحلة الوضع، وجاء العلماء الثقات الأفذاذ فنخلوا الموضوع عن غيره، بل قسموا مراتب الحديث إلى أنواع كثيرة ،يجمعها الصحيح والحسن والضعيف، وأخرجوا الموضوع منه ، فقد كان الشعر الجاهلى كذلك يتعرض للوضع والانتحال ،فقيض الله العلماء الثقات الذين فصلوا منحوله عن صحيحه . ولاحظنا أن الأئمة الأعلام الثقات فى اللغة هم الأئمة الأعلام الثقات فى الحديث والفقه. وذلك لأن الشعر الجاهلى إنما هو خادم كتاب الله عزّ وجلّ وبشواهده يتم تفسير الآيات والتأكد من القراءات ، وفقه أسرارها. وقد وجدنا

(١) مصادر الشعر الجاهلى ص ٤٥٠

(٢) العصر الجاهلى للدكتور شوقى ضيف ص ١٤٩ .

(٣) البيان والتبيين للجاحظ ١/ ٣٢١ .

(٤) تقريب التهذيب للحافظ ابن حجر ٢/ ٤٥٤ .

على رأس هذه المدرسة الموحدة ترجمان القرآن ابن عباس ﷺ ،ثم تلميذه قتادة، ثم إمام العربية والقراءات والشعر ،وأحد القـراء السبعة الذين أخذ المسلمون قاطبة عنهم القرآن الكريم ، هو أبو عمرو بن العلاء .

**الجيل الرابع من الرواة :**

وعلـى رأس هؤلاء **المفـضل بن محـمد بن يعلى الضـبى** المتـوفى سنة ١٧٠ للهجرة، وكان عالماً علمًا دقـيقاً بأشعار الجاهلية وأخبـارها وأيامها ،وأنساب العرب وأصولها ، ويجمع الرواة كوفيين وبصريين على توثيقه ،وقد خلَّف مجموعة كبيرة من أشعار الجاهليين هى الملقبـة بلقب المفضليات وهى أروع ما بأيدينا من نصوص الشعر الجاهلى ووثائقه التى لا يرقى إليها الشك [١] .

ونتنقل من المفضل الضبى الكوفى إلى **الأصمعى البصرى** الذى يقول فيه ابن جنى[٢]:

( وهذا الأصمعى هو صناجة الرواة ،والنقلة ،إليه محط الأعباء والثقلة . . . كان مشيخة القراء وأماثلهم تحضره وهو حدث لأخذ قراءة نافع عنه ، ومعلوم قدر ما حذف من اللغة فلم يثبته ،لأنه لم يقو عنده إذ لم يسمعه ) [٣].

وهو عند الحافظ ابن حجر إمام المحدثين فى زمانه فى تقريبه :

( **عبـد الملك بن قريب بن عـبد الملك بن على بـن أصمع** ،أبو سعيد الباهلى الأصمعى البصرى: صدوق،من التاسعة ،مات سنة ست عشرة،وقيل غير ذلك ، وقد قارب التسعين ) [٤].

( وله مجـموعة من الشـعر القديم هى الأصـمعيـات،وهى كالمفضليـات ثقة ودقة، ورويت عنه دواوين كثيرة أشهرها الدواوين الستة ) [٥].

---

(١) الشعر الجاهلى للدكتور شوقى ضيف ص ١٥٣ .

(٢) عثمان بن جنى الموصلى ،أبو الفتح : من أئمة الأدب والنحو ، وله شعر .ولد بالموصل ،وتوفى ببغداد سنة ٣٩٢هـ عـن نحـو ٦٥عاماً .وكـان أبـوه مملوكاً روميـا لسليـمـان بـن فهد الأزدى الموصلى .من تصانيفه : « الخصائص » فـى اللغة و « اللمع » فى النحو و« شرح ديوان المتنبى » وغـير ذلك وهو كثيـر .وكان المتنبى يقول : ابن جنى أعلم بشعرى منى .

(٣) الخصائص لابن جنى ٣/ ٣١١ .

(٤) تقريب التهذيب للحافظ ابن حجر ١/ ٥٢٢ ( ت ١٣٣٧ ) .

(٥) الشعر الجاهلى للدكتور شوقى ضيف ص ١٥٥ .

وكان يعاصره عالمان كبيران هما **أبو زيد وأبو عبيدة** ،وكان أبو زيد يعنى بجمع اللهجات واللغات الشاذة،وتوفى وقد قارب المائة. **وأبو زيد هو أوس بن ثابت الأنصارى** النحوى، صدوق، له أوهام، رمى بالقدر، من التاسعة، مات سنة ٢١٤[١].

أما العالم الثانى فهو **أبو عبيدة** :( **معمر بن المثنى التميمى** مولاهم البصرى النحوى اللغوى ،صدوق ،إخبارى ،وقد رمى برأى الخوارج،من السابعة مات سنة ثمان ومائتين) [٢].

ومن تلاميذ هذين العالمين **أبو عمرو الشيبانى** المتوفى سنة ٢١٣هـ ، وهو كوفى نزل بغداد، وكان نحوياً لغوياً ،اسمه إسحاق بن مراد ،صدوق من الثامنة ، مات سنة ٢١٠هـ، وقد قارب مائة وعشرين سنة [٣].

( وابنا الأعرابى الكوفيان ،وكان ورأهما كثير من الرواة فى بلدتهم فى القرن الثالث مثل محمد بن حبيب ،وابن السكيت المتوفى سنة ٢٤٤ هـ، وثعلب المتوفى سنة ٢٩٠ هـ ، وانتهت الرواية فى البصرة إلى أبى سعيد الحسن بن الحسين السكرى المتوفى سنة ٢٧٥هـ ،وإليه يرجع الفضل فى جمع كثير من الدواوين الجاهلية ،وهو يجمع بين الروايتين البصرية والكوفية )[٤].

ونصل إلى **محمد بن سلام** الذى نقل لنا كتاب طبقات فحول الشعراء فهو ( أبو عبد الله محمد بن سلام بن عبيد الله بن سالم الجمحى البصرى ، مولى قدامة بن مظعون الجمحى ،مولده بالبصرة ،وعُمِّر نحواً من ثلاث وتسعين سنة ، وسمع شيوخ العلم والحديث والأدب،وسمع منه شيوخ العلم والحديث والأدب، روى عنه محمد ابن يحيى ثعلب ، وأبو حاتم ، والرياشى ، والمازنى ، والزيادى ، وأحمد بن حنبل ، وابنه عبد الله بن أحمد ، ويحيى بن معين ،وأبو بكر بن أبى خيثمة، وأبو خليفة الجمحى ،ومحمد بن حاتم الرازى ، وغيرهم من الأئمة . . . ،وحكى الحاكم فى تاريخه قال: سئل صالح بن محمد - يعنى جزرة - عن عبد الرحمن ومحمد ابنى سلام الجمحيين ، فقال: صدوقان . رأيت يحيى ابن معين يختلف إليهما ، وفى الزهرة روى عنه مسلم ثلاثة عشر حديثاً ) [٥].

---

(١) تقريب التهذيب ٢٩١/١ ( ت ١٢١ ) .
(٢) المصدر نفسه ٢٦٦/٢ ( ت ١٢٨٨ ) .
(٣) المصدر نفسه ٤٥٥/٢ ( ت ١٧٩ ) .
(٤) العصر الجاهلى للدكتور شوقى ضيف ص ١٥٦ .
(٥) من مقدمة طبقات فحول الشعراء للمحقق العالم محمود شاكر ص ٣٧ .

فنحن أمام رواة الحديث ينقلون لنا الشعر الجاهلى ،ويطبقون موازين علم مصطلح الحديث على ما يصل إليهم من نصوص هذا الشعر . وكما فى حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام رواة وضاعون ففى الشعر الجاهلى رواة وضاعون، وعلماء اللغة يكشفون كل منحول ويسقطوه من روايتهم كما يفعل علماء الحديث.

فإسناد مخطوطة طبقات فحول الشعراء لابن سلام هو :

( من رواية ابن أسيد الأصبهانى محدث أصبهان .ولها إسناد ثان برواية الإمام الحافظ الطبرانى،المحدث الرحالة مسند الدنيا ،صاحب المعاجم الثلاثة الكبير والأوسط والصغير .

والذى رواها لنا أبو نصر السجزى الإمام الحافظ عالم السنة المتوفى ٤٤٤هـ فى مكة. وأبو نصر السجزى سمعها من أبى سعد الأنصارى الهروى الإمام الحافظ العالم الزاهد، والمتوفى بمصر عام ٤١٢هـ . حيث أذن للسجزى بروايتها .أما أبو سعد الأنصارى فقد سمعها من الإمام الحافظ أبى نعيم الأصبهانى المتوفى سنة ٤٣٠ هـ .وهو الذى سمعها من ابن أسيد ، ومن الإمام الطبرانى ) (١) .

( وبيِّنٌ بعد هذا أن رواة كتاب طبقات فحول الشعراء جميعاً من أئمة أهل الحديث، فرحم الله الأئمة من حفاظ حديث رسول الله ﷺ ،فهم أبداً أهل الفضل فى حفظ علم الأوائل على الأواخر) (٢) .

( ويتضح من كل ما أسلفنا أن رواية الشعر الجاهلى أُحيطت بكثير من التحقيق والتمحيص،وأنه إن كان هناك رواة متهمون ،فقد كان لهم العلماء الأثبات بالمرصاد ، أمثال المفضل الكوفى والأصمعى البصرى. وما مثل الشعر الجاهلى فى ذلك إلا مثل الحديث النبوى ،فقد دخله هو الآخر وضع كثير ،ولكن العلماء استطاعوا تمييز صحيحه من زائفه،وقدَّموا لنا كتب الصحيح الستة المشهورة (٣)، وكذلك الشأن فى الشعر، فقد دخله فساد كثير ، ولكن أصحابه الأثبات استطاعوا فى مهارة بالغة ،أن يميزوا صحيحه من زائفه،غير تاركين منفذاً إلى ذلك سواءً فى سند الرواة ،أو فى المتن نفسه، بل إن ابن سلاّم ليقدمهم على علماء الحديث فى

---

(١) مقدمة طبقات فحول الشعراء مقتطفات ٢٨ ـ ٣٠ .
(٢) المصدر نفسه ٣٣ .
(٣) كتب الحديث أكبر من أن تحصى ،وإن كان أشهرها الكتب الستة .

هذا الباب فيقول: ( حدثنى يحيى بن سعيد القطان قال: رواة الشعر أعقل من رواة الحديث ،لأن رواة الحديث يروون مصنوعاً كثيراً، ورواة الشعر ساعة ينشدون المصنوع ينتقدونه ، ويقولون هذا مصنوع) (١) (٢).

وإن كنا لا نرى ما يراه ابن سلاّم ،فأسباب رواية الحديث الضعيف والموضوع ليس جهل رواة الحديث بضعفه أو صنعه ،إنما هناك اعتبارات أخرى منها فضح الوضاعين ،بما يروونه ،ونقد المتن عند جهابذة علماء الحديث ، لا يقل وزناً عن نقد السند ، وذلك فى المعايير التى وضعوها للحكم على صحة الحديث من حيث المتن . ولا أرى داعياً للموازنة بين الفريقين ،إذا كنا انتهينا إلى أن أعظم رواة الشعر الجاهلى هم أئمة علماء الحديث ورواته .

وقد أشار أستاذنا الدكتور ناصر الدين الأسد فى كتابه القيم مصادر الشعر الجاهلى إلى هذا الموضوع بقوله :

( ومع ذلك فنحن لا نذهب ـ ولا يصح لأحد أن يذهب ـ إلى أن جميع ما فى تضاعيف الكتب العربية من شعر منسوب إلى الجاهلية ـ صحيح مبرأ من الوضع والنحل ـ وقد قادنا البحث إلى أن هذا الشعر المنسوب إلى الجاهلية على ثلاثة أضرب :

١ـ فضرب موضوع منحول إما على وجه اليقين القاطع ،وإما على وجه الترجيح الغالب ،وأكثر شعر هذا الضرب ما وضعه القصاص ليحلوا به قصصهم ، أو يكسبوه فى نفوس السامعين القارئين شيئاً من الثقة .

٢ـ وضرب صحيح لا سبيل إلى الشك فيه أو الطعن فيه ذلك هو الذى أجمع العلماء الرواة على إثباته ،بعد أن تدارسوا هذا الشعر ،كما اختلفت فى بعض الأشياء.

والحقيقة التى لا مراء فيها عند من ينعم النظر ويستقصيه فى هذا البحث أن هذا الضرب ليس من الكثرة التى يبدو فيها . . . فالراوية العالم من الطبقة الثانية أو الثالثة قد يجمع أبياتاً متفرقة ومقطعات صغيرة يضمها عنوان ( المنحول من شعر

---

(١) ذيل الأمالى ١٠٥ .

(٢) الشعر الجاهلى للدكتور شوقى ضيف ص ١٥٥ .

فلان) . . . فإذا أحصيت هذه الأبيات التى نص فى تضاعيف الديوان أنها مما رواه فلان دون فلان، وضممت إليها ما جمع فى آخر الديوان بعنوان المنحول من شعره وجدتها كلها لا تكاد تعد شيئاً مذكوراً إذا قسيت بالقصائد التى أجمع الرواة على صحتها ) (١).

ويلخص رأيه الأخير فى فقرة نفيسة فى كتابه نسوقها كما هى :

( وبعد فمنذ مطلع القرن الثانى الهجرى ،وبعده بقليل ،قامت طائفة من العلماء الرواة من أمثال أبى عمرو بن العلاء، وحماد الرواية ثم المفضل ،وخلف الأحمر، وهم الطبقة الأولى من العلماء الذين عرفتهم العربية فى تاريخها الحافل، فتلقوا تراث الجاهلية : شعرها وأخبارها وأنسابها؛ وصلهم بعضه مدوناً فى دواوين كاملة ،ضمت تراث القبيلة كله أو شعر شاعر من شعرائها،ووصلهم بعضه مكتوباً فى صحف متفرقة، ثم وصلهم بعضه عن طريق الرواية الشفهية التى كان يتناقلها الخلف عن السلف، فحملوا الأمانة ،ومضوا يجمعون ما تفرق من هذا التراث ،وينظمون منه ما تجمع. يضيفون إليه ما لم يكن فيه مما ثبتت لهم صحته ، وينفون عنه ما ثبت لهم زيغه وفساده. ولم يألوا جهداً فى التثبيت والتحقيق والتمحيص والمدارسة حتى استقام لكل منهم وتيقن صحته فمضى يذيعه على تلامذته فى حلقات دروسه ، ويشيعه فى رواد مجالس علمه ، فخلف من بعدهم خلف هم الطبقة الثانية من العلماء والرواة تأسوا بشيوخهم، واقتفوا سبيلهم ،يجمعون ويدرسون ويمحصون ويفحصون ثم يستقيم لكل منهم ما تيقن من صحته فيذيعه على تلاميذه من علماء الطبقة الثالثة .

ومع ذلك فقد كان لا بد لبعض هؤلاء العلماء من أن يختلفوا: فقد وقع لبعضهم من الصحف المكتوبة أو الدواوين المدونة ،أو الرواة من الشيوخ والعلماء ومن الأعراب الفصحاء ما لم يقع كله لغيره ،ثم كان لكل طائفة من هؤلاء العلماء منهج فى الأخذ والتلقى . . . ولكن هذا الخلاف فى المصادر أولاً وفى المنهج ثانياً لم يمنع العلماء من أن يأخذ بعضهم عن بعض ، ومن أن يرحل علماء المصر إلى المصر المجاور ليأخذوا منهم ويرووا عنهم ، ثم ينقلوا ما تيقنوا من صحته إلى

(١) مصادر الشعر الجاهلى للدكتور ناصر الدين الأسد ، الطبعة الرابعة ١٩٦٩م ، دار المعارف بمصر ،مقتطفات ص ٤٦٥ ـ ٤٧١ .

تلاميذهم ، ويكتبـوه فيما يجمعون من دواوين ،فـهذه الدواوين المنسوبة المسنودة التى يرتفع إسنادها إلى الطبقة الأولى أو إلى تلاميذهم هم من علماء الطبقة الثانية هى التى تحوى بين دفتيها الشعر الجاهلى الذى تيقنوا من صحته بعد تحر واستقصاء وجمع وتمحيص ونقد) [1].

(١) مصادر الشعر الجاهلى للدكتور الأسد ،ص ٤٧٧ ، ٤٤٩ .

# الفصل الثالث

# قريش والشعر والنبوة

**قريش والفصاحة :**

وندلف إلى قريش التى تجسدت البلاغة العربيـة فيها فنتعرف على قريش ابتداء بالنضر بن كنانة، فمـا فوق النضر هو قبيلة كنانة ،والنضر هو ( جـماع قريش عند الفقهاء ، فلا يقال لأحـد من أولاد من فوقه قرشى ،ويقال لكل من أولاده الذين منهم مالك وأولاده قرشى . فقد سئل رسول الله ﷺ :من قريش ؟ فقال: « من ولد النضر» ) [١].وفى الحديث عن رسول الله ﷺ قوله :

« نحن بنو النضر بن كنانة، لا نقفو[٢] أمنا، ولا ننتفى من أبينا »[٣].

والحديث الآخر :«إن الله اصطفى كنانة من ولد إسمـاعيل ،واصطفى قريشاً من كنانة،واصطفى من قريش بنى هاشم،واصطفانى من بنى هاشم» [٤].

فـقريـش إذاً فرع من كنانـة ، وهو ولد النضـر ، فولد النضـر قـريش [٥] ، والأولاد الآخرون لكنانة هم كنانة.

( وإذا علم ذلك فقريش فرقتان : بطاح وظواهر ، فقريش البطاح :من دخل مكة مع قصى الأبطح،والظواهر من أقام بظواهر مكة، ولم يدخل الأبطح ) [٦].

**فقريش البطاح** : بنو كعب بن لؤى ، وبنو عبد مناف ،وبنو عبد الدار ، وبنو زهرة بن كلاب ، وبنو مـخزوم بن يقظة بن مرة ،وبنو تيم بن مـرة ، وبنو جمح وسهم بن عمرو بن هصيص بن كعب،وبنو عدى بن مالك، وبنو عامر بن لؤى .

---

(١) السيرة الحلبية ١/ ٢٦ .
(٢) نقفو : نتبع .
(٣) رواه أحمد وابن ماجه . وهو حديث صحيح ، صحيح الجامع الصغير وزيادته للألبانى ٣/ ٦/ ٢٧ ح ٦٦٢٩ وهو عند ابن ماجه ٢/ ٨٧١ ح ٢٦١٢ .
(٤) رواه مسلم والترمذى عن واثلة .
(٥) هناك رأى عليه جمهور أهل النسب أن قريشاً هو فهر بن مالك بن النضر . وليس النضر نفسه .
(٦) سبل الهدى والرشاد ١/ ٣٣٤ .

**وقريش الظواهر** : بنو محارب ،وبنو الحارث بن فهر ، وبنو الأدرم بن غالب، وعامة بنى عمرو بن لؤى ،وكان يقال لعبد المطلب : سيد الأبطح والأباطح (١).

وقريش صريح ولد إسماعيل، وهم الذين حافظوا على العربية الفصحى كما ورثوها عن أبيهم إسماعيل ،وبقوا ظاهر مكة ابتداء عندما كانت خزاعة سادنة البيت، ثم أصبحوا أهل مكة بعد أن دخل قصى بن كلاب بهم الأبطح ،ولما يغادروا هذه الساحة أبداً فبقيت الفصاحة والبلاغة فيهم .

( ومما يدعم هذا الدليل ما قاله الرواة من أن العرب ( كانت تعرض أشعارها على قريش فما قبلوه منها كان مقبولاً ،وما ردوه كان مردوداً ، فقدم عليهم علقمة ابن عبدة التميمى فأنشدهم قصيدته : « هل ما علمت وما استودعت مكتوم » فقالوا: هذا سمط الدهر ، ثم عاد إليهم العام المقبل فأنشدهم قصيدته : « طحا بك قلب فى الحسان طروب» فقالوا: هاتان سمطا الدهر ) (٢).

( ومن ذلك ما حدثنا به المفضل بن محمد الضبى يرفعه إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قدم نافع بن الأزرق الحرورى إلى ابن عباس يسأله عن القرآن فقال : يا نافع ، القرآن كلام الله عزّ وجل،خاطب به العرب بلفظها عن لسان أفصحها،فمن زعم أن فى القرآن غير العربية فقد افترى، قال الله تعالى: ﴿ **قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ**﴾ [الزمر:٢٨ ] وقال تعالى: ﴿ **بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ** ﴿١٩٥﴾﴾[ الشعراء] وقد علمنا أن اللسان لسان محمد ﷺ، وقال تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ** ﴾[ إبراهيم:٤] وقد علمنا أن العجم ليسوا قومه ،وأن قومه هذا الحى من العرب ) (٣).

( وإذن فنحن لا نعدو الواقع إذا قلنا : إن لهجة قريش هى الفصحى التى عمت وسادت فى الجاهلية لا فى الحجاز ونجد فحسب ،بل فى كل القبائل العربية شمالاً وغرباً وشرقاً ،وفى اليمامة والبحرين ،وسقطت إلى الجنوب وأخذت تقتحم الأبواب على لغة حمير واليمن ،وخاصة فى أطرافها الشمالية، حيث منازل

---

(١) سبل الهدى والرشاد ١ / ٥١٧ .

(٢) الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ٢١/ ١١٢.

(٣) جمهرة أنساب العرب ١٥ .

الأزد وخثعم وحمدان وبنى الحارث بن كعب فى نجران، ومما يؤكد ذلك أن الوفود اليمنية التى وفدت على رسول الله ﷺ لم يحدثنا رواة الأخبار والسيرة النبوية أنها كانت تجد صعوبة فى التفاهم معه، وأيضاً فإنه كان يرسل إليهم دعاة يعظونهم ويعلمونهم الشريعة الإسلامية من مثل معاذ بن جبل ،ولو أنهم لم يكونوا يعرفون العربية الفصحى لكان إرسال هؤلاء الدعاة عبثاً ،وكل هذه دلائل تدل على أن حركة تعريب واسعة فى الجنوب حدثت قبل الإسلام ) (١).

( ومعنى ذلك أن لهجة قريش لم يبدأ ذيوعها وانتشار بين العرب فى الإسلام عن طريق القرآن الكريم كما ظن بعض الباحثين ،فقد كانت ذائعة منتشرة بينهم منذ العصر الجاهلى، بل منذ أوائله ، فأقدم نصوصه كأحدثها نظم بهذه اللغة القرشية التى اتخذوها لغة أدبية عامة لهم ، والتى سميت بعد بالفصحى ، فقد كانوا يشعرون بروعتها ، فاندفعوا يحاكونها،وقد امتلأت نفوسهم بأهلها ومكانتهم الروحية والاقتصادية والسياسية، ومن غير شك بلغ انتشار هذه اللهجة الذروة فى الإسلام ، فقد أقبل العرب من كل مكان شمالاً وجنوباً على الارتشاف من أفاويق لغته ،وقد أخذ يعمها لا فى أنحاء الجزيرة القاصية وحدها، بل فى كل بلد إسلامى شرقاً وغرباً ،فإذا أعلامها تخفق على الدروب من أواسط آسيا إلى مشارف المحيط الأطلسى) (٢).

يقول أبو نصر الفارابى :

( كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ ،وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعًا، وأبينها إبانة عما فى النفس ) .ويقول أحمد بن فارس نقلاً عن إسماعيل بن عبيد الله: ( أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم أن قريشًا أفصح العرب ألسنة ، وأصفاهم لغة، وذلك أن الله جل ثناؤه اختارهم من جميع العرب ، واصطفاهم واختار منهم نبى الرحمة محمداً ﷺ فجعل قريشاً قطان حرمه وجيران بيته الحرام وولاته ، فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج،ويتحاكمون إلى قريش فى أمورهم،وكانت قريش مع فصاحتها

---

(١) الشعر الجاهلى للدكتور شوقى ضيف ص ١٣٤ .
(٢) الشعر الجاهلى للدكتور شوقى ضيف ص ١٣٧ .

وحسن لـغاتـها ورقـة ألسنتهـا إذا أتتهم الـوفـود من العرب تخـيروا من كـلامهم وأشعـارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم ،فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائـزهم وسلائقهـم التى طبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العـرب ، ألا تـرى أنـك لا تجـد فى كـلامهـم عنعنـة تميم ولا عـجـرفة [١] قيـس ، ولا كـشكشة [٢] أسـد ، ولا كسكسة[٣] ربعية) [٤] .

ويقول ابن خلدون :( كـانت لغة قـريش أفصح اللغات العـربية ،وأصرحـها لبعدها عن بلاد العجم من جميع جهاتـهم ،فصانها بعدها عن الأعاجم من الفساد والتأثر بأسـاليب العجم ، حتى إن سائر العـرب على نسبة بعدهم عـن قريش كان الاحتجاج بلغتهم فى الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية ) [٥].

وإذا كانت قـريش أفصح العرب فرسـول الله ﷺ هو أفصح قريش بشـهادة الصديق ﷺ أعلم العرب بأنسابها وشعرها .

يقول الصديق ﷺ : يا رسول الله ، ما رأيت أفصح منك .

فقـال عليه الصلاة والسـلام :« ما يمنعنى وأنا من قـريش ،وأرضعت فى بنى سعد» [٦].

**وما علمناه الشعر وما ينبغى له :**

لحكمة ربانيـة خالصة اخـتار الله تعالـى لرسول الله ﷺ ألا يعلمه الشـعر ، ومقـامه الأعظم فى الـنبوة يقتـضى ألا يزاول الشـعر أو يمارسه ،وذلـك حتى لا يختلط بالوحى الربانى الخالص الذى أنزله على قلبـه بلسان عربى مبين ليكون من المنذرين .

وصحـيح أن قريشاً فى مـعركتـها مع النبى ﷺ كانت تقـذف رسول الله ﷺ بشتى التهـم ،وعلى رأس هذه التهم أنه شاعر .

---

(١) العجرفية : التقعر وطلب الغريب .

(٢) الكشكشة : إبدال الشين من كاف الخطاب للمؤنـث كعليش فى عليك ، أو زيادة شين بعد الكاف المجرورة عليكش .

(٣) الكسكسة : إلحاقهم بكاف المؤنث سيناً عند الوقف . يقال : أكرمتكس .

(٤) الصاحبى ، فى فقه اللغة ص ٢٣ ط . المؤيد .

(٥) مقدمة ابن خلدون ص٤٠٩ .

(٦) السيرة الحلبية ١/١٤٦ .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) ﴾ [ الطور ] وإذا كان الشعـراء أعلى طبقات الأمة فـهم والقادة سواء، فينبغى لـلنبوة أن تكون فوق هؤلاء جميـعاً ،ولا تختلط مفـاهيمها بمفـاهيم الشعر والكهانة .

وقد أدرك هذا المعنى قيادات قريش الكبرى حين يفرض عليهم قول الحقيقة .

فهذا عظيم مكة الوليـد بن المغيرة الذى كان يسمى الوحيـد، لتوحده فى غناه وشرفه ونسبه وجاهه يعلن الحقيقة على قريش ،وهو أعلى الناس كعباً فى مكة كما نقـل اللـه تعالى عنهم : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [ الزخرف ]

( ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش ،وكان ذا سن فيهم ،وقد حضر الموسم فقال لهم : يا معشـر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ،وقد سمعوا بأمر ساحركم هذا فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعـضكم بعضاً ،ويرد قولكم بعضه بعـضاً، قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل، وأقم لنا رأياً نقول به ، قال: بل أنتم فقولوا أسمع .

قالوا : نقول كاهن ؟

قال: لا والله ،ما هو بكـاهن. لقد رأينا الكهان، فما هو بـزمزمة الكاهن ولا سجعه.

قالوا : فنقول : مجنون ؟

قـال: ما هو بمجنون . لقـد رأينا الجنون ، وعـرفناه ، فـما هو بخنقـه ،ولا تخالجه، ولا وسوسته .

قالوا : فنقول :ساحر ؟

قال :ما هو بساحر .قد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثه ولا عقده .

قالوا: نقول : شاعر ؟

قال :ما هو بشـاعر .لقد عرفنا الشعـر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقـبوضه ومبسوطه ،ما هو بالشعر .

قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟

قال : والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق ،وإن فرعه لجناة ،وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه بال، وإن قرب القول فيه لأن تقولوا ساحر، جاء بقول سحر يفرق به بين المرء وأبيه ،وبين المرء وزوجته ،وبين المرء وعشيرته، فتفرقوا عن ذلك )(١).

نلحظ أن الشعراء فى مكة لم يكن مستوى القيادة العليا والزعامة كما هو الحال فى غيرها من القبائل . فالقبيلة تبحث عن الشاعر أو تختلق شاعراً ليكون لها الأمجاد ، ويذود عنها المثالب ،وقريش كانت فى غنى عن هذا، فمآثر بيت الله الحرام ، والحج إليه ، يدين به العرب جميعاً قاصيهم ودانيهم ،ولا يفكرون بمجاراتهم فى هذا المجد. لقد كان الشعر والشعراء فى قريش أدنى مرتبة وشرفاً منهم فى القبائل الأخرى. ونلحظ هذه النظرة للشعر والشعراء حين اجتمعت قريش ليلة الهجرة بكل قياداتها لتضع حداً لمحمد ﷺ قبل هجرته ،فكان مما قالوه:

( فتشاوروا ثم قال قائل منهم : احبسوه فى الحديد، وأغلقوا عليه باباً ،ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله، زهيراً والنابغة ،ومن مضى منهم، من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم ) (٢) .

وأما رسول الله ﷺ فقد كان يتذوق الشعر ،وهو سيد الفصحاء فى الأرض قاطبة، والعرب خاصة ، لكنه كان يمتنع عن قوله ،ولا يخطر فى ذهنه أن يقلده ، فقد صرفه الله تعالى عنه .

ونجد أن الذين حملوا الدعوة قبله إلى الحنيفية قد اختلطت دعوتهم فى الشعر،وماتت فى مهدها، ولم يكونوا يشكلون أى خوف فى مجتمعهم وأنديتهم ، وهم ورقة بن نوفل الأسدى ،وعبيد الله بن جحش بن أسد بن خزيمة ، وعثمان ابن الحويرث بن أسد ابن عبد العزى بن قصى، وزيد بن عمرو بن نفيل العدوى ، واختار ثلاثة منهم النصرانية بينما بقى زيد بن عمرو على الحنيفية ينكر عبادة

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام بشرح الوزير المغربى ١/ ١٧٩ . والوزير المغربى هو :الحسين بن على أبو القاسم ، من الدهاة العلماء الأدباء ،توفى عام ٤١٨هـ بعد أن تقلب فى السياسة فى مصر والشام والعراق ، له العديد من الكتب ،وله شرح بسيط للسيرة النبوية ، حققه الدكتور سهيل زكار وطبعه .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ، طبعة دار القلم ٢/ ١٢٥ .

الأصنام مما يقوله:

أرباً واحداً أم ألف رب أدين إذا تقسمت الأمور
عزلت اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا عزى أدين ولا ابنتيها ولا صنمى بنى عمرو أزور
ولكن أعبد الرحمن ربى ليغفر ذنبى الرب الغفور [1]

وقوله كذلك :

وأسلمت وجهى لمن أسلمت له الأرض تحمل صخراً ثقالا
وأسلمت وجهى لمن أسلمت له المزن تحمل عذباً زلالا
إذا هى سيقت إلى بلدة أطاعت فصبت عليه سجالا [2] [3]

أما رسول الله ﷺ سيد ولد آدم وأفصحهم ،فقد برأه الله تعالى من الشعر، ليبقى قلبه خالصاً لوحى الله تعالى .

( وقوله تبارك وتعالى: ﴿ **وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ** ﴾ [ يس : ٦٩] يقول عز وجل مخبراً عن نبيه محمد ﷺ ، أنه ما علمه الشعر : ﴿ **وَمَا يَنبَغِي لَهُ** ﴾أى :ما هو من طبعه فلا يحسنه ولا يحبه ولا تقتضيه جبلته .ولهذا ورد أنه ﷺ كان لا يحفظ بيتاً على وزن منتظم بل إن أنشده زحفه ولم يتمه .وقال أبو زرعة الرازى : حدثنا إسماعيل بن مجالد عن أبيه عن الشعبى قال:

ما ولد عبد المطلب ذكراً ولا أنثى إلا يقول الشعر إلا رسول الله ﷺ ذكره ابن عساكر فى ترجمة عتيبة بن أبى لهب الذى أكله الأسد بالزرقاء ) [4].

فى الوقت الذى كان عليه الصلاة والسلام يعجب بالشعر الجيد ويتذوقه ، ( فقد أنشد بعض الصحابة رضي الله عنهم للنبى ﷺ مائة بيت يقول ﷺ عقب كل بيت : « هيه » يعنى يستطعمه فيزيده من ذلك ) [5].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام بشرح الوزير المغربى ١/ ١٧٩ .

(٢) سجالاً : جمع سجل ، وهو الدلو المملوء ماء،واستعاره للمطر .

(٣) المصدر نفسه ١/ ١٥٦ .

(٤) تفسير القرآن للحافظ ابن كثير ٥/ ٦٢٦ ط . دار الفكر ١٩٧٠م .

(٥) المصدر نفسه ٥ / ٦٢٩ .

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩) ﴾ [ يس ] .

( ثم ينفى لياقة الشعر بالرسول ﷺ : ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَه ﴾ فللشعر منهج غير منهج النبوة ،الشعر انفـعال ، وتعبير عن هذا الانفعال ،والانفـعال يتقلب من حال إلى حال، والنبـوة وحى على منهج ثابت وعلى صـراط مستـقيم ، يتبـع ناموس الله الثابت الذى يحكم الوجود كله ، ولا يتبدل ولا يتقلب مع الأحوال الطارئة تقلب الشعر مع الانفعالات المتجددة التى لا تثبت على حال .

والنبوة اتصــال دائم بالله ،وتلقٍ مبــاشر عن وحى الله ،ومحــاولة دائمة لرد الحيــاة إلى الله ، بينمــا الشعــر ـ فى أعلى صوره ـ أشــواق إنسانيــة إلى الجــمال والكمال،مشوبة بقصور الإنسان وتصوراته المحدودة بحدود مداركه،واستعداداته، فأما حين يهبط عن صوره العالية فهو انفعالات ونزوات قد تهبط حتى تكون صراع جسد ،وفورة لحم ودم! فطبيعة النبوة وطبيـعة الشعر مختلفتان من الأساس ، هذه فى أعلى صورها ،أشواق تصعد من الأرض ، وتلك فى صميمها هداية تتنزل من السماء ) [١] .

(١) فى ظلال القرآن ٥/ ٢٩٧٥ .

# الفصل الرابع
# الشعر الجاهلى فى خدمة الإسلام

## ابن إسحاق وسيرته والشعر فيها:

لا بد أن نشير ابتداء إلى أن الشعر الذى رواه ابن إسحاق فى السيرة قد شن عليه هجوم عنيف لعدم علم ابن إسحاق بالشعر ولركاكة بعضه .

يقول ابن سلام الجمحى :

( وكان ممن أفسد الشعر وهجنه ،وحمل كل غثاء فيه محمد بن إسحاق بن يسار مولى آل مخرمة بن المطلب بن عبد مناف ،وكان من علماء الناس بالسير . قال الزهرى : لا يزال فى الناس علم ما بقى مولى آل مخرمة ،وكان أكثر علمه بالمغازى والسير وغير ذلك ، فقبل الناس منه الأشعار ،وكان يعتذر منها ويقول : لا علم لى بالشعر أتينا به فأحمله . ولم يكن ذلك عذراً ، فكتب فى السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط ، وأشعار النساء فضلاً عن الرجال،ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود ، فكتب لهم أشعاراً كثيرة ،وليس بشعر ،إنما هو كلام مؤلف معقود بقواف . . . ) (١).

وجاء ابن هشام (٢) الذى تناول السيرة لابن إسحاق ، فشذبها ولخصها ونقحها من كثير من الشعر المصنوع أو المتكلف ، وأبقى على القليل من الشعر ، وحتى الذى أبقى عليه ، فيذكر فى بعضه أن من يعلم بالشعر ينكر هذه القصيدة،وهذه المقطوعة لهذا الشاعر ، أو ذاك ،وحيث إن السيرة النبوية لابن إسحاق مفقودة إلا الجزء اليسير الذى طبعه الدكتور زكار ،فستبقى السيرة النبوية لابن هشام، ورأى

(١) طبقات فحول الشعراء ١/ ٧، ٨ .

(٢) عبد الملك بن هشام : نحوى اشتهر بحمل العلم والتقدم فى علم النسب والنحو والشعر . وهو حميرى معافرى بصرى الأصل ،مصرى الوفاة ،توفى عام ٢١٣هـ حسبما روى السهيلى ، لكن ابن خلكان نقل عن ابن يونس صاحب تاريخ مصر أنه توفى لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأخر سنة ثمان عشرة ومائتين . سمع ابن هشام السيرة من زياد بن عبد الله البكائى ، وغالبا ما ذكر الذين نقل عنهم مواده الإضافية وتصويباته. انظر :مقدمة السيرة النبوية لابن هشام تحقيق د .سهيل زكار.

هشام هو الأساس المعتمد فى تناول هذا الشعر .

ويحدثنا الدكتور زكار عن عمل ابن هشام فى الشعر الموجود فى سيرة ابن إسحاق فيقول: ( وكان مما وجه من نقد إلى ابن إسحاق إكثاره فى كتابه من الشعر المصنوع ، وقيل سبب هذا عدم معرفته بالشعر . . . وحين أعاد ابن هشام تصنيف كتاب ابن إسحاق تفحص الأشعار فيه فحذف وزاد وعدل بعض الروايات ، واستدرك ونبه على ما لم تثبت لديه صحته ،ولم تكن المعايير النقدية الفنية هى التى تحكمت بالحذف وحدها، بل المعايير الإسلامية فقد حذف ابن هشام بعض أبيات الهجاء لحسان بن ثابت أو سواه لأنه أفحش فيها ) (١).

**النفر الأربعة:**

فقد كان النفر القرشيون الأربعة هم الإرهاصات الأولى للإسلام فى مكة .

قال ابن إسحاق : واجتمعت قريش يوماً فى عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له ، ويعكفون عنده ،ويديرون به ، وكان ذلك عيداً لهم فى كل سنة يوماً فخلص منهم أربعة نفر نجياً ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا، وليكتم بعضكم على بعض ،قالوا :أجل .وهم ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى، وعبيد الله بن جحش . . . بن ودان بن أسد بن خزيمة ،وكانت أمة أميمة بنت عبد المطلب،وعثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى بن قصى، وزيد بن عمرو بن نفيل . . . بن كعب بن لؤى .

فقال بعضهم لبعض :

تعلمون والله ما قومكم على شىء ، لقد أخطؤوا دين أبيهم إبراهيم ، ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ؟! يا قوم، التمسوا لأنفسكم ديناً فإنكم والله ما أنتم على شىء ، فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم .

فأما ورقة بن نوفل فاستحكم فى النصرانية ، واتبع الكتب من أهلها حتى علم علماً من أهل الكتاب .وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من

(١) السيرة النبوية لابن هشام ،تحقيق د . سهيل زكار المقدمة ،و .

الالتبـاس حتى أسلم ،ثم هاجر مع المسلمين إلـى الحبشة ، فلمـا قدمهـا تنصر ، وفارق الإسلام حتى هلك هنالك نصرانياً . . . وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصـر ملك الروم فتنصر ،وحـسنت منزلته عنده .وأما زيد بن عمـرو فوقف فلم يدخل فى يهـودية ولا نصرانيـة وفارق دين قومـه ،فاعـتزل الأوثان والميـتة والدم والذبائح التـى تذبح على الأوثان، ونهى عن قـتل الموؤدة ،وقـال : أعـبـد رب إبراهيم ،وبادى قومه يعيب ما هم عليه[1] .

والذى يعنينا من هؤلاء الأربعة زيد بن عمرو بن نفيل ،وورقة بن نوفل ،وما روى لهما من شعر يبشر بتعاليم الإسلام ، وبنبوة المصطفى ﷺ .

وقد شهدنا بعض أشعار زيد فى الفصل السابق التى تشير إلى وحدانية الله ، ونبذ الأرباب التى تعبـد من دون الله والتي تواضعت قريش عليهـا منذ أيام عمرو ابن لحى الخزاعى .

وتطالعنا قصيدة ثانية تعالج العقـيدة المحضة ،وتتحدث عن رسالات الرسل ، غير أن ابن هشـام قد عزاها إلى أميـة بن أبى الصلت ،والذى سنتحدث عنه فـيما بعد ، ولـم يثبت لزيد غير البيتين الأولين منها :

إلى اللـه أهدى مـدحـتـى وثنائيـاً ... وقـولاً رصـيناً لا ينى الدهر باقـيـا

إلى الملك الأعلـى الذى ليس فـوقـه ... إله ولا رب يـكون مـدانيـا

وقد أنكر اللات والعزى وهبل وبقية الأصنام والآلهة المزيفة.

هذا عن الوحدانية أما عن إيمانه برسالة الرسول ﷺ :

فمن طريف ما يروى عن ذلك ما رواه البيهقى بسنده عن زيد بن حارثة قال:

خرج رسـول الله ﷺ حتى كـان بأعلى الوادى لقيـه زيد بن عمرو بـن نفيل

(١) السيرة الـنبوية لابن هشام ١ / ١٥١ ـ ١٥٣ . ونشيـر هنا إلى أن للسيرة النبوية لابن هشـام ثلاثة شروح بين أيدينا . الشرح الأول للسهـيلى وسمى كتابه الروض الأنف .وسنعتـمد الطبعة التى نشرتها مكتـبة الكليات الأزهرية بمجلدين طباعة شركة الطباعة الفنية المتحدة عام ١٣٩١ هـ .والشرح الثانى لأبى ذر الخشنى ،والذى طبع مع السيرة الطبـعة الأولى بمكتبة دار المنار ،الزرقاء فى الأردن بتحـقيق الدكتور همام سعيـد ، ومحمد عبد الله أبو صـعيليك ،والذى طبع عام ١٤٠٩ هـ .والشرح الثـالث للوزير المغربى والذى أخرجه وحـققه الدكتور سهـيل زكار وطبعته دار الفكر بدمشق عام ١٤١٢هـ . هذا ونشـير إلى الشرح الأول بحرف ( ر ) كناية عن الروض الأنف . والشرح الثـانى بحرف ( ذ ) كناية عن أبى ذر الخشنى . والشرح الـثالث بحرف (و) كناية عن الوزير المغربى .

فقال له النبى ﷺ : « يا عم ، ما لى أرى قومك قد شنفوا لك ؟ » (١) .

فقال : أما والله إن ذلك كان بغير ثائرة كانت منى عليهم، ولكنى أراهم على ضلالة، فخرجت أبتغى هذا الدين حتى أتيت على شيخ بالجزيرة فأخبرنى بالذى خرجت له، فقال: ممن أنت ؟ فقلت : من أهل بيت الله ، من أهل الشوك والقرظة (٢) . قال: فإنه قد خرج فى بلدك نبى ، أو هو خارج ،قد طلع نجمه ، فارجع فصدقه وآمن به(٣) .

كما أننا نشهد إيمانه باليوم الآخر من خلال قصيدته التالية ،وهى أوضح ما تكون جلاء معنى،لدرجة أن الباحث يشك أن تكون قيلت فى العهد الجاهلى يقول زيد:

فتقوى الله ربكم احفظوها ... متى ما تحفظوها لا تبوروا
ترى الأبرار دارهم جنان ... وللكفار حامية سعير
وخزى فى الحياة وإن يموتوا ... يلاقوا ما تضيق به الصدور (٤)

فقد استجمع زيد إذًا الإيمان بالله واليوم الآخر والرسالة فكان من المؤمنين الناجين يوم القيامة ،وعبر شعراً عن هذا الإيمان ،ونبه المجتمع الجاهلى الغافل إلى هذه المعانى.

قال ابن إسحاق : وحدثت أن ابنه سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وعمر بن الخطاب ،وهو ابن عمه قالا لرسول الله ﷺ : أنستغفر لزيد بن عمرو؟ قال: « نعم ، فإنه يبعث أمة وحدة » (٥) (٦) .

**ورقة بن نوفل :**

وإذا كان زيد بن عمرو قد جاء مبشراً برسالة الإسلام ومبادئه، فقد كان ورقة

---

(١) شنفوا : أبغضوا وتنكروا .   (٢) القرظة : ورق السلم .

(٣) دلائل النبوة للبيهقى ٢/ ١٢٩ .وهذا ونشير إلى أن لكتاب دلائل النبوة للبيهقى طبعتين .
الأولى بمجلدين ، والثانية ثمانية مجلدات قام بتحقيقها الدكتور عبد المعطى قلعجى .وهى الطبعة التى سنعتمدها فى البحث ط . أولى عام ١٤٠٥هـ .دار الكتب العلمية ،بيروت .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ١/ ٢٨٨ .

(٥) الحديث عند ابن إسحاق فى السيرة مبهم . ويقول المحقق فيه : إنه حديث حسن بطرقه .

(٦) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٨٧ .

ابن نوفل بن أسد هو المبشر برسول الله ﷺ فى روابى مكة وبطاحها ،وذلك من خلال سماع أدق أخباره ﷺ من زوجه خديجة بنت خويلد بن أسد فهو ابن عمها.

( وكانت خديجة بنت خويلد قد ذكرت لورقة بن نوفل بن أسد ، وكان ابن عمها، وكان نصرانياً قد تبع الكتب ،وعلم من علم الناس ، ما ذكر لها غلامها ميسرة من قول الراهب، وما كان رأى منه إذ كان الملكان يظلانه ، فقال ورقة : لئن كان هذا حقاً يا خديجة ! إن كان محمد لنبى هذه الأمة ، قد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبى ينتظر .هذا زمانه،أو كما قال:

فجعل ورقة يستبطئ الأمر ويقول: حتى متى ؟ فكان فيما يذكرون يقول أشعاراً يستبطئ فيها خبر خديجة ويتريث ما ذكرت خديجة :

أتبكر أم أنت العشية رائح ... وفى الصدر من إضمارك الحزن فادح
لفرقة قوم لا أحب فراقهم ... كأنك عنهم بعد يومين نازح

ولعل ورقة حاول فى هذه المقطوعة الشعرية أن يسير على نهج سلفه من الشعراء فى البكاء على الأطلال، فقدم هذين البيتين ؛لينفذ منهما إلى غرضه الذى انفعل وتفاعل معه من أخبار محمد بن عبد الله :

وأخبار صدق خبرت عن محمد ... يخبرها عنه إذا غاب ناصح

فهو يخشى أن تكذب الكتبُ والآيات ، وهى صادقة من عند الله ، لكن متى، وحتى متى ؟ فباح بمكنون قلبه ولجَّ فى السؤال وضج من الانتظار ،فالخبر سيهز الدنيا عندما يقع :

بأن محمداً سيسود فينا ... ويخصِم من يكون له حجيجا
ويظهر فى البلاد ضياء نور ... يقيم به البرية أن تموجا
فيلقى من يحاربه خساراً ... ويلقى من يسالمه فلوجا

إن إيمانه بنور النبوة الذى ينبلج فتضىء له ظلمات الأرض إيمان لا يقبل الشك، وإيمانه بانتصار محمد ﷺ كثقته بوجوده ، لكنه يرجو أن يفسح له فى أجله حتى يشهد مطلع النور :

فيا ليتى (١) إذا ما كان ذاكم ... شهدت فكنت أولهم ولوجا
ولوجاً فى التى كرهت قريش ... ولو عجَّت بمكتها عجيجا
أرجّى بالذى كرهوا جميعاً ... إلى ذى العرش إن سفلوا عروجا

إنه يعلم أنه مقدم على معركة عنيفة خطيرة الأثر، ويعلن أنه سيكون بجوار محمد ﷺ دونما شك ولا ريب ،فهو ابن الدعوة ،وخصم قريش لو حاربت ابنها محمداً عليه الصلاة والسلام :

وهل أمر السفالة غير كفر ... بمن يختار من سمك البروجا
فإن يبقوا وأبق تكن أمور ... يضج الكافرون لها ضجيجا
وإن أهلك فكل فتى سيلقى ... من الأقدار متلفة حروجا (٢)

فهو لا يرى للحياة معنىً دون صراع العقيدة، تلك الحياة التى كان يحياها أترابه صراعًا على المال والجاه ونرى استعمال كلمة الكفر - فى معناها الاصطلاحى الإسلامى - بينا كان كفار قريش يستعملون لفظ - الصابئ - تعبيراً عن الخروج على الدين .

إن الحياة قد بُعثت فى روحه من جديد - وهو الطاعن فى السن - حين رأى إمكانية إشراق الوجود بالنبى المنتظر على وشك الوقوع .

وحين جاءت خديجة إلى ورقة ﵁ تنبه حديث محمدٍ ﷺ ، كاد قلبه يخرج من صدره من الفرح ،وقال:

( قدوس،قدوس.والذى نفس ورقة بيده ،لئن كنت صدقتينى يا خديجة،فقد جاءه الناس الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى،وإنه لنبى هذه الأمة،فقولى له فليثبت :

قال الذى وجَّهتِ يا خير حرة ... يغور(٣)وبالنجدين(٤)حيث الصحاصح(٥)
إلى سوق بصرى والركائب إذ غدت ... وهن من الأحمال قُعص(٦) دوالح(٧)
يخبرنا عن كل حبرٍ بعلمه ... وللحق أبواب لهن مفاتيح

(١) يقول السهيلى فى حذف نون الوقاية - يقول ورقة : ( فيا ليتى ) - : ( وحذفها مع ليت ردىء ،وهو فى لعل أحسن منه ) روض ١/ ٢١٩ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ر / ١/ ٢١٨ ، ٢١٩ .

(٣) الغور : المنخفض من الأرض .

(٤) النجدين : ما ارتفع منها .

(٥) الصحاصح : لعله اسم مكان .

(٦) قعص : جمع قعوص ، وهى التى تضرب حالبها وتمنع درها.

(٧) دوالح : ثقيلات الحمل .

ويرسم ورقة المنظر كاملاً لينقلنا إلى ما يريد الحديث عنه فيقول:

بأن ابن عبد الله أحمد مرسل ... إلى كل من ضمت عليه الأباطح
وظنى به أنْ [1] سوف يبعث صادقاً ... كما أُرسل العبدان هود وصالح
وموسى وإبراهيم حتى يُرى له ... بهاء ومنشور من الذكر واضح

فهو إذن من شجرة النبوة التى انتظمت هوداً وصالحاً وموسى وإبراهيم وورقة يوقن بعد ذلك بنصره ، وليس فقط ببعثته:

ويتبعه حيًّا [2] لؤى بن غالبٍ ... شبابهم والأشيبون الجحاجح

وها هو يتطلع إلى ذلك اليوم الأغر ويتوق إليه :

فإن أبق حتى يدرك الناس دهره ... فإنى به مستبشر الود فارح
وإلا فإنى يا خديجة فاعلمى ... عن أرضك فى الأرض العريضة سائح[3]

واليوم عند ورقة بسنة ، فقد توجهت أنظاره إلى محمد بن عبد الله ، وما تنطبق هذه الصفات التى يقرأ عنها فى الكتب إلا عليه ، وينتظر إطلالة كل صباح علها تأتيه بجديد تشفى غليله الذى كاد يحترق ، وهاجت شجونه فلجأ إلى الشعر، يبثه لواعج كبده فقال :

لجحت وكنت فى الذكرى لجوجاً ... لهم طالما بعث النشيجا
ووصف من خديجة بعد وصف ... فقد طال انتظارى ياخديجا
ببطن المكتين على رجائى ... حديثك أن أرى منه خروجا
بما خبرتنا من قول قسٍ ... من الرهبان أكره أن يعوجا

فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ ، فأخبرته بقول ورقة بن نوفل، فلما قضى رسول الله ﷺ جواره وانصرف ، بدأ بالكعبة فطاف بها ، فلقيه ورقة بن نوفل ، وهو يطوف بالكعبة فقال:

---

(١) فى الدلائل هى : كأن بينما فى الروض الأنف للسهيلى : بأن . وهو الأصح من حيث استقامة المعنى.

(٢) يحدثنا السهيلى فى الروض الأنف عن سبب تثنية ورقة ( للمكتين ، والنجدين، وحيا ) بقوله: ( على أن للعرب مذهباً فى أشعارها . . . وإنما يقصد العرب فى هذه الإشارة إلى جانبى كل بلدة ، أو الإشارة إلى أعلى البلد وأسفلها ) . الروض الأنف ١/ ٢١٨.

(٣) دلائل النبوة للبيهقى ٢/ ١٢٧ ، ١٢٨ . والروض الأنف للسهيلى ١/ ٢٢٠، ويقول عنه: هو من رواية يونس عن ابن إسحاق .

يا ابن أخى ،أخبرنى بما رأيت وسمعت، فأخبره رسول الله ﷺ ، فقال له ورقة : والذى نفسى بيده، إنك لنبى هذه الأمة ،ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى، ولتكذبنَّهْ ،ولتُخرجَنّه، ولتُقاتلنّهْ ،ولئن أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه(١).

وورقة يدرك أنه وزيدًا وبقية الأربعة لن يكون لهم شأن يذكر ،إنما المعركة الحقيقية هى مع النبى المنتظر. وسنة الله فى أنبيائه أنهم لا بد أن يعادوا ، ويحاربوا، ثم يأتيهم نصر الله .

ونجد السهيلى يسوق أبياتاً لورقة بن نوفل ،يتضح من خلال قراءتها أنها إنما قيلت بعد الوحى:

| | |
|---|---|
| يا للرجال لصرف الدهر والقدر | وما لشىء قضاه الله من غير |
| حتى خديجة تدعونى لأخبرها | أمراً أراه سيأتى الناس من أُخر |
| فخبّرتنى بأمر قد سمعت به | فيما مضى من قديم الدهر والعُصُر |
| بأن أحمد يأتيه فيخبره | جبريل أنك مبعوث من البشر |
| فقلت : علَّ الذى ترجين ينجزه | لك الإله ، فرَّجى الخير وانتظرى |

**وأول ثغرة**: فى هذه الأبيات هو تناقض أولها مع آخرها ففى الصدر الأول منها والذى ذكرناه آنفاً إشارة إلى جبريل وإتيانه محمداً ﷺ قبل حراء، وهذا لا أصل له فى السيرة. فمقدم جبريل عليه الصلاة والسلام كان فى اللقاء الأول الذى ارتاع منه، حتى رأى أنه الموت ، وها هو القسم الثانى من الأبيات ، يُذكر فيه قول ورقة :

| | |
|---|---|
| وأرسلته إلينا كى نسائله | عن أمره ما يرى فى النوم والسهر |
| فقال حين أتانا منطقاً عجباً | يقف منه أعالى الجلد والشَعر |
| إنى رأيت أمين الله واجهنى | فى صورة أُكملِت من أهيب الصور |

(١) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ١ ،٣٠١ ٣٠٢ . وجاء فى رواية البخارى : ( ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك. فقال : « أو مخرجى هم ؟» قال : نعم. لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى . وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً . ثم لم ينشب ورقة أن توفى ،وفتر الوحى ) . انظر : فتح البارى ١/ ٢٣/ح ٣ .

ثم استمر فكان الخوف يذعرنى | مما يسلّم من حولى من الشجر
فقلت : ظنى وما أدرى أيصدقنى | أن سوف تُبعث تتلو مُنزل السور
وسوف أبليك إن أعلنت دعوتهم | من الجهاد بلا منّ ولا كدرِ [1]

**والثغرة الثانية**: الحديث عن السور القرآنية، وهذا أمر لم يك مسمّى ولا موجوداً فى بداية الوحى . وكذلك استعمال كلمة الجهاد التى أطلقها القرآن فيما بعد ، وغدت مصطلحاً إسلامياً له مدلولاته .

**والثغرة الثالثة**: هى فى تقديم ظن ورقة بعد نزول الوحى،وهذا مخالف للصحيح من الأحاديث،التى أنهت موضوع الظن عند ورقة، وكان يقيناً لا شك فيه بنبوة محمد ﷺ، بعد أن أخبره بما رأى فى الغار .

وإزاء هذه الثغرات ،ومن خلال ألفاظ الأبيات، وتركيبها الذى لا يتناسب مع جزالة وقوة الأبيات فى العصر الجاهلى ننتهى إلى أن هذه الأبيات منحولة لورقة، وهى من الركاكة بحيث نجدها دون مستوى شعره ، وأغلب الظن أن بعض الذين ينظمون السيرة شعراً صاغ حادثة الوحى بهذه الصورة ،ولم ينطق ورقة منها ببيت واحد .

كما يسوق لنا السهيلى أبياتاً لورقة بن نوفل .تشع منها الروح الإسلامية الخالصة، يقول فيها :

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم | أنا النذير فلا يغرركم أحد
لا تعبُدُنَّ إلها غير خالقكم | فإن دعوكم فقولوا: بيننا جدد
سبحان ذى العرش سبحاناً يدوم له | وقبلنا سبّح الجودى والجُمُد
مسخر كل ما تحت السماء له | لا ينبغى أن يناوى ملكه أحد

إنها الوحدانية الخالصة المتميزة ،الموروثة من إرث النبوة ،يدعو ورقة إليها، ثم يعود فى القسم الثانى من هذه الأبيات ،ليذكر بالموت والفناء قائلاً :

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته | يبقى الإله ويودى المال والولد
لم تُغن عن هرمُز يوماً خزائنه | والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا

(١) الروض الأنف للسهيلى . شرح السيرة النبوية ١/ ٢١٧، ٢١٨ .

ولا سليمان إذ تجرى الرياح به والإنس والجن فيما بينها ترد
أين الملوك التى كانت لعزتها من كل أوب إليها وافد يفد
حوض هنالك مورود بلا كذبٍ لا بد من وروده يوماً كما وردوا

نسبه أبو الفرج إلى ورقة ،وفيه أبيات تنسب إلى أمية بن أبى الصلت[1] .

ونقدِّر أن القسم الثانى من الأبيات هو لأمية بن أبى الصلت ، إذ اشتهرت له أكثر مما اشتهرت لورقة ، أما الأبيات الأولى من التسبيح الخالص لله ، فهى مصداق حديث رسول الله ﷺ فيه ،وقد ذكره السهيلى فى الروض الأنف فقال:

( وقد لقيت للحديث الذى خرجه الترمذى فى ورقة إسنادًا جيدًا غير الذى ذكره الترمذى ،وهو ما رواه الزبير بن أبى بكر عن عبد الله بن معاذ الصنعانى عن معمر عن الزهرى عن عروة بن الزبير رضي الله عنهم قال: سئل رسول الله ﷺ عن ورقة ابن نوفل، كما بلغنا فقال : « رأيته فى المنام عليه ثياب بيض فقد أظن أن لو كان من أهل النار لم أر عليه البياض » وكان يذكر الله فى شعره فى الجاهلية ، ويسبحه ) [2] .

بقى لنا أن نشير إلى أمية بن أبى الصلت الثقفى الذى كان ( كثير العجائب يذكر فى شعره خلق السموات والأرض ،ويذكر الملائكة ،ويذكر من ذلك ما لم يذكره أحد من الشعراء ،وكان قد شام[3] أهل الكتاب ) [4] .

وفى رواية للبيهقى أن أمية قال لأبى سفيان بن حرب فى حديث طويل:

قال: حدثنى هذا الرجل الذى انتهى إليه علم الكتاب أن نبياً مبعوث فى هذا الزمان. فظننت أنى أنا هو، فقال: ليس منكم هو ،هو من أهل مكة ، قلت : فانسبه. قال: هو وسط فى قومه ،فالذى رأيت من الهم ما صرف عنى [5] .

فقد كان أمية يعد نفسه للرسالة ،ويذكر ذلك أمام قومه ،وذلك كما ذكر أبو

---

(١) السيرة النبوية ر ١/٢١٧ .

(٢) الروض الأنف للسهيلى ١/٢١٧ . أما نص حديث الترمذى فهو : «أريته فى المنام، وعليه ثياب بيض ،ولو كان من أهل النار لكان عليه لباس غير ذلك » . قال: هذا حديث غريب .انظر :سنن الترمذى ٤٥٤١ ح ٢٢٨٨ .

(٣) شام أهل الكتاب : دنا وقرب منهم .

(٤) طبقات فحول الشعراء ١/ ٣٦٢ .

(٥) دلائل النبوة للبيهقى ٢/ ١١٧ .

سفيان فى رواية أخـرى: فلما بعث محمد ﷺ، قلت لأمية ،فقـال أمية : أما إنه حسن فاتبعـه، فقلت له: فأنت ما يمنعك ؟ قال : الحيـاء من نساء ثقيف أنى كنت أخبرهن أنى هو .ثم أصير تابعاً لفتى من بنى عبد مناف؟ ) [1] .

وهذا نموذج من شعره الذى رجـحه ابن هشام أنه لأميـة وليس لزيد بن عمرو كما ذكر ابن إسحاق :

ألا أيهـــا الإنســـان إيـاك والردى ... فـإنك لا تخـفى من الله خـافـيـا
وإياك لا تجـــعل مع الله غـــيـــره ... فـإن ســبـيـل الرشـد أصـبح باديا
حنـانيك إن الجـن كنت رجـــاءهم ... وأنت إلـهى ربنـا ورجـــائـيــا [2]
رضــــيــت بك اللـهم ربا فـلن أرى ... أدين إلـهــاً غــيـــرك الـله ثانيـــا
أدين لرب يــســـتــجـــاب ولا أرى ... أدين لمن لم يـسـمع الـدهر داعـيـا

وبعد اعـترافـه بالوحدانيـة الخالصة ، يشـير إلى إيمانه بالـرسل ، والرسالات السابقة:

وأنت الذى من فـضل مَنٍّ ورحـمـة ... بعــثت إلى مـــوسى رســـولاً مناديا
فقلت له يا اذهب[3] وهارون فادعوا ... إلى الله فـرعـون الذى كـان طاغـيـا

ويجد الفرصة مناسبة يتحـدث بشعره عن عظمة الله خالق السموات والأرض من خلال دعوة موسى وهارون لفرعون :

وقـــولا لـه: آأنت ســـويـت هذه ... با وتد حـتى اطمـأنـت كـمـا هـيـا
وقـــولا له: آأنت رفـــعـت هذه ... بلا عــــمــــد أرفق إذا بـك بانيـــا
وقـولا لـه: آأنت سـويت وسطـهـا ... منيـرا [4] إذا مــا جـنه الليـل هاديا
وقـولا له: من يرسل الشمس غـدوة ... فيصـبح ما مست من الأرض ضـاحيا
وقولا له : من ينبت الحب فى الثرى ... فـيـصــبح منه البـقل يهــتـز رابيـا
ويخـــرج منه حــبــه فى رؤوســه ... وفى ذاك آيات لمـن كــان واعــيـــا
وأنت بفـــضل منك نجـــيت يونســاً ... وقـد بات فى أضعـاف حـوت لياليـا

---

(١) السيرة الحلبية ١/ ٣٠١ .

(٢) يعيد ابن هشام هذا البيت لورقة .

(٣) فقلت له : يا اذهب . يقول السهيلى فيها :ألا يا اذهب ، على حذف المنادى كأنه قال: ألا يا هذا اذهب .

(٤) منيراً : كناية عن القمر .

ويختم قصيدته بالتسبيح والتنزيه الخالص فيقول :

وإنى ولو سـبـحت باسـمك ربنا لأكـثـر إلا مـا غـفـرت خطائيـا
فـرب العبـاد ألق سـيبـاً [1] ورحمة علـى وبارك فى بنـى ومـاليـا [2]

(١) السيب : العطاء والرحمة .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ذ ١/٢٨٩ ، ٢٩٠ .

# الفصل الخامس

# شعر أبى طالب وغيره فى الدفاع عن محمد بن عبد الله

## أبو طالب الشاعر :

نعيد إلى الذاكـرة قول أبى زرعة الرازى[1]: ( وما ولد عبـد المطلب ذكراً ولا أنثى إلا يقول الشعر إلا رسول الله ﷺ ) [2].

ولا غرو ففى العودة إلى وفاة عبد المطلب نشهد هذه الحادثة :

قال ابن إسحـاق : حدثنى محمـد بن سعيد بن المسيّب : أن عـبد المطلب لما حضرته الوفاة وعرف أنه ميت جمع بناته وكن ستّ نسوة: صفية، وبرة ، وعاتكة ، وأم حكيم البيضاء ، وأميمة ، وأروى. فقال لهن: ابكين على حتى أسمع ما تقلن قبل أن أموت .

قال ابن هشام : ولم أر أحداً من أهل العلم بالشـعر يعرف هذا الشعر إلا أنه لمّا رواه عن محمد بن سعيد بن المسيب [3] كتبناه [4].

فثقة ابن هشام بـالراوى دفعته لقبول هذ الشعر ، لا لتدنـى مستواه ، بل لعدم معرفة أهل الشعر به ، ثم يسوق لنا ابن إسـحاق ست مقطوعات شعرية لبنات عبد المطلب.

وبالعودة إلى بنيـه ، نرى ابن سلام الجمـحى حين يتحدث عن شعـراء القرى العربية ، يفتتح هؤلاء الشعراء بشعـراء مكة المكرمة ، ويعدد تسعة شعراء ثلثهم من

---

(١) عـبيد اللـه بن عبـد الكريم بـن يزيد بن فـروخ المخزومى بـالولاء ، أبو زرعة الـرازى : الإمام ، سـيـد الحفاظ، محدث الرى . مولده سنة مـائتين . من أهل الرى ، طلب الحديث وهو حدث ، وارتحل إلى الحجاز والشام، ومصر والعراق والجزيرة وخراسان ، وكتب ما لا يوصف كثرة . كان يحفظ مائة ألف حديث . توفى بالرىّ سنة ٢٦٤هـ . له مسند .

(٢) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ٥/ ٦٢٦ .

(٣) محمد بن سعيد المخزومى المدنى : مقبول الرواية من السادسة.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ذ/ ١ / ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

بنى عبد المطلب ،وهؤلاء الثلاثة هم : أبو طالب بن عبد المطلب ، والزبير بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب . فثلاثتهم من بنى عبد المطلب .

يقول ابن سلام الجمحى : وبمكة شعراء ،فأبرعهم شعرا عبد الله بن الزبعرى ابن قيس بن سعد . . . بن سهم ، وأبو طالب بن عبد المطلب شاعر، والزبير بن عبد المطلب شاعر ، وأبو سفيان بن الحارث شاعر ،ومسافر بن أبى عمرو بن أمية شاعر ، وضرار بن الخطاب الفهرى شاعر ،وأبو عزة الجمحى شاعر ، واسمه عمرو بن عبد الله، وعبد الله بن حذافة السهمى الممزق ،وهبيرة بن أبى وهب بن عامر . . . بن مخزوم شاعر [1].

ولقد كان عبد المطلب سيد مكة بلا منازع . وعلى يديه تم حفر زمزم وإسقاء الحجيج، وهو الذى اختاره رسول أبرهة الحبشى ليمثل مكة بين يديه .

فهذا حذيفة بن غانم أخو بنى عدى بن كعب بن لؤى يصف عبد المطلب ويبكى عليه بقوله :

( أعينى جودا بالدموع على الصدر ... ولا تسأما أسقيتما سبَل القطر[2]
على الماجد[3] البهلول[4] ذى الباع والندى ... ربيع لؤى فى القحوط وفى العسر
وأولاهم بالمجد والحلم والنهى ... وبالفضل عند المجحفات[5] من الغبر[6]
على شيبة الحمد الذى كان وجهه ... يضىء سواد الليل كالقمر البدر
وساقى الحجيج ثم للخير هاشم ... وعبد مناف ذلك السيد الفهرى
طوى زمزماً عند المقام فأصبحت ... سقايته فخراً على كل ذى فخر
ليبك عليه كل عان[7] بكربة ... وآل قصى من مقل[8] وذى وفر[9]
بنوه سراة [10] كهلهم وشبابهم ... تفلّق عنه بيضة الطائر الصقر)[11]

وذاك مطرود بن كعب الخزاعى يبكى عبد المطلب ، ويخلّد بنى عبد مناف

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى ١/ ٢٢٣ ـ ٢٣٥ .
(٢) سبَل القطر : المطر .
(٣) الماجد : الشريف .
(٤) البهلول : السيد .
(٥) المجحفات : التى تذهب بالأموال .
(٦) الغبر: السنون العجاف .
(٧) العانى : الأسير .
(٨) المقل : الفقير .
(٩) ذو وفر : ذو غنى .
(١٠) سراة : خيار .
(١١) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ١/ ٢٣١ .

بمآثرهم فيقول:

( يا أيها الرجل المحول رحله هلاً سألت عن آل عبد مناف
هبلتك [1] أمك لو حللت بدارهم ضمنوك من جرم[2] ومن إقراف [3]
الخالطين غنيهم بفقيرهم حتى يعود فقيرهم كالكافى
المنعمين إذا النجوم تغيرت والظاعنين لرحلة الإيلاف
والمطعمين إذا الرياح تناوحت [4] حتى تغيب الشمس فى الرجاف [5]
إما هلكت أبا الفعال فما جرى من فوق مثلك عقد ذات نطاف [6]
إلا أبيك أبى المكارم وحده والفيض مطلب أبى الأضياف) [7]

فبنو عبد مناف سادة قريش، وقريش الحرم، وعبد المطلب سيد بنى عبد مناف ، وسيد مكة بلا منازع . وجاء أبو طالب فورث هذه المكارم ، وورث السيادة والسؤدد، وغدا شيخ بنى هاشم بلا منازع ، والسيد الأول فى بنى عبد مناف ، ومن أكبر رجالات قريش .

ونحن حريصون على إيضاح هذه المعانى لأن الحرب الدائرة من الآن بين رسول الله ﷺ وقريش هى فى ذهن أبى طالب ، حرب على الشرف أولاً ، فلا يمكن إلا أن يذود عن عرينه العربى المنافى الهاشمى . وتلقى المكارم كلها منصبة فى الحديث عن الجود والكرم ، ومن غير بنى هاشم ، وعبد المطلب أولى بهذا الشرف ، وهم مطعمو الحجيج ، وسقاته ، وهم سدنة البيت وحماته .

**أبو طالب والخيار الصعب :**

رسول الله ﷺ يتلقى الوحى والنور فى حراء ، ويبدأ السمار يتحدثون بدعوته، ويبدأ الشباب يفدون وينضمون إليه ، ( فلما بادى رسول الله ﷺ قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله لم يبعد منه قومه - فيما بلغنى - حتى ذكر آلهتهم وعابها ، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه وأجمعوا خلافه وعداوته إلا من

(١) هبلتك أمك : أى فقدتك ، وهى على جهة الإغراء لا الدعاء .
(٢) الجرم : انقطاع وحرمان .
(٣) الإقراف : مقاربة الهجنة والدناءة .
(٤) تناوحت : تقابلت .
(٥) الرجاف : البحر .
(٦) ذات نطاف : جمع نطفة وهى القرط .
(٧) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ١ / ٣٣٤، ٣٣٥ .

عصم الله منهم بالإسلام ،وهم قليل مستخفون،وحدب على رسول الله ﷺ عمه أبا طالب ،ومنعه وقام دونه) [1].

وكانت الخطوة الأولى بين قريش وأبى طالب تطلب منه كفَّ محمد عن عيب آلهتهم ، فصرفهم أبو طالب بحكمة ،ثم كانت الخطوة الثانية حين هددوا أبا طالب بالمواجهة :

( . . . وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا ، حتى تكفَّه عنا أو ننازلك وإياه فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين ) [2].

وأبو طالب على دين قومه ، ودخل فى الخيار الصعب فهو إما أن يواجه قومه،وإما أن يخذل ابن أخيه محمداً ﷺ . فبعث إلى رسول الله ﷺ فقال له :

( يا بن أخى إن قومك قد جاؤونى فقالوا لى كذا وكذا ، للذى كانوا قالوا له، فابق علىَّ وعلى نفسك ،ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق ، قال: فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بداء أنه خاذله ومسلِّمه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه ، فقال رسول الله ﷺ :« يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » .

ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى ، ثم قام ، فلما ولّى ناداه أبو طالب فقال: أقبل يا بن أخى . قال: فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال:

اذهب يا بن أخى . فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشىء أبداً ) [3].

وأبو طالب أعلم الناس بعظمة ابن أخيه وفضائله ونفاسة معدنه ، واختار اختيار الرجال ، أن يقف بجوار ابن أخيه، ويواجه قريشاً بأجمعها، وما أصعبه من موقف ، وما أخطره من أمر ، فما تنقم قريش من محمد هو ينقمه كذلك ، لكن محمداً سيد شباب قريش فضلاً ونبلاً وخلقاً ،وعفة ،وشهامة،ومروءة ،لن يخذله ،ولو أودى ذلك بحياته ،ولم تكن إجارة المستضعفين ،بل كانت إجارة الرجال ،فلم يناقشه فى كلمة واحدة مما يقول: إنما قال له كلمته الخالدة :

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ذ/١/٣٢٦ .        (٢) المصدر نفسه ١/ ٣٢٩ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ذ/١ / ٣٢٩ ، ٣٣٠ .

اذهب يا بن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشىء أبداً .

وكان موقفا لا مثيل له فى العرب ،وذلك حين يسند محمداً ويتبناه ،بغض النظر عن كل ما يقوله ، ولو كان قوله شتم الآباء ،وعيب الآلهة ،وتسفيه الأحلام، فما مثل محمد يناقش فيما يقول .

وشاءت إرادة الله تعالى أن تكون حماية دينه ونبيه فى هذه المرحلة بالسيوف الجاهلية ، والعصبة الهاشمية .

## وحقِب الأمر، وحميت الحرب :

وبلغ من خوف قريش من خطر محمد أن عرضت أنهد فتىّ فى شبابها ليكون بديلاً لأبى طالب عن محمد بن عبد الله .

( ثم إن قريشاً حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ﷺ وإسلامه وإجماعه لفراقهم فى ذلك ، وعداوتهم ، مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة ،قالوا له فيما بلغنى :

يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد أنهد[1] فتى فى قريش وأجمله، فخذه ، فلك عقله ونصره ،واتخذه ولداً فهو لك ،وأسلم إلينا ابن أخيك ،هذا الذى خالف دينك ، ودين آبائك،وفرّ من جماعة قومك ،وسفّه أحلامهم فنقلته، فإنما هو رجل برجل. فقال:

والله لبئس ما تسوموننى ! أتعطوننى ابنكم أغذوه [2] لكم ،وأعطيكم ابنى تقتلونه! هذا والله ما لا يكون أبداً . قال: فقال المطعم بن عدى: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك ،وجهدوا على التخلص مما تكرهه ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً. فقال أبو طالب للمطعم : والله ما أنصفونى ولكنك قد أجمعت خذلانى ، ومظاهرة القوم على ، فاصنع ما بدا لك ، أو كما قال: فحقب[3] الأمر وحميت الحرب ، وتنابذ القوم ،وبادى بعضهم بعضاً .

فقال أبو طالب عند ذلك يعرِّض بالمطعم بن عَدى ،ويعُمُّ من خذله من بنى

---

(١) أنهد فتى : أشده وأقواه .

(٢) أغذوه لكم : أطعمه وأقويه .

(٣) حقِب الأمر : أى زاد واشتد .

عبد مناف ، ومن عاداه من قبائل قريش ، ويذكر ما سألوه ، وما تباعد من أمرهم. . . ) (١).

ولا بد لنا قبل أن نفتتح الحديث عن شعر أبى طالب أن نعرض صفحة مكة ، وقبائلها ليبدو الأمر جلياً فى طبيعة هذا الصراع القائم . فقريش البطاح الذين سكنوا مكة هم عشر بطون هى:

بنو عبد مناف ،وبنو عبد الدار ،وبنو زهرة بن كلاب،وبنو مخزوم بن يقظة، وبنو تيم بن مرة ،وبنو جمح ،وبنو سهم ،وبنو عدى بن مالك ،وبنو عامر بن لؤى .

وكان بنو عبد مناف يتنازعون السيادة العليا مع بنى مخزوم. كما يقول أبو جهل بن هشام: تنازعنا وبنو عبد مناف الشرف ،أطعموا فأطعمنا ،وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، فلما تحاذينا على الركب،وصرنا كفرسى رهان. قالوا: منا نبى يأتيه الوحى من السماء. فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه (٢).

وبنو عبد مناف قد انقسموا إلى أربعة بطون هم :

بنو هاشم ، وبنو المطلب ،وبنو نوفل ، وبنو أمية بن عبد شمس .

والأربعة: هاشم والمطلب ونوفل وعبد شمس هم أولاد عبد مناف .وكانت المنافسة بين بنى أمية وبنى هاشم فى التنازع على السيادة ،وانتهت سيادة بنى هاشم لأبى طالب ،وسيادة بنى أمية لأبى سفيان ، وعتبة بن ربيعة ،وسعيد بن العاص ، وسيادة بنى نوفل للمطعم بن عدى،بينما انضم بنو المطلب لبنى هاشم حتى كأنهما فرع واحد .

فى هذه الأجواء كانت البعثة النبوية، وحين قاد رحى الحرب ضد بنى عبد مناف بنو مخزوم ،وعلى رأسهم الوليد بن المغيرة ،وابن أخيه عمرو بن هشام ،أبو جهل .كان لا بد لأبى طالب أن يستنهض همم بنى عبد مناف ليقفوا صفاً واحداً ضد قريش عامة ، وبنى مخزوم خاصة ،الذين يريدون القضاء على سيد بنى هاشم محمد بن عبد الله ﷺ. ولذلك عندما وقف المطعم بن عدى هذا الموقف

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ١/ ٣٣٠ ـ ٣٣١ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ١/ ٣٩٠ .

المتخاذل قائلاً لأبى طالب :

( والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك ،وجهدوا على التخلص مما تكره .فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً . كـانت غصة فى حلق أبى طالب حيث يرى المطعم أمس الناس رحما به يمالئ قريشا على تسليم سيد مكة محمد بن عبد الله لقومه يقتلونه ،فأجابه ذلك الجواب العنيف :

( والله ما أنصفونى ،ولكنك قد أجمعت خذلانى ومظاهرة القوم على، فاصنع ما بدا لك ) .

وعاد أبو طالب يتجرع غصص هذا الخذلان ،فصاغه شعراً شجياً ، تناول فيه زعماء بنى نوفل جميعاً المطعم بن عدى ،وأخاه الوليد بن عدى، وعمهما عمرو ابن نوفل،حيث صورهم تلك الصورة المهينة الزرية فى عونهم له مثل ذلك الجمل الخائر البعيد فى بيداء شاسعة :

ألا قل لعمرو والوليد ومطعم ... ألا ليت حظى من حياطتكم بكر[1]
من الخور[2] جبجاب[3] كثير رغاؤه ... يرش على الساقين من بوله قطر
تخلف خلف الورد ليس بلاحق ... إذا ما علا الفيفاء[4] قيل له وبر[5]

إنها صورة تشبيهية فى قمة الإبداع الفنى ،فأى رجاء يرتجى من ذلك الجمل الذى يرش البول على ساقيه وهو يمشى ،وقد تخلّف خلف الركب، يكاد يحسبه الناظر فيه من بعيد دويبة صغيرة ؟! فهل يمكن الاعتماد والنصرة على مثل هذا الجمل ؟وعلى هذا فهو أكثر ثقة وأملاً بالعون والنصر منه من زعماء بنى نوفل الثلاثة :

أرى أخوينا من أبينا وأمنا ... إذا سئلا قالا إلى غيرنا الأمر
بلى لهما أمر ولكن تجرجما [6] ... كما جرجمت من رأس ذى علق[7] صخر
أخص خصوصاً عبد شمس ونوفلاً ... هما نبذانا مثل ما ينبذ الجمر

(١) البكر : الجمل الصغير . (٢) الخور : الضعاف من الإبل .
(٣) الجبجاب : الكثير الهدر ،والجبحاب : الصغير ،والخيحاب : الضعيف .
(٤) الفيفاء : المكان المتسع من الأرض . (٥) الوبر : دويبة كالسنور .
(٦) تجرجما : سقطا . (٧) ذو علق : جبل فى ديار بنى أسد .

وعاد هنا يُوجه جام هجائه ونقده لبنى عمه عبد شمس ونوفل ،فرعى بنى عبد مناف ،فهما يتملصان من والنصرة ويدعيان حيناً أنهما مغلوبان على أمرهما ، ولكن موقفهما عارٍ ومفضوح ! إنهما تخليا عن كل قيم القبيلة ، ورضيا أن يسلما سيد بنى عبد منافٍ لأعدائه .

هما أغمزا [١] للقوم فى أخويهما فقد أصبحا منهم أكفهم صفر[٢]
هما أشركا فى المجد من لا أبا له من الناس إلا أن يرس[٣] له ذكر

إنهما يتخليان عن سيدهما ،ويخونان أمانة العشيرة ، فينضمان إلى أولئك المغمورين أمام بنى عبد مناف ،ويرفعان قوماً إلى السيادة من غيرهم :

وتيم ومخزوم وزهرة منهم وكانوا لنا مولىً إذا بغى النصر

وطالما أن قريشاً أعلنت الحرب ، فها هو أبو طالب يشمر عن ساقيه لها غير هياب ولا وجل :

فوالله ما تنفك منا عداوة ولا منهم ما كان من نسلنا شفر[٤]
فقد سُفهت أحلامهم وعقولهم وكانوا كجفر[٥] بئس ما صنعت جفر

قال ابن هشام: تركنا منهما بيتين أقذع فيهما ) [٦] .

**أبو طالب يكون الحزب الهاشمى :**

ثم إن قريشاً تذامروا بينهم على من فى القبائل منهم من أصحاب رسول الله ﷺ الذين أسلموا معه . فوثب كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ، ويفتنونهم عن دينهم ،ومنع الله رسوله ﷺ بعمه أبى طالب.وقد قام أبو طالب حين رأى قريشاً وما يصنعون فى بنى هاشم وبنى المطلب فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله ﷺ ، والقيام دونه فاجتمعوا إليه ، وقاموا معه ، وأجابوه

(١) أغمزا : أغمز فلان فى فلان إذا استصغره وعابه ، وصغر شأنه .
(٢) الصفر : الخالى .
(٣) يرس : يذكر .يقال : رسست الحديث إذا حدثت به فى خفاء .
(٤) شفر : أحد .
(٥) الجَفر : من أولاد الشاء ما عظم واستكرش ،أو بلغ أربعة أشهر .والجفر: البئر لم تطو أو طوى بعضها .
(٦) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٧٧ ، ١٧٨ .

إلى ما دعاهم إليه ، إلا ما كان من أبى لهب عدو الله الملعون[1] .

ونلحظ بعض تفصيلات هذه الجلسة من خلال هذا الحوار العنيف .

( فتكلم القوم كلاماً ليناً غير أبى لهب فإنه قال :

يا بنى عبد المطلب ، هذه والله السوأة ،خذوا على يديه قبل أن يأخذ على يديه غيركم ،فإن أسلمتموه حينئذ ذللتم ،وإن منعتموه قتلتم . فقالت له أخته صفية عمة رسول الله ﷺ رضى الله تعالى عنها : أى أخى أيحسن بك خذلان ابن أخيك . فوالله ما زال العلماء يخبرون أنه يخرج من ضئضئ [2] عبد المطلب نبى فهو هو . قال : هذا والله الباطل والأمانى ، وكلام النساء فى الحجال ، إذا قامت بطون قريش ،وقامت معها العرب ، فما قوتنا بهم ،فوالله ما نحن عندهم إلا أكلة رأس ) [3].

وانتظر القوم بعد هذا النقاش الكلمة الحاسمة النهائية من شيخ بنى هاشم أبى طالب، فقال كلمته الخالدة :

( والله لنمنعنّه ما بقينا ) [4].

لقد كانت دعوة أبى طالب الأولى لبنى عبد المطلب ،وكانت هذه الدعوة موجهة من النبى ﷺ لهم استجابة لأمر ربه ،﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [ الشعراء ] . وكان رجال عبد المطلب كما فى رواية البيهقى :( هم يومئذ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً ،أو ينقصونه فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب ) [5] .

ثم كانت الدعوة الثانية لبنى هاشم وبنى عبد المطلب ،فاستجابوا جميعاً إلا أبا لهب.

ثم كانت الدعوة الثالثة لبنى عبد مناف . فتخاذل فرعاها الآخران بنو نوفل وبنو أمية بن عبد شمس .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٢/ ٣٣٣ . (٢) من ضئضئ : من أصل .

(٣، ٤) إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون المعروفة بالسيرة الحلبية ط ١ ، ١٩٦٤م . شركة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر .

(٥) دلائل النبوة للبيهقى٢/ ١٧٩ .

وقام أبو طالب بإعلان هذا الحزب على الملأ ،وأهدافه الكبرى هى حماية محمد ﷺ من أى اعتداء يقع عليه ،لقد كان أبو طالب هو الشاعر والناطق الرسمى باسم هذا الحزب الهاشمى المطلبى ، وهو رئيس هذا الحزب . يقول:

إذا اجتمعت يوماً قريش لمفخر — فعبد مناف سرُّها وصميمها [1]
وإن حُصّلت أشراف عبد منافها — ففى هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت يوماً فإن محمدًا — هو المصطفى من سرِّها وكريمها

فإذا كانت قريش خير العرب ،فبنو عبد مناف خير قريش ،وبنو هاشم خير بنى عبد مناف، والمصطفى محمد ﷺ هو سيد بنى هاشم .

لقد قال أبو طالب هذا المعنى شعراً ،على الملأ من قومه، وقاله نثراً يوم جاء يخطب خديجة لرسول الله ﷺ ، فذكر ( أبو الحسين بن فارس وغيره أن أبا طالب خطب يومئذ فقال :

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم ،وزرع إسماعيل ،وضئضئ [2]معد ، وعنصر مضر. وجعلنا حضنة[3] بيته ،وسواس حرمه[4]،وجعله لنا بيتاً محجوجاً، وحرمًا آمنًا ،وجعلنا حكام الناس .ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح به شرفا ونبلاً وفضلاً وعقلاً .وإن كان فى المال قُل [5] فإن المال ظل زائل، وأمر حائل، وعارية مسترجعة .وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل ، وقد خطب إليكم رغبة فى كريمتكم خديجة . . . ) [6].

فهذا هو محمد بن عبد الله فى ذهن أبى طالب ،وفى شعوره ،وفى نفوس قومه جميعاً، سيد قومه شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً ،وهم ما تجمعوا إلا لتأييده والذود عنه بغض النظر عما يقوله .

ويعلن أبو طالب على أثر تشكيل هذا الحزب استعداده الكامل لمواجهة خصومه :

---

(١) سرها وصميمها : أى خالصها وكريمها .يقال : فلان من سر قوم : أى من أشرافهم .
(٢) ضئضئ معد :أصله ومعدنه .
(٣) حضنة بيته : المتكلفون بشأنه .
(٤) سواس حرمه : القائمون بخدمته .
(٥) قُلٌّ : قليل .
(٦) السيرة الحلبية لابن برهان الدين الحلبى ١/ ٢٢٦ .

تداعت قـريش غـثـها وسـمـينهـا[1] | علينا فـلـم تظفـر وطاشت حلـومـهـا
وكنـا قــديماً لا نـقــرُّ ظـلامــة | إذا ما ثنوا [2] صعر[3] الخدود نقيمها
ونحـمى حــمـاهـا كل يوم كــريهـة | ونضرب عن أحـجارها[4] من يرومـهـا
بنا انـتـعـش العــود الذواء[5] وإنمـا | بأكنافنا تندى وتـنمى أرومهـا [6] [7]

لقـد فقـدت قـريش عقلهـا وصـوابها يوم راحت تتـداعى لحـرب بنى هاشم وسيدهم محمد بن عبـد الله خيرة قريش، وبنو هاشم هم ميزان الحق والعدالة ، فهم الذين يقيمـون اعوجاج المتكبرين بسيوفهم ،وهم حـماة قريش فى الكريهة ، وأبطالهـا يوم الوغى ضـد من يريد النيل منهـا ،وما انتـعـشت قريش ،واخـضل أخضـرها إلا ببنى هاشم ،وما طابت أصولهـا ونمت فروعهـا إلا ببنى هاشم سدنة البيت ، وصريح ولد إسماعيل ،وسر قـريش ، وصميمها ، فمن الذى يحاول أن ينال منهم بمكروه ؟

**مخزوم تسعى لحرب عربية طاحنة :**

جاء موسم الحج ،واستطاع سيد بنى مـخزوم أن يجمع قريش كلها على رأى واحد ما عدا بنى هاشم وبنى المطلب ،ويصدروا عن مـوقف واحد من محمد بن عبد الله .

( وإن أقرب القـول أن تقولوا فيـه لأن تقولوا ساحـر . جاء بقول هو سـحر يفرق بين المرء وأبيه ،وبين المرء وأخيه ،وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك ، فجـعلوا يجلسون سبل الناس حين قدموا الموسم ،لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا لهم أمره .

قال ابن إسـحاق : فجـعل أولئك النفر يقولـون ذلك فى رسول الله ﷺ لمن لقوا من الناس وصـدرت العرب من ذلك الموسم بأمـر رسول الله ﷺ ، فانتـشر

(١) غثها وسـمينها : الغث هو اللحم الضعيف ،واستـعير هنا لمن نسبه ضعـيف فى قرى ، أو لا يؤبه بشأنه ، والسمين عكسه .
(٢) ثنوا : عطفوا .
(٣) صعر الخدود : الخدود المائلة استكباراً .
(٤) أحجارها : المراد به بيوتها ومساكنها .
(٥) العود الذواء : الذى جفت رطوبته .
(٦) الأروم : جمع أرومة وهى الأصل.
(٧) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٢/ ٣٣٣ ، ٣٣٤ .

ذكره فى بلاد العرب كلها ) [1] .

## وأبو طالب يواجه هذه الحرب:

فلما خشى أبو طالب دهماء العرب أن يركبوه مع قومه، قال قصيدته التى تعوذ فيها بحرم مكة وبمكانه منها ، وتودد فيها أشراف قومه ، وهو على ذلك يخبرهم وغيره فى ذلك من شعره أنه غير مسلم رسول الله ﷺ ، ولا تاركه لشىء أبداً حتى يهلك دونه [2].

لقد كانت هذه القصيدة بمثابة قنبلة تفجرت فى الأرض العربية، وضع فيها أبو طالب عصارة قلبه وعقله ، وصاغها شعراً تتناقله الركبان ، لتواجه الحرب الإعلامية التى قادها ضده وضد ابن أخيه الوليد بن المغيرة ، وقد مثلت ذروة المعركة العربية فى الدفاع عن محمد ﷺ من المشركين.

إنها ظاهرة فريدة فى التاريخ أن يقف المشركون من بنى هاشم وبنى المطلب وراء سيدهم محمد ﷺ وهو يعيب آلهتهم ، ويسفه عقولهم، ومع ذلك فإعجابهم به يدفعهم لأن يقدّموا حياتهم فى سبيله ، وأن يضحوا بأرواحهم من أجله على رأسهم شيخهم أبو طالب ، بغض النظر عما يقول فيهم وفى عقائدهم وفى أحلامهم وفى آلهتهم، وإنها للعظمة لنبى هذه الأمة وسيد ولد آدم أن يقوم الحزب الهاشمى المشرك بحمايته والذود عنه، وإعلان مواجهة العرب كافة فى سبيله، فى مواجهة تلك الفرية التى أطلقتها قريش ضده أنه ساحر يمزق الشمل ويفرق الجمع، ولا بد من الحذر منه ومواجهته .

## القصيد العصماء :

لقد مضت القصيدة فى الأدب العربى الجاهلى رمزاً من رموزه، وقد ساق ابن هشام أربعة وتسعين بيتاً منها ، وقال عقب ذلك ، هذا ما صح لى من هذه القصيدة ، وبعض أهل العلم بالشعر ينكر أكثرها ، لكن الأكثرين من أهلِ العلم بالشعر تلقوها بالقبول والإعجاب ، وتحدث عنها ابن سلاّم الجمحى فى كتابه طبقات فحول الشعراء فقال:

---

(١ ، ٢) السيرة النبوية لابن هشام ذ /١/ ٣٣٥ ـ ٣٣٧ .

( وكان أبو طالب شاعراً جيد الكلام ،أبرع ما قال قصيدته التى مدح فيها النبى ﷺ:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأرامل

وقد زيد فيها وطوّلت ،ورأيت فى كتاب يوسف بن سعد صاحبنا منذ أكثر من مائة سنة ،وقد علمت أن قد زاد الناس فيها ،ولا أدرى أين منتهاها ،وسألنى الأصمعى عنها فقلت: صحيحة جيدة. قال: أتدرى أين منتهاها ؟ قلت : لا )[١].

ونلاحظ أن أبا طالب لم يمض فى قصيدته هذه على النسق الجاهلى فى البكاء على الإطلال ،ووصف محبوبته وهودجها ،لينتقل بعدها إلى موضوعه الذى يريد بل نراه خرق هذا القيد ،وتناول موضوعه مباشرة ،لما يرى فيه من الخطورة والأهمية .

ونستطيع أن نوزّع القصيدة على الموضوعات التالية :

**أولاً** :تناول فى أربعة أبيات الحرب المعلنة من قريش ،واستعداده لمواجهتها،ولو بالسلاح عند بيت الله الحرام .

**ثانيًا** :التعوذ بالله ،ثم بالبيت وبكل مقدسات الحرم من هذه الحرب التى فرضت فرضاً عليه،وذلك فى سبعة عشر بيتاً هى من أطول الموضوعات .

**ثالثًا** :الشجاعة الهاشمية ،والاستعداد للموت ،وتحمل كل لأواء هذه الحرب فى تسعة أبيات فيها .

**رابعًا**: طبيعة هذه الحرب هى حماية سيد بنى هاشم محمد بن عبد الله ، ووصف مآثر محمد ﷺ وأخلاقه ومواطن عظمته ،فى ثلاثة أبيات .

**خامسًا**: عتاب مرير للأقربين الأدنين من أهله ،والذين تخاذلوا عن الانضمام إليه واختاروا الانضمام إلى العدو ، وذلك فى واحد وعشرين بيتا هى أطول الموضوعات ، وفيها حث للهمم للانضمام إليه.

**سادسًا** : حديث عن العدو اللدود من قريش الذين سعّروا الحرب ضده وضد بنى هاشم ،وذلك فى حديثه عن الأحلاف والمطيبين .وذلك فى عشرين بيتاً .

(١) طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٢٤ ـ ٢٤٥ .

**سابعاً** : عودة إلى مديح محمد ﷺ ،وذلك فى اثنى عشر بيتاً يتم ختام القصيدة بها .

عرض القصيدة :

| | |
|---|---|
| ولما رأيت القوم لا ود فيهم | وقد قطعوا كل العرى والوسائل [1] |
| وقد صارحونا بالعداوة والأذى | وقد طاوعوا أمر العدو المزايل [2] |
| وقد حالفوا قوماً علينا أظنة [3] | يعضون غيظًا خلفنا بالأنامل[4] [5] |

فهو انطلاق من القيم الجاهلية التى تعتبر الخيانة فى التمالؤ مع العدو ،والقوم هنا أهله وعشيرته من بنى عبد مناف ،وبالعودة إلى سبل الهدى والرشاد للصالحى نلاحظ أنه أضاف بعض الأبيات زيادة على ابن هشام ،تتناسب وعمود الشعر الجاهلى، إذ يقول فى مطلع القصيدة :

| | |
|---|---|
| خليلىَّ ما أذنى لأول عاذل | بصغواء[6] فى حق ولا عند باطل |
| خليلىَّ إن الرأى ليس بشركة | ولا نهنه[7] عند الأمور البلابل [8] |

وكثيراً ما شهدنا مطلع القصائد الجاهلية بمثل هذا الافتتاح .

يقول الصالحى:

( وقد أوردها ابن إسحاق،وأبو هفان عبد الله بن أحمد المهزمى[9] فى جمعه لشعر أبى طالب بكماله، وزاد على ابن إسحاق أبياتاً كثيرة فى أماكن متعددة ،وقد أوردت هنا خلاصة ما ذكراه ) [10].

فالحديث عن العذال ، وعدم الإصغاء إليهم هو ديدن شعراء العربية، وهذا ما

---

(١) الوسائل :جمع وسيله وهى القُربة .
(٢) المزايل : المحاول المعالج.
(٣) أظنة : جمع ظنين وهو المتهم .
(٤) الأنامل : رؤوس الأصابع .
(٥) السيرة النبوية لابن هشام ذ /١/ ٣٣٨ .
(٦) صغواء : من الإصغاء والاستماع .
(٧) نهنه : يقال نهنهت الرجل إذا كففته .
(٨) البلابل : الأمور المهمة .
(٩) عبد الله بن أحمد بن حرب المهزمى العبدى،أبو هفان: راوية عالم بالشعر والأدب ،أخذ عن الأصمعى وغيره . اللباب ٣/ ١٩٤.
(١٠) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى.وهى التى تسمى بالسيرة الشامية ٢/ ٦٠٥ . الطبعة الصادرة عن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة. ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م، تحقيق مصطفى عبد الواحد للجزء الثانى .

يؤكده أبو طالب ، ويؤكد أن الرأى ليس بتوجيه خارجى ، أو مشاركة ثنائية عندما تقع الأمور العظام ، وكيف يكون الأمر كذلك إذا أجمع القوم على الضلالة والأذى، وقطع وشائج القربى ،فكيف يحق لبنى عبد مناف أن يتخلوا عن سيدهم محمد بن عبد الله لمجاراة القبائل الأخرى التى تنازعهم الشرف ،وتعض عليهم الأنامل غيظاً من وجود هذا السيد فيهم ، ويطاوعون أمر العدو فيما يخصهم وشأنهم؟ إن موقف الرجولة والبطولة يقتضى مقارعة هؤلاء الخصوم الظالمين ، ولو كان أبو طالب وحده :

صبرت لهم نفسى بسمراء [1] سمحة ... وأبيض عضب[2] من تراث المقاول[3]
وأحضرت عند البيت رهطى وإخوتى ... وأمسكت من أثيابه بالوصائل[4] لدى
قياماً معاً مستقبلين رتاجه [5] ... حيث يقضى حلفه كل نافل [6]
وحيث ينيخ الأشعرون [7] ركابهم ... بمُفضى السيول من إساف ونائل [8]
موسمّة [9] الأعضاد أو قصراتها [10] ... مخيَّسة بين السديس[11] وبازل [12]
ترى الودع فيها والرخام وزينة ... بأعناقها معقودة كالعثاكل[13] [14]

إن القنا والسيوف هى عدة الحرب ،وقناته سمراء تسمح بالانعطاف عند هزها،وسيفه من تراث الملوك ،وقد أحضر عند البيت الحرام أهله ورهطه وإخوته

---

(١) سمراء سمحة : قناة تسمح بالانعطاف عند هزها.

(٢) أبيض عضب : كناية عن السيف القاطع .

(٣) من تراث المقاول : الملوك .ويحتمل أن يكون هذا السيف الذى ذكر أبو طالب من هبات الملوك لأبيه ،فقد وهب ابن ذى يزن له هبات جزلة . ( ٢٢/٢ ) .

(٤) الوصائل : ثيات حمر فيها خطوط كان البيت يكسى بها .

(٥) الرتاج : يعنى به هنا الباب .

(٦) النافل: يعنى كل برىء .يقال: انتفل من كذا ، أى تبرأ منه .

(٧) الأشعرون :الذين يقومون بمشاعر الحج .

(٨) إساف ونائلة : صنمان كانا بمكة فى الجاهلية .وعندهما كانت تنحر الذبائح.

(٩) موسمة الأعضاد : يعنى معلّمة فى أعضادها .

(١٠) القصرات : أصول الأعناق ، واحدتها قصرة .

(١١) السديس من الإبل : الذى دخل السنة السادسة .

(١٢) البازل من الإبل : الذى خرج نابه فى السنة التاسعة.

(١٣) العثاكل : الأغصان التى ينبت عليها الشجر .

(١٤) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ١/ ٣٣٨.

مستقبلين الكعبة المشرفة ،وتمسكوا بأثوابها ،وهذه هى عادة العرب عامة وقريش خاصة من اللجوء إن البيت الحرام ، حيث أقدس بقعة فى الأرض يدعون الله عندها ، لقد فعلها عبد المطلب يوم جاء أبرهة يغزو الكعبة ، وحيث قام عبد المطلب فأخذ بحلقة الكعبة وقام معه نفر من قريش ، ويستنصرونه على أبرهة وجنده فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لا هم[1] إن العبد يمنع حلّه فامنع حلالك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبداً محالك[2]
إن كنت تاركهم وقبلتنا ،فأمر ما بدا لك [3]

فأبو طالب وقد أحضر رهطه وإخوته على سنة أبيه عبد المطلب ،وفعلها أبو سفيان بن حرب يوم الخندق فيما رواه ابن إسحاق عن الزهرى عن عبد الله بن ثعلبة قال النفر: فأخرج خمسين رجلاً من قريش كلها أنت فيهم ،وندخل نحن وأنتم بين أستار الكعبة حتى نلصق أكبادنا فيها ، ثم نحلف بالله جميعاً لا يخذل بعضنا بعضاً ،ولتكونن كلمتنا واحدة على هذا الرجل ما بقى منا رجل .ففعلوا، وتحالفوا على ذلك وتعاقدوا [4].

لقد قام ورهطه وإخوته مستقبلين باب الكعبة حيث يقف كل الدعاة ،وعند إساف ونائلة حيث تنحر الذبائح ،وبطبيعته الشاعرية يقف عند الركائب المنيخة ، كما كان يقف الشاعر عند وصف ناقته ،فيترك الموضوع الرئيسى ليصور لنا هذه الركائب المعدة للذبح، وقد وضع الوسم بها علامة على إعدادها لذلك فى أعضادها وأعناقها ،كما علق الخرز فى رقابها مثل الثمر النابت على الأغصان .

وقد أوقفنا عند هذا المنظر ، وحبس أنفاسنا إزاءه ،لنشهد معه ذلك التعوذ الذى لا نجد له مثيلاً فى الشعر العربى ؛ لأنه صادر من حاضن البيت وسائس الحرم أبى طالب، كما سمى بنو هاشم ( حضنة بيته ،وسواس حرمه ) .

فلا يدع مقدسة من البقاع والشعائر إلا ويقسم بها ،ويتعوذ بها بعد تعوذه بالله عز وجلّ من شر قومه الذين أجمعوا على حربه .

---

(١) مخففة من اللهم .
(٢) المحال : القوة .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام و ١/ ٣٥ .
(٤) المغازى للواقدى ٢/ ٤٤٢ .

أعـــوذ بربِ الـناس من كل طـاعن ... علـينـا بســـوءٍ أو مُلحٍّ بـبـــاطل
ومن كـاشح[1] يسـعى لنـا بمعـيـبـة ... ومن ملـحق بالدين مـــا لم نحـــاول

لقد كانت الاستعاذة برب الناس من الحنيفية السمحة دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أمـا الاستعـاذة والقسم بهـذه المقدسات فى مكة، فـهى مما دخل إلى هذه الحنيفية من الشرك والوثنية، والتى ابتدأت على يد عمرو بن لحى الخزاعى[2]، وهو ينتـقل بعد الاسـتعـاذة بالله من طعن الطاعنين والوشـاة بالباطل، والقـاذفين بغـير الحق، إلى هذه التعوذات :

وثورٍ [3] ومن أرسى ثبـيراً [4] مكانه ... وراق ليــــــرقـى فى حـــــراء ونــازل
وبالبـيت حق البـيـت من بطن مكة ... وبـالـله إن الـلـه لـيـس بغـــــــافـل
وبالحـجر المسـوَدِّ [5] إذ يمسحـونه ... إذا اكـتنفـوه[6] بالضـــحى والأصـــائل[7]
وموطئ إبراهيم[8] فى الصخر رطبة[9] ... على قـــدمـيـــه حــافـيـــاً غـيــر ناعل
وأشواط بين المروتين[10] إلى الصفا ... ومـــا فـيـــهـمـــا من صـــورة وتماثل[11]
ومن حـج بيت الـله من كـل راكب ... ومـن كــل ذى نـذر ومـن كــل راجـل
وبالمعشر الأقصى[12] إذا عمـدوا له ... إلال[13] إلى مفضى الشراج[14] القوابل[15]

---

(١) الكاشح : المضمر العداوة .

(٢) عمرو بن لحى من خزاعة : هو أول من غير دين إبراهيم ، وهو الذى سيَّب السائبة ، وبحر البحيرة ، وأدخل الأوثان إلى جزيرة العرب . قال فيه عليه الصلاة والسلام : « رأيت عمرو بن عامر الخزاعى يجر قصبه فى النار » . ( صحيح عن أبى هريرة ) .

(٣) ثور : الغار الذى أقام فيه رسول الله ﷺ أيام الهجرة .

(٤) ثبير : جبل بمكة .

(٥) المسود : روى الأسود ، وفيه زحاف .

(٦) اكتنفوه : أحاطوا به واجتمعوا عليه.

(٧) الأصائل : جمع أصيل ، وهو ما بعد صلاة العصر إلى الغروب .

(٨) موطئ إبراهيم: يعنى موطئ قدميه ، وهو ما يسمى بمقام إبراهيم الذى ذكره الله تعالى فى كتابه : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [ البقرة : ١٢٥] .

(٩) كانت رطبة حين قام عليها عليه الصلاة والسلام ، ثم جفّت وبقى أثرها .

(١٠) أشواط بين المروتين : كناية عن السعى بين الصفا والمروة .

(١١) ما فيهما من صورة وتماثل : حيث كان عند الصفا والمروة صنمان يعظمهما الأوس والخزرج ، وهما إساف ونائلة . قال الشعبى : كان إساف على الصفا ، ونائلة على المروة . وانظر: تفسير ابن كثير ١/ ٣٥٠. فالتماثل هى التماثيل ، وحذفت الياء للوزن .

(١٢) المشعر الأقصى : عرفة .

(١٣) إلال : جبل عرفـة . ( قال النابغة : يزرن إلالاً سيرهن التدافع . وسـمى إلالاً ؛ لأن الحجاج إذا رأوه ألوا فى السير أى : اجتهدوا فيه ) انظر : الروض للسهيلى ١/ ٢/ ٢٥ .

(١٤) الشراج : جمع شرج ، وهو مسيل الماء .

(١٥) القوابل : المتقابلة .

وتوقافهم فوق الجبال عشية | يقيمون بالأيدى صدور الرواحل
وليلة جمع[1] والمنازل من منى | وهل فوقها من حرمة ومنازل
وجمع إذا ما المقربات[2] أجزنه | سراعاً كما يخرجن من وقع وابل[3]
وبالجمرة الكبرى إذا صمدوا لها | يؤمون قذفاً رأسها بالجنادل[4]
وكندة إذ هم بالحصاب [5] عشية | تجيز بهم حجاج بكر بن وائل
حليفان شدا عقد ما احتلفا له | وردا عليه عاطفات الوسائل
وحطمهم[6] سمر[7] الصفاح[8] وسرحه[9] | وشبرقة[10] وضد[11] النعام الجوافل[12]
فهل بعد هذا من معيذ لعائذ | وهل من معيذ يتقى الله عاذل

ونحن لا نقف هنا عند الاستعاذة بهذه المشاعر بمقدار ما نقف عند هذه الشاعرية العليا لأبى طالب، وهو يصف لنا مناسك الحج خطوة خطوة كما كان فى الجاهلية ، بحيث لا نجد مثل هذه الصورة الدقيقة التى تتبع كل جزئية إلا عنده ، فهو لا ينسى أن يحدثنا عن الصور والتماثيل عندما يحدثنا عن السعى بين الصفا والمروة،بعد أن حدثنا عن طواف القدوم ، ثم يتنقل بنا إلى عرفة وجبله ،ولا يدع الحديث عن مسيل الماء الذى يقابله فى ذلك الموقع ، إنه فنان مبدع يتابع كل منظر بديع فلا تحمله نفسه ألا ينقله إلينا ،ويحدثنا عن الموقف عشية فى عرفة،وهم يهيئون رواحلهم للنفير إلى مزدلفة فيقيمون بالأيدى صدور الرواحل ،وينتقل بنا إلى المزدلفة ،فيبات بنا هنا ، وإذا كنا نرى فى عهدنا اليوم هذا الكظيظ من الزحام للسيارات التى تتدافع بعد المبيت للوصول إلى الجمرة الكبرى، فلا نجد من أبدع وصفها اليوم مثل إبداع أبى طالب لذلك الكظيظ من الزحام حيث المقربات،وهى الخيل تمضى ضمراً مسرعة ، وقد جازت مزدلفة،وكأنها تخرج هاربة من وقع مطر

(١) ليلة جمع : ليلة مزدلفة .وجمع هى المزدلفة .( انظر : القاموس المحيط ).
(٢) المقربات : الخيل التى تقرب مرابطها من البيوت .
(٣) الوابل : المطر الشديد .
(٤) الجنادل: ما يحمله الرجل من الحجارة .وهى هنا حصى الرمى .
(٥) الحصاب : موضع رمى الجمار .
(٦) الحطم : الكسر .
(٧) سمر : السمر شجر الطلح .
(٨) الصفاح : جمع صفح وهو عرض الجبل .
(٩) السرح :شجر .
(١٠) الشبرق : نبات .
(١١) الوضد : السير السريع .
(١٢) الجوافل : الذاهبة بسرعة .

غزير انصب عليها، ولا يعرف حقيقه الوابل أحد كما يعرفه أهل مكة ، وكأنما السماء تصب سيولاً منها، فتملأ الأرض، إن هدفهم الجمرة الكبرى حيث صمدوا لها، وقد أحضروا معهم الجنادل ، وهى الحصى المعدة للرمى ، يشارك فى هذا الرمى قادة العرب وقبائلهم من كل مكان مثل كِندة ملوكهم، وبكر بن وائل صاحبة ذى قار ، وبعد أن صمدوا لرمى الجمرات، هاهم يسارعون فيحطمون كل شىء أمامهم إذ يكسر شجر السمر القابع فى سفح الجبل ،وهم ماضون جادون فى طريقهم ، ويكسر مع السمر السرح والشوك من الشبرق، وكأنما هم نعام مرعوب خائف من صائديه فيقفز هارباً قبل أن ينقض عليه العدو .

إنها ليست استعاذات أو أيمانًا بمقدار ما هى فيلم سينمائى مشحون بالوثائق والصور تعرض علينا تباعاً من الشاعر العبقرى الهاشمى أبى طالب .

وحين يجعلنا جزءاً من ذلك المشهد المثير الرائع ،ويجعل قلبنا فى دقاته خاشعاً متبتلاً مع الحجيج، يستغل هذه اللحظة المواتية ليعرض علينا بغى قومه عليه ،وهو حارس المقدسات هذه كلها ، يودون أن يخرجوه من مقدساته هذه هو وحبيبه محمدًا ، فيقف لهم مقارعاً بطلاً مغوارا يواجه هؤلاء العداة المنتهكين لهذه المقدسات :

فهل بعد هذا من معاذ لعائذ ... وهل من معيذ يتقى الله عاذل
يطاع بنا العُدّى [1] وودوا لو أننا ... تسد بنا أبواب ترك وكابل[2]
كذبتم وبيت الله نترك مكة ... ونظعن إلا أمركم فى بلابل[3]
كذبتم وبيت الله نبزى[4] محمداً ... ولما نطاعن دونه ونناضل
ونسلمه[5] حتى نصرَّع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل[6]
وينهض قوم فى الحديد إليكم ... نهوض الروايا[7] تحت ذات الصلاصل[8]

---

(١) العُدّى : جمع عاد من عدا عليه يعدو.
(٢) ترك وكابل: جيلان من العجم .
(٣) فى بلابل : أى فى حركة واضطراب .
(٤) نبزى : نسلب ونغلب عليه .
(٥) ونسلمَ :معطوفة على نبزى : أى كذبتم أن نسلمه قبل أن نقتل حوله .
(٦) الحلائل : الزوجات .
(٧) الروايا : جمع راوية ،الإبل التى يحمل عليها الماء .
(٨) الصلاصل : جمع صلصلة ، بقية الماء .وذات الصلاصل : المزادات التى فيها بقايا الماء، وشبَّه قعقعة الحديد بصوت الماء فى المزادات .

وحتى ترى ذا الضِّغـن يركب درعه[1] من الطعن فـعل الأنكب[2] المتحامل[3]
وإنا لعـمـر الـله إن جـدّ مـا أرى لتلـتبـسـن أسـيـافـنا بالأمـاثل[4]
بكفى فـتى مثل الشهـاب سمـيدع[5] أخى ثقـة حامى الحـقيـقة[6] باسـل[7]
شـهـوراً وأيامـا وحـولاً مـحـرَّمـا علينـا وتأتى حـجـة بعـد قـابل

لقد بلغ من حقد قومه عليه أن ودوا لو يقذفون به إلى أبواب الترك ومشارف كابل فى أرض العجم . فـهل هو من الضعف والخذلان بحيث يخـنع لهم ؟! معاذ الله! كذبتم أيهـا العداة ، ويقـسم ببيت الله أنه لن يغادر مكة إلا ومـكة قد تبلبل أمرها حرباً عواناً ودماءً طاهرات ،ويقسم ببيت الله ، أنهم لن يظفروا بمحمد دون هذه الحرب العـوان،وهذا القتـال الضارى . إن محـمداً أغلى عليـهم من أبنائهم وأعراضهم ونسائهم وحياتهم ،وأنفـسهم،فقد يذهلون عن حلائلهم،وقد يذهلون عن أبنائهم ،وهم يصـرَّعـون حوله قـتلى مـجندلين.ومتى كـان بنو هاشم يضـام جنابهم قـبل أن يـضج الحـديد بالحـديد؟! ويقرع السـلاح بالسلاح ،فينهـضون بسلاحهم نهوض الإبل بمزادات الماء ،و تقع المعركة العنيفة ،ويسقط الأبطال الذين يحملون الضغن والحقد عليهم صـرعى مضرَّجين بدمائهم من الطعن ،وقد تحاملوا على أنفسـهم بعد الطعن الذى نزل بهم ! إنهم إذا جد الجـد لتنالن سيوفـهم أكرم القـوم ورؤوس الناس ، وذلك بكـف فـتيـان بنـى هـاشم الـذين يحـمون الذمار ،ويذودون عن الحـمى ، وسيبـقون على هذا الأمر شـهوراً وأيامًا وسنين. دفاعاً وذوداً عن سيدهم وقائدهم محمد .

هل تدرون من محمد ؟

ومـا ترك قـوم لا أبالك[8] سيداً يحوط الذمار[9] غير ذرب[10] مواكل[11]

---

(١) ذا الضغن يركب درعه : الضغن : العداوة . ويقال : ركب درعه إذا سقط على وجهه فى دمه .

(٢) الأنكب: المائل إلى جهة . (٣) المتحامل : المائل عن الحق.

(٤) لتلبسن أسيافنا بالأماثل : لتنالن سيوفنا خيار القوم .

(٥) السميدع : السيد .

(٦) حامى الحقيقة : ما يحق على الرجل أن يحميه .

(٧) باسل : شجاع كريم . (٨) لا أبالك : يقال فى معرض المدح .

(٩) الذمار: ما يلزم الرجل حمايته والدفاع عنه .

(١٠) الذرب : الفاسد .وهو هنا اللسان الفاحش المنطق .

(١١) المواكل : الذى لا جد عنده فيكل أموره إلى غيره .

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال[1] اليتامى عصمة[2] للأرامل
يلوذ [3] به الهلاك [4] من آل هاشم فهم عنده فى رحمة وفواضل

أيعقل أن يترك القوم سيدهم الذى يحمى ذمارهم شجاعة ونجدة ، وهو الذى صان لسانه عن الفحش ،له همة قعساء لو قصدت الثريا لنالتها ، يعتمد على ربه وحده ، أو ليس هو الذى قال لقومه عندما أرادوا أن يثنوا همته عن الأمر الجلل الذى كُلّف به .

« والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ،والقمر فى يسارى على أن أدع هذا الأمر ، ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

وهو القائل : « والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعل أحدكم من هذه الشمس شعلة من نار » [5].

هذا عن شجاعته ونجدته وبأسه ،فما عن جوده وكرمه ؟

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

فهو البركة والنماء والخير لقومه ،به يستسقى الغمام، ولم تأت هذه الصفة من أبى طالب عرضاً إنما جاءت من واقع شاهده بأم عينه روته لنا ابنة عمه رقيقة [6] بنت أبى صيفى بن هاشم . قالت :

تتابعت[7] على قريش سنون جدب[8] قد أقحلت[9] الظلف وأرقت العظم ، فبينا أنا راقدة الهم ،أو مهمومة ،إذ إنا بهاتف [10] صيّت يصرخ بصوت صحل[11]: يا معشر قريش إن هذا النبى المبعوث منكم هذا إبان نجومه . فحى هلا

---

(١) ثمال اليتامى : قائم بمصالحهم وغياثهم .

(٢) عصمة للأرامل : يمنعهن من الضياع والحاجة .

(٣) يلوذ : يلجأ .

(٤) الهلاك : المعدمون الهلكى .

(٥) مجمع الزوائد للهيثمى ٣/٦/١٥ وقال فيه : رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ،وأبو يعلى ،ورجال أبى يعلى رجال الصحيح .

(٦) رقيقة بنت أبى صيفى بن هاشم لدة عبد المطلب أى تربه ،ولدت وإياه فى وقت واحد.

(٧) التتابع : الوقوع فى الشر .

(٨) سنون جدب : أعوام قحط .

(٩) أقحلت : أيبست .

(١٠) الهاتف : ما يسمع صوته ،ولا يرى شخصه .

(١١) صحل : غير حاد الصوت .

بالحيا والخصب ، ألا فانظروا منكم رجلاً طوالاً عُظاما [1] أبيض بضا [2] ، أشم [3] العرنين [4] له فخر يكظم[5] عليه . ألا فليخلص هو وولده، وليدلف [6] إليه من كل بطن رجل ، ألا فليشنوا [7] من الماء ،وليمسوا من الطيب ،وليطوفوا بالبيت سبعاً. ألا وفيهم الطيب الطاهر لذاته. ألا فليدع الرجل ،وليؤمن القوم . ألا فغنمتم أبداً ما عشتم . قالت : فأصبحت مذعورة قد قفَّ جلدى[8] ،ووله عقلى. فاقتصصت رؤياى ،فوالحرمة والحرم ،إن بقى أبطحى إلا قال: هذا شيبة الحمد ، وتنامت عنده قريش، وانفض إليه الناس من كل بطن رجل، فشنوا ومسوا واستلموا واطفوا . ثم ارتقوا أبا قبيس، وطفق القوم يدفون [9] حوله ،وما إن يدرك سعيهم مهلة حتى قروا بذروة الجبل ،واستكفوا [10] جنابيه ،فقام عبد المطلب، فاعتضد ابن ابنه محمداً ﷺ ، فرفعه على عاتقه ،وهو غلام يومئذ قد أيفع[11] أو كرب ثم قال: اللهم سادَّ الخلة ،وكاشف الكربة، أنت عالم غير معلَّم ، ومسؤول غير مبخَّل ،وهذه عبداؤك وإماؤك بعذرات[12] حرمك، يشكون إليك سنتهم ، فاسمعنَّ الله ، وأمطرن علينا غيثاً مريعًا [13] مغدقا . فما راموا ـ والبيت ـ حتى انفجرت السماء بمثلها وكظ الوادى بثجيجه[14] [15].

وأبو طالب يذكر إذن ذلك اليوم السعيد الذى استسقى فيه الغمام فى طفولة محمد ﷺ ، لقد كان ذلك قبيل وفاة عبد المطلب بن هاشم ،ويذكر أبو طالب بركة محمد فى بيته وأهله وعشيرته ،وهو ملجأ اليتامى وكهف الأرامل، كما وصفته زوجه خديجة رضي الله عنها قائلة :

( لا والله لا يخزيك الله أبداً ،إنك لتصل الرحم ، وتقرى الضيف ،وتحمل

---

(1) عُظاماً : جسيماً .

(2) بضاً : البضاضة رقة اللون وصفاؤه .

(3) أشم : ارتفاع قصبة الأنف .

(4) العرنين : الأنف .

(5) يكظُم عليه : يخفيه .

(6) يدلف : يقرب منه .

(7) شنوا من الماء : اغتسلوا به .

(8) قفّ : اقشعر .

(9) يدفون : يجتمعون .

(10) استكفوا: أحاطوا .

(11) أيفع : صار يافعاً ابن سبع سنين أو حولها .

(12) العذرات : فناء الحرم والسعة أمامه .

(13) مريعًا : مخصبًا .

(14) ثجيجه : سيوله .

(15) رواه ابن سعد ، والبلاذرى ،وابن أبى الدنيا والطبرانى ،والبيهقى ،والسهيلى فى الروض الأنف. وقال عنه الحافظ ابن حجر فى الإصابة .قال أبو موسى بعد إيراده : هذا حديث حسن ٤/٨/ ٨٢ ت ٤٢٣ فى النساء ١/٢/٢١ .

الكل، وتكسب المعدوم ،وتعين على نوائب الحق ) [١] .

وهو الملجأ والمعاذ لقومه حين يتعرضون للفاقة، والهلاك من بنى هاشم هو رفدهم وعونهم .

وها هو أبو طالب ينتقل بنا نقلة ضخمة ، يستعرض بها كل زعماء حلف المطيبين واحدًا تلو الآخر، يدعوهم إلى أن يقفوا خلف زعيمهم محمد بن عبد الله مناصرة وتبنيا ومواجهة :

لعمرى لقد أجرى أسيد[٢] وبكره — إلى بغضنا وجزآنا لآكل
وعثمان[٣] لم يربع علينا وقنفذ[٤] — ولكن أطاعا أمر تلك القبائل
إطاعا أبياً [٥] وابن عبد يغوثهم[٦] — ولم يرقبا فينا مقالة قائل
كما قد لقينا من سبيع[٧] ونوفل[٨] — وكل تولّى معرضاً لم يجامل
فإن يُلقيا أو يمكن الله منهما — نكل لهما صاعاً بصاع المكايل

ولا بد لنا من وقفة عند حلف المطيبين ،وزعمائه الذين استنهض أبو طالب هممهم ليفوا بحلفهم معه .

( وكان عبد الدار أكبر أولاد قصى، وعبد مناف أشرفهم ؛أى لأنه شرف فى زمان أبيه قصى ،وذهب شرفه كل مذهب ، وكان يليه فى الشرف أخوه المطلب ، كان يقال لهما البدران ، وكانت قريش تسمى عبد مناف الفياض لكثرة جوده ، فأعطى قصى تلك الوظائف التى هى السقاية والرفادة والحجابة والندوة واللواء والقيادة لعبد الدار، فإنه قال له : أما والله يا بنى ،لألحقنك بالقوم يعنى أخويه عبد مناف والمطلب، وإن كانوا قد شرفوا عليك .لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها له ـ أى بسبب الحجابة للبيت ـ ولا يعقد لقريش لواء لحربها إلا أنت بيدك، ولا يشرب رجل بمكة إلا من سقايتك ،ولا يأكل أحد من أهل الموسم إلا من طعامك، ولا تقطع قريش أمراً من أمورها إلا فى دارك ـ يعنى دار الندوة ـ

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٢/ ٣١٥ ، ٣١٦ .
(٢) أسيد وبكره : عتاب بن أسيد بن أبى العيص بن أمية .
(٣) عثمان بن عبيد الله التيمى أخو طلحة بن عبيد الله .
(٤) قنفذ بن عمير بن جدعان التيمى .
(٥) أبى : هو الأخنس بن شريق الثقفى حليف بنى زهرة .
(٦) ابن عبد يغوثهم : الأسود بن عبد يغوث الزهرى .
(٧) سبيع بن خالد أخو بلحارث بن فهر .
(٨) نوفل بن خويلد الأسدى .

ولا يكون أحد قائداً للقوم إلا أنت ، فلما مات عبد الدار وأخوه عبد مناف ، أراد بنو عبد مناف ،وهم هاشم وعبد شمس والمطلب ،وهؤلاء إخوة لأب وأم ،ونوفل أخوهم لأبيهم أن يأخذوا تلك الوظائف من بنى عمهم عبد الدار ،وأجمعوا على المحاربة،وأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً فوضعوها لأحلافهم،فى المسجد عند باب الكعبة ثم غمس القوم أيديهم فيها ، وتعاقدوا هم وحلفاؤهم ، ثم مسحوا الكعبة توكيداً على أنفسهم ، فسموا المطيبين : أى أخرجتها لهم أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب عمة النبى ﷺ ، وتوأمة أبيه ووضعتها فى الحجر ، وقالت: من تطيب بهذا فهو منا، فتطيب بها مع بنى عبد مناف بنو زهرة، وبنو أسد بن عبد العزى ،وبنو تيم بن مرة ،وبنو الحارث بن فهر ، فالمطيبون من قريش خمس قبائل .وتعاقد بنو عبد الدار وأحلافهم ،وهم بنو مخزوم ، وبنوسهم،وبنو جمح ، وبنو عدى بن كعب على ألا يتخاذلوا ،ولا يسلم بعضهم بعضاً ، فسموا الأحلاف لتحالفهم بعد أن أخرجوا جفنة مملوءة دماً من دم جزور ثم نحروها ، وقالوا: من أدخل يده فى دمها فلعق منها فهو منا . . . ثم اصطلحوا على أن تكون السقاية والرفادة والقيادة لبنى عبد مناف ،والحجابة واللواء لبنى عبد الدار، ودار الندوة بينهم بالاشتراك وتحالفوا على ذلك ) [١].

لقد أحس أبو طالب أن قريشاً تريد أن تعبئ العرب كلها ضده ، فلم يكن أمامه خيار أن يستدعى حلفاء قومه السابقين ليفوا بحلفهم ويقفوا معه ضد هؤلاء البغاة، وكما لاحظنا أن أربع قبائل قد انضمت لبنى عبد مناف فى حلف المطيبين ، وجميع الأسماء التى استحث أبو طالب هممها إنما تنتمى لهذه القبائل الأربعة .

فأسيد وابنه عتاب من فرع بنى عبد مناف أنفسهم، وعثمان وقنفذ من بنى تيم ابن مرة،وأبى وابن عبد يغوث من بنى زهرة ، وسبيع من بنى الحارث بن فهر ، ونوفل بن أسد من بنى أسد بن عبد العزى . وأما أبو عمرو فمن الفرع الرابع لبنى عبد مناف بنى نوفل .ونشير هنا إلى أن هؤلاء الحلفاء قد خذلوه ، وهو يستعيذ بالله وبالمقدسات عند الكعبة من ظلم الأقربين .

فأسيد وبكره الأمويان كشفا عن بغضهما ،وسلماه للآكلين يأكلونه ،وعثمان وقنفذ التيميان أطاعا الأعداء من الأحلاف فيهما،وأبى وابن عبد يغوث الزهريان تنكرا لحلفهما، ولم يرقبا فيه الله ،وهذا سبيع بن خالد الحارثى الفهرى تولى

---

(١) السيرة الحلبية لابن برهان الدين الحلبى ١/ ٢١ ، ٢٢ .

معـرضاً ، وحـتـى لـم يجامل ولو بكلام مـعسـول، وكذلك فعل نوفل بـن خويلد الأسدى، والأيام دول ، فسوف نكيل لهم بالصاع نفسه الذى يكيلون فيه .

لقد عمم أبو طالب فى النيل من حلفائه الذين خذلوه، ثم خصص فى قرابته الأدنين بنى عبد مناف زعيماً تلو الآخر :

وذاك أبو عـمرو[1] أبى غـير بغـضنا ... ليظـعننا فى أهـل شـاء وجـامل[2]

يناجى بـنا فى كل ممسى ومـصـبح ... فناج أبـا عـمـرو بـنا ثم خـاتل[3]

ويؤلى[4] لنا بـالله مـا أن يغـشـنا ... بلى قـد نـراه جـهـرة غـيـر حـائل

أضـاق عـليـه بغـضنا كل تلـعـة[5] ... من الأرض بين أخشب[6] فمجادل[7]

وسـائل أبا الـولـيـد[8] مـاذا حـبـوتنا ... بسـعـيك فـينا مـعـرضـاً كـالمخـاتل

وكنـت امـرءاً ممن يعـاش بـرأيه ... ورحـمـتـه فـيـنا ولست بجـاهل

فـعتـبـة لا تسمع بـنا قول كـاشح[9] ... حسود كذوب مـبغض ذى دغاول[10]

ومـر أبو سـفـيـان عنى مـعـرضـاً ... كـمـا مـر قـيـل من عظام المـقـاول

يفـر إلى نجـد[11] وبرد مـيـاهه ... ويزعـم أنى لسـت عنكـم بغـافل

ويخـبـرنـا فـعل المناصـح أنه ... شفـيق ويخفى عـارمات الدواخل[12]

أمطعـم لم أخـذلك فى يوم نجـدة ... ولا مـعظم عند الأمـور الجـلائل

ولا يـوم خـصـم إذ أتوك ألـدة ... أولى جدل من الخصـوم المساجل[13]

أمطعم إن القـوم سـامـوك خطة[14] ... وإنى مـتـى أوكل فلسـت بوائل[15]

جـزى الله عنا عـبد شـمس ونوفـلاً ... عـقـوبـة شـر عـاجـلاً غـيـر آجل

بميـزان قـسط لا يخـيس شعـيـرة[16] ... له شـاهد من نفـسـه غيـر عـائل[17]

---

(١) أبو عمرو : قرظة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف .

(٢) جامل : اسم لجماعة الجمال.

(٣) خاتل : الختل المخادعة والغدر .

(٤) يؤلى : يقسم .

(٥) التلعة : المشرف من الأرض .

(٦) الأخشب : جبل بمكة .

(٧) مجادل : القصور والحصون فى رؤوس الجبال .

(٨) أبو الوليد : عتبة بن ربيعة .

(٩) الكاشح : العدو .

(١٠) الدغاول : الأمور الفاسدة .

(١١) نجد : ما ارتفع من أرض الحجاز .

(١٢) عارمات الدواخل : العارمات الشديدات ، والدواخل النمائم والإفساد بين الناس .

(١٣) المساجل : جمع مسجل ، وهو اللسان الذرب ، ومن رواه بالحاء : المساحل : واحده مسحل، وهم الخطباء البلغاء .

(١٤) ساموك خطة : كلفوك.

(١٥) لست بوائل : لست بناج .

(١٦) لا يخيس شعيرة : لا ينقص .

(١٧) عائل : جائر .

لقد اختار أبو طالب أربعة من زعماء بنى أمية، وبنى نوفل فرعى بنى عبد مناف، يتحدث جهرة عن إخلالهم بحقوق العشيرة، وخذلانهم قومهم فى المحنة الكبرى مع قريش.

أما الأول فكان أبو عمرو قرظة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف، الذى أبى إلا بغض قومه، بل سعيه لرحيلنا من مكة من بين أهل الشاء والإبل، ولكنه لا يقف موقف الرجولة، فمع كل ممسى وصباح يقسم بالله أنه معنا، ولكنه فى الخفاء يندس مع قومه ضدنا يخاتلنا، ولم تعد الأرض تسعه من بغضنا.

وأما الثانى فعتبة بن ربيعة أبو الوليد، ولعتبة حسابه الخاص، فهو زعيم مرموق فى قومه، قام ذات مرة بمحاولة ينهى فيها الخلاف فى مكة فأخفق، ويحدثنا عنها ابن إسحاق فيقول:

( حدثنى يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظى، قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة، وكان سيداً قال يوما ـ وهو جالس فى نادى قريش، ورسول الله ﷺ جالس فى المجلس وحده: يا معشرقريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه، وأعرض عليه أموراً لعله يقبلها فنعطيه أيها شاء، ويكف عنا؟ ـ وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون ـ فقالوا: بلى يا أبا الوليد، قم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال:

يا بن أخى، إنك منا حيث قد علمت من السطة (١) فى العشيرة، والمكان فى النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم وكفَّرت من مضى من آبائهم، فاسمع منى أعرض أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها؟ فقال له رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد أسمع».

قال: يا بن أخى إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيًا (٢) تراه لا تستطيع ردَّه عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى

(١) السطة فى العشيرة: أى من الوسط حسبًا ونسباً.

(٢) الرَئىّ: التابع من الجن.

نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه ، أو كما قال له ، حتى إذا فرغ عتبة ،ورسول الله يستمع منه قال: « أقد فرغت يا أبا الوليد ؟» قال: نعم. قال: « فاسمع منى» قال: أفعل. فقال : « بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**حمٓ (١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤)**﴾ [ فصلت] ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة ،أنصت إليها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال : « قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ،فأنت وذاك » .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ، فلما جلس قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال:

ورائى أنى قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط . والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش: أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم . فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ،وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ،وعزه عزكم ،وكنتم أسعد الناس به . قالوا :سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه . قال : هذا رأيى فاصنعوا ما بدا لكم) (١).

فعتبة واحد من القادة الكبار فى مكة ،وأحد أكبر زعمائها، وأبو طالب لا يخفى إعجابه به فيقول:

وكنت امرأً ممن يعاش برأيه     وبرحمته فينا ولست بجاهل

وقد أورد ابن إسحاق الحادثة السابقة عن عتبة بعد القصيدة المذكورة ،فلعل عتاب أبى طالب المرير له على موقفه السلبى دفعه إلى هذه المبادرة ،ومحاولة احتواء الأزمة ودعا قريشاً بإلحاح إلى التخلى عن مواجهة محمد بن عبد الله ، فقد اتخذ موقفاً واضحاً أن نفَّذ ما دعا إليه فاعتزل القوم فى حربهم لمحمد سيد بنى هاشم ،وهو يتوقع أن يكون لقوله نبأ عظيم .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام و ١/ ١٩٣، ١٩٤ .

ويعنينا من طرف آخر هذه الشهادة من زعيم قريش عتبة ،وهو السيد المسلَّم له بالفصاحـة والبلاغة ، فقـد روى أبو يعلى بسند جيد عن جابر بـن عبد الله ﷺ قال: اجـتمعت قـريش للنبى ﷺ يوماً فقـالوا: انظروا أعلمكم بالسحـر والكهانة والشعر ،فليأت هذا الرجل الذى فرق جماعتنا،وشتت أمرنا وعاب ديننا فليكلمه ، ولينظر ما يرد عليه، قالوا : مـا نعلم أحدًا غير عتبة بن ربيـعة ، فقالوا:أنت يا أبا الوليد (١).

فقد كان موقفه من الدعوة والقرآن موقف المبهوت الحائر المعجب،وفى بعض روايات الحادثة :والله لقـد سمعت من هذا الرجل كلامـاً ما سمعت أذنـاى كلاماً مثله، وما دريت ما أرد عليه .

وما قـيل عن عتبة بن ربيـعة الزعيم الأول لبنى أمـية يقال عن الزعـيم الثانى فيهم ، وهو أبو سفيان بن حرب ، وزوج ابنة عـتبة ،وقد كان أبو سفيان فى هذه المراحل من الدعوة،قد تبع موقف عمه عتبـة فى الاعتزال والبعد عن المواجهة كما وصفه أبو طالب:

ومـر أبو سـفـيـان عنى مـعـرضـاً ... كمـا مر قـيل(٢) من عظـام المقـاول
يفـر إلى نجـد وبرد مـيـاهه ... ويزعـم أنى لسـت عنكـم بغـافل

ولكنه فى حقيقة أمره يخفى لنا عارمات الدواخل من البغض والنكران .

ثم يأتى على الزعيم الرابع المطعم بن عدى، الذى قـال له صراحة من قبل - وهو الزعـيم الأول فى بنى نوفل بن عـبد مـناف : والله ما أنصـفـونى ،ولكنك أجمعت خذلانى، ومظاهرة القوم على ، فـاصنع ما بدا لك . ولعل أمله فيه كان أكثر من أمله بأى من هؤلاء الثلاثة فـيطيل الحديث عنه والمكث عنده، لعله يقتلعه من سلبيته إلى موقف حازم بجواره :

أمطعم إن القـوم سـاموك خـطـة ... وإنـى متـى أوكـل فلسـت بـوائـل

فإن أُكل أبو طالب فـالدور على المطعم ،ولن ينجو من حـرب قومه ،ويعـيد إلى ذاكرته أنه لم يخذله فى وقت كريهة ،ولم يتـخل عنه فى محنته ، فهلا انضم إليه فى هذه المعـركة ،ويختـم هذا المقطع بابتهاله إلى اللـه أن يجازى أهله الأدنين

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٢/ ٤٤٧ .

(٢) القيل : الملك .

شر الجزاء لخذلانهم له .

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلاً    عقوبة شر عاجلاً غير آجل

وها هو ينتقل إلى المقطع الجديد من قصيدته يعلن فيه أنه مع محمد بن عبد الله ، ولو بقى وحده ، ورهطه وعشيرته من بنى هاشم. والحياة مواقف ،فما هو أمر قريش بعد هذه الحرب والعوان عليه ؟!

لقد سفهت أحلام قوم تبدلوا    بنى خلف[1] قيضا [2] بنا والغياطل [3]

ونحن الصميم من ذؤابة هاشم    وآل قصى فى الخطوب الأمائل

وسهم ومخزوم تمالوا[4] وألبوا[5]    علينا العدا من كل طمل[6] وخامل[7]

فعبد مناف أنتم خير قومكم    فلا تشركوا فى أمركم كل واغل[8]

لعمرى لقد وهَّنتم[9] وعجزتُم    وجئتم بأمر مخطئ للمفاصل[10]

وكنتم حديثاً حطْب قِدر[11] وأنتم    الآن حطاب[12] أقدُر ومراجل[13]

ليهنئ نبى عبد مناف عقوقنا    وخذلاننا وتركنا فى المعاقل[14]

فإن نك قوماً نتئر [15] ما صنعتم    وتحتلبوها لقحة [16] غير باهل[17]

وشائظ كانت فى لؤى بن غالب    نفاهم إلينا كلو صقر جلاجل

ورهط نفيل شر من وطئ الحصى    وألأم حاف من معدو ناعل

أما بنو خلف فهم أمية وأبى ويكفى قول رسول الله ﷺ فى أبى بن خلف : « شر الناس من قتل نبيا أو قتله نبى » وقد قتله رسول الله ﷺ فى أحد. أما سهم فزعيمها العاص بن وائل أحد كبار المستهزئين السبعة الذين قال الله تعالى

---

(١) بنى خلف : هما أمية بن خلف ،وأبى بن خلف الجمحيان .

(٢) قيضاً : عوضاً من المقايضة .    (٣) الغياطل : من بنى سهم .

(٤) تمالوا: تمالؤوا .    (٥) ألبوا : جمعوا العدا علينا .

(٦) الطمل : الرجل الفاحش ،وقيل أيضاً الفقير .    (٧) الخامل : من لا ذكر له .

(٨) الواغل: كل ملاصق لكم ليس من صميمكم .وأصل الواغل الداخل فى القوم وهم يشربون،وهو لم يدع.

(٩) وهنتم : من الوهن وهو الضعف .

(١٠) مخطئ للمفاصل : بعيد عن الجادة والصواب .

(١١) حَطْب قدر : اسم للجمع مثل ركب .    (١٢) حطاب : جمع حاطب .

(١٣) المراجل : القدور، والأقدر جمع قدر .    (١٤) المعاقل : البيوت والشعاب .

(١٥) نتئر : نأخذ بثأرنا .    (١٦) لقحة : الناقة ذات اللبن .

(١٧) الباهل : الناقة التى لا صرار على أخلافها فهى مباحة للحلب .

فيهم: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) ﴾ [ الحجر ] .

أما بنو نفيل فيقف على رأسهم عمر بن الخطاب أعدى العدو مثل خاله أبى جهل بن هشام ،وأبو جهل وعمر هما اللذان اختارهما رسول الله ﷺ ليدعو لهما بالهداية لتكون نكايتهما فى العدو لا فى المسلمين .

« اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك عمر بن الخطاب ، أو عمرو بن هشام » .

وحين ينتهى أبو طالب من هجومه الشديد المقذع على خصومه يعود ليتحدث عن بنى عبد مناف قومه ،والذين مزقتهم المحنة ،وسنعتمد ترتيب ابن جنى وزياداته .

| | |
|---|---|
| أعبد مناف أنتمو خير قومكم | فلا تشركوا فى أمركم كل واغل |
| فقد خفت إن لم يصلح الله أمركم | تكونوا كما كانت أحاديث وائل[1] |
| لعمرى لقد أوهنتمو وعجزتمو | وجئتم بأمر مخطئ للمفاصل |
| وكنتم قديماً حطب نار فأنتمو | الآن حطاب أقدر ومراجل |
| ليهنأ بنى عبد مناف عقوقها | وخذلانها وتركنا فى المعاقل |
| فإن يك قوم سرهم ما صنعتمو | ستحتلبوها لاقحاً غير باهل |

إنه يعود بما يملك من إثارة للعصبية القبلية ليجمع شمل بنى عبد مناف على نصرة محمد ﷺ ،وألا يدخلوا واغلاً دخيلاً فى أمرهم من غيرهم ،ولعلهم لو أصروا على خلافهم ، واستمر بنو نوفل وبنو أمية فى غيهم وخذلانهم لقومه أن تعود فيهم مثل حرب البسوس بين بنى بكر وتغلب فرعى وائل ،والتى استمرت أربعين سنة لا يهدأ لها أوار ،لقد خانكم رشدكم وكان طعنكم فى غير موقعه وقدماً كانت لكم قدر نار واحد تجمعون حطبها ،وتوقدون نارها فلا يجرؤ عليكم عدو،أما اليوم وقد تفرقتم وتخاذلتم ،وتوزعت نيرانكم وقدوركم ،واهنأوا يا آل عبد مناف بهذه النتيجة والثمرة المرة حين تعقون قومكم بنى هاشم وتدعونهم محبوسين فى معاقلهم ،وبذلك أقررتم عين عدوكم، وسوف تحتلبونها دماً حين يشعلون النار بكم ،ولا يرعون فيكم إلاً ولا ذمة،والإشارة فى هذا البيت للدم

(١) أحاديث وائل : هما بكر وتغلب الذين قامت بينهم حرب البسوس .

والثأر واضحة فى رواية ابن هشام :

فإن نك قوماً نتئر ما صنعتم وتحلبونها لقحة غير باهل

فأثداؤها تشخب دماً ليست مغطاة ولا محفوظة .

وها هو ينهى قصيدته العصماء بمديح محمد ﷺ الذى ربط مصيره بحياته والذود عنه .

لعمرى لقد كلفت[1] وجداً [2] بأحمد وإخوته[3] دأب المحب المواصل
فلا زال فى الدنيا جمالاً لأهلها وزيناً لمن ولاه رب المشاكل[4]
فمن مثله فى الناس أى مؤمل إذا قاسه الحكام عند التفاضل
حليم رشيد عادل غير طائش يوالى إلهاً ليس عنه بغافل
فأيده رب العباد بنصره وأظهر ديناً حقه غير ناصل[5]
فوالله لولا أن أجيء بسبة[6] تجر على أشياخنا فى المحافل[7]
لكنا اتبعناه على كل حالة من الدهر جداً غير قول التهازل
لقد علموا أن ابننا لا مكذب لدينا ولا يعنى بقول الأباطل
فأصبح فينا أحمد ذو أرومة[8] تقصر[9] عنها سورة[10] المتطاول
حدبت بنفسى دونه وحميته ودافعت عنه بالذرا[11] والكلاكل[12] [13]

وها هو الشيخ الوقور والشاعر العظيم يضعف أمام مشاعره وعواطفه فيبوح بها علناً ويعلنها للدنيا ، أنه هائم بمحمد ، كلِف به ،قد نضه الوجد ، وأضناه الحب بهذا العظيم الخالد محمد بن عبد الله ،وشغل به وبإخوانه الأمجاد الذين يذودون عنه كما يشغل الحبيب المواصل بحبيبته ، فهو جمال الوجود ،وزينة الدنيا كلها ،وهو الذى يقف بين يديه العظِام لحل معضلاتهم ومشاكلهم ،وما يوم الحجر الأسود بسر ، يوم أنقذ قومه من حربٍ ضروس تأكل الأخضر واليابس

---

(١) كُلِّفت : من الكَلَف وهو شدة الحب .
(٢) الوجد : شدة الحب كذلك .
(٣) إخوته : هم أبناء أبى طالب الآخرون .
(٤) رب المشاكل : رب العظيمات من الأمور .
(٥) غير ناصل : غير زائل .
(٦) السبة : العار .
(٧) المحافل : جمع محفل وهو مكان الاجتماع .
(٨) الأرومة : الأصل .
(٩) يقصر : يعجز .
(١٠) السورة : المنزلة .
(١١) الذرا : جمع ذروة وهو أعلى ظهر البعير .
(١٢) الكلاكل : وهو معظم الصدر .
(١٣) السيرة النبوية لابن هشام و / ١/ ١٨٤ .

بحكمته وعبقريته ،فهو الحليم الرشيد العادل الحكيم ،والذى حباه ربه من دون الخلق فأوحى إليه ولن يخذله ربه ،وليس لمحمد أرب إلا موالاة ربه رب السموات والأرض .

وهنا تبرز أعماق أبى طالب لتكشف عما يؤمن به من دين محمد بن عبد الله، فيعلن أن الذى يحول بينه وبين الدخول فى هذا الدين الجديد إنما خوف السبة والعار أن يتهموه بترك ملة أبيه عبد المطلب فى آخر حياته ،ويتحدث الناس فى المحافل عن اتباعه لابن أخيه فى سب الآلهة وتسفيه أحلام من مضى من الآباء . إن ما يقول محمد حق وصدق لا مراء فيه ، ويعلمون وتعلم الدنيا كلها أن ابننا محمداً هو أصدق من عليها لا يعرف الكذب سبيلاً إليه ، ولا الهزل موقفاً عنده ، فهو رسول الله حقاً ،ولا يعنى بقول الباطل أو الخوض فيه .

ونتابع من ديوان أبى طالب بقية الأبيات التى لم يقع اختيار ابن هشام عيها ، فاضطربت القصيدة فى نهايتها عنده،وغامت معانيها،فكان اختيار ابن جنى أدق وأعمق، حيث تجلَّت موهبته اللغوية فى ترابط المعانى من خلال اختياره،وذوقه الفنى الرفيع :

لقد علموا أن ابننا لا مكذب ... لديهم ولا يعنى بقول الأباطل
رجال كرام غير ميل[1] نماهم[2] ... إلى الغر [3] آباء كِرام المخاصل [4]
دفعناهمو حتى تبدّد [5] جمعهم ... وحسر [6] عنا كل باغ وجاهل
شباب من المطيبين[7] وهاشم ... كبيض السيوف بين أيدى الصياقل [8]
بضرب ترى الفتيان فيه كأنهم ... ضوارى أسود فوق لحم خرادل [9]
ولكننا نسل كرام لسادة ... بهم نعتلى[10] لأقوام عند التطاول [11]
سيعلم أهل الضغن أيى وأيهم ... يفوز ويعلو فى ليال قلائل

---

(١) ميل : جمع أميل وهو الجبان .
(٢) نماهم : رفعهم .
(٣) الغر : جمع أغر وهو السيد الشريف .
(٤) المخاصل : جمع مخصل كمنبر وهو السيف القاطع .
(٥) تبدّد جمعهم : تفرق .
(٦) حسّر : أوقعهم فى الحسرة .
(٧) المطيبون : هم حلفاء بنى عبد مناف وسبق ذكرهم .
(٨) الصياقل: جمع صيقل وهو شحاذ السيوف وجلادها .
(٩) الخرادل : قطع صغيرة ،وأصله خراديل ،ولا واحد له من لفظه .
(١٠) نعتلى: نرتفع .
(١١) التطاول : الفخر .

وأيهمُ منى ومنهم بسيفه يلاقى إذا ما حان وقت التنازل
ومن ذا يمل الحرب منى ومنهمو ويُحمدُ فى الآفاق من قول قائل[1]

ولا فرق لدى أبى طالب زعيم بنى هاشم أن ينتقل من الحديث عن عظيم عظماء بنى هاشم محمد بن عبد الله إلى شباب بنى هاشم وشباب حلف المطيبين ، هؤلاء الرجال الكرام الذين لا يعرفون الجُبن والخور، ورثوا أمجادهم كابرًا عن كابر، ونماهم إلى العز والسؤدد آباء كرام السيوف والمضارب،لقد دفعنا العدو حتى تبدد جمعه،وملأت الحسرة قلب كل باغٍ وجاهل علينا ، بهؤلاء الشباب الأنقياء الصيد ذوى المعادن النفيسة كالسيوف المصقولة أواجه أعدائى، فهم الأسود الضوارى عندما يحتدم القتال، ويكشر الموت عن أنيابه، فما يمكن للعزيز الشريف إلا أن يذود عن حماه وعن أحسابه، وسيعلم أهل الضغن من مخزوم وحلفائها من الذى يفوز ويعلو، ومن الذى يواجه بسيفه البتار إذا حان وقت النزال والمواجهة،ومن الذى يملُّ الحرب أنا أم هم ؟ ومن الذى ستتحدث الركبان بحديثه، وصبره على الموت ؟

كلنا فداء محمد بن عبد الله [2]:

فأصبح فينا أحمد ذو أرومة يقصر عنها سورة المتطاول
كأنى به فوق الجياد يقودها إلى معشر زاغو إلى كل باطل
وجُدْت بنفسى دونه وحميته ودافعت عنه بالطلى والكلاكل [3] [4]

وسيكون قائد ركبنا محمد ،يقود الجياد، ويركب الخيل إلى معشر زاغوا عن الحق،ومالؤوا الباطل ،وعندئذ سأكون بين يديه، أجود بنفسى دونه وأحميه وأدفع عنه بالأعناق والمهج والصدور .

وكيف لا أفديه وهو قمة المجد فينا ،وتقصر عنه سورة كل متطاول يود أن يقارعه بمجده،فشرفه فوق كل شرف ، ومنزلته فوق كل منزلة ، وسيعجز كل من

(١-٣) ديوان أبى طالب وشرحه لمحمد خليل الخطيب ١٣١ ـ ١٣٢ .

(٤) لقد جاءت بعض هذه الأبيات موزعة فى السيرة لابن هشام . وجئنا بها فى موقعها هنا كما اختارها ابن جنى. أما فى دلائل النبوة للبيهقى ، فلم ترد القصيدة كلها عنده ، ويكفى أن نقول فيها ما قاله الحافظ ابن كثير: وهى قصيدة عظيمة بليغة جداً لا يستطيع أن يقولها إلا من نسبت إليه، وهى أفحل من المعلقات السبع،وأبلغ فى تأدية المعنى. انظر : سيرة ابن كثير ١/ ٤٨٦ ـ ٤٩١ .

يغالبه .

يا لها من قصيدة عصماء، تعدل آلاف السيوف، ومئات المعارك، أطلقها أبو طالب فى دنيا العرب ،فانتشرت بأخبار محمد بن عبد الله فى كل صقع وتحت كل قبة، بالمنطلقات الجاهلية نفسها ،وبالعصبية القبلية نفسها ، التى تحكم المجتمع آنذاك ، وشاءت حكمة اللّه تعالى أن يحفظ حزبه بهذا الحزب الهاشمى وزعيمه، وأن يعفى جنده من المواجهة ،ويحمل لواءها سيد بنى هاشم وبنى المطلب، بل سيد الأباطح أبو طالب كما كان يطلق عليه .

## بذور الشعر الإسلامى فى مكة :

### شعر الهجرة إلى الحبشة :

نحن نعيش مراحل الدعوة مع بطل المواجهة أبى طالب .ولكننا قد نجد فى مسيرنا بعض النماذج الشعرية الإسلامية ، فإذا كان شاعر قريش ابن الزبعرى السهمى هو أفحل شعراء المشركين ،فعبد اللّه بن الحارث السهمى أول من نطق بالشعر الإسلامى فى مكة (١) ، وذلك حين كانت الهجرة إلى الى الحبشة .

يقول ابن اسحاق :

وكان مما قيل من الشعر فى الحبشة أن عبد اللّه بن الحارث بن قيس بن عدى ابن سهم حين أمنوا بأرض الحبشة ، وحمدوا جوار النجاشى ، وعبدوا اللّه لا يخافون على ذلك أحدا ، وقد أحسن النجاشى جوارهم حين نزلوا به . قال:

يا راكبا بلغن عنى مغلغلة (٢) ... من كان يرجو بلاغ اللّه والدين
كل امرئ من عباد اللّه مضطهد ... ببطن مكة مقهور ومفتون

---

(١) يذكر السهيلى أبياتًا لحمزة بن عبد المطلب قالها عند إسلامه دون أن يعزوها إلى سند ،ونقلها مؤرخو السير بعد ذلك .وبالنظرة الفاحصة لها يبدو أنها منتحلة على حمزة خاصة أنها ذكرت ثقيفًا فى الأبيات بقوله:

وقد خبرت ما صنعت ثقيف ... به فجزى القبائل من ثقيف
إله الناس شر جزاء قوم ... ولا أسقاهم صوب الخريف

وإسلام حمزة فى السنة الرابعة من البعثة ،وخروج رسول اللّه ﷺ إلى ثقيف فى السنة العاشرة للبعثة ، ومن هنا يظهر كذب الأبيات ونسبتها لحمزة رضي الله عنه .

(٢) المغلغلة: الرسالة ترسل من بلد إلى بلد .

إنا وجـــدنـا بلاد اللّه واســـعـــة · تنجـى من الذل والمخـــزاة والهـــون
فـلا تقـيـموا علـى ذل الحيـاة وخـز · ى فى الممـات وعـيب غـير مـأمـون
إنا تبـــعنا رســـول اللّه واطرحـــوا · قـــول النبى وعـــالو فى المـوازين
فـاجعل عـذابك بالقـوم الذين بغـوا · وعـــائذًا بك أن يعـلوا فـــيطغـــونى

ونلاحظ اليسر والسهولة فى هذا الشعـر ، مع البعد عن التكلف ،فهو يتناول الموضوع مباشرة ، غير أنه أدنى فصـاحة من القصيدة السابقة، والذى نلاحظه من هذه اللحظة أنه شعـر عقيـدة،وليس شعر قبـيلة أو عصبـية ،إنه ينطلق من الدين والدينونة لله، هؤلاء الذين استضعفوا فى الأرض بين مقهور ومفتون لا ذنب لهم إلا أنهم قالوا: لا إله إلا الله،إنها الرسالة التى أطلقـها شاعرنا ابن الحارث ،يعلن فيـها أن هؤلاء المسـتضـعفين ،وجدوا فى أرض الـلّه الواسعة نجـاء لهم من الذل والهوان والأذى، وها هو يدعـو بقية إخـوانه للانضمام إليـه فى هذا البلد الآمن الجديد، وإذا كـانت المعركة فى شعـر أبى طالب هى شخص محمـد ﷺ فهى فى شعر ابن الحـارث دينه ، فالمؤمنون صدقوا بمحـمد واتبعوه، بينما غـالى المشركون وعالـوا فى الموازين ونبذوا دعـوته وراء ظهورهم ، ويختـم الرسالة يدعـو ربه أن ينزل عذابه بالطغاة، ويستعيذ به عز وجل أن يقع ثانية تحت ظلمهم واضطهادهم .

هذه هى الرسالة الإســلامية الأولى لشاعـرنا ابن الحارث ،أما الرسالة الثـانية فهى:

أبت كـــبـدى لا أكـــذبنك قـتـــالهم · على[1] وتـأبـاه عـلـى أنـامـلـى [2]
وكـيـف قـتـالى مـــعـشـــرا أدبوكم · على الحـق ألا تأشـبـــوه[3] بـبـاطل
نفتهـم عباد الجن[4] من حر أرضـــهم · فأضـــحوا على أمـر شديد البـلابل[5]
فـإن تك كـــانت فى عـدى[6] أمـانة · عـدى بن سـعـد عـن تقى وتواصل
لقـــد كنت أرجـــو أن ذلك فـيـــهم · بحـمـد الذى لا يطبى[7] بالجعائل[8]

---

(١) قتالهم على : خلافهم على .
(٢) الأنامل : رؤوس الأصابع .
(٣) ألا تأشبوه : ألا تخلطوه.
(٤) عباد الجن : كناية عن قريش، وتأثرهم بعبادة الشياطين والجن .
(٥) البلابل :ج ، بلبلة ،وهو شدة الهموم والحزان .
(٦) عدى : قوم عبد الله بن الحارث .
(٧) يطبى : لا يستمال ولا يستدعى .
(٨) الجعائل : جمع جعل ، وهو نوع من الإجارة .

وبدلت شـبـلاً [١] شبل كل خـبيـثة بذى فجر[٢] مأوى الضعاف الأرامل[٣]

إن قلبه لا يطاوعـه أن يقاتل دعاة الهـدى والحق، ولا تطاوعه أنامله بذلك، وكيف يقاتل معشراً كل ذنبهم أنهم دعوا قومهم إلى الحق ونبذ الباطل، وأن يلقى بالزبد، ويبقى مـا ينفع الناس، هؤلاء الدعاة المضطهدون المحـاربون قد نفتهم عـباد الشيـاطين عن أرضهم ،فأصبح أمـرهم فوضى وبلابل وفتنة .إن قـومى عدى بن سعد قد أخلوا بأمـانة حمايتى على دينى، وإجارتى على عقيدتى ،فـمضيت هائماً إلى الحبشة حيث الملك الذى لا يظلم عنده أحد، مأوى الضعاف والأرامل .

ثم كانت الرسالة الثالثة التى حملت اسمه إلى الملأ فغدا ( المبرق بها ) :

وتلك قـــريش تجـحـد الله حـــقــه كـما جـحدت عـاد ومـدين والحجـر

فإن أنا لم أبرق[٤] بأرض فلا يسعننى من الأرض بر ذو فـضـــاء ولا بحـر

بأرض بهـــا عـــبْدُ الإله مـــحـــمـــدٌ أُبيّن ما فى النفس إذ بلغ النقر [٥] [٦]

إن الحديث عن الأنبياء وأممهم التى بادت ،وأهلكها اللّه تعالى لكفرها هو من لبـان القرآن الكريم والسنة المطهـرة فعـاد قوم هود ، والحـجر مـوطن ثمـود قوم صالح ،ومدين قوم شعيب، تحدث القرآن عنهم طويلاً فى الأمم البائدة التى كذبت رسلها فأهلكها اللّه بالريح والصاعقة والرجفة، وها هى قريش تتبع آثار هذه الأمم الطاغيـة ،وتكذب رسولها محـمداً ﷺ ، وتجحد ربها الحق ، فـأى بر، وأى بحر يسـعننى أن أعـيش مع هؤلاء الطغـاة المحاربين للّه ورسـوله، وكـيف لا أسلم فى أرض اللّه إلى أرض آمنة ،أظهر فيها الحق بعد أن تبلغنه،وأعله فيها الهدى بعد أن قذفه اللّه فى قلبى .

إنه شعر عقيـدة خالص لا تشوبه شائبة العصبيـة أبداً، ولمن يتعصب ؟ لقومه سـهم ؟ فهم من الأعـداء الألداء للّه ولرسـوله ،ولبنى هاشم رهط النبى مـحمـد ﷺ،وأبوه الحارث بن قيس من كبار المجرمين وأئمة الكفر فى مكة، فهو شاب فر بدينه من أبيه وأهله وعشيرته، يعلن للدنيا أنه مضطهد عقيدة .

وهذه هى هوية أبيه الحارث بن قيس :

---

(١) شبلا : عطفاً وإعانة .
(٢) بذى فجر : بذى عطاء كثير .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ذ/ ٢ / ٤٠٩ .
(٤) أبرق : أسعى .
(٥) النقر : البحث عن الشيء .
(٦) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٢/ ٤١٠ .

**الثانى** : الحارث بن قيس السهمى ، وهو ابن العنطلة ينسب إلى أمه ، وكان يأخذ حجراً يعبده ، فإذا رأى حجراً أحسن منه تركه وأخذ الأحسن ، وفيه نزلت : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴿٤٣﴾ ﴾[الفرقان ] .

وكان يقول: لقد غرّ محمد نفسه وأصحابه أن وعدهم أن يحيوا بعد الموت ، والله ما يهلكنا إلا الدهر ومرور الأيام والأحداث، فأكل حوتاً مملوحاً، فلم يزل يشرب عليه الماء حتى انقد بطنه، ويقال : أصابته الذبحة ، وقال بعضهم : امتخض رأسه قيحاً .

قلت : القول الأول رواه عبد الرزاق وابن جرير وغيرهما عن قتادة ومقسم مولى ابن عباس[1].

وكما كان أبو عزة الجمحى شاعراً مذكوراً من شعراء المشركين ، فها هو عثمان ابن مظعون الجمحى، وبمناسبة الهجرة إلى الحبشة كذلك يعاتب عمه أمية بن خلف الذى كان يؤذيه فى إسلامه :

| | |
|---|---|
| أتيم بن عمرو للذى جاء بغضة | ومن دونه الشِرمان[2] والبرك[3] أكتع[4] |
| أأخرجتنى من بطن مكة آمناً | وأسكنتنى فى صرح بيضاء تُقذع[5] |
| تريش نبالا لا يواتيك[6] ريشها | وتبرى نبالاً ريشها لك أجمع[7] |
| وحاربت أقواماً كراماً أعزة | وأهلك أقواما بهم كنت تفزع |
| ستعلم إن نابتك يوما ملمة | وأسلمك الأوباش[8] ما كنت تصنع[9] |

ولم يكن أمية بن خلف بأقل من الحارث بن قيس أذى واضطهاداً للمؤمنين، وما قصته مع بلال بسر، إنما كل الذى يذكره به ابن مظعون أنه أخرجه طريداً إلى الشرمان والبرك، ولعله برك الغماد ليمضى بعيداً إلى الحبشة، وأسكنه فى هذه الأرض الموحشة

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٢/ ٦٠٦ .

(٢) الشرمان : اسم موضع ، ومن رواه بكسر النون ، فهو تثنية شرم، وهو لجة البحر .

(٣) البرك: اسم موضع .

(٤) أكتع: أبعد. والحبشة أبعد من برك الغماد .

(٥) تُقذع : تُذم .

(٦) لا يواتيك ريشها : لا يناسبك .

(٧) ريشها لك أجمع : أى ستعود عليك .

(٨) الأوباش : الضعفاء الداخلون فى القوم وليسوا منهم.

(٩) السيرة النبوية لابن هشام ذ /١/ ٤١١ .

البعـيدة،ولم تعد سلاحك إن كنت رمـيت بسندك وأهلك بعيدا عنك ، وحـاربت كرام قومك ، وسادة عـشيرتك محمداً وحـزبه،وأهلكت قومًا كنت إذا نزلت الخطوب تفزع إليـهم، وستلقى جـزاء صنيعك هذا غداً حين يلتـقى عليك الأوباش من كل القبـائل. ماذا أنت صانع بنفـسك ؟!ومن الذى يحميـك منهم ؟! ولا تبدو الروح الإسلاميـة هنا بمقدار ما تبدو الانطلاقة العشـائرية ،فى محاولة لتسخـيرها لصالح الإسلام ودعوته .

ويعود أبو طالب ليـبرز لنا من جـديد فى هجرة الحبشة فهـو الناطق الرسمى باسم الحزب الإسـلامى، ولا عجب فى ذاك فابنه جعـفر بن أبى طالب على رأس الجالية الإسلامـية فى الحبشة، وممثل المسلمين هناك، كما أن ابن أخيـه محمداً فى مكة هو رأس حزب اللّه ،وقـد أقلقه جداً ما أقـدمت عليه مكة من إرسال عـمرو ابن العاص وعبد اللـه بن أبى ربيعة للقضاء على الوجود الإسـلامى فى الحبشة ، فوظف جاهه ، وبلاغته وشعره لتحطيم مهمة خصومه وألد أعدائه بنى سهم وبنى مخزوم .

فقال أبو طالب حين رأى ذلك من رأيهم ، وما بعثـوهما فيه، أبياتاً للنجاشى يحضُّه على حسن جوارهم والدفع عنهم :

| | |
|---|---|
| ألا ليت شعرى كيف فى النأى[١] جعفر | وعمرو[٢] وأعـداء العـدو الأقـارب |
| وهل نال أفـعـال النجـاشى جـعـفـراً | وأصحـابه أو عاق[٣] ذلك شـاغب[٤] |
| تعلم[٥] ـ أبيت اللعن [٦] ـ أنك ماجد | كـريم فـلا يشـقى لديك المجـانب[٧] |
| تـعـلـم ،بـأن الـلّه زادك بـسـطـة[٨] | وأسـبـاب خـيـر كلهـا بك لازب[٩] |
| وأنك فـيض[١٠] ذو سـجـال عـزيزة | ينال الأعـادى نفـعهـا والأقـارب[١١] |

(١) النأى : البعد .
(٢) عمرو : هو عمرو بن العاص السهمى الذى أرسلته مكة للنجاشى لإخراج المسلمين منها.
(٣) عاق : منع .
(٤) شاغب : من الشغب، والشغب تهييج الشر.
(٥) تعلّم : اعلم بلغة قريش .
(٦) أبيت اللعن : تحية كانوا يحيون بها الملوك فى الجاهلية .
(٧) المجانب : الداخل فى حمى الإنسان .
(٨) بسطة : سعة فى الرزق.
(٩) لازب : لاصق.
(١٠) فيض ذو سجل : الفيض : هو الجواد، والسجال: العطايا واحدها سجل.والسجل: الدلو المملوءة.
(١١) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ١/ ٤١٢ .

ولا عجب أن يقلق أبو طالب، فالداهية الدهياء عمرو بن العاص قد ينجح فى شغبه ومسعاه، ويفسد الجو على جعفر وأصحابه، ومن أجل هذا لا بد أن يهز أريحية النجاشى بتذكيره بأن حزب محمد قد اختاره على من سواه لأنه لا يظلم عنده أحد، وأن الخير والمعروف شيمة عنده لا ينفكان عنه ، ولا ينقطعان عنه فهو جزء من تكوينه،وكرمه وجوده، وخصاله الماجدة ، تنال العدو والصديق، ولا يمكن إلا أن يعم نفعها جعفراً وأصحابه، ولا شك أن وصول هذه الرسالة هو رد على مهمة عمرو وجولته فى سجل هذه المعركة .

**الحماية الجديدة والصحيفة القاطعة الظالمة:**

**الأخوان العدوان :**

لقد أعلن أبو لهب موقفه فى الخروج على قومه ،وانضمامه إلى معسكر قريش ضد محمد وأصحابه ،لكننا نلاحظ أن أبا طالب لم يشعل الحرب ضد أبى لهب،وترك بعض الخيوط موصولة على أمل أن تتحرك حمية أبى لهب ذات يوم وينضم إلى صف أخيه أبى طالب،وكان ما توقعه شيخ قريش بعيد عودة مهاجرى الحبشة قبل الهجرة الثانية.

قال ابن إسحاق: ( وأما أبو سلمة بن عبد الأسد ، فحدثنى أبو إسحاق بن يسار عن سلمة بن عبد الله بن عمر بن أبى سلمة أنه حدّثه أن أبا سلمة لما استجار بأبى طالب مشى إليه رجال من بنى مخزوم فقالوا : يا أبا طالب، لقد منعت ابن أخيك محمداً ، فما لك وصاحبنا تمنعه منا ؟ فقال: إنه استجار بى،وهو ابن أختى،وإن أنا لم أمنع ابن أختى لم أمنع ابن أخى .

فقام أبو لهب فقال: يا معشر قريش ، والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ ، لا تزالون تؤنبون عليه فى جواره من بين قومه، والله لتنتهن عنه، أو لنقومن معه فى كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد . قال:فقالوا:بل ننصرف عما تكرهه يا أبا عتبة .

وكان لهم ولياً وناصراً على رسول اللّه ﷺ فأبقوا على ذلك .

فطمع فيه أبو طالب يحرض حين سمعه يقول ما يقول،ورجاه أن يقوم معه فى شأن رسول اللّه ﷺ فقال أبو طالب يحرض أبا لهب على نصرته ونصرة رسول اللّه ﷺ:

وإن امرأ أبو عتبة عمه | لفى روضة[1] ما إن يسام المظالما[2]
أقول له وأين منه نصيحتى | أبا معتب ثبِّت سوادك[3] قائما
ولا تقبلنَّ الدهر ما عشت خطة | تسبُّ بها إما هبطت المواسما[4]
وولِّ سبيل العجز غيرك منهم | فإنك لم تُخلق على العجز لازما
وحارب فإن الحرب نصف[5] ولن ترى | أخا الحرب يعطى الخسف[6] حتى يسالما
وكيف ولم يجنوا عليك عظيمة | ولم يخذلوك غانماً أو مغارما
جزى الله عنا عبد شمس ونوفلاً | وتيماً ومخزوماً عقوقاً ومأثما
بتفريقهم من بعد ود وألفة | جماعتنا كيما ينالوا المحارما[7]
كذبتم وبيت الله نبزى[8] محمداً | ولما تروا يوماً لدى الشعب قاتما[9]

إنه يستجيش نخوة أبى لهب - إن بقيت له نخوة - بأن من كان أبو عتبة عمه (أى أبو لهب) فهو حصين من أن يسومه أحد ظلماً أو ينزل به أذى، وهل تدرى يا أبا معتب أين أنت، وهلا وضعت شخصك بين أهلك ومقومك، إن موقفك سيجلب عليك العار فى المواسم، وأنت تعادى ابن أخيك وتسبَّه، إنه الهوى والعجز بعينه، ومثلك لم يخلق لهذا العجز، وأى عجز أعظم من تسليمك ابن أخيك لعدوه ؟! إن الموقف يقتضى حرب هذا العدو ومواجهته، والحرب عدل لمن يريدك أن تعطى الهوان، وتقبل الخسف حتى يسالمك. وهل هذا هو جزاء أهلك وعشيرتك منك الذين لم يخذلوك لحظة فى حياتهم أو يتخلوا عنك ؟! ولا شك أنك قد تأثرت ببنى عبد شمس ونوفل الذين خذلونا كما خذلتنا، فجزاهم الله شرّ جزاء لهذا العقوق والمأثم، هم ومخزوم الذين يؤلبون نار العداوة علينا ويأملون بهذه الحرب أن نسلّم محمداً لهم. معاذ اللّه ! كذبوا وبيت اللّه أن نسلّم لهم سيد بنى هاشم، ولما يروا يوماً أسود لدى الشعب تشتعل فيه الحرب وتأكل الأخضر واليابس.

وإذا كان أبو طالب زعيم بنى هاشم وشيخها، وسيد الأباطح قد هدّد بحرب

---

(1) روضة : حديقة.
(2) يُسام المظالم : ينزل به الظلم.
(3) سوادك : شخصك.
(4) المواسم : أسواق العرب.
(5) نصف : عدل.
(6) خسف : ظلم.
(7) ينالوا المحارم: ينتهكون ما لا يحل انتهاكه.
(8) نبزى : نقهر ونُغلب عليه.
(9) القاتم : المسود من شدة الغبار.

عوان طاحنة لا تبقى ولا تذر إن مس محمد بسـوء ، فماذا كان يفعل عدو اللّه أبو لهب ؟

عن ربيعة بـن عباد قال: إنى لغلام شـاب مع أبى . . ورسول اللّه ﷺ يقف على منازل القـبائل من العـرب فيقـول: يا بنى فلان :« إنى رسـول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الـلّه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا مـا تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بى ،وتصدقـوا بى وتمنعونى حتى أبين عن اللّه مـا بعثنى به » .

قال: وخلفـه رجل أحول وضىء له غديرتان ، عليـه حُلَّة عدنية ، فـإذا فرغ رسول اللّه ﷺ من قـوله ، وما دعـا إليه ، قال ذلك الرجـل : يا بنى فلان، إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعـزى من أعناقكم ،وحلفاءكم من الجن من بنى مـالك بن أُقيش إلى مـا جاء به مـن البدعـة والضلالة ، فـلا تطيعـوه ، ولا تسمعوا منه ، قـال: فقلت لأبى : من هذا الذى يتبعه ويرد عليـه ما يقول؟ قال: هذا عمه عبد العزى بن عبد المطلب أبو لهب) (١) .

ويكفى أن أبا لهب هو الوحيد فى الأرض الذى هجاه القـرآن وزوجته باسمه الصريح المتعارف عليه :

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ [ سورة المسد ] .

وروى أبو الزناد عن هشام بن عروة عن عائشة قالت: قال رسول اللّه ﷺ : « كنت بين شر جارين بين أبى لهب وعقبة بن أبى مـعيط، إن كانا ليأتيان بالفروث فيطرحانها على بابى » (٢).

**الصحيفة القاطعة الظالمة :**

قال ابن إسحاق :

فلما رأت قـريش أن أصحاب رسول اللّه ﷺ قـد نزلوا بلداً آمنا وقراراً، وأن النجاشى قد منع من لجأ منهم إليه،وأن عمـر قد أسلم ، فكان هو وحمزة بن عبد

(١) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٢/ ٧٤. وقد صحح المحقق هذه الرواية من مجموع الطرق التى وردت فيها.
(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٢/٦٠٩.

المطلب مع رسول اللّه ﷺ،وجعل الإسـلام يفشو فى القبائل، اجتمـعوا وائتمروا بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعـاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب ، على أن ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ،ولا يبيـعوهم شيئاً،ولا يبتاعوا منهم ، فلمـا اجتمعوا لذلك كتبوه فى صحيفة، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم .

قال ابن إسحاق : فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبى طالب بن عبد المطلب فدخلوا معه فى شعبه، واجتمعوا إليه ، وخرج من بنى هاشم أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب إلى قريش فظاهرهم .

قال ابن إسـحاق : فلمـا اجتـمعت على ذلك قـريـش ،وصنعـوا فـيه الذى صنعـوا قال أبو طالب:

| | |
|---|---|
| ألا أبـلغـــــــــا عنـى ذات بـيـننـا | لؤياً وخـــصـــا من لؤى بنى كـــعب |
| ألم تعلـمـوا أنا وجـــدنا مـحـــمـداً | نبـيـاً كـمـوسى خُط فى أول الكتب |
| وأن عليـــه فى العـــبـــاد مـــحـبـــة | ولا خـــيـــر ممن خـصـّه الـلّه بالحب |
| وأن الذى ألصـــقـتم مـــن كـتــابكم | لكم كائـن نحساً كـراغيـة السقب [1] |
| أفيـقوا أفـيقوا قـبل أن يُحفـر الثرى | ويصبح من لم يجن ذنباً كذى الذنب |
| ولا تتـبـعـوا أمـر الوشـاة وتقطعـوا | أواصـرنا [2] بعـــد المـودة والقـــرب |

لقد ابتدأ قصيدته هادئاً ناصحاً فى رسالة بليغة وجهها إلى قومه، وخصَّ منهم بنى كعب بن لؤى الذين هم صميم قريش، وها هو يعلن دون مواربة ولا تعريض أن محمداً نبى اختـاره اللّه تعالى لخلقه كما اختار موسى نـبياً من قبل ، وقد ورد ذكـره فى الكتب الأولـى عند أهل الكتـاب،ولا عـجب أن يقـــول أبو طالب هذا القول، وهو الذى التقى الراهب بحيرى ، ومحمد غلام حدث فى بصرى .

( حتى إذا فـرغ القوم من طعامـهم وتفرقوا ، قام إليـه بحيرى فـقال له: يا غـلام أسألك بحق اللات والعـزى إلا ما أخبـرتنى عمـا أسألك عنه ، وإنما قـال

(١) كراغيـة السقب: هو من الرغاء ،وهى أصوات الإبل . والسقب: ولد الناقـة . وأراد هنا به ولد ناقة صالح عليه السلام التى عقـرها قدار بن سالف بن جندع ، فرغـا ولدها، وصاح برغائه كل شىء له صـوت ، فهلكت ثمود عند ذلك . فضربت العرب ذلك مثلاً فى كل هلكة .

(٢) الأواصر : القرابة والمودة .

بحيرى ذلك ، لأنه رأى قومه يحلفون بهـما ، فزعموا أن رسول اللّه ﷺ قال له : « لا تسألنى باللات والـعزى ، فوالله مـا أبغضت شيـئاً قط بغضـهما » . فـقال له بحيرى : فباللّه إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه ، فقال له : « سلنى عما بدا لك » . فجعل يسأله عن أشياء من حاله فى نومـه وهيئته وأموره ، فجعل رسول اللّه ﷺ يخبره ، فيـوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته ثم نظر إلى ظهـره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التى عنده .

قال ابن إسـحاق : فلما فـرغ أقبل على عـمه أبى طالب . فقـال له : ما هذا الغلام منك ؟ قال : ابنى . قال له بحيرى : ما ينبغى لهذا الغلام أن يكونِ أبوه حياً . قال : فـإنه ابن أخى . قـال : فما فـعل أبوه ؟ قال : مـات وأمه حُبلى بـه . قال : صـدقت . فارجـع بابن أخيك إلـى بلده ، واحذر علـيه يهـود . فـوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شراً ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم ، فأسرعْ به إلى بلاده ، فخرج به عمه أبو طالب سريعاً حتى أقدمه مكة . . ) (١) .

فقـد كان أبـو طالب لا يشك بأن لابن أخيـه محـمد شـأن عظيم ، وأنه نبى مرسل ، وذلك دون أن يعنى بطبيعة هذا الدين ، لأنه مصمم على البقاء على ملة أبيه عـبد المطلب ، وبما أنه نبى فقـد خصّه اللّه تعالى بالحب ، وهل هناك خـير ممن اختصه اللّه بالحب ، وألقى عليه محبة فى العباد .

ثم يعود لمخاطبة قريش قائلاً عن هذه الصحيفة بأنها ستجلب اللعنة عليهم كما جلبت ناقة صالح الشؤم على قومها حين قتلها أشقاها ، ولن يمر هذا الميثاق بسهولة إنه يقطّع أوصال القوم ، ويبدل ودهم حقدا ، وحـقهم غيظاً ، وسيقود إلى حرب ضروس إذا اشتعلت فلا مهدئ لأوارها أبداً .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ١/١٣٨ـ ١٣٩ . وقد رواها البـيهقى فى الدلائل عن ابن إسحاق برواية يونس ابن بكيـر ٢/٢٨ ، ٢٩ . ورواها الترمـذى فى سننه ج٥ / ٢٥٠ ـ ٢٥١ . وقال بعـده : هذا حديث حـسن غريب لا نعـرفه إلا من هذا الوجه . ومـضى بعض المحدثين إلى إنكاره أو الحكم عليـه بالوضع كالذهبى ، بينما ذكر البزار هـذا الحديث فى مسنده ، ولم يقل : وأرسل معه بلالاً ، ولكن قال : رجـلا ، وهو ما سماه ابن القيم فى كتابه زاد المعاد بالخطأ الواضح . هذا وقد أورد ابن إسحـاق ثلاث قصائد فى هذا السفر ، فيما رواه عنه يونس بن بكير ، وهى ظاهرة الوضع والانتحـال ، وأورد البيهقى بعضهـا فى الدلائل ، والسهيلى فى الروض ، لكن ابن هشـام لم يذكرها إطلاقـاً لعدم قناعـته بصـحة نسـبتـها لأبى طالب . ولركـاكتـها وتهلهلها . انظر السيرة لابن اسحاق ٧٦ ـ ٧٨ .

وتستجلبوا حرباً عوانًا [١] وربما أمر على من ذاقه جلب الحرب
فلسنا ورب البيت نسلم أحمداً لعزاء[٢] من عض[٣] الزمان ولا كرب
ولما تبن [٤] منا ومنكم سوالف[٥] وأيد أترت[٦] بالقساسية[٧] الشهب
بمعترك[٨] ضيق[٩] ترى كسر القنا به والنسور الطخم[١٠] يعكفن[١١] كالشرب[١٢]
كأن مجال الخيل فى حُجُراته[١٣] ومعمعة الأبطال معركة الجرب[١٤]
أليس أبونا هاشم شد أزره[١٥] وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب
ولسنا نمل الحرب حتى تملنا ولا نشتكى ما قد ينوب من النكب
ولكننا أهل الحفائظ[١٦] والنهى[١٧] إذا طار أرواح الكماة[١٨] من الرعب[١٩]

ونحن هنا مع أبى طالب فى صورة فنية رائعة أشبه ما تكون بعرض سينمائى كامل لساحة الحرب ،ينتقل بنا فيها فى كل جوانب الساحة فى لقطات فنية أخاذة .

حيث يبدأ جولته بالذين سعروا الحرب ،إنهم أشد ما يكونون مرارة من هولها،واحتراقاً بلظاها ، وتلكم قريش تحاول قبل بدء الحرب أن تتجنبها بطلب تسليم محمد لها ، فتقتله فإنما هو رجل واحد، وتقف الحرب التى أعدت لها كل المعدات والأسلحة ، فيأتى جواب أبى طالب بعد هذه المحاولة الأخيرة :

كذبتم وبيت الله نسلم أحمداً لعزاء من عض الزمان ولا كرب

لا الآن ،ولا فى أى موعدٍ جديد ، وليس عندنا إلا الحرب .

---

(١) حرباً عواناً : أى قوتل بها مراراً .
(٢) لعزاء : لشدة .
(٣) عض الزمان : شدته أيضاً .
(٤) تبن : تقطع .
(٥) سوالف : صفحات الأعناق .
(٦) أترت : قُطعت .
(٧) القساسية : سيوف منسوبة إلى قساس ، وهو جبل فيه معدن الحديد .
(٨) المعترك: موضع الحرب .
(٩) ضيق وضنك: بمعنى واد.
(١٠) الطخم : فى لونها سواد .
(١١) يعكفن : يقمن ويلازمن .
(١٢) الشرْب : جماعة من القوم يشربون .
(١٣) الحَجَرات : النواحى .
(١٤) الجرب : الإبل التى أصابها جرب فهى تحك بعضها بعضاً .
(١٥) أزره : هى القوة وهى الظهر أيضاً .
(١٦) الحفائظ : جمع حفيظة،وهى الغضب فى الحرب.
(١٧) النهى : العقول .
(١٨) الكماة : الشجعان .
(١٩) الرعب :الفزع .

**اللقطة الثانية :**

تبتدئ المعركة ، وتنتقل ريشة أبى طالب الفنان بنا ، فقد انتهى الكلام ، وهذه الأعناق تطير عن كواهلها هنا وهناك،وتلك الأيادى المبتورة التى تشخب دماً تلقى فى الساحة ،وأما الصوت فحطم السيوف ،وأما الضوء فلمعانها كما تلمع الشهب فى الليل، وتحتدم المعركة أكثر فأكثر ،والمعلق الإعلامى معنا يتابع الوصف على الطبيعة حياً ومباشرة على الهواء ،فقد خرجت الرماح ،فتكسرت قطعاً بعد أن مزقت القوم أشلاء مبعثرة، فهيأت وليمة ضخمة للنسور الضخام السود .

وتأتى اللقطة الثالثة وقد انتهت الحرب،ومضى من كان حياً إلى أهله يلعق جراحه، بينما بقى أبو طالب يصف لنا الساحة بعد الحرب حيث اختلطت القنا المكسورة بالدماء والأشلاء،وخلت الساحة للوحوش والنسور فى أضخم وأفخم وليمة لها، وتأتى اللقطة الرابعة لتتحدث عن حرب طاحنة بين الوحوش الضوارى فى ساحة الحرب، ومعترك الخيل ،ونواحى الساحة لاتهام الفرائس فى العراء ، حيث تتناطح رؤوسها وتحك أجسادها للفوز بالفريسة، كما تفعل الإبل الجرباء بنفسها حين يشتد عليها ألم الجرب .

وتأتى اللقطة الخامسة ، حيث يعود مع المنتصرين المظفرين من بنى هاشم ، ليقدم لنا بياناً عقب المعركة ،يؤكد فيه :

أليس أبونا هاشم شد أزره      وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب

ويؤكد فى هذا البيان أنهم جاهزون على أتم الجاهزية لخوض معركة ثانية وثالثة ورابعة :

ولسنا نمل الحرب حتى تملنا      ولا نشتكى ما قد ينوب من النكب

ثم تكون اللقطة الأخيرة ، فى عرض عسكرى حاشد للجيشين الجيش الهاشمى الثابت الجأش ،بقلوب أشد من الجبال الرواسى ،يقابله ذلك الجيش المعادى ،وقد طارت أفئدتهم من الرعب، وشجعانهم يرتجفون من هول الضربات الهاشمية التى يمكن أن تقع بهم ، وهم يمرون بين أيديهم:

ولكننا أهل الحفائظ والنهى      إذا طار أرواح الكماة من الرعب

وقريش تعلم أن أبا طالب يقول ويفعل ما يقوله، فلجأت إلى حرب الحصار الاقتصادى هرباً من حرب المواجهة فى الوغى، وهذه صورة مما يفعله أبو طالب إذا جد الجد .

( وقال أهل السير : كان النبى ﷺ قد خرج إلى الكعبة يوماً ، وأراد أن يصلى، فلما دخل فى الصلاة قال أبو جهل لعنه اللّه: من يقوم إلى هذا الرجل فيفسد عليه صلاته، فقام ابن الزبعرى، فأخذ فرثاً ودماً فلطخ به وجه النبى ﷺ، فانفتل النبى من صلاته، ثم أتى أبا طالب عمه فقال: « يا عم ألا تر إلى ما يفعل بى » . فقال أبو طالب: من فعل هذا بك ؟ فقال : « ابن الزبعرى » . فقام أبو طالب ، ووضع سيفه على عاتقه، ومشى معه حتى أتى القوم ، فلما رأوا أبا طالب قد أقبل جعل القوم ينهضون، فقال أبو طالب: واللّه لئن قام رجل لجللته بسيفى فقعدوا حتى دنا إليهم، فقال: يا بُنىّ من الفاعل بك هذا ؟ فقال: « عبد اللّه ابن الزبعرى » فأخذ أبو طالب فرثاً ودما فلطخ به وجوههم ولحاهم وثيابهم ، وأساء لهم القول . فنزلت هذه الآية :

﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْئَوْنَ عَنْهُ ﴾ [ الأنعام : ٢٦ ] فقال النبى ﷺ: « يا عم لقد نزلت فيك آية » قال : وما هى ؟ قال: « تمنع قريشًا أن تؤذينى وتأبى أن تؤمن بى » فقال أبو طالب :

وابن الزبعرى هو الشاعر الفحل الذى واجه الدعوة ودولة الإسلام بعد الحروب بين المسلمين والمشركين ، وعندما جد الجد ووقعت الحرب، فهؤلاء الهاشميون الزُهر: عبيدة بن الحارث ، وحمزة بن عبد المطلب ، وابن أبى طالب الصغير على، ها هم ينصرفون وقد تركوا فى معترك الحرب صرعى ثلاثة قد بانت سوالفهم وقطعت أيديهم، وهم عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة .

واللّه لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أُوَسَّد فى التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة ... وابشر بذاك وقر منك عيونا
ودعوتنى وزعمت أنك ناصحى ... فلقد صدقت وكنت قبل أمينا
وعرضت ديناً قد عرفت بأنه ... من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذارى سبة ... لوجدتنى سمحاً بذاك مبينا)[1]

---

(١) تفسير القرطبى ٦/ ٤٠٥. والأبيات عند ابن إسحاق ١٥٥. ولكن ابن هشام لم يوردها لعدم قناعته بصحة نسبتها لأبى طالب .

## المقاطعة تتحطم على صخرة المقاومة :

لا شك أن ذروة انتصار قريش على بني هاشم كانت فى تعبئة كل قبائلها ضدهم، وتنفيذ بنود المقاطعة لثلاث سنين ونصف، وأبو طالب فى الشعب مع حزبه الهاشمى المطلبى ،ومن تبقى من المسلمين فى مكة،يتحملون برجولة وأنفة وإباء آثار هذه المقاطعة حتى أكلوا ورق الشجر،ورفضوا تسليم محمد ﷺ لقريش، ثم كان الحدث الذى اهتزت له قريش .

( وكان أبو طالب إذا أخذ الناس مضاجعهم أمر رسول اللّه ﷺ ، فاضطجع على فراشه حتى يرى ذلك من أراد مكراً به واغتياله ، فإذا نُوِّم الناس أمر أحد بنيه أو أخوته أو بنى عمه فاضطجع على فراش رسول اللّه ﷺ وأمر رسول اللّه أن يأتى بعض فرشهم فينام عليه ، فلما كان رأس ثلاث سنين تلاوم رجال من بنى عبد مناف ومن بنى قصى ، ورجال سواهم من قريش قد ولدتهم نساء من بنى هاشم ورأوا أنهم قد قطعوا الرحم،واستخفوا بالحق ، واجتمع أمرهم من ليلتهم على نقض ما تعاهدوا عليه من الغدر والبراءة منه ، وبعث اللّه عزْ وجل على صحيفتهم التى مُكِرَ فيها برسول اللّه ﷺ الأرضة [١] فلحست كل ما كان فيها من عهد وميثاق . . . وأطلع اللّه عزّ وجلّ رسوله على الذى صنع بصحيفتهم، فذكر ذلك رسول اللّه ﷺ لأبى طالب ، فقال أبو طالب: لا والثواقب [٢] ما كذبتنى فانطلق يمشى بعصابة من بنى عبد المطلب حتى أتى المسجد،وهو حافل من قريش، فلما رأوهم عامدين لجماعتهم أنكروا ذلك ،وظنوا أنهم خرجوا من شدة البلاء ، فأتوا ليعطوهم رسول اللّه ﷺ فتكلم أبو طالب فقال: قد حدثت أمور بينكم لم نذكرها لكم فأتوا صحيفتكم التى تعاهدتم عليها ، فلعله أن يكون بيننا وبينكم صلح، وإنما قال ذلك خشية أن ينظروا فى الصحيفة قبل أن يأتوا بها، فأتوا بصحيفتهم معجبين بها لا يشكون أن رسول اللّه ﷺ مدفوعاً إليهم ، فوضعوها بينهم، وقالوا: قد آن لكم أن تقبلوا وترجعوا إلى أمر يجمع قومكم ، فإنما قطع بيننا وبينكم رجل واحد جعلتموه خطراً لهلكة قومكم وعشيرتكم وفسادهم، فقال أبو طالب: إنما أتيتكم لأعطيكم أمراً لكم فيه نصف ، إن ابن أخى أخبرنى ولم

(١) الأرضة : دويبة تأكل الخشب وغيره ،وهى منتشرة في مكة المكرمة إلى اليوم وتسمى بالنمل الأبيض .

(٢) الثواقب : جمع ثاقب وهو النجم المضيء .

يكذبنى : أن الله عـز وجل برىء من هذه الصحـيفـة التى فى أيديكم ،ومن كل اسم هو له فيـها ، وترك فيهـا غدركم وقطيعـتكم إيانا ، وتظاهركم علينا بالظلم، فإن كان الحديث الذى قال ابن أخى كما قال فـأفيقوا ، فوالله لا نسلمه أبداً حتى نموت عن آخرنا وإن كان الذى قال باطلاً دفعناه إليكم فقتلتم أو استحييتم .

قالوا : قد رضينا بالذى تقول، ففتحوا الصحيفة ، فوجدوا الصادق المصدوق ﷺ قد أخبر خبرها فلما رأتها قريش كالذى قال أبو طالب قالوا :والله إن كان هذا قط إلا سحراً من صاحـبكم، ، فارتكسوا وعادوا بشر ما كـانوا عليه من كفرهم، والشدة على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين من رهطه،والقـيام بما تعاهدوا عليه ، فقال أولئك النفر من بنى عبد المطلب: إن الأولى بالسحر والكذب غيرنا ، فكيف ترون ، فـإنا نعلم أن الذى أجـمـعـتم علـيـهم من قطيـعـتنا أقـرب إلى الجـبت والسحر،ولولا الذى أجـمعتم عليه فيهـا من السحر لم تفسد الصحـيفة ،وهى فى أيديكم ،فما كان للّه عز وجل من اسم هو فيها طمسه، وما كان من بغى تركه فى صحيفتكم ، أفنحن السحرة أم أنتم ؟ فندم المشركون من قريش عند ذلك .

وقـال رجال منهم ـ أبو البـخـتـرى بن هشـام بن الحارث بن عـبد العـزى بن قصى، ومنهم المطعم بـن عدى ، وهشام بن عمـرو أخو عامـر بن لؤى، وكانت الصحيفة عنده، وزهير بن أبى أمية، وزمعة بن الأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبـد العزى بن قـصى فى رجال من قريش ولـدتهم نساء من بنى هاشم كـانوا قد ندموا على الذى صنعوا :نحن برآء من هذه الصحيفة . فقال: أبو جهل: هذا أمر قضى بليل. وأنشأ أبو طالب يقول الشعر فى شأن صـحيفتهم ،ويمتدح النفر الذين تبرؤوا منها،ونقضوا ما كان فيها من عهد، ويمتدح النجاشى .

وذكر موسى بن عقـبة تلك الأبيات ،وهكذا ذكر شيخنا أبـو عبد الله الحافظ رحمه الله هذه القصـة عن أبى جعفر البغدادى عن محمـد بن عمرو بن خالد بن أبيه عن ابن لهيعة عن أبى الأسود عن عروة بن الزبير ) [١] .

قال ابن إسحاق :

فلما مزقت الصحيفة، وبطل ما فيها . قال أبو طالب فيما كان من أمر أولئك

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٢/٣١٢ ـ ٣١٤ .ومغازى رسول الله ﷺ لعروة بن الزبير ١١٤ ـ ١١٩ .

النفر الذين قاموا فى نقضها يمدحهم :

ألا هل أتى بحرينا [١] صنع ربنا ... على نأيهم والله بالناس أرود [٢]

فيخبرهم أن الصحيفة مزقت ... وأن كل ما لم يرضه الله يفسد

تراوحها إفك [٣] وسحر مجمع ... ولم يلف سحر آخر الدهر يصعد

تداعى لها من ليس فيها بقرقر[٤] ... فطائرها فى رأسها يتردد

وإذا كان التواثق على الصحيفة هو قمة نصر قريش ،فإن نقضها هو قمة هزيمتها مع معركتها مع محمد ﷺ ،وأبو طالب هو بطل هذه الحرب، أولاً وأخيراً، هدد بها يوم تمالأ القوم عليه وعلى عشيرته، وهدد بها يوم تم نقض الصحيفة، وأشاد بالذين حالفوه وانضموا إليه ، ونشر قصيدته هذه فى الأرض العربية مبرقاً بها إلى المسلمين بالحبشة بهذا الانتصار العظيم الذى تم بعون الله، والله أرحم بحزبه وأعظم من أن يقر إفك قريش وسحرها وباطلها ، فقد أكلت الأرضة كل اسم الله فى هذه الصحيفة، وأبقت إثمهم وفسادهم، وهل يمكن أن ينتصر الفساد ،ولو طغى فى مرحلة ،فلا بد فى النهاية أن يفضح ويكشف ، لقد تداعى لهذه الصحيفة، ولهذا الإثم من ليس له بأهل، وليس من القوة والقدرة بحيث يستطيع حربنا وتنفيذ بغيه علينا ،فكان طائر الشؤم معشعشاً فى داخل الصحيفة ،وحملت بذور فنائها معها :

وكانت كفاة [٥] وقعة[٦] بأثيمة[٧] ... ليقطع منها ساعد ومقلد[٨]

ويظعن [٩] أهل المكتين [١٠] فيهربوا ... فرائصهم [١١] من خشية الشر ترعد

ويترك حراث[١٢] يقلب أمره ... أيتهم[١٣] فيهم عند ذاك وينجد[١٤]

---

(١) بحرينا : يريد المهاجرين إلى الحبشة ،والذين ركبوا البحر إليها .

(٢) أرود : أرفق .

(٣) الإفك : الكذب والبهتان .

(٤) القرقر : اللين السهل .

(٥) الكفاة : المجازاة بالمثل .

(٦) الوقعة : صدمة الحرب .

(٧) الأثيمة : كثرة وقوع الإثم.

(٨) المقلد: العنق .

(٩) يظعن : يرتحل .

(١٠) المكتان : تثنية مكة ، وهى واحدة بطاحها وظواهرها .قال السهيلى: وإنما مقصد العرب من هذا الإشارة إلى أعلى البلدة وأسفلها، فيجعلونها مثناة.

(١١) الفرائص : جمع فريصة ،وهى بضعة فى مرجع الكتف ترعد إذا فزع الإنسان .

(١٢) حراث : مكتسب .

(١٣) يتهم : يأتى تهامة .

(١٤) ينجد : يأتى نجداً .

وتصـمـد بين الأخـشـبين[1] كتـيبـة لها حدج [2] سهم وقوس ومِرهد [3]

إن هذا الإثم والبغى الذى تواطأ عليه قـومنا ضدنا فى هذه الصحيفـة القاطعة الظالمة كان كافياً لأن تقطع الأيادى التى كتـبتها ،وتندر الرؤوس التى خططت لها، وكانت هذه الصحيفة كفيلة أن تنزل البلاء والموت فى أهل مكة،فيفروا هاربين من غضب اللّه عليهم، وترعد فرائصهم من الشر الذى سيحيق بهم حتى ليفر صاحب الزرع فيتـرك زرعه لا يدرى يمضى باتجاه تهـامة أو نجد . أما المعافـون من البلاء ، والذين وقع البغى والظلم عليهم ، فهم الوارثون لمكة ،وهـم أهلها ، هذه الكتيبة المسلحة بالسهام والقسى والرمـاح مطمئنة إلى قدر اللّه الحكيم العادل ،بأن العذاب لن يقع عليها إنما يقع على من بغى عليها .

فـــمن يـنش من حُضَّار مـكة عـــزه فـــعـــــزتنـا فى بـطن مـكة أتـلد
نشـأنا بهـا والناس فـيـهـا قـلائل فلـم ننفك نـزداد خـيـــراً ونحـــمَد
ونطعـم حـــتى يتــرك الناس فـــضـلنا إذا جــعلت أيدى المفـــيـــضين ترعـــد

نحن جيران بيت اللّه وأهل مكة، وعزنا تليد فيها إذا كان عز الآخرين حديث العهد فيها ، ونحن نشأنا فيها منذ كانت أعداداً قليلة ،ونمونا وتكاثرنا ، وسدنا فيها فهى أرضنا ، وميراث أجدادنا، وهل يعرف حجاج بيت اللّه مطعمين غيرنا ، ففينا الرفادة والسقاية، ويعرف هذا الفضل لنا كل حاضر وباد فى العرب ،ويترك الناس فضل أزوادنا لهم،بعد شبعهم وريهم،عندما تكون أيدى الأجواد ترعد من العطاء، فعطايانا ممنوحة للوحوش والطير قبل القائمين والطائفين من كل فج عميق.

وهنا ينتقل بنا إلى الحديث عـن الرهط الذين تتابعوا لنصرة محمـد وعمه أبى طالب، فيـغدق عليهم آى الثناء والمجـد لهذا الموقف الشريف الشـهم،ويحسن أن نعرض تتابعهم من السيرة النبوية قبل عرضه من قصيدة أبى طالب الرائعة .

قال ابن إسحاق:

( ثم إنه مشى إلى زهير بن أبى أمية بن المغيرة . . . بن مخزوم ، وكانت أمه

(١) الأخشبان : جبلان بمكة .
(٢) حَدَج : كثرة ،وأصل الحدج صغار الحنظل .
(٣) مِرهد : رمح لين . ومن رواه فرهد، فهو الرمح الذى إذا رمى به وُسِّع الخرق .

عاتكة بنت عبد المطلب فقال: يا زهير أرضيت أن تأكل الطعام ،وتلبس الثياب، وتنكح النساء،وأخوالك حيث قد علمت لا يباعون ولا يبتاع منهم ،ولا ينكحون ولا ينكح إليهم، أما إنى أحلف بالله لو كانوا أخوال أبى الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعوتك إليه منهم ما أجابك إليه أبداً. قال: ويحك يا هشام فماذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد والله أن لو كان معى رجل آخر لقمت فى نقضها حتى أنقضها. قال: قد وجدت رجلاً .قال: فمن هو ؟ قال: أنا . قال: له زهير: ابغنا رجلاً ثالثاً . فذهب إلى المطعم بن عدى ( بن نوفل بن عبد مناف ) فقال له: يا مطعم ! أقد رضيت أن يهلك بطنان من بنى عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه ؟ أما والله لئن مكنتموهم من هذه، لتجدنهم إليها منكم سراعاً. قال : ويحك ! فماذا أصنع ؟! إنما أنا رجل واحد. قال: قد وجدت ثانياً. قال: من هو ؟ قال: أنا . قال: ابغنا ثالثا .قال " قد فعلت. قال: من هو ؟ قال : زهير بن أبى أمية. قال : ابغنا رابعاً .فذهب إلى أبى البخترى ابن هشام .قال له نحوا مما قال للمطعم بن عدى . قال: وهل أحد يعين على هذا؟ قال: نعم . قال: من؟ قال: زهير بن أبى أمية ، والمطعم بن عدى، وأنا معك . قال: ابغنا خامساً . فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد ، فكلمه، وذكر له قرابتهم وحقهم ، فقال له : وهل على هذا الأمر الذى تدعونى إليه من أحد؟ قال: نعم. ثم سمى له القوم .

فاتعدوا خطم الحجون ليلاً بأعلى مكة. فاجتمعوا هنالك ، فأجمعوا أمرهم ، وتعاقدوا على القيام فى الصحيفة ، حتى ينقضوها . وقال: زهير: أنا أبدؤكم ، فأكون أول من يتكلم، فلما أصبحوا غدوا إلى أنديته ، وغدا زهير بن أبى أمية عليه حلة فطاف بالبيت سبعاً، ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة ، أنأكل الطعام ،ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يباع، ولا يبتاع منهم ، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .

قال أبو جهل، وكان فى ناحية المسجد: كذبت والله لا تشق، قال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب،ما رضينا كتابتها حين كتبت. قال أبو البخترى: صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها، ولا نقر به . قال المطعم بن عدى : صدقتما وكذب من قال غير ذلك . نبرأ إلى الله منها ، ومما كتب فيها . قال هشام بن عمرو

ونحواً من ذلك . فقال أبو جهل : هذا أمر قضى بليل ، تشوور فيه بغير هذا المكان. قال: وأبو طالب جالس فى ناحية المسجد ، فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة فد أكلتها إلا « باسمك اللّهم » .

لقد مر على أبى طالب فى هذه اللحظات أسعد لحظات حياته، فهاهم بنو نوفل ، وبنو أسد ، بنو عبد العزى، وكل بنى قصى قد انضموا إليه ، وها هو ابن أخته زهير بن أبى أمية المخزومى هو الذى يواجه أبا جهل بن هشام، وها هو هشام بن عمرو ممثلاً لبنى عامر بن لؤى ينضم لهؤلاء الرهط الكرام، وقام شقيق روحه المطعم الذى طالما ناجاه،وحثه على مناصرته قام فى هذه اللحظات ليترجم نصرته واقعاً ، فمضى إلى الصحيفة ،ليشقها فوجدها قد أكلتها الأرضة ،إيذاناً بغضب اللّه تعالى على بغى قريش،وكان يوماً مشهوداً،وانقلاباً عسكرياً داخل صف قريش، غير الموازين ،وقلب الساحة، ومزق التحالفات السابقة ،وتحطمت القطيعة من داخل معسكر قريش نفسه،وطابت نفس أبى طالب بهذا النصر المؤزر، ووضع كل عبقريته وإبداعه،واستدعى شيطانه الشعرى ،ليزجى آيات الثناء والمجد على الرهط الكرام الأبطال الذين تحدوا البغى وحطموه .

جزى اللّه رهطاً بالحجون تتابعوا ... على ملأ [1] يهدى لحزم ويرشد
قعوداً لدى خطم الحجون[2] كأنهم ... مقاولة [3] بل هم أعز وأمجد
أعان عليها كل صقر كأنه ... إذا ما مشى فى رفرف[4] الدرع أجرد[5]
(جرىٌّ على جلى[6] الخطوب كأنه ... شهاب بكفى قابس يتوقد
منَ الأكرمين من لؤى بن غالب ... إذا سيم[7] خسفا [8] وجهه يتربد[9]
طويل النجاد [10] خارج نصف ساقه ... على وجه يسقى الغمام ويسعد

(١) الملأ : جماعة الناس وأشرافهم .
(٢) خطم الحجون : أخطمة بالضم : رعن الجبل أى أنفه المتقدم .
(٣) المقاولة : الملوك . (٤) رفرف الدرع: ما فضل من درعها .
(٥) أجرد: بطيء المشى لثقل الدرع الذى عليه.
(٦) جلى الخطوب: معظمها. والجلى: الأمر العظيم.
(٧) سيم: كلف (٨) الخسف : الذل .
(٩) يتربد : يتغير إلى السواد .
(١٠) النجاد: حمائل السيف ،وطوله كناية عن طول القمامة ،وكذا خارج نصف ساقه . وهذا يمدح به الشريف.

عظيم الرماد [1] سيد وابن سيد يحض على مقرى [2] الضيوف ويحشد [3]
ويبنى لأبناء العشيرة صالحاً إذا نحن طفنا فى البلاد ويمهد

ونقف هنا ملياً قبل شرح هذه الأبيات ،لنرى أن الإمعان فى هذا الوصف للملأ الذين تتابعوا على نقض الصحيفة والحديث عن كريم السجايا،وعظيم الشيم لهم ، بينما تخلو القصيدة كلها من أى ثناء على محمد رسول اللّه ﷺ،وهذا على غير خط أبى طالب الذى لا يدع مناسبة يثنى بها على الحبيب العظيم محمد إلا ويهتبلها ،وقد أوقفنى هذا البيت الأخير :

ويبنى لأبناء العشيرة صالحاً إذا نحن طفنا فى البلاد ويمهد

فرأيت أنه غير مستقيم المعنى ، فما علاقة إذا نحن طفنا فى البلاد بالحديث عن أولئك الأمجاد الذين نقضوا الصحيفة، وعدت ثانية إلى ديوان أبى طالب، وفى ذهنى هذا المعنى الأصيل الذى لم يشذ أبو طالب عنه إلا هنا ،وهو مدح المصطفى صلوات الله عليه،وأن هذه المعانى من المديح إنما هى أقرب أن تكون فى محمد عليه الصلاة والسلام من أن تكون فى إنسان آخر ، فلا أحد يضاهيه عظمة ونبلاً فى عقل أبى طالب وقلبه ، وبالعودة إلى ترتيب ابن جنى للأبيات ، تنجلى القضيةواضحة، ويندرج هذا الثناء كله لرسول الله ﷺ على منهج أبى طالب ، ويأتى الثناء المناسب للرهط الذين التقوا بالحجون .

يقول شارح الديوان:

**تنبيه** : هذه القصيدة المتقدم شرحها رواية ابن هشام ومن نقل عنه كابن كثير،وقد رواها ابن جنى يزيادة أبيات ونقص أبيات، ووضع كلمات وشطرات موضع كلمات وشطرات ،وهذه روايته :

ألا إن خير الناس نفساً ووالداً إذا عد سادات البرية أحمد
نبى الإله والكريم بأصله وأخلاقه وهو الرشيد المؤيد
حزيم على جلى الأمور كأنه شهاب بكفى قابس يتوقد
من الأكرمين من لؤى بن غالب إذا سيم خسفاً وجهه يتربد

(١) عظيم الرماد : كناية عن كرمه، فرماد ناره كبير لما يشعلها للضيفان.
(٢) مقرى الضيوف : إكرامهم . (٣) يحشد : يجمع.

طويل النجاد خارج نصف ساقه / على وجه يسقى الغمام ويسعد
عظيم الرماد سيد وابن سيد / يحض على مقرى الضيوف ويحشد
ويبنى لأبناء العشيرة صالحاً / إذا نحن طفنا فى البلاد ويمهد
ويفنى كثيراً حيث كان من العدا / طلاع العدا لا غير ذلك يجهد
هو القائل المهدى به كل منسر[1] / عظيم اللواء أمره الدهر يحمد
إذا قال قولا لا يعاد لقوله / توحى الكتاب فى صفيح يخلد[2]
بجيش له من هاشم يتعبونه / يسددهم رب الورى ويؤيد

فمحمد خير الناس نفساً وولداً ،وحين يذكر سادات البرية فمحمد إمامهم،وقد اختاره اللّه نبياً ، فهو المؤيد من ربه، وهو الحازم فى أموره كالشبهات المتوقدة يضيء للناس حوالك ظلمهم،وهو سليل الأكرمين من لؤى بن غالب، إذا مس بخسف،يربد وجهه ،ولا يزاوله هذا التربد حتى يمسح ذلك الخسف ويرفعه.

لقد وصفه عمرو بن سالم الخزاعى بالوصف نفسه حين جاء يستنصره على بنى بكر قائلاً :

فيهم رسول اللّه قد تجردا / إن سيم خسفاً وجهه تربدا[3]

فما كان جواب رسول اللّه ﷺ على استغاثته إلا قوله: « نصرت يا عمرو بن سالم» وقوله وقد رأى الغمام فى السماء: «إن هذه السحابة لتستهل فى نصر بنى كعب».

وهو السيد الفارع الطول العظيم فى قومه ،حمائل سيفه ودرعه يقصرن عن تغطيته، وإلى جانب شجاعته فهناك سماحته، وإقراؤه للضيف، ورماده العظيم صورة حية عن هذا الجود ، أما مع الأعداء فهو يفنيهم عند النزال،ورسول اللّه هو الكوكب الذى يهتدى به الكماة، فهو أمام طلائع الجيش يقودها إلى الجلى كما وصفه على رضى اللّه عنه :

(وكنا إذا اشتد البأس، وحمى الوطيس، واحمرت الحدق، لذنا برسول اللّه ﷺ،

---

(١) المنسر : قطعة من الجيش تمر قدام الجيش الكثير فهى طليعته .
(٢) فى صفيح يخلد: جمع صفيحة .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام و /٢/ ٨٤٦ .

فما كان أحد أقرب إلى العدو منه ) [١] .

فأبو طالب وابنه على أبطال قريش وبنى هاشم ،هم الذين يصفون سيد السادات محمداً ﷺ بذلك ،وإذا كان أبو طالب قد حصر الأمر بجيش من بنى هاشم يقوده ، بما تراءى له فى تلك الظروف الصعبة أيام حصار الشعب، فها هو عليه الصلاة والسلام يقود العرب كل العرب ،والمسلمين كل المسلمين إلى العدو بلوائه الأعظم،وكلمته التى يقولها دستور نافذ لا يمكن أن تتكرر، لأنها تنفذ ساعة إطلاقها ،وهى عند أبى طالب كوحى الكتاب بل هى الوحى بعينه .

نعود بعدها لترتيب ابن هشام لأن ابن جنى ينتقل مباشرة إلى :

هموا رجعوا سهل بن بيضاء راضياً ... سر إمام العالمين محمد[٢]

أما ابن هشام فيعود للحديث عن الرهط الذين اجتمعوا بالحجون بينما لم يشر ابن جنى إلى هذه الأبيات:

ألظ[٣] بهذا الصلح كل مبرأ ... عظيم اللواء أمره ثم يحمد
قضوا ما قضوا فى ليلهم ثم أصبحوا ... على مهل وسائر الناس رقد
هم رجعوا سهل بن بيضاء[٤] راضياً ... وسر أبو بكر بها ومحمد
متى شرك الأقوام فى جل أمرنا ... وكنا قديماً قبلها نتودد
وكنا قديماً لا نقر ظلامة ... وندرك ما شئنا ولا نتشدد
فيا لقصى هل لكم فى نفوسكم ... وهل لكم فيما يجىء به غد
فإنى وإياكم كما قال قائل ... لديك البيان لو تكلمت أسود [٥]

فما شارك فى مصالحة بنى هاشم واندفع إليه إلا كل عظيم اللواء فى عشيرته حميد محمود فى قومه، وذلك بعد أن تشاوروا فى الليل، وصمموا على تنفيذ

(١) هو فى صحيح مسلم عن البراء :( كنا والله إذا احمر البأس نتقى به ، وإن الشجاع الذى يحاذى به). يعنى النبى ﷺ ح ١٧٧٥ .

(٢) شرح ديوان أبى طالب ٦٩، ٧٠ .

(٣) ألظ : لزم وألح .

(٤) سهل بن بيضاء: هو أسن أصحاب رسول الله ﷺ بعد أبى بكر الصديق .ولهذا اختاره أبو طالب للحديث عنه. وكان قد أخفى إسلامه ،وسعى فى جمع شمل الناقضين للصحيفة .

(٥) لو تكلمت أسود : هنا اسم رجل . وأراد يا أسود وهو مثل يضرب للقادر على الشيئ ولا يفعله وهى كناية عن قدرة قصى على ألفة كلمتها ولا تفعل ذلك .

خطتهم التى عـزموا عليها، والـناس راقدون لا علم لهم بشىء، وقد أقروا عـيون سادة المسلمين وقـادتهم مثل سهل بن بيـضاء وأبى بكر الصديق ،وسيـد السادات محمد ﷺ، يعود بعد هذا ليتـحدث عن بنى قصى، فجُلّ الذين ساهموا فى نقض الصحيفـة من بنى قصى، ويذكرهم بألفتهم ووحدة كلمـتهم، وكيف يدخلون فى أمرهم مـا ليس منهم ،وهم الذين كانوا لا يـقرون الظلم فمـا بالهم اليوم يبـغون ويظلمون ،وإذا ملكوا أسجحوا؟ فمـا لهم اليوم يبغى بعضهم على بعض ؟! وهى دعوة خفية إلى بنى نوفل بن عبـد مناف بن قصى الذين شارك زعيمهم المطعم فى نقض الصحيفة ،وبنى أسد بن عبد العزى بن قصى الذين شارك زعيمهم زمعة بن الأسود فى نـقضهـا كذلك ، وبنى عـبد العـزى بن قصى الذين شـارك زعيـمهم أبوالبخترى بن هشام فى نـقضها كذلك ليقفوا صفـاً واحدًا فى مواجهة الخطوب، وردع الظالمين ،وهذه النهـاية لتـدل دلالة واضـحـة على خطأ الموقف السـابق فى التمالؤ ضد بنى هاشم ،أبعد هذا البيان من بيان ؟! وبعد هذه الخاتمة من نهاية ؟!

فـإنى وإياكم كـمـا قـال قـائل ... لديك الـبيـان لو تـكلمت أسـود

# الباب الثانى

# الشعر فى غزوة بدر

# الفصل الأول

# الشّعر الإسلامى منذ البعثة إلى غزوة بدر

## قبل بدر :

ماذا عن شعراء يثرب ؟

يقول ابن سلام الجمحى عنهم: أشعرهم حسان بن ثابت ،وهو كثير الشعر جيده، وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد (١) .

( وقال أبو عبيدة: فضل حسان بن ثابت الشعراء بثلاث: كان شاعر الأنصار فى الجاهلية، وشاعر النبى ﷺ فى أيام النبوة، وشاعر اليمن، كلها فى الإسلام) (٢).

( وكعب بن مالك شاعر مجيد ) وهو الذى نقل لنا قصة بيعة العقبة بأسلوبه الأدبى الرائع. وكان قد حضر المشاهد كلها مع رسول اللّه ﷺ ما عدا بدراً، وتخلَّف عن تبوك، وقص علينا قصة تخلفه عنها فى أروع بيان. وها نحن نلتقى معه أول الطريق فى أول نص شعرى إسلامى يطالعنا فى السيرة النبوية لشعراء يثرب، حيث يذكر لنا سجل النقباء الاثنى عشر الذين تشكّلت منهم الحكومة الإسلامية الأولى، وقال لهم عليه الصلاة والسلام :« أنتم كفلاء على قومكم كفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومى » (٣).

قال ابن هشام: وقال كعب بن مالك يذكرهم فيما أنشدنى أبو زيد الأنصارى:

أبلغ أبياً أنه فال (٤) رأيه ... وحان غداة الشعب والحين (٥) واقع

أبى اللّه ما منّتك نفسك إنه ... بمرصاد أمر الناس راءٍ وسامع

وأبلغ أبا سفيان أن قد بدا لنا ... بأحمد نور من هدى اللّه ساطع

(١) طبقات فحول الشعراء ١/ ٢١٥ .

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة ١/ ٢/ ٨/ت ١٨٩٦ .

(٣) السيرة النبوة لابن هشام ذ/ ٢/ ٩٩ .

(٤) فال رأيه : بطل .

(٥) الحين : الهلاك أو الموت .

إنه الإعلان الأول الرسمى عن الإسـلام فى رسالة شعرية موجهـة إلى زعماء الكفرة فى مكة أبى بن خلف وأبى سفيان بن حرب .

فـلا ترعين[1] فى حـشـد أمـر تريده ... وألب [2] وجـمع كلمـا أنت جـامع
ودونك فـاعلم أن نقض عـهـودنا ... أباه علـيك الرهط حـين تتـابعـوا

وها هى أسماء القادة الاثنى عشر:

أباه البراء[3] وابن عـمرو [4] كلاهما ... وأسعد[5] يـأبـاه عـلـيـك ورافـع[6]
وسعد[7] أباه السـاعـدى ومنذر [8] ... لأنفـك إن حـاولـت ذلك جـادع
ومـا ابن ربيع[9] إن تناولت عـهـده ... بمسـلمـه لا يطـمـعن ثم طـامع
وأيضـاً فـلا يعطيكه ابن رواحـة [10] ... وإخفاره[11] مـن دونـه السـم نـاقـع
وفـاءً به والقـوقـلى ابن صـامت[12] ... بمندوحـة عـمـا تحـاول يافع[13]
أبو هيـثم [14] أيضـاً وفى بمثلهـا ... وفـاء بما أعطى من العـهـد خـانع
وما ابن حضير [15] إن أردت بمطـمع ... فـهل أنت عن أحـمـوقـة الغى نازع
وسعد [16] أخو عمـرو بن عوف فإنه ... ضـروح لما حاولـت ملأمـر[17] مـانع
أولاك نجـوم لا يُغبُّكَ منـهـم ... عليـك بنحس فـى دجى الليـل طالع

إن روح التهـديد والوعيد فى أجواء هذه القـصيدة تبرز لهـؤلاء الذين عاهدوا

---

(1) لا ترعين : لا تبقين .
(2) ألب : جمع .
(3) البراء بن معرور .
(4) عبد الله بن عمرو بن حرام نقيب بنى سلمة .
(5) أسعد بن زرارة : نقيب بنى النجار .
(6) رافع بن مالك .
(7) سعد بن عبادة نقيب بنى ساعدة وسيد الخزرج .
(8) المنذر بن عمرو .
(9) سعد بن الربيع نقيب بنى بن الحارث بن الخزرج
(10) عبد الله بن رواحة نقيب بنى الحارث بن الخزرج .
(11) الإخفار : نقض العهد والغدر .
(12) القوقلى : عبادة بن الصامت نقيب بنى غنم بن عوف .
(13) يافع : المرتفع من الأرض ، ورويت باقع بمعنى بعيدة .
(14) أبو الهيثم بن التيهان : نقيب بنى عمرو بن عوف .
(15) ابن حضير: أسيد بن حضير نقيب بنى عبد الأشهل .
(16) سعد بن خيثمة نقيب بنى مالك بن الأوس .
(17) ملأمر : من الأمر .وحذفت النون لضرورة الشعر .

محمداً، وتعـاقدوا معه على حرب الأحمر والأسود من الناس،ولن ينقـضوا عهد محمد ﷺ أو يخذلوه ودون ذلك السم الناقع .

وتبرز حـرب العقيـدة واضحة فيهـا ،فهم قد اهتدوا بنور ساطع من مـحمد النبى ، وأن اللّه تعالى مع رسـوله والمؤمنين معه ،ومـهما جـمعتـهم وألبتم فنحن بالمرصاد لكم، وهؤلاء النجوم الزهر هم نحس عليكم فى دجى هذا الليل يكشفون زيفكم وكفركم .

يعنينا كذلك شاعرنا الثالث ،وهو عـبد اللّه بن رواحة،وهو أحد النقباء الاثنى عشـر، وسيد من سـادات بنى الحارث بن الخزرج يـقول عنه ابن سلام الجـمحى (وعبـد اللّه بن رواحة عظيم القدر فى قـومه،سيد فى الجـاهلية، ليس فى طبقـته التى ذكرنا أسود منه،شـهد بدراً ،وكان فى حروبهم فى الجاهـلية يناقض قيس بن الخطيم،وكان فى الإسلام عظيم القدر والمكانة عند رسول اللّه ﷺ ) (١).

وهو أحد الأمراء الثـلاثة فى مؤتة الذين استشـهدوا فيها ، وشـهد له رسول اللّه ﷺ بالجنة فقد ترجم البيعة ترجمة عملية بدمه الذى أهرقه فى سبيل اللّه .

**ملامح المواجهة العملية بين قريش ويثرب:**

قال ابن اسحاق: ونفر الناس من منى فتنطس القوم الخبر، فوجدوه قد كان ، وخرجوا فى طلب القوم فأدركوا سعد بن عبادة بأذاخر (٢) ،والمنذر بن عمرو أخا ابن ساعـدة بن كعب ،وكلاهمـا كان نقيـباً فأمـا المنذر فأعجـز القوم ،وأما سـعد فأخـذوه فربطوا يديه إلى عنقـه بنسع (٣) رحله، ثم أقـبلوا به حـتى أدخلوه مكة يضربونه، ويجذبونه بجمته، وكان ذا شعر كثير .

قال سـعد :فـواللّه إنى لفى أيديهم إذا طلع علىّ نفـر من قريش فيـهم رجل وضىء أبيض شعشاع (٤) حلو من الرجـال. قال: فـقلت فى نفـسى: إن يك عند أحد من القوم خـير فعند هذا فلما دنا منى رفع يده فلكمنى لكلمـة شديدة .قال: فقلت فـى نفسى : لا والله مـا عندهم بعد هذا من خـير، قال: فـواللّه إنى لفى

---

(١) طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٢٣ . (٢) أذاخر : اسم موضع .
(٣) النسع : الشراك الذى يشد به الرحل .
(٤) شعشاع : طويل .

أيديهم يسحبوننى إذ أوى إلىّ رجل ممن كان معهم . فقال : ويحك! أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد ؟ قلت: بلى واللّه. لقد كنت أجير لجبير بن مطعم تجارة، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادى، وللحارث بن حرب بن أمية . قال : ويحك ! فاهتف باسم الرجلين ، واذكر ما بينك وبينهما . قال: ففعلت . وخرج ذلك الرجل إليهما فوجدهما فى المسجد عند الكعبة، فقال لهما: إن رجلاً من الخزرج الآن يضرب بالأبطح ، ويهتف بكما ، ويذكر أن بينه وبينكما جواراً ، قالا: ومن هو ؟ قال: سعد بن عبادة ، قال : صدق واللّه، إن كان ليجير لنا تجارنا (١) ويمنعهم أن يظلموا ببلده، قال: فجاءا فخلصا سعداً من أيديهم، فانطلق ، وكان الذى لكم (٢) سعدًا سهيل بن عمرو أخو بنى عامر بن لؤى. قال ابن هشام: وكان الرجل الذى أوى إليه أبا البخترى بن هشام ) (٣) .

فنحن إذن مع أول مواجهة بين قريش ويثرب، ومن سوء الحظ أن المقبوض عليه كان سيد الخزرج جميعاً ، وحبا الشعر العظيم فى أول نطق بين القريتين العظيمتين مكة ويثرب .

قال ابن اسحاق : وكان أول شعر قيل قبل الهجرة بيتين قالهما ضرار بن الخطاب بن مرداس أخو بنى محارب بن فهر فقال:

| | |
|---|---|
| تداركت سعداً عنوة (٤) فأخذته | وكان شفاء لو تداركت منذراً |
| ولو نلته طلت(٥) هناك جراجة | وكان حريًا (٦) أن يهان ويهدرا )(٧) |

لقد ابتدأت قريش بالمواجهة بالاعتداء على سيد الخزرج سعد بن عبادة ، وبالتلويح بلسان شاعرها الفحل ضرار بن الخطاب بالرغبة فى النيل من سيد بنى ساعدة الثانى المنذر بن عمرو، فبرز حسان بن ثابت الشاعر الذى تجاوز حدود المدينتين، وأصبح مشهوراً فى الشام والجزيرة بعد مديحه للغساسنة، وسعد فوق أنه سيد قومه الخزرج فهو وإياه من دين واحد وعقيدة واحدة .

قال ابن إسحاق: فأجابه حسان بن ثابت فيهما فقال:

---

(١) تجارنا : جمع تاجر .

(٢) لكمه : ضربه بجمع كفه.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ذ /٢/ ١٠٣ ـ ١٠٥ .

(٤) عنوة : قهرا .

(٥) طلت هناك جراحة : أبطلت .

(٦) حريا : كان حقيقاً .

(٧) المصدر نفسه ٢ / ١٠٥ .

لست إلى سعد ولا المرء منذر إذا ما مطايا القوم أصبحن ضمرا [1]

فلولا أبو وهب لمرت قصائد على شرف البرقاء[2] يهوين حسرا [3]

أتفخر بالكتان لما لبسته وقد تلبس الأنباط[4] ريطا [5] مقصراً

فلا تك كالوسنان [6] يحلم أنه بقرية كسرى أو بقرية قيصرا

ولا تك كالثكلى وكانت بمعزل عن الثكلى لو كان الفؤاد تفكرا

ولا تك كالشاة التى كان حتفها بحفر ذراعيها فلم ترض محفرا

ولا تك كالغاوى فأقبل نحره ولم يخشه سهما من النبل مضمرا

فإنا ومن يهدى القصائد نحونا كمستبضع[7] تمرا إلى أرض خيبرا

ويذكر شارح ديوان حسان هذا القول :( فقال حسان يجيبه ،وهو أول شعر قاله فى الإسلام ) [8] .

وأضاف ثلاثة أبيات إلى القصيدة المذكورة وهى :

تمنى ضرار والأمانى جمة [9] من الجهل أن يلقى بضجنان[10] منذرا

فليت ورب الراقصات [11] إلى منى خوارج من نقف[12] الكديدين[13] شمرا

فدع عنك سعدا إن سعدا ومنذرا سواء إذا شذا لحربك مئزرا [14] [15]

يبتدئ حسان معركته فى الرد على ضرار بن الخطاب الفهرى بأنه لا سبيل له إلى سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو إذا ما أصبحت مطايا القوم ضمراً مسرعات فى

(١) ضمر : مسرعات.
(٢) البرقاء : مكان فى البادية .
(٣) حسر : أضناها الإعياء .
(٤) الأنباط : قوم من العجم .
(٥) الريط : الملاحف البيض واحدتها ريطة .
(٦) الوسنان : النائم.
(٧) مستبضع : مشتر تمراً ليبيعه بخيبر أرض التمر .
(٨) د . وليد عرفات .
(٩) جمة : كثيرة .
(١٠) ضجنان : حرة شمالى مكة يمر الطريق بطرفها الغربى على مسافة ٥٤ ميلاً على طريق المدينة .
(١١) الراقصات : الإبل والخيل التى يأتى عليها الحجاج ترتفع وتنخفض .
(١٢) نقف : فتحة .
(١٣) الكديد : موقع بالحجاز قرب مكة بين عسفان وأمج.
(١٤) شد المئزر للحرب: استعد للمواجهة والقتال .
(١٥) الديوان ١٢٤ تحقيق الدكتور وليد عرفات .دار صادر ، بيروت . أما ضرار بن الخطاب فقال عنه السهيلى فى الروض ٢٠١/١ : وضرار كان شاعر قريش وفارسها ، ولم يكن فى قريش أشعر منه ثم ابن الزبعرى ابن قيس بن عدى .

السير، وحيث إن سعداً قد حبس، فالرواية التى وردت فى الديوان أصح إذ فيها : لست إلى عمرو ولا المرء منذر .

وعمرو وهو والد المنذر ، فالمنذر بن أبيه اللذان لا يشق لهما غبار ، ولا قدرة لضرار وغيره على اللحاق بهما. وها هو يستخف بأمانى ضرار أن يلقى منذراً بضجنان أو الكديد ، وليس سعد والمنذر إلا بطلى الحرب إن شدا مئزريهما لها، ولولا أبو وهب بن عائذ بن مخزوم من أخوال رسول اللّه ﷺ لكانت المعركة أعنف وأشد . وهل تفخر يا ضرار بلبس الكتان ؟! فهذا ليس بمفخر ، فقد يلبس الأنباط الذين هم من العجم خيراً من لباسنا . ولا تكن كالحالم أنه فى ديوان كسرى أو قيصر ، أو كالثكلى التى تفكرت ما دفعت ولدها للموت ، ثم راحت تندبه ، أو كالشاة التى تحفر قبرها بذراعيها ، فتهلك نفسك فى هجائنا والنيل منا . ولا تكن كطالب الموت ، وقد جاءه السهم فأصاب فؤاده . إن الذى يتحدانا بالشعر أو بالحرب مثل الذى يشترى التمر ليبيعه أهل خيبر ، وهم المصدرون له .

وإذا كانت هذه الحادثة قد شُغلت بها قريش، وشغلت بمضاعفات بيعة العقبة ، فقد أذهلها ذات ليلة أن تسمع هاتفاً فى بهيم الليل تسمع صوته ولا تراه ينشد :

فإن يُسلم السعدان يصبح محمد ... بمكة لا يخشى خلاف المُخالف

فلما أصبحوا قال أبو سفيان : من السعدان : أسعد بن بكر أم سعد بن هذيم؟[1] فلما كان فى الليلة الثانية سمعوه يقول:

فيا سعد سعد الأوس كن أنت ناصراً ... ويا سعد سعد الخزرجين الغطارف
أجيبا إلى داعى الهدى وتمنيا ... على اللّه فى الفردوس منية عارف
فإن ثواب اللّه للطالب الهدى ... جنان منذ الفردوس ذات رفارف

فلما أصبحوا قال أبو سفيان : هو واللّه سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة) [2].

وأدرك أبو سفيان ، وأدركت قريش من ورائه أن يثرب كلها أصبحت ملكاً لمحمد بن عبد اللّه ، فقد أسلم سعد بن معاذ سيد الأوس ، وسعد بن عبادة سيد

---

(١) حسبوا أنه يريد بالسعدين القبيلتين: سعد بن هذيم من قضاعة ، وسعد بن زيد بن تميم.
(٢) دلائل النبوة للبيهقى٢/ ٤٢٨ ـ ٤٢٩ . والخبر أخرجه ابن أبى الدنيا ، والخرائطى فى مكارم الأخلاق .

الخزرج، ولن يجرؤ على مخالفتهم أحد يؤبه له فيها ، وها هى نسائم الجنة تهب مع هذه الأبيات لأول مرة فى الشعر العربى .

**الهجرة إلى المدينة :**

قال ابن إسحاق:

فلما أذن اللّه تعالى له ﷺ فى الحرب،وبايعه هذا الحى من الأنصار على الإسلام والنصرة له ولمن اتبعه ،وأوى إليهم من المسلمين،أمر رسول اللّه ﷺ أصحابه من المهاجرين من قومه،ومن معه بمكة من المسلمين،بالخروج إلى المدينة ، واللحوق بإخوانهم من الأنصار ،وقال: « إن اللّه عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها ». فخرجوا أرسالاً (١) ،وأقام رسول اللّه ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن له ربه فى الخروج من مكة، والهجرة إلى المدينة ) (٢).

وكان أول من استجاب لهذا النداء بنو أسد حلفاء بنى أمية . وعلى رأسهم عبد اللّه بن جحش ،وأخوه الشاعر أبو أحمد بن جحش .

ونجد شاعرنا يعطى الموقف جلاء فى قصيدة له فيقول:

لما رأتنى أم أحمد غادياً ... بذمة من أخشى بغيب وأرهب
تقول : فإما كنت لا بد فاعلاً ... فيمم بنا البلدان ولتنأ (٣) يثرب
فقلت لها: بل يثرب اليوم وجهنا ... وما يشأ الرحمن فالعبد يركب
إلى اللّه وجهى والرسول ومن يقم ... إلى اللّه يوماً وجهه لا يخيب

نلاحظ السهولة والوضوح فى العرض ،ضمن أسلوب قصصى جذاب، ونصاعة فى العقيدة لا تلجلج فيها ولا تدسيس .

فكم قد تركنا من حميم مناصح ... وناصحة تبكى بدمع وتندب
ترى أن وتراً (٤) نأينا عن بلادنا ... ونحن نرى أن الرغائب(٥) تطلب
دعوت بنى غنم لحقن دمائهم ... وللحقن لما لاح للناس ملحب (٦)

---

(١) جماعة فى إثر جماعة .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٢/ ١٢٣ .

(٣) النأى : البعد .

(٤) الوتر : طلب الثأر ،وهنا الخسارة أو النقص.

(٥) الرغائب : العطايا الكثيرة .

(٦) ملحب : طريق بيِّنٌ .

أجـابوا بحـمـد الـلّه لما دعـاهم إلى الحق داع والنجـاح فـأوعبـوا [١]

وهو يعرض فى تصـوير جيد للحظات الفراق، والوداع المؤثرة بـين الأحبة ، الذين ينحون باللائمة عليهم لمغادرتهم حرم اللّه الآمن ، بينما نرى نحن أن العقيدة فوق الأرض والوطـن ، فقد اخـترنا الإسـلام ديناً، فمـا ترك قومنا لنـا قراراً ولا استقراراً .

وكنا وأصـحـاباً لـنا فـارقـوا الهـدى أعـانوا علينا بالسـلاح وأجلبـوا [٢]
كـفـوجين : أمـا منـهـمـا فـمـوفق على الحق مـهدى ، وفوج مـعذب
طغـوا وتمنوا كـذبة وأزلـهـم عن الحق إبليـس فـخـابوا وخـيـبـوا
ورعنـا [٣] إلى قـول النبـى مـحـمـد فطاب ولاة الحق مـنا وطيـبـوا ) [٤]

ولأول مرة تتضح المـفاصلة على أساس العقـيدة من خلال الشعر،لـقد كانت القبيلة هى التى تجمـع وتفرق ،أما الآن ففريقان فريق مـهدى مؤمن باللّه ورسوله فى الجنة ، وآخر فارق الـهدى،وصاد اللّه ورسله، واتخذ إبليس وليـاً له ،فخاب وخيب،بينما طاب المؤمنون وطيـبوا ،وشتان بين من يقوده مـحمد النبى وبين من يقوده إبليس،أما الأرحـام فقد تقطعت وأنبتت،لأنهم حاربونا من أجل عـقيدتنا ، وظاهروا على إخراجنا من ديارنا.

**أبو قيس صرمة بن أبى أنس:**

وكان رجلاً قد ترهب فى الجاهلية، ولبس المسوح ،وفارق الأوثان ، واغتسل من الجنابة ،وتطهر من الحائض من النساء،وهم بالنصرانية ثم أمسك عنها ،ودخل بيتاً له فـاتخذه مسجـداً له لا تدخله عليه فيه طامث ولا جنب ،وقـال: أعبد رب إبراهيم،حين فارق الأوثان وكرهها،حتى قدم رسول اللّه ﷺ،فأسلم وحسن إسلامه، وهو شيخ كبير،وكان قوالاً بالحق معظمـاً للّه عز وجل فى جاهليته، يقول أشعاراً فى ذلك حساناً. . . وقال أبو قيس صرمة أيضـاً يذكر ما أكرمهم اللّه تبارك وتعالى به من الإسلام، وما خصهم اللّه به من نزول رسول اللّه ﷺ عليهم:

(١) أوعبوا : اجتمعوا وكثروا . (٢) أجلبوا : أعانوا وجمعوا.
(٣) رعنا : راجعنا .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٢/ مقتطفات١٢٤ ـ ١٢٨ .

ثوى[1] فى قريش بضع عشرة حجة يذكر لو يلقى صديقاً مواتياً [2]
ويعرض فى أهل المواسم نفسه فلم ير من يؤوى ولم ير داعياً

هكذا كان شأنه مع قومه، ومع العرب، ولا صديق يؤنس، ولا بعيد ينصر إلى أن أكرمه اللّه تعالى بالأنصار، وكما قال عليه الصلاة والسلام يوم عودته من الطائف:

« اللهم أنى أشكو إليك ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس: أنت رب المستضعفين، وأنت ربى، إلى من تكلنى، إلى بعيد يتجهمنى، أم إلى عدو ملكته أمرى. . . ».

إلى أن ساقه اللّه تعالى إلى من ادخرهم لنصرته، فكان:

فلما أتانا أظهر اللّه دينه فأصبح مسروراً بطيبة راضيا
وألفى صديقاً واستقر به النوى[3] وكان له عوناً من اللّه بادياً
يقص لنا ما قال نوح لقومه وما قال موسى إذ أجاب المناديا
فأصبح لا يخشى من الناس واحداً قريباً ولا يخشى من الناس نائياً
بذلنا له الأموال من أجل مالنا وأنفسنا عند الوغى والتآسيا

وصدق أبو قيس، فقد بايعوه على حرب الأحمر والأسود من الناس، وبايعوه على نهكة الأموال، وقتل الأشراف، وبايعوه على أن يحموه مما يحمون منه نساءهم وأولادهم.

ونعلم أن اللّه لا شىء غيره ونعلم أن اللّه أفضل هادياً
نعادى الذى عادى من الناس كلهم جميعاً وإن كان الحبيب المصافيا

وصدق أبو قيس، فقد قالوا له: صل حبال من شئت، واقطع حبال من شئت. وقال لهم عليه الصلاة والسلام رداً على معروفهم: « بل الدم الدم، والهدم الهدم، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم، وحاربوا أقرب الناس إليهم نصرة للّه ولرسوله».

---

(١) ثوى: أقام.
(٢) مواتيا: موافقا.
(٣) النوى: البعد والسفر.

وها هو يختم هذا الثناء العظيم بهذه التسبيحات الخالدة ، والمناجاة الربانية الخاشعة:

أقول إذا أدعوك فى كل بيعة[1] تباركت قد أكثرت لاسمك داعياً
أقول إذا جاوزت أرضا مخوفة حنانيك[2] لا تظهر علىّ الأعاديا
فطأ معرضاً [3] إن الحتوف كثيرة إنك لا تبقى لنفسك باقيا [4]
فوالله ما يدرى الفتى كيف يتقى إذا هو لم يجعل له الله واقيا
ولا تحفل النخل المعيمة[5] ريها إذا أصبحت رياً وأصبح ثاويًا [6] [7]

ولا تزال ألفاظ معابد اليهود والنصارى تسيطر عليه، فالبيعة: هى أماكن عبادة النصارى، ولم يكن المسجد قد أخذ دوره بعد ، ولعله فى المراحل الأولى لبنائه، أو قبل بنائه ، والله تعالى هو الملاذ والملجأ عند الخوف والفزع،ومن يقه الله تعالى فليطأ المخاوف كلها دون وجل، ولا واقى إلا الله، ولا معيذ إلا هو، فالنخل العطشى لا تحفل بصاحبها إذا ثوى وهلك [8].

ولأننا لن نلتقى بعد الآن مع صرمة ﷺ ،فقد خلد لنا ذكرى احتفال الأنصار بوافدهم الحبيب، كان لزاماً علينا أن نعرض له القصيدة كلها ، فدوح الإسلام تملأ شعره كله قبل الإسلام، ولعله توفى فى الأيام الأولى للإسلام فى المدينة ، ويكاد يكون شعره إنشاداً كله ،سهلاً، بعيداً عن التقعر .

---

(١) البيعة : مكان العبادة . (٢) حنانيك : أى تحننا بعد تحنن .

(٣) فطأ معرضا: أى ضع رجليك حيث شئت.

(٤) ذكر ابن هشام هذا البيت والذى يليه هما لأفنون التغلبى صريم بن معشر .

(٥) ريا : أى مروية .

(٦) المعيمة : العاطشة من العيمة وهو العطش .وهو أكثر ما يقال فى اللبن .

(٧) ثاويا : هالكا .

(٨) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٢/ ١٨٢ ـ ١٨٣ . وقد أوردها البيهقى فى الدلائل موزعة على روايات ثلاث ٣/ ٥١٣ ـ ٥١٥ .

# الفصل الثانى
# الشّعر فى غزوة بدر

## فى قلب المعركة وجوها :

وهو شعر خفيف معظمه من الرجز ، ومرتبط بحادثة معينة ، يكاد يكون مدخلاً للشعر الذى قيل فى بدر .

## طالب بن أبى طالب :

وإذا كان أبو طالب قد أوقف حياته وشعره ذوداً عن ابن أخيه محمد ﷺ ، فقد اكتفى ابنه طالب باعتزال المعركة الأولى بين الفريقين، بعد أن خرج مع قريش لقتال ابن عمه .( وكان طالب بن أبى طالب ، وكان فى القوم ، وبين بعض قريش محاورة ، فقالوا : لقد عرفنا يا بنى هاشم ، وإن خرجتم معنا ، أن هواكم لمع محمد ،فرجع طالب إلى مكة مع من رجع ، وقال:

لا هم إمـا يغـزون طالب     فى عصبة مخالفاً محارب
فى مقنب [1] من هذه المقانب     فليكن المسلوب غير السالب

وليكون المغلوب غير الغالب [2]

فهو يناجى ربه ،ويعذر نفسه فى هذا الرجوع،وما جدوى أن يحارب ابن عمه مع عصبة من قومه، وفى خيلهم الكرارة . إنه يفضل أن يكون هو المسلوب لا السالب، وأن يكون هو المغلوب لا الغالب، وأى غلبة فى انتصاره على أحب الناس إليه محمد بن عبد اللّه ؟

## أبو البخترى بن هشام :

وهو النصير الثانى للمسلمين فى مكة من المشركين،وكان له بلاء فى نقض

(١) المقنب : الجماعة من الخيل مقدار ثلاثمائة ونحوها .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام و / ١/ ٤٥٣ .

الصحيفة ،وحفظ له رسول الله ﷺ هذه اليد ، فقال:

«إني قد عرفت رجالاً من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً لا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقى منكم أحداً من بنى هاشم فلا يقتله ، ومن لقى أبا البخترى ابن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله، ومن لقى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ فلا يقتله، فإنه إنما أخرج مستكرهاً . . » .

قال ابن إسحاق : وإنما نهى رسول الله ﷺ عن قتل أبى البخترى ؛ لأنه كان أكف القوم عن رسول الله ﷺ وهو بمكة ،وكان لا يؤذيه . . فلقيه المجذر بن زياد البلوى فقال له : إن رسول الله ﷺ قد نهانا عن قتلك،ومع أبى البخترى زميل له . . . قال: وزميلى؟ فقال له المجذر : لا والله ما نحن بتاركى زميلك ، ما أمرنا رسول الله إلا بك وحدك . فقال : لا والله ، إذن لأموتن أنا وهو جميعاً، لا تتحدث عنى نساء مكة أنى تركت زميلى حرصاً على الحياة، فقال أبو البخترى حين نازله المجذر، وأبى إلا القتال:

لن يسلم ابن حرة زميله ... حتى يموت أو يرى سبيله

فاقتتلا فقتله المجذر بن زياد .وقال فى قتله أبا البخترى :

إما جهلت أو نسيت نسبى ... فأثبت النسبة أنى من بلى
الطاعنين برماح اليزنى[1] ... والضاربين الكبش[2] حتى ينحنى
بشر بيتم من أبيه البخترى ... أو بشرن بمثلها منى بنى
أنا الذى يقال أصلى من بلى ... أطعن بالصعدة [3] حتى تنثنى
وأعبط[4] القرن[5] بعضب[6] مشرفى[7] ... أرزم[8] للموت كإرزام المرى[9]

فلا ترى مجذراً يفرى [10] فرى ) [11]

---

(١) اليزنى : نسبة إلى ذى يزن .
(٢) الكبش : رئيس القوم .
(٣) الصعدة : عصا الرمح .
(٤) أعبط : أقتل.
(٥) القرن : المقاوم فى الحرب .
(٦) العضب : السيف القاطع .
(٧) المشرفى: منسوب إلى المشارف ،وهى قرى بالشام .
(٨) الإرزام : الشدة .
(٩) المرى : الناقة التى يستنزل لبنها بعسر .
(١٠) الفرى : الإتيان بأمر عجيب .
(١١) السيرة النبوية لابن هشام و / ١/ ٤٦١ .

إنه جزء من الشعر الجاهلى فى صفـاته ،وتكاد تكون أشعار الرجز فى الحرب كلها بهذه الصفة ،فهى فخـر بالنسب ،واعتداد بالقوة ،ويكرهها اللّه تعالى فى كل موطن إلا فى هذا الموطن .

وكمـا خاف أبو طالب السـبة عليـه وعلى ولده من بعده أن يقـال: إنه أسلم خوفاً من الموت ، فمات على الشرك بعد أن أمضى حياته فداء وذودًا لابن أخيه ، فهذا أبو البخترى يخاف السـبة من نساء مكة أن يقال : إنه ترك زميله حرصاً على الحياة ، بعد أن أمضى حياته بجانب سيد مكة محمد بن عبد اللّه ﷺ .

وكان المجـذّر بن زياد يرى أن الموت قد يكون حليـفاً له أو لأبى البخـترى ، لكنه لا بد أن يتـحدث عن قوم بلى الطـاعنين برماح ذى يزن،والقاصـدين لكبش الكتيبة قبل غيره فيصاولونه،إنه المجذر،يطعن بالرمح حتى ينثنى،ويقتل قِرنه المناجز له بالسيف المشرفى،ويشد للموت،كما يشد صاحب الناقة ضرعها العسير لتحلب .

**الرجز فى الحرب :**

وبالطريقة نفسها كان أبو جهل بن هشام فرعون هذه الأمة يرتجز،وهو يقاتل:

مـا تـنقم الحـرب العـوان منى ... بـازل (١) عـامين حـديث سنى

لمـثل هـذا ولـدتـنى أمـى (٢)

وذاك نبيه بن الحجاج السهمى يرتجز ،ويقول :

لم يتـرك الخـوف لنا مـبـيـتـا ... لا بد أن نموت أو نميـتـا (٣)

وذاك عتبة بن ربيعة العبشمى يرتجز فيقول:

هـذا جنـاى وأمـرت أمـرى ... فـبـشـرى بالثكـل أم عـمـرو (٤)

وهذا عدى بن أبى الزغباء الأنصارى رضي الله عنه يرتجز:

---

(١) البازل من الإبل : الذى تم ثمانى سنوات ، ودخل فى التاسعـة ،وحينئذ يطلع نابه وتكمل قوته ،ثم يقال له بعد ذلك : بازل عام ، بازل عامين . وأراد هنا : أنا مستجمع الشباب مستكمل القوة.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام و /١/ ٤٦٥ . (٣) المغازى للواقدى ١/ ٥٥.
(٤) المصدر نفسه ٦٤ .

أنـــا عـــــــــــدى والســـــحـل      أمــشى بـهـــا مـــشى الـفـــحل [1]

فلا نجد فرقاً يذكر فى رجز الحرب بين المسلمين والمشركين، وكله اعتداد بالقوة أو القبيلة والنسب ، إلا ما رواه ابن إسحاق فى غيـر سيرة ابن هشام عن عمير بن الحمام حيث تشم منه عبير الجنة، وروح العقيدة .

(قال ابن إسحاق : قال رسول اللّه ﷺ :«والذى نفسى بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسـباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله اللّه الجنة» [2] فقال عمير بن الحمام أحد بنى سلمة ـ وفى يده تمرات يأكلهن : بخ بخ ،فما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ؟! فقذف التمر من يده ، وأخذ سيفه فقاتل حتى قتل[3] وهو يقول:

ركـــضــــاً إلى اللّه بغــــيـــــر زاد      إلا التـــــقى وعــــمل المعــــاد

والصـبــــر فى اللّه على الجـــهـاد[4]

وذكر ابن جرير الطبرى: أن عميراً قاتل وهو يقول :

ركـــضــــاً إلى اللّه بغــــيـــــر زاد      إلا التـــــقى وعــــمل المعــــاد

والصـــبــــر فى الـلّه على الجــهـــاد      وكل زاد عــــرضــــة الـنفـــاد

غـيـــر التـقى والبـــر والرشـاد ) [5]

قال ابن هشــام : ونادى أبو بكر الصديق ابنه عـبد الرحمن ،وهو يومـئذ مع المشركين ،فقال : أين مالى يا خبيث ؟ فقال عبد الرحمن :

لم يبق غـــيـــر شكة [6] ويعـبوب [7]      وصــارم يقـــتل ضـلال الشـــيب [8]

---

(١) المصدر نفسه ١/ ٨. والسحل هى : الدرع.

(٢) الحديث رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

(٣) والحادثة فى السيرة لابن هشام و /١/ ٤٥٩. ولكن بدون الرجز المذكور .

(٤) الإصابة فى تمييز الصحابة ٣/ ٥/ ٣١ت ٦٠٢٥ .

(٥) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٣/ ٧٠ وهى عند الطبرى.

(٦) الشكة : ما يلبس من السلاح .      (٧) اليعبوب : الفرس السريع.

(٨) السيرة النبوية لابن هشام و /١/ ٤٦٩ .

وكما ارتجز عدى بن أبى الزغباء قائلاً :

أنا عدى والسحل أمشى بها مشى الفحل

ها هو يرتجز فرحاً بالنصر بعد العودة داعياً إلى السرعة والعودة إلى المدينة ، قائلاً :

أقم لها صدورها يا بسبس (1) ليس بذى الطلح(2) لها معرَّس (3)
ولا بصحراء غمير(4) مَحبس إن مطايا القوم لا تُحبسُ
فحملها على الطريق أكيس قد نصر اللّه وفرَّ الأخنس

**الفريقان :**

قال ابن إسحاق: ثم خرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة بين ربيعة ، وابنه الوليد بن عتبة حتى إذا فصل من الصف دعا إلى المبارزة ، فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة، وهم عوف ومعوذ ابنا الحارث - وأمهما عفراء - ورجل آخر يقال: هو عبد اللّه بن رواحة : فقالوا: من أنتم ؟ فقالوا: رهط من الأنصار . قالوا: ما لنا بكم من حاجة . ثم نادى مناديهم : يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا . فقال رسول اللّه ﷺ : « قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا على » فلما قاموا ودنوا منهم قالوا: من أنتم؟ قال عبيدة: عبيدة وقال حمزة : حمزة، وقال على: على ، قالوا: نعم . أكفاء كرام. فبارز عبيدة بن الحارث، وكان أسنَّ القوم ، عتبة بن ربيعة ، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة، وبارز علىّ الوليد بن عتبة ، فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله، وأما على فلم يمهل الوليد أن قتله ، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين ، كلاهما أثبت صاحبه، وكر حمزة وعلى بأسيافهما على عتبة فذففا عليه، واحتملا صاحبهما فحازاه إلى أصحابه (5).

ومنذ هذه اللحظة نشهد الصياغة الجديدة ، والتى جاء القرآن الكريم من فوق سبع سموات يعلنها للدنيا بقوله عز وجل :

---

(1) بسبس بن عمرو الجهنى : قائد الإبل وراعيها .
(2) ذى الطلح : اسم موقع .
(3) معرّس : مبيت فى الليل .
(4) صحراء غمير : اسم موقع .
(5) السيرة النبوية لابن هشام و/ 1/ 458 .

﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤)﴾
[الحج]

وأخرج البخارى عن أبى ذر ﷺ قال: نزلت : ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ. . . ﴾ فى ستة من قريش على وحمزة وعبيدة بن الحارث، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة [١] .

وقُدّر لهؤلاء الأبطال العظام الثلاثة الذين مثلوا طليعة حزب اللّه أن نسمع خفقات قلوبهم شعراً على الرغم من تضعيف ابن هشام لبعضه على ما نقله عن أئمة الشعر.

**عبيدة بن الحارث:**

أما عبيدة بن الحارث ﷺ فنحن معه وقد أصيبت رجله،وقد برز طيف أبى طالب أمامه وهو يتحدث عن تقديم الأرواح والمهج ذوداً عن محمد بن عبد اللّه، فها هو الآن يخط الخط الأول بدمه الذى يشخب من رجله المقطوعة .

( قال ابن هشام: لما أصيبت رجل عبيدة قال: أما واللّه لو أدرك أبو طالب هذا اليوم لعلم أنى أحق منه بما قال حين يقول:

كذبتم وبيت اللّه نبزى محمداً ... ولما نطاعن عن دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرَّع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل [٢]

وهذان البيتان فى قصيدة لأبى طالب قد ذكرناها فيما مضى من هذا الكتاب .

وهدأت نفس عبيدة رضوان اللّه عليه،وراح ينقل لنا خفقات قلبه المستضيئة بنور عقيدته . قال ابن إسحاق :

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/٢٩ح ٣٩٦٦ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ذ/ ٣ / ٣٤.

( وقال عبيدة بن الحارث بن المطلب فى يوم بدر ،وفى قطع رجله حين أصيبت فى مبارزته هو وحمزة وعلى حين بارزوا عدوهم. قال ابن هشام: وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها لعبيدة .

ستبلغ عنا أهل مكة وقعة ... يهب لها من كان عن ذاك نائيا
بعتبة إذ ولّى وشيبة بعده ... وما كان فيها بكر عتبة راضيا

فهم الخصوم الثلاثة الذين جندلوا صرعى فى المعركة عتبة وشيبة ،وبكره الوليد.

وماذا يضير عبيدة أن قُطعت رجله فى اللّه :

فإن تقطعوا رجلى فإنّى مسلم ... أرجِّى بها عيشاً من اللّه دانيا
مع الحور أمثال التماثيل أخلصت ... مع الجنة العليا لمن كان عاليا

إنه شيخ بنى المطلب ،وقد أقر عينه أن يلقى الشهادة قبل وفاته ،وأسعده أن يرى رجله قد قطعت فى اللّه :

وبعت بها عيشاً تعرَّقت صفوه [(١)] ... وعالجْته حتى فقدت الأدانيا
فأكرمنى الرحمن من فضل منِّه ... بثوب من الإسلام غطى المساويا

إنه الإكرام بالإسلام،ثم الإكرام بالهجرة ،ثم الإكرام بالجهاد الذى كانوا يتوقون إليه بعد طول انتظار .

وما كان مكروهاً إلىّ قتالهم ... غداة دعا الأكفاء كان داعيا
ولم يبغ إذ سال [(٢)] النبى سواءنا ... ثلاثتنا حتى حضرنا المناديا
لقيناهم كالأسد تخطر [(٣)] بالقنا ... نقاتل فى الرحمن من كان عاصيا
فما برحت أقدامنا من مقامنا ... ثلاثتنا حتى أزيروا المنائيا [(٤)] [(٥)]

---

(١) تعرَّقت صفوة : اختلط صفوه وامتزج .
(٢) سال: مخففه من سأل للوزن .
(٣) تخطر : تتحرك بها بفخر .
(٤) المنائيا : أراد المنايا فزاد الهمزة .
(٥) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣/ ٣٣، ٣٤ .

فهو وصف حى للمبارزة ، ومقدماتها ، وطريقتها وفنها ، يقدمها لنا أحد أبطالها، وذلك حين طلبوا الأكفاء من قومهم، فناداهم منادى رسول اللّه ﷺ، قم يا عبيدة ، قم يا حمزة ،قم يا على ،فهم بين عم وابن عم لمحمد . قاموا ينتصفون من بنى عمهم الكفار، كما ورد فى بعض الروايات:

« قوموا فقاتلوا بحقكم الذى بعث به نبيكم إذ جاؤوا بباطلهم ليطفئوا نور اللّه» (١).

وما برحوا من مقامهم حتى أزاروا خصومهم المنايا .

ولم يكن عبيدة رضي الله عنه يدرى أن الشهادة فى انتظاره ، بعد قطع رجله التى سبقته إلى الجنة.

**حمزة بن عبد المطلب:**

قال ابن إسحاق :وكان مما قيل من الشعر فى يوم بدر. وترادًّ به القوم بينهم لما كان فيه قول حمزة بن عبد المطلب يرحمه اللّه .

قال ابن هشام: وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها له، ونقيضها . واللّه أعلم :

| | |
|---|---|
| ألم تر أمراً كان من عجب الدهر | وللحين أسباب مبينة الأمر |
| وما ذاك إلا أن قوماً أقادهم | فحانوا تواص بالعقوق وبالكفر |
| عشية راحوا بدر بجمعهم | فكانوا رهوناً للركية (٢) من بدر |
| وكنا طلبنا العير لم نبغ غيرها | فساروا إليها فالتقينا على قدْر |

إننا لن نلتقى بعد الآن مع حمزة إلا شهيداً ـ رحمه اللّه ـ فلا أقل من أن نستمع إلى حديثه العذب الحى يقص علينا به قصة بدر، وما كان أعجبها من قصة. فللموت وللمنية أسبابها. وقومنا الذين ساروا إلى بدر إنما قادهم إليها العقوق الآثم فى حرب أهلهم الذين بغوا عليهم وأخرجوهم من ديارهم،وتواصيهم إلى جانب العقوق بالكفر، وقادوا جمعهم كله يصادون اللّه ورسوله حتى كانوا طعمة بئر بدر أما نحن فمضينا نطلب العير التى ساقوها. وأردناها عيراً وأرادها اللّه تعالى

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥٧/٤ .

(٢) الركية: البئر .

نفيرا، فالتقينا على قدر :

فلمــا التــقـينا لــم تكن مــثنوية[١] لنا غـيـر طعــن بالمثـقـفـة[٢] السـمـر
وضرب ببيض[٣] يختلى[٤] الهام[٥] خُذها مــشــهــرة الألوان بينـة الأثر [٦]
ونحن تركـنا عـتــبـة الـغى ثاويا [٧] وشيبة فى القتلى يحرجم[٨] فى الجفر[٩]
وعــمـرو ثوى فـيـمن من حـمـاتهم فشـقت جيـوب النائحات على عـمرو
جـيــوب نسـاء من لؤى بـن غـالبٍ كرام تفرعن[١٠] الذوائب[١١]من فِهر[١٢]

ومن أحق من البطل العظـيم حمـزة أن يتكلم عن المعـركة والذى كـان كمـا وصفـه أمية بن خلف وهو يسأل عـبد الرحمن بن عـوف : من هذا الرجل فيكم المعلم بريشة نعامة فى صدره؟ قال: ذاك حـمزة بن عبد المطلب. فقال: ذاك الذى فعل بنـا الأفاعيل . فـهو البطل فى الحـرب ،وهو البطل فى الشعـر ، وهو الذى يطعن بالرمح ، ويقط الهام بالسيف البـاتر. وقد خلَّف وراءه عتبة وشيـبة صريعان من جملة صرعاه، وذاك فرعون الأمة عمرو بن هشام عميدهم ، وحاميهم كان من بين الصرعى فى أرض بـدر. فحق لنساء بنى لؤى بن غـالب أن يشرنقن الجـيوب على سادتهم وقادتهم .

فهو يـصول كالجمل الأورق فـيهم نيابة عن أخيـه أبى طالب .وقد نودى من رسول اللّه ﷺ أن « أقدم يا أسد اللّه وأسد رسوله » ، والجديد عند بطلنا هو هذا العرض الجلى لطبيعة المعركة :

أولئك قــوم قــتلـوا فى ضــلالهم وخلَّوا اللواءُ غـيـر محـتـضر النصـر
لـواء ضلـوا قــــــاد إبلـيسُ أهـل فخاس[١٣] بهم إن الخـبيث إلى غـدر

(١) مثنوية: رجوع وانصراف .
(٢) المثقفة : الرماح المقومة .
(٣) البيض : السيوف .
(٤) يختلى : يقطع .
(٥) الهام : الرؤوس .
(٦) الأثر : وشى السيف وفرنده ، والفرنده يلمع فى صفحة السيف.
(٧) ثاوياً: مقيماً .
(٨) تحرجم : تسقَّط .
(٩) الجفر : البئر المتسعة .
(١٠) تفرعن : علون .
(١١) الذوائب : الأعالى .
(١٢) فِهر: أحد أجداد النبى ﷺ من قريش .
(١٣) خاس : غدر .

فقد أدخلوا على قيادتهم شرار الأرض، وبؤرة الشر فيها إبليس، ومضوا تحت لوائه يريدون أن يطفئوا نور اللّه . وعندئذ أوفد اللّه تعالى سيد ملائكته وأمين وحيه جبريل ليحمل لواء المؤمنين. فما هى نهاية معركة معقودة بين لواءٍ يقوده جبريل ، ولواء يقوده إبليس :

وقال لهم إذ عاين الأمر واضحاً ... برئت إليكم ما بى اليوم من صبر
فإنى أرى ما لا ترون وإننى ... أخاف عقاب اللّه واللّه ذو قسر[1]
فقدّمهم للحسين حتى تورّطوا [2] ... وكان بما لم يخبر القوم ذا خُبر
فكانوا غداة البئر ألفاً وجمعنا ... ثلاث مئين كالمسدمة[3] الزهر[4]
وفينا جنود اللّه حين يمدنا ... بهم فى مقام ثمَّ مستوضح الذكر
فشد بهم جبريل تحت لوائنا ... لدى مأزق[5] فيه مناياهم تجرى[6]

إنه يعرض لنا منطوق الآية الكريمة : ﴿ **وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ** (٤٨) ﴾ [ الأنفال ] .

فهو عرض لرمز الشر ورأسه فى الوجود ، ما أن رأى جبريل حتى ألقى اللواء، ونكص على عقبيه فاراً بطلب النجاة. ( قال على بن طلحة عن ابن عباس قال: جاء إبليس يوم بدر فى جند من الشياطين معه رايته فى صورة رجل من بنى مدلج، فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم . فقال الشيطان للمشركين : لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم ، فلما اصطف الناس أخذ رسول اللّه ﷺ قبضة من التراب، فرمى بها وجوه المشركين، فولوا مدبرين . وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس فلما رآه، وكانت يده فى يد رجل من المشركين انتزع يده ، ثم ولى مدبراً وشيعته فقال الرجل: يا سراقة أتزعم أنك لنا جار ؟ فقال : ﴿ **إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ** (٤٨) ﴾ [ الأنفال ] . وزاد ابن إسحاق فى روايته ( فتشبث به الحارث بن هشام ، فنخر فى وجهه فخرّ صعقاً، فقيل له: ويلك

(١) القسر : القهر والغلبة .
(٢) تورطوا : وقعوا فى هلكة .
(٣) المسدمة : الفحول من الإبل الهائجة .
(٤) الزهر : البيض .
(٥) المأزق : الموضع الضيق فى الحرب .
(٦) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ١٣ ، ١٤ .

يا سراقة ، على هذه الحال تخذلنا وتبرأ منا. فقال: إنى برئ منكم . . . ) (١).
وزاد الواقدى فى روايته : ( انطلق إبليس لا يرى حتى سقط فى البحر ورفع ثوبه وقال : يا رب موعدك الذى وعدتنى )(٢) .

وحين يصف حمزة رضوان اللّه عليه هذا الجيش المؤمن كالمسدمة الزهر،أى كالفحول الهائجة،نستمع لوصف وحشى له فى الحرب يقول:(واللّه إنى لأنظر إلى حمزة يهد الناس بسيفه ما يقوم له شيء مثل الجمل الأورم،إذ تقدَّمنى إليه سباع ابن عبد العزى، فقال له حمزة: هلُمَّ إلىَّ ابن مقطعة البظور،فضربه ضربة فكأن ما أخطأ رأسه)(٣).

فهو الذى يقرن القول بالفعل .لكن عظمة الصياغة القرآنية والنبوية لهذا الجيل، أن نسوا أنفسهم فى جنب اللّه ،فهو لا يتحدث كيف يذبح العدو، وكيف يطيح بالكماة، وكيف يقتل الطغاة ، فتكون قصيدته ملحمة كملحمة عنترة ،وأنى لعنترة أن يصل إلى مجد حمزة قوة وشكيمةوشجاعة وعظمة ،إنما كانت قصيدته تنطلق فى معانيها من ربط النصر باللّه عز وجل ، لا بالذات الفردية ، ثم ربطها بالجيش المؤمن كله لا بفردٍ واحد منه،ثم يصور المعركة بين جبريل وإبليس ،معركة الصراع بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، إنها قفزة هائلة جداً فى تاريخ العرب وتاريخ البشرية ،نرى آثارها فى صورة هذا الشعر العظيم الذى يقدمه حمزة. ولا عجب ،فما ولد عبد المطلب إلا شاعراً ،ولقد كان أبو طالب أخو حمزة ، والزبير بن عبد المطلب أخو حمزة على قمة الشعر فى مكة، وأبو سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب ابن أخى حمزة،ثالث هؤلاء الشعراء، فلا غرو أن حمزة فى سلاسة شعره ، وفى كونه مطبوعاً غير متكلف، امتداداً لهذا المعين الشعرى،غير أن حمزة رضي الله عنه شُغِل بالفعال،وبالجهاد أكثر مما شغل بالقول والشعر، فكان هو ملحمة المسلمين الكبرى(٤) بدل أن يكون شاعر الملحمة.

**الحارث بن هشام :**

لقد كان هو رفيق إبليس فى المعركة ،وهو الذى دفع إبليس فى صدره يوم

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٣٢ . (٢) المصدر نفسه ٣٣٢ ، ٣٣٣ .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣/ ١٠١، ١٠٢ .
(٤) وذلك يوم سقط شهيداً فى أحد .فكان سيد الشهداء فى الأرض كما قال عليه الصلاة والسلام .

رأى جبريل ،لكن أنّى للحارث بن هشام الذى يضع يده فى يد سراقة بن مالك الذى جاء إبليس فى صورته [1]،فهـا هو يعرض لـنا حدود تفكيره ومشاعره وتصوره، إنه أخو أبى جهل بن هشام ،وقد فجعه مقتل أخيه فماذا يقول :

ألا يا لقومى للصبابة والهجر — وللحزن منى والحرارة فى الصدر
وللدمع من عينىَّ جوداً [2] كأنه — فريد[3] هوى من سلك[4] ناظمه يجرى
على البطل الحلو الشمائل[5] إذ ثوى — رهين مقام للركية من بدر
فلا تبعدن يا عمرو من ذى قرابة — ومن ذى ندام[6] كان ذا خُلُق غَمر[7]
فإنك يك قوم صادفوا منك دولة — فلا بد للأيام من دول الدهر
فقد كنت فى صرف الزمان الذى مضى — تريهم هواناً منك ذا سبل وعر
فإلا أمت يا عمرو أتركك ثائراً [8] — ولا أبقِ بقيا فى إخاء ولا صهر

إن أخاه عمرو بن هشام ،هو محور تفكيره ،فليبك دماً عليه ،فقد انفرط به عقد جوهر قريش يوم سقط صريعاً ،وجر ليلقى فى بئر بدر ، هذا البطل الحلو الشمائل العظيم الخُلُق ، قد عاداه الدهر فقتل ،وكم كان يذيق هواناً قاتليه،فلا عاش ولا عاش أهله ما لم يأخذ بثأره .

وينتقل من عالم أخيه أبى جهل إلى عام قاتليه ،وأنصاره ، فماذا يقول؟

وأقطع ظهراً من رجال بمعشر — كرام عليهم مثل ما قطعوا ظهرى
أغرهُمُ ما جمَّعوا من وشيظة[9] — ونحن الصميم[10] فى القبائل من فهر
فيا لؤى ذببِّوا [11] عن حريمكم — وآلهة لا تتركوها لذى الفخر

---

(١) لا بد من الإشارة إلى أن الحارث بن هشام وسراقة بن مالك قد أسلما رضي الله عنهما فى مهد الإسلام وأبصرا النور فيما بعد . ولا ننسى أن سراقة هو الذى أراد الفتك برسول الله ﷺ فى شركه ثم صرف الناس عنه عندما رأى معجزة إنسى فى الفرس وأن الحارث بن هشام هو الذى أنقذ سعد بن عبادة من براثن المشركين فى مكة وهو على شركه .

(٢) الجود : الكثير .

(٣) الفريد : المنثور من قطع الذهب .

(٤) السلك : الخيط الذى ينظم فيه .

(٥) الشمائل : الخلائق جمع خليقة ،وهى الطبيعة .

(٦) ندام: جمع نديم مثل كِرام .

(٧) غَمْر : واسع الخلق .

(٨) ثائراً : معناه آخذ بثأرك وأراد بثائر هنا ذا ثأر .

(٩) الوشيظة : الأتباع ،ومن ليس من خالص القوم .

(١٠) الصميم : الخالصون فى أنسابهم .

(١١) ذببوا : ادفعوا وامنعوا .

تـوارثهـــــــــا آبـاؤكـم ، وورثـتـم أواسيها [1] والبيت ذو السقف والستر

والجريمة الكبرى عنده أن خصومه المسلمين قد جاؤوا بشتات القبائل ليواجهوا صميها من فهر ، وعلى لؤى أن تذب عن حريمها، ومقدساتها، وما هى مقدساتها؟! الآلهة التى ورثوها كابرا عن كابر، والبيت ذو السقف والستر . والحرب الطاحنة مستمرة بين الفريقين ، والفريقان عند الحارث بن هشام : فريق الذوائب من فهر ، وهم قريش، ومن والاهم ، وفريق محمد بن عبد الله القرشى ، ومن وازره من أخلاط القبائل .

فـمـا لحليم قـد أرد هلاككم فـلا تعـذروه آل غـالبَ [2] من عـذر
وجِدُّو لمن عـاديتم وتوازروا [3] وكونوا جميعاً فى التأسى[4] وفى الصبر
لعلكمُ أن تثـأروا [5] بأخـيكم ولا شىء إن لم تثـأروا بذوى عـمرو
بمطردات[6] فى الأكـف كـأنهـا وميض[7] تطير الهـام[8] بينـة الأثر
كـأن مـدَّب الذر [9] فوق متونـها إذا جُرِّدت يومـاً لأعـدائهـا الخزر[10]

قال ابن هشام : أبدلنا من هذه القصيدة كلمتين مما روى ابن إسحاق، هى الفخر فى آخر البيت ( فما لحليم ) فى أول البيت لأنه نال فيهما من النبى ﷺ [11] .

ولا شىء عند الحارث بن هشام أكثر من دعوة قومه للثأر من محمد ﷺ ويصفه بالسفاهة [12] الذى أراد هلاك قومه ، ويصف لنا السيوف الباترة ، ووميض لمعانها وهى تقطر دماً ، من الرؤوس التى ندرت عن كاهلها ، وكأن قطرات الدم هذه عليها مثل دبيب النمل فوقها حين تجرد لأعدائها المعجبين بقوتهم ، فتطحنهم،

(١) الأواسى : جع أسية، وهى ما أسس عليه البناء . والأواسى أيضاً الدعائم والسوارى .
(٢) آل غالب : لم يصرف هنا لأنه أراد جعله اسم القبيلة .
(٣) توازروا : تعاونوا .
(٤) التأسى : الاقتداء .
(٥) تثأروا : تأخذوا بثأره.
(٦) مطرِّدات : سيوف مهتزات .
(٧) الوميض : ضوء البرق .
(٨) الهام : الرؤوس .
(٩) الذر : صغار النمل .
(١٠) الخزر: جمع أخزر ، وهو الذى ينظر بمؤخر عينه كبراً وعجباً .
(١١) وهى الكلمة التى عوضها ابن هشام بـ « حليم » .
(١٢) السيرة النبوية لابن هشام و ١/ ٤٥٢ .

وما تكلّم الحارث بن هشام إلا بأفق أخيه عمرو بن هشام الذى كان أقصى آماله فى هذه المعركة مع محمد ﷺ وصحبه ما عبّر عنه بقوله:

( واللّه لا نرجع حتى نرد بدراً ـ وكان بدر موسماً من مواسم العرب يجتمع لهم به سوق كل عام ـ فنقيم فيه ثلاثاً ، فننحر الجزر، ونطعم الطعام ، ونُسقى الخمر، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب، بمسيرنا وجمعنا ،فلا يزالون يهابوننا أبداً فامضوا) (١).

قال فى تفسير الثعلبى : فوافوها فسقوا كأس المنايا مكان الخمور ، وناحت عليهم النوائح مكان القيان .

إنه المجد العربى الأعظم فى الانتصار على القبيلة المعادية ، ومعاقرة الخمر، وعزف القيان ،والتحدث بالمجد والقوة.

## على بن أبى طالب :

وكما سمعنا حديث عبيدة بن الحارث رضي الله عنه ،فلا بد أن نسمع حديث الفتى المغوار على بن أبى طالب الذى مثّل كل طموحات أبيه أبى طالب فى الذود عن محمد بن عبد اللّه ﷺ، والذى برز وهو ابن بضعة وعشرين عاماً ليقارع الأبطال والكتائب، فيقتل صناديد قريش بجوار عمه حمزة .

قال ابن إسحاق : وقال على بن أبى طالب فى يوم بدر .

قال ابن هشام : ولم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها ،ولا نقيضتها ، وإنما كتبناها لأنه يقال : إن عمرو بن عبد اللّه بن جدعان قتل يوم بدر، ولم يذكره ابن إسحاق فى القتلى ،وذكره فى هذا الشعر (٢).

---

(١) المصدر نفسه هامش ص ٤٥٢ .

(٢) وهذا أشد ما يقوله ابن هشام فى الشعر الذى يعرضه .فيتسلسل الأمر عنده حين عرض الشعر بقوله: وهذا أصح أشعاره .ويليه أن يذكر الشعر دون تعليق . ثم يليه أن يقول : وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها له . ثم يليه : وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها له . ثم يليه هذا القول : ولم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها له. فهى مراتب خمس فى الصحة عنده. والمرتبة السادسة ألا يذكرها إطلاقاً لقناعته ألا أصل لها . وانطلقنا نحن من قبول كل ما رواه ابن هشام بعد تشذيب وتهذيب ما رواه ابن إسحاق، وعرضنا له كله على تفاوت مستويات صحته .ونرجح أن هذه القصيدة ونقيضتها مصنوعتان ،ومنحولتان على على والحارث رضي الله عنهما .

ألـم تر أن الـلّه أبلـى رســـــولـه بلاء عـزيز ذى اقـتـدار وذى فـضل
بما أنـزل الكـفـــــار دار مـــــذلة فـلاقـوا هواناً مـن إسـار ومن قـتل
فـأمـسى رسـول اللّه قـد عـز نصـره وكـــان رســـول اللّه أرسل بالعـــدل
فــجـــاء بـفـــرقـــان من الـلّه منزل مـــبـــينـة آياته لـذوى العـــقل
فــــآمـن أقـــــوام بـذاك وأيقـنوا فأمـسوا بحمد اللّه مـجتمـعى الشمل
وأنكـر أقـــوام فـــزاغـت قلوبـهم فـزادهم ذو العرش خـبلاً على خـبل
وأمكـن منـهم يـوم بدر رســــــوله وقـوماً غـضاباً فـعلهم أحسن الفـعل

وهذا الجـزء الأول من القصـيدة، يتناسب ونفـسيـة على ﷺ الذى رضـع الإسلام منذ طفولتـه، فدخل فيه وهو فى سن الثامـنة أو العاشرة، وهذا يعنى أن صياغته كلها كانت صياغة العقيدة ،وصياغة يد النبوة ،لا دور للجاهلية أو العصبية من ذرة فى حياته ولا فى نفسه ولا فى سلوكه.

وننتقل إلى الجزء الثانى من القصيدة التى يقول فيها :

بأيديهم بيض خـفاف عـصوا (١) بها وقد حـادثوها (٢) بالجلاء وبالـصقل
فكم تركـــوا من ناشئ (٣) ذى حمـية صـريعـاً ومن ذى نجـدة مـنهمُ كـهل
تبـيت عـيـــون النائحـــات عليـــهم تجود بأسـبال (٤) الرشاش(٥) وبالوبل
نوائح تـنعى عـــتـــبـــة الغـى وابنه وشـــيـبـــة تنعـــاه وتنعى أبا جـــهل
وذا الرجل تنعى وابن جـدعان فـيهم مسلبة(٦) حـرّى(٧) مـبـيـنة الثكل (٨)

فهو يعرض قادة الشرك الذين سقطوا صرعى عـتبة وشيبة والوليد ،وأبا جهل ابن هشام، وعمرو بن عبد اللّه بن جدعان :

ثوى منـهم فى بئـــر بدر عـــصـــابة ذوى نجدات فى الحـروب وفى المحل
دعـا الـغى منهم من دعـــا فـأجـــابه وللغى أسـباب مـرمقـة (٩) الوصـل

(١) عُصوا بها : ضبوا بها . (٢) حادثوها : تعهدوها .
(٣) الناشئ : الصغير.
(٤) الإسبال : الإرسال يقال : أسبل دمعه أى أرسله .
(٥) الرشاش : المطر الضعيف فاستعاره هنا .
(٦) المسلبة : التى تلبس ثياب الحداد. (٧) حرَّى : محترقة الجوف من الحزن .
(٨) الثكل : الفقد .
(٩) مرمقة : ضعيفة من الرمق ،وهو الشيء اليسير الضعيف.

فـأضـحـوا لذى دار الجـحـيم بمعـزلٍ عن الشغب[1] والعدوان فى أشغل الشغل[2]

ويعود ثانية ليـعرض هؤلاء الأبطال الذين اختاروا الغى على الرشـد، فأصبح مأواهم الجـحيم وبئس المصيـر ، وألا يعرض عليًا رضي الله عنه إطلاقاً لمعاييـر الفخر فى الجاهلية ، فهـذا ما يتناسب مع تكوينه وبنائه ،ومع ما حدثنا به عن نفـسه ، فهو على رأس فريق الرحمن ضد فريق الشيطان الذى شُغِل بالعذاب والنار عن تعذيب المؤمنين .

يقول رضي الله عنه فيما أخرجه البخارى عنه :

أنا أول من يجثو بين يدى الرحمن للخصومـة يوم القيامة وعن قيس بن عباد قال :قال على رضي الله عنه :فينا نزلت هذه الآية :﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾[3] .

ويشرح الحافظ ابن حجر ـ رحمه اللّه ـ هذا الجثو فيقول :

يجثو : أى يقعد على ركبتيه مخاصماً ؛ والمراد بهذه الأولية تقييده بالمجاهدين من هذه الأمة لأن المبارزة المذكورة أول مبارزة وقعت فى الإسلام ) [4] .

فمن أحق منه رضي الله عنه أن يعرض لنا هذه المبارزة ؟

فأجابه الحارث بن هشام :

عـجـبت لأقـوام تغـنى سـفـيـهـهم بأمـر سـفـاهٍ ذى اعـتـراض وذى بطل

تغـنـى بقـتـلـى يوم بدر تتـابعـوا كـرام المسـاعى مـن غـلام ومن كـهل

مصاليت [5] بيض من لؤى بن غـالـب مطاعين[6] فى الهيجا[7] مطاعيم فى المحل

أصـيبـوا كرامـاً لم يـبـيـعـوا عـشيـرة بقـوم سـواهم نـازحى الدار والأصل

كـمـا أصبـحت غـسـان فـيكم بطانة لكـم بدلاً منـا فـيـالك مـن فِعل

عـقـوقـاً وإثمـا بيننا وقـطيـعـة يرى جـوركم فيـها ذوو الرأى والعـقل

---

(١) الشغب : التشغيب .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ /١٦، ١٧ .

(٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٢٩٦/٧ح ٣٩٦٥ ـ ٣٩٦٧ .

(٤) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٣٩٧/٧ .

(٥) المصاليت : الشجعان .

(٦) مطاعين : يكثرون الطعن فى الحرب .

(٧) الهيجاء : الحرب .

فقادة قريش المطاعون فى الحرب والمطعمون عند جدب الأرض وحاجة الناس، هؤلاء يتغنى على بقتلهم ،وقد قتلو ذوداً عن عشيرتهم التى لم يبيعوها كما باعها المسلمون بالأوس والخزرج من غسان، فأى عقوق وإثم يفوق هذا العقوق ؟!

فإن يك قومٌ مضوا لسبيلهم — وخير المنايا ما يكون من القتل
فلا تفرحوا أن تقتلوهم فقتلهم — لكم كائن خبلا[1] مقيما على خبل
بفقد ابن جدعان الحميد فعاله — وعتبة والمدعو فيكم أبا جهل[2]
وشيبة فيهم والوليد وفيهم — أمية مأوى المعترين[3] وذو الرجل[4]
أولئك فابك ثم لا تبك غيرهم — نوائح تدعو بالرزية والثكل

وكما عدد على رضوان اللّه عليه صرعى المشركين فى بدر ، فها هو الحارث ابن هشام يعيد ذكراهم فخراً بسيادتهم وتفجعاً على فقدانهم .

ولا بد من الثأر والانتقام لهم :

وقولوا لأهل المكتين تحاشدوا — وسيروا إلى آطام [5] يثرب ذى النخل
جميعاً وحاموا آل كعب وذببوا — بخالصة الألوان محدثة [6] الصقل
وإلا فبيتوا خائفين وأصبحوا — أذل لوطء الواطئين من النعل
على أننى واللات يا قوم فاعلموا — بكم واثق ألا تقيموا على تبل[7]
سوى جمعكم للسابغات[8] وللقنا — وللبيض [9] والبيض القواطع والنبل

وهكذا ترتفع المعركة من أن تكون بين بنى لؤى بن غالب لتكون بين القريتين الكبيرتين مكة ويثرب حيث النخل وآطامها ، وإلا فالبديل هو الخوف الذى

---

(١) الخبل :الفاسد .

(٢) هذا البيت يجعلنا فى شك من نسبة هذه القصيدة للحارث بن هشام . فلا يمكن أن يقول عن أخيه أنه أبو جهل، واسمه أبو الحكم . . ولم نسمع بجاهلى أطلق اسم أبى جهل على عمرو بن هشام ،إنما أطلق المسلمون عليه هذا الاسم .ولو عرض الأمر بما يدعيه المسلمون .

(٣) المعترين : الفقراء .

(٤) ذو الرجل : لم أعثر على عرف بهذا اللقب من قريش .

(٥) الآطام : جمع أطم وهو الحصن .

(٦) محدثة الصقل : مسنونة شفرتها.

(٧) التبل : طلب الثأر.

(٨) السابغات : الدروع .

(٩) البيض : السيوف .

يغزوكـم، والذال الذى يجعلكم أذل من النعل ،لكن ثقـتى بكم ألا تقومـوا على هوان، ولا تسكتـوا على ثأر ،وليكن همكم جلب السـلاح من الدروع والسيـوف والنبل للساعة الحاسمة .

**طالب بن أبى طالب :**

ونعود إلى طالب بن أبى طالب ثانية بعد أن عاد إلى مكة مفارقاً قومه الماضين إلى قتال ابن عمـه محمد ﷺ حيث نرى مستـوىً وسطاً بين الجاهلية والإسلام ، كمـا كان أبو طالـب من قبل ، ويعلن هذا الموقف غـير هيـاب ولا وجل فى قلب مكة ، وبين براثن الخصوم الأعداء وهو موزع الأهواء ، مشتت العواطف .

قال ابن إسـحاق : وقال طالب بن أبى طالـب يمدح رسول الله ﷺ، ويبكى أصحاب القليب من قريش يوم بدر ،ويقولون : مات كافراً .

إنه يبكى الحال الذى آل إليه قومه لهذه الهزيمة الشنعاء التى ألّمت بهم .

| | |
|---|---|
| ألا إن عـينى أنفـذت دمـعهـا سكبـاً | تُبكِّى على كـعب ومـا إن ترى كـعبـاً |
| ألا إن كـعـبـاً فى الحـروب تخـاذلوا | وأرداهم ذا الدهر واجـتـرحـوا ذنبًا |
| وعـــامــر تبكى لـلملمـــات غـــدوة | ليت شـعـرى هـل أرى لهـمـا قـربا |
| همـــا أخـــواى لن يـعـــدا لغـــيَّةٍ | تعـد ولن يُستـام جـارهمـا غـضـبـا |

إن كعب بن لؤى وعامـر بن لؤى قد حلت بهم هذه الهزيمة لتفـرق كلمتهم ، وبعد أن كانوا لا يضام جـارهما ، ولا يستباح حريمهما، فـإذا بالنكبة تنزل بهما ، ولا شك أنهما اقترفا ذنباً حتى أصابتهم هذه الجائحة :

| | |
|---|---|
| فـيـا أخـوينا عـبـد شـمس ونوفـلاً | فـداً لكمـــا لا تبـعـثـوا بيننـا حـربا |
| ولا تصـبـحـوا مـن بعـد ود وأُلفـة | أحـاديث فيـها كلكـم يشتكى النكبـا |
| ألم تعلمـوا ما كان مـن حرب داحس | وجيش أبى يـسكوم إذ ملؤوا الشعـبـا |
| فلولا دفـــاع الله لا شىء غـــيــره | لأصـبـحـــتم لا تمنعـون لكـم سـربا |

وها هو يعود ثانية لشقِّى بنى عبد شمس ونوفل اللذين خذلا أخواهما من بنى عبـد مناف بنى هاشم وبنى المطلب ،وهذا من أول الوهن ، وأول التـخاذل ،ولا غرابة أن تشـتكوا النكبات بعـد أن حولتم الود والألفـة إلى حرب وهجـر. ولقد

تحارب الأهل عبس وذبيان وهما أخوان فى حرب داحس، فطحنتهم الحرب ، وذبحتهم. وأعيدوا إلى ذهنكم يوم جاء أبرهة بجيشه لغزو الكعبة، ولولا ردَّه اللّه تعالى لأصبحت مكة محتلة لجيش أبى يسكوم . وهذه بدر ماذا فعلت بكم ،أليست حرباً بين الأهل والعشيرة ،لقد مضيتم بغياً وعدواناً لقتال محمد وحربه ، وأخرجتموه من أرضه وبلده، فما هى جريرتنا وجريرته ؟

فما أن جنينا من قريش عظيمة ... سوى أن حمينا خير من وطئ الترابا
أخا ثقة فى النائبات مرزأ [1] ... كريماً نثاه[2] لا بخيلاً ولا ذربا [3]
يطيف به العافون[4] يغشون بابه ... يؤمون بحراً لا نزورا[5] ولا صربا[6]

فهل تكون جنايتنا العظيمة أننا حمينا خير من وطئ الحصى فى الدنيا، وهو المقصود عندما تقع النائبات من قومه لكرمه وجوده المعطاء، حيث لا يفسد ما يعطيه بمن، وهو أجود من الريح المرسلة ، يطوف أصحاب الفاقة والبؤس والأزمات ببابه، ولا يخرجون إلا وهم موقرو الثمار بالنيل والعطاء،ومن قصد البحر ، فهل يعجزه شيء لا يناله ،إنه البحر جوداً وكرمًا ، ولا يعرف البحر أن يكون إلا فيضا غزيراً ، ومن قصد البحر استقل السواقيا :

فوالله لا تنفك نفسى حزينة ... تململ[7] حتى تصدُقوا الخزرج الضربا[8]

هذا فى قتال القوم والأهل بعضهم مع بعض ،أما والخزرج وقد أنزلوا محنتهم بقريش، وشاركوا فى قتل قياداتها ، فهؤلاء حسابهم غير حساب الأهل ، ولا بد من الثأر منهم لما قتلوا من سراتنا وأشرافنا ، ولا يغادر الحزن أرضنا حتى يتم الثأر من الخزرج الأعداء .

إنها عواطف متصارعة بين مشاركة قومه فى مصابهم ، وبين فخره بمحمد بن عبد اللّه خير من وطئ الترب فى الوجود ، وبين نقمته على الخزرج الذين أوقعوا

---

(١) مرزأ : مصاب منه الخير . (٢) النثا : يكون فى الخير والشر .
(٣) الذرب : الفاحش : ومنه يقال :ذربت معدته إذا تغيرت .
(٤) العافون : الطالبون للمعروف . (٥) النزور : القليل .
(٦) الصرب : المنقطع . (٧) تململ : لا تستقر على فراشها .
(٨) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ٣٧، ٣٨ .

الهـزيمة بقومـه ، واستطاع بجـرأته وذكـائه وفصـاحتـه أن يعرض هذه الجـوانب المتصارعة ، والعواطف المتناقضة فى ذاته، ويعلنها على الملأ .

وما نرى هذه الازدواجية فى بدرٍ إلا عنده ، إنما قد حسم الآخرون الأمر على أساس العقيدة ، فإمـا فى الصف المسلم المؤمن الموحد ،وإما مع المشركين ، وملة الشرك الذين قالوا: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) ﴾ [الزخرف].

**حسان بن ثابت :**

وقبل أن ندلف إلى حسان لا بد لنا مع بداية الجولة معه ،وقد سبق أن تحدثنا عنه، وعن شاعـريته، لا بد لنا أن نذكـر دوره الرئيسى فى المعـركة الإعلامـية، إنه بحق وزيرالإعلام الإسلامى،والذى وضع كل إبداعه الشعرى فى خدمة الدعوة.

عن ابن سلام قوله:

( حدثنى يزيد بن عياض بن جعـدبة أن النبى ﷺ لما قدم المدينة تناولته قريش بالهجاء فـقال لعبد اللّه بن رواحة : رد عنى فـذهب فى قديمهم وأوله ،فلم يصنع فى الهجاء شيئاً ، فأمر كعب بن مالك فذكر الحرب كقوله :

نصل السيـوف إذا قـصـرت بخطونا قـدمـا ونلـحـقـهـا إذا لـم تلحق

فلم يصنع فى الهجاء شـيئاً . فدعا حسان بن ثابـت ، فقال :« اهجهم. وائت أبا بكر يخبرك ـ أى بمعـائب القوم » . وكان أبو بكر علامة قريش، وكـان جبير بن مطعم أخذ العلم عن أبى بكر .

شعـبة عـن عدى بن ثابت الأنصـارى: أنه سمع البـراء بن عازب الأنصـارى يقول: «اهجهم ـ أو هاجهم ـ وجبريل معك » [(١)].

قال ابن جعدبة فى حديثه: وأخرج حسان لسانه حتى ضرب به على صدره ، وقال :

والله، يا رسول الله، ما أحب أن لى به مقـولا فى العرب، فصب على قريش منه شآبيب شر. فقال رسول اللّه ﷺ :« اهجهم ،كأنك تنضحهم بالنبل» [(٢)].

---

(١ ، ٢) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١/٢١٧ .

وفى الحديث الذى أخرجه مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «اهجوا قريشاً فإنه أشد عليها من رشق النبل». فأرسل إلى ابن رواحة، فقال: «اهجهم فهجاهم، فلم يرض، فأرسل إلى كعب بن مالك، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت، فلما دخل عليه، قال حسان: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه[1]، ثم أدلع لسانه [2] فجعل يحركه، فقال:

والذى بعثك بالحق لأفرينهم بلسانى فرى الأديم[3] فقال رسول الله ﷺ:

« لا تعجل فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها، وإن لى فيهم نسباً، حتى يلخّص لك نسبى ».

فأتاه حسان فقال: يا رسول الله، قد لخص لى نسبك، والذى بعثك بالحق لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين. قالت عائشة: فسمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان:

« إن روح القدس لا يزال يؤيدك، ما نافحت عن الله ورسوله ».

وقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هجاهم حسان فشفى واشتفى» [4].

لقد كانت دعوة الشعراء ليؤدوا دورهم فى معركة العقيدة مهمة داخلة ضمن إطار التخطيط النبوى، والإعداد لمستلزمات المعركة، بل كان الاهتمام بها والتوجيه لها يسبق الاهتمام للحرب العسكرية، وكان كلام النبى ﷺ من الصراحة والوضوح بأنها أخطر من الإعداد العسكرى، واستدعى الطاقات التى عنده كلها، حتى جاء حسان كالأسد يدلع لسانه، ويضع خبرة ستين عاماً من النضج الشعرى تحت تصرف رسول الله ﷺ، والأمر من الدقة والخطورة بحيث أن هجاء قريش هو الهدف، ومحمد ﷺ من قريش، والمهاجرون من قريش، فقد يصل الهجاء عند الطعن بالأنساب للمصطفى ورهطه، فأعاده إلى أبى بكر الصديق رضي الله عنه، خبير الأنساب فى الأرض العربية، وتقلّد حسان المهمة رسميًا معلناً: والذى بعثك

---

(١) الضارب بذنبه: قال العلماء: الضارب بذنبه هنا لسانه، فشبه نفسه بالأسد فى انتقامه وبطشه إذا اغتاظ، وحينئذ يضرب بذنبه وجنبيه، كما فعل حسان بلسانه حين أدلعه فجعل يحركه.

(٢) أدلع لسانه: أخرجه عن الشفتين.

(٣) لأفرينهم بلسانى فرى الأديم: لأمزقن أعراضهم تمزيق الجلد.

(٤) مسلم فى فضائل الصحابة ٤ /١٥٧ح ٢٤٩٠.

بالحق لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العـجين، وعرفت قريش أن فارس الشعر العربى حسـاناً آنذاك هو أكبر سلاح ينزل بهـم فهو أشد من رشقـهم بالنبل، وحتى يعطى النبىﷺ حـساناً المدد، قـال له: « اهجهم ،وروح القـدس معك ». وابـتدأ حسان صفحة جديدة من حيـاته تحت راية الإسلام ،وكانت غزوة بدر وانتصاراتها العظيـمة التى خلدها القـرآن بسورة الأنفال ،وخلّد فـيهـا دخول الملائكة المعـركة بجانب المؤمنين ، كانت هى الميدان الأرحب للشاعر المبدع أن يقول كلمته .

**الشاعر الأسير :**

أبو عزة الجمحى واحد من تسعة شـعراء فى مكة ،ألقته الأقدار أسيراً فى بدر بين يدى رسول اللّه ﷺ .

قال ابن إسـحاق :وأبو عزة : عمـرو بن عبد اللّه بن جـمح كان محتـاجاً ذا بنات، فكلّم رسول اللّه ﷺ فقال: يا رسول اللّه، لقد عرفت ما لى من مال، وإنى لذو حاجة، وذو عيال، فامنن علىَّ، فمنَّ عليه رسول اللّه ﷺ، وأخذ عليه ألا يظاهر عليه أحداً . فقال أبو عزة فى ذلك يمدح رسول اللّه ﷺ ويذكر فضله فى قومه :

| | |
|---|---|
| من مـبلـغ عنى الرسـول مـحـمـداً | بأنـك حق المليـك حـمـيـد |
| وأنت امـرؤ تدعو إلى الحق والهـدى | عليـك من اللّه العظـيم شـهـيـد |
| وأنت امـرؤ بوئـت منا مـبـاءة | لهـا درجـات سـهلة وصـعـود |
| فـإنك من حـاربتـه لمحـارب | شـقى ومن سـالمتـه لسـعـيـد |
| ولـكـن إذا ذُكّرتُ بـدراً وأهـلـه | تأوّب مـا بى حـسـرة وقـعـود |

قال ابن هشام : كان فداء المشـركين يومئذ أربعة آلاف درهم للرجل إلى ألف درهم إلا من لا شىء له ، فمنَّ رسول اللّه ﷺ عليه ) [1].

**الشاعر الغادر :**

لكن هذا المنَّ بالحرية لم يدفعه إلى الإسلام، وإنما ازداد إعجاباً بنبى الإسلام ، وعندما أراد أن ينفذ عـهده الذى قطعه قبل أحد بـألا يظاهر على حرب رسول اللّه ﷺ، فجاءه سـيد قومه صفـوان بن أمية، وما زال به حتى نكث بعـهده ،ومضى

(١) السيرة النبوية لابن هشام و / ١/ ٤٨٧ .

يدعو إلى حرب رسول اللّه ﷺ ،ويعبئ القبائل من كنانة لذلك، وساقه القدر إلى مصرعه ، فإذا هو أسير بيدى محـمد ﷺ بعد غزوة أحد ،فقال: يا رسول اللّه ، أقلنى. فـقال رسـول اللّه ﷺ: «واللّه لا تمسح عـارضيك بمـكة بعدها ،وتقـول: خدعت محمداً مرتين،اضرب عنقه يا زبير » فضرب عنقه [1] .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٦١٦ .

# الفصل الثالث

## الشعر بعد غزوة بدر

انتهت بدر لا كمـا يريد أبو جهل :(ننحر الجزر ،ونشرب الخـمر،وتعزف علينا القيـان،فيسـمع بنا العرب فـلا يزالون يهابوننا أبداً ) إنما انتـهت كما قـال اللّه عز وجل :

﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨)﴾ [ الأنفال ] .

وشاركت الأرض والسماء بهذه الفرحـة ،وشارك الثقلان الإنس والجن فيها، وها نحن نشهد صفـحة الغزوة على لسان الناطق الإعلامى فيها من لـسان شعرائها الكبار عند الفريقين .

**قتلى بدر :**

كانت الفجيعة كبيرة فى مصاب بدر ، ينقلها لنا شاهدا عيان :

**الأول** : الحيسمان بن عبد اللّه الخزاعى فيما رواه ابن إسحاق ، إذ قال:

( وكان أول من قـدم مكة بمصاب قريـش الحيسـمان بن عبـد اللّه الخزاعى ، فقالوا: ما وراءك ؟ قال : قتل عتبـة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة ، وأبو الحكم بن هشام ، وأمـية بن خلف، وزمعـة بن الأسود ، ونبـيه ومنبه ابنا الحـجاج ، وأبو البخترى بن هشـام. .فلما جعل يعدّد أشراف قريش ،قال صـفوان بن أمية ،وهو قاعد فى الحجر :واللّه إن يعقل هذا فسلوه عنى،قالوا: فما فعل صفوان بن أمية ؟ قال: ها هو ذاك جالساً فى الحجر ، وقد واللّه رأيت أباه وأخاه حين قتلا ) (١).

**الثانى**: أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، شاعر مكة، وابن عم رسول اللّه ﷺ ( قال ابن إسحاق: وحـدثنى حسين بن عبد اللّه بن عبيـد اللّه بن عباس عن

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ذ/ ٢ / ٣٥٠ .

عكرمة مولى ابن عباس قال:

(. . . فبينما هو جالس - أى أبو لهب - إذ قال الناس : هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم فقال أبو لهب : هلُمَّ إلىّ ،فعندك لعمرى الخبر ، قال: فجلس إليه ،والناس قيام عليه ، فقال :يا ابن أخى ، أخبرنى كيف كان أمر الناس ؟ قال: واللّه ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلون منا كيف شاؤوا ، ويأسرون منا كيف شاؤوا،وايم اللّه مع ذلك ما لمت الناس ، لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض ، واللّه ما تُليق شيئاً ، ولا يقوم لها شىء . . ) [1].

وتحققت قريش أن الأمر جد ، ويا لهول ما نزل بها ،فقد فقدت أربعة وعشرين من صناديدها وقادتها فى غداة واحدة ،ووصلتهم رسالة حسان بن ثابت الإعلامية العنيفة عن مصير هؤلاء الصناديد .

قال ابن إسحاق :وقال حسان بن ثابت فى ذلك :

عرفت ديار زينب بالكثيب[2] ... كخط الوحى فى الورق القشيب[3]
تداولها الرياح وكل جوْن[4] ... من الوسمى[5] منهمر سكوب
فأمسى رسمها خلقاً وأمست ... يباباً [6] بعد ساكنها الحبيب
فدع عنك التذكر كل يوم ... وردَّ حرارة الصدر الكئيب

إن حساناً ﷺ يدخل عالم الشعر الإسلامى بالأسلوب الجاهلى نفسه،وعلى الطريقة العمودية التى تعتمد الغزل افتتاحاً للقصيدة ،والبكاء على الأطلال منطلقاً للهدف المنشود من القصيدة ،فهذه ديار زينت فى الصحراء ،وقد عدت عليها الرياح، وانهمر عليها المطر ،فعفت آثار الحبيبة، وغدت يباباً بعد ساكنها الحبيب.

فدع عنك التذكر كل يوم ... ورد حرارة الصدر الكئيب
وخبِّر بالذى لا عيب فيه ... بصدقٍ غير إخبار الكذوب

(١) السيرة النبوية لابن هشام ذ/ ٢ / ٣٥١ ، ٣٥٢ .
(٢) الكثيب : كدس الرمل .
(٣) القشيب : الجديد .
(٤) الجون : السحاب الأسود .
(٥) الوسمى : مطر الخريف .
(٦) يباباً : قفراً .

بما صنع المليك غداة بدر لنا فى المشركين من النصيب
غداة كأن جمعهم حِراءُ بدت أركانه جنح الغروب
فلاقيناهمُ منا بجمع كأسد الغاب مردانٍ وشيب
أمام محمد قد وازروه [1] على الأعداء فى لفح [2] الحروب
بأيديهم صوارم[3] مرهفات[4] وكل مجرب خاظى الكعوب[5]
بنو الأوس الغطارف[6] وازرتها بنو النجار فى الدين الصليب[7]

وها هو يدخل ﷺ من ذلك المدخل الجاهلى الغزلى إلى صلب العقيدة ، وهو يتحدث عن بدر، فالصادق المصدوق ﷺ ،وهو على رأس جيش المسلمين ، ومع هذا فلم يُعد النصر له ،ولا لعبقريته ، إنما ربط النصر باللّه مالك الملك،فهو الذى صنع بالمشركين ما صنع ، والمسلمون ستار لقدر اللّه تعالى،وكأنما جمع المشركين جبل حراء بددت أركانه عند الغروب،وكأن جمع المسلمين كأسد الغابة شيباً وشباناً بين يدى محمد بن عبد اللّه ﷺ،وقد وازروه على حرب الأحمر والأسود من الناس ،والسيوف الصوارم فى أيديهم ،والرماح القواطع من الأوس والخزرج فى المدينة ، فماذا فعلت هذه السيوف والرماح ؟

فغادرنا أبو جهل صريعاً وعتبة قد تركنا بالجبوب[8]
وشيبة قد تركنا فى رجال ذوى حسب إذا نُسبوا حسيب
يناديهم رسول اللّه لما قذفناهم كباكب [9] فى القليب
ألم تجدوا كلامى كان حقاً وأمر اللّه يأخذ بالقلوب
فما نطقوا ولو نطقوا لقالوا صدقت وكنت ذا رأى مصيب [10]

فهؤلاء قادتهم مجندلون صرعى مثل أبى جهل بن هشام ، وعتبة وشيبة ابنى

---

(١) وازروه : أعانوه .
(٢) اللفح : الحر. يقال : لفحته النار :أى أصابه حرها.
(٣) الصوارم : السيوف . (٤) المرهفات : القواطع .
(٥) خاظى الكعوب : مكثير شديد والكعوب عقد القناة .
(٦) الغطارف : السادة واحدها غطِريف .
(٧) الدين الصليب : الدين الشديد الصُلب .
(٨) الجبوب : وجه الأرض . (٩) كباكب : جماعات .
(١٠) السيرة النبوية لابن هشام ذ /٢/ ٣٤١ ، ٣٤٢ .

ربيعة، ذوى الحسب المقدم ،وها هو رسول اللّه ﷺ يناديهم :

« يا أهل القليب ،يا عتبة بن ربيعة،ويا شيبة بن ربيعة ، ويا أمية بن خلف ، ويا أبا جهل بن هشام ـ فـعدّد من كان منهم فى القليب [١] ، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً، فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقاً ؟ » .

قال المسلمون : يا رسول اللّه، أتنادى قوماً قد جيَّفوا [٢] ؟! .

قال: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوا »[٣].

ولو استطاعوا ونطقـوا لقالوا : نشهد أن لا إله إلا الله، ونشهد أنـك محمد رسول اللّه حقاً .

**البكاء على قتلى بدر:**

وماذا تفعل قـريش أمام هذه الطامة العمـياء ،والفاجعة الرهيـبة؟ وأين المبيت ثلاثة أيام لعزف القيان،وشرب الخمور ،لقد باتوا جثثاً هامدة مرمية فى قليب بدر.

يجيبنا ابن إسحاق على ذلك بقوله ، فيما رواه عن يحيى بن عباد بن عبد اللّه ابن الزبير عن أبيه عباد قال:

( ناحت قريش على قـتلاهم ،ثم قالوا: لا تفعلوا فـيبلغ محمـداً وأصحابه ، فيشمـتوا بكم ،ولا تبعثوا فى أسراكم حـتى تستأنوا بهم [٤] لا يأرب [٥] عليكم محمد وأصحابه فى الفداء ) [٦] .

قال :وكـان الأسود بـن عبـد المطلب قد أصـيب له ثلاثة من ولده زمعـة بن الأسود، وعقيل بن الأسود ،والحـارث بن زمعة،وكان يحب أن يبكى على بنيه ، فبينمـا هو كذلك إذ سمع نائحة من الليل ،فقال لغـلام له وقد ذهب بصره :انظر هل أحل النحب، هل بكت قـريش على قتـلاها؟ لعلى أبكى على أبى حكيـمة ـ يعنى زمعة ـ فإن جوفى قد احترق ،فلما رجع إليه الغلام قال: إنما هى امرأة تبكى على بعير قد أضلته. قال: فذاك حين يقول الأسود :

---

(١) القليب : البئر .
(٢) جيفوا : جيفا.
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ذ /٢/ ٣٣٩ ـ ٣٤٠ .
(٤) تستأنوا بهم : تؤخرون فداءهم .
(٥) لا يأرب : لايشتد .
(٦) السيرة النبوية لابن هشام ذ /٢/٣٥٢ ـ ٣٥٣ .

أتبكى أن يضل لها بعير ... ويمنعنى من النوم السهود
فلا تبكى على بكر [١] ولكن ... على بدر تقاصرت الجدود [٢]
على بدر سراة [٣] بنى هصيص ... ومخزوم ورهط أبى الوليد [٤]
وبكِّى إن بكيت على عقيل ... وبكِّى حارثاً أسد الأسود
وبكّيهم ولا تسَمَىْ [٥] جميعاً ... وما لأبى حكيمة من نديد [٦]
ألا قد ساد بعدهم رجال ... ولولا يوم بدر لم يسودوا [٧]

وتبكى المرأة بكرها وجملها ،وأنا فى قلبى المحترق ممنوع على البكاء ،ولا أعرف مذاق النوم من هول المعناة ، وهل البكاء على الجمل يجوز ،ولا يجوز البكاء على قتلى بدر ،هؤلاء القتلى سراة القوم وسادتهم من بنى هصيص وبنى مخزوم ، وبنى أمية بن عبد شمس رهط أبى الوليد عتبة ، ألا تبكين على عقيل وعلى الحارث بن زمعة أسد الأسود ؟! وابكى على سيد القوم فى محافلهم أبى حكيمة ، وهل لأبى حكيمة من ند يقارعه سؤددا ومجدا وعزاً ،لقد سقط هؤلاء السادة صرعى ،ليرتفع سادة آخرون ، ما كان لهم أن يسودوا فى حياة أولئك السادة العظام .

## ضرار بن الخطاب الفهرى :

قال عنه ابن سلام :( وكان ضرار بن الخطاب بن مِرادس من محارب بن فهر من ظواهر قريش،وكان لا يكون بالبطحاء إلا قليلاً،وكان جمَع من حلفاء قريش ، ومُرّاق كِنانة ناساً ،وكان يأكل بهم ويَسبى ،ويأخذ المال) [٨].

فهو أشبه ما يكون بالشعراء الصعاليك الفُتاك بين العرب ،ففروسيته لا تقل عن شعره .

---

(١) البكر : الفتى من الإبل .

(٢) الجدود : جمع جد وهو هنا السعد والحظ . (٣) سراة القوم : خيارهم وأشرافهم .

(٤) اختلفت حركة القافية عما قبلها ، وتسمى فى العربية الإقواء. قال ابن هشام :هذا إقواء . وهى مشهورة فى أشعارهم .

(٥) لا تسمى : أراد لا تسأمى نقل حركة الهمزة ، ثم حذفها أى لا تملى .

(٦) نديد : شبيه .

(٧) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٢ / ٣٥٣ .

(٨) طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٥٠، ٢٥١.

( وكان ضرار على بنى محارب يوم الفِجار ) .وقد أسلم وحسن إسلامه[1].

وها هو يفتتح المعركة ضد الأوس والخزرج فى المدينة .

قال ابن إسحاق: وقال ضرار بن الخطاب بن مرداس أخو بنى محارب بن فهر:

عجبت لفخر الأوس والحين (٢) دائر ... عليهم غدًا والدهر فيه بصائر

وفخر بنى النجار إن كان معشر ... أصيبوا ببدر كلهم ثمَّ صابرُ

فإن تك قتلى غودرت من رجالنا ... فإنا رجال بعدهم سنغادربنى

الأوس حتى يشفى النفس ثائر

وتردى بنا الجُرد[3] العناجيج[4] وسطكم ... وسط بنى النجار سوف نُكرُّها

لها بالقنا والدارعين زوافر[5]

فنترك صرعى تعصِب[6] الطير حولهم ... وليس لهم إلا الأمانىُّ ناصر

وذلك إنّا لا تزال سيوفنا ... بهنَّ دم ممن يحاربن مائر[7]

إنه شعر المقهور الموتور الثائر الذى لا يملك إلا التهديد والوعيد بعد أن هزم فى المعركة ،ويعجب من فخر الأوس ،ولا بد أن يحين الهلاك عليهم غداً ، والدهر دائر ، ويعجب من فخر بنى النجار ومن الخزرج لما أصابوا من قادة قريش ورجالاتها ،إنه يعترف بالهزيمة، ولكنه سيثأر لها : .

فإن تك قتلى غودرت من رجالنا ... فإنا رجال بعدهم سنغادر

وسوف تخوض الخيل السراع فى صفوف الأوس ، وبنى النجار فتتركهم صرعى طعاماً للوحش والطير، وذلك أن هذه السيوف المصبوغة بالدم لن تقرَّ فى أغمادها ، ولا تزال تقطر من دمائكم إلى اليوم ، وكما بكت نساؤنا اليوم قتلاها ، فستبكى نسوة يثرب قتلاها غداً ، ولا يذقن طعم النوم نواحاً عليهن .

(١) المصدر نفسه ٢٣٥ .
(٢) الحَيْن : الهلاك .
(٣) الجرد : الخيل العتاق القصيرات الشعر .
(٤) العناجيج : جمع عنجوج وهو الطويل السريع .
(٥) الزوافر : جمع زافر وهى الحاملات للثقل.
(٦) تعصب : تجتمع عصائب عصائب .
(٧) مائر : سائل .

فــإن تظـفــروا فى يوم بـدر فــإنما بأحمد أمـسى جدكم [١] وهو ظـاهر
وبالنـفــر الأخـيـــار هـم أوليـــاؤه يحامون فى اللأواء [٢] والموت حاضر
يُعـدُّ أبو بكـر وحـمـــزة فـيـــهم ويدعى عـلى وسط من أنـت ذاكـــر
ويدعى أبو حـفـص وعـثـمـان منهمُ وسعـد إذ ما كـان فى الحرب حـاضر
أولئـك لا من نـتَّجت [٣] فى ديـارها بنو الأوس والنـجـار حين تـفـاخـــر
ولكـن أبوهم من لـؤى بن غــــالب إذا عـدت الأنسـاب كـعب وعـامـر
هم الطاعنون الخيل فى كل معرك [٤] غـداة الهـياج الأطـيبـون الأكـاثر [٥]

ومن أعجب ما نرى فى اضطراب عاطفـة ضرار بن الخطاب ،هو مدى تغلغل العصبـية القبلية فى نفســه، فهى تصطرع مع العقيدة، ولا يملك إلا أن يعـيد نصر محمد ﷺ إلى الأمجـاد من قريش ،لا إلى الأوس والخزرج الذين حالفوهم ،إنه يجد نفسه مضطراً لأن يفخر بأعدائه مـحمدٍ وصحبه ضد الأوس والخزرج ،ويقول لهم : إنما نصركم بمحـمد بن عبـد اللّه القرشى ،وبالنفر الأخـيار الذين آزروه من كـرام قريش ، وكـانوا مـعه ، وبايعـوه على الموت ،وذادوا عنه ، وعلى رأسـهم فرسان قريش وعـيونها: أبو بكر الصديق،وحمـزة بن عبد المطلب ،وعلى بن أبى طالب ،وسـعد بن أبى وقـاص،وعمـر بن الخطاب ،وعـثمـان بن عفـان، هؤلاء الأبطال هم الذين هزمـونا،وآباؤهم ليسوا من الأوس والخـزرج ، إنما هم فرعـها ودوحة لؤى بن غالب بن كعب وعامر، إنهم هم الطاعنون الخيل،وهم القاصفون الرماح، وهم أبطال النصر الطيبون الأكاثر.

إنها صـورة لا مثـيل لها فى تاريخ الحـروب ،أن ينصب الفخـر على الأعداء الألداء استجابة لنزعة القبيلة ،وكان لا بد أن يأتيه الجواب من الأبطال الغطاريف، من الأوس والخزرج ،والذين كان الناطق الإعلامى باسمهم ،والشاعر الذى رافق الدعوة منذ خطواتهـا الأولى، والذى تعرّف عليه رسول اللّه ﷺ من خلال صـيته الذائع ،بقوله عنه حين رآه : « الشاعر؟ » قال: نعم .

ها هو كعب بن مالك يقول :

(١) الجد : الحظ .
(٢) اللأواء : الشدة .
(٣) نتَّجت : ولَّدت .
(٤) المعرك : المعترك موضع تعارك الفرسان .
(٥) السيرة النبوية لابن هشام ذ /٣/ ٢٠ ـ ٢١ .

عـجـبـت لأمـر الـلّه واللّه قـادر … على مـا أراد ليس لـلّه قـاهر

قـضى يـوم بدرٍ أن تلاقى مـعـشـراً … بغـوا وسليل البـغى بالناس حـائر

وقـد حشـدوا واستنـفروا من يليـهم … من الناس حـتى جـمـعـهم مـتكاثر

وسـارت إلينـا لا تحـاول غـيـرنا … بأجـمـعهـا كـعب جـمـيـعاً وعـامـر

وفـيـنا رسـول اللّه والأوس حـوله … له مـعـقـل منـهم عـزيز وناصـر

وجـمع بنـى النجـار تحت لـوائه … يمشون فى الماذى[1] والنقع[2] ثائر[3]

وكعب بن مـالك شاعر مطبـوع، لا تكاد تجد فى قصـيدته لفظه جافـية،وهو مسلسل الفكرة ،يقـدم الوصف على العرض،وها نحن ندلف الآن فى المناقـضات الشعرية بين كـبار الشعراء،حيث يصوغـون قصائدهم على القافية نفـسها،والوزن نفسه،والألفاظ نفسها تقـريباً لتخدم فكرة كل واحد منهم، وأرجح أن العجب هنا للمخاطب وليس للمتكلم،فهى ( عجبتَ )، رداً على تعجب ضرار:( عجبتُ ) ، إنه يقول له :عـجبتَ لأمـر اللّه ، وهل إذا أراد اللّه أمراً هل من رادٍ له ؟! فـهو القاهـر فوق عبـاده، وهو الذى قضى أن نـلاقى القوم الذين بغـوا علينا ،وسليل البغى لا يوصل الناس إلا إلى الحيرة والضياع،ها هم يقودون القبائل وأخلافهم ، ويجمعون كعباً كلها، وعامراً كلهـا ،وقد استنفروا كل من حولهم لغزو محمد فى داره يثـرب حيث المنـعة والقـوة والعـدد،ونحن أنصار الـلّه، وأنصار رسـوله من الأوس ، والخزرج ،نحافظ على رسول اللّه ﷺ كما نحافظ على عيوننا :

فلمـا لقـيناهم وكل مـجـاهد … لأصـحـابه مستـبسل النفس صـابر

شـهـدنا بـأن اللّه لا ربَّ غـيـره … وأن رسـول الـلّه بالحق ظاهـر

وقـد عُرِّيت بـيض خـفـاف كـأنهـا … مقابيس [4] يزهيـها [5] لعينـيك شاهر

بهنَّ أبدنـا جـمـعـهم فـتـبـددوا … وكـأن يـلاقى الحَيْن من هو فـاجـر

إنها مـعركة العـقيدة ،معـركة لا إله إلا اللّه ، محـمد رسول اللّه ،والجـهاد بالسيوف القواطع عن هذه العقيدة ،هذه الـسيوف بين الأبطال الميامين يلعبون بها،

(١) الماذى : الدروع البيض اللينة. (٢) النقع : الغبار .

(٣) ثائر : مرتفع.

(٤) المقابيس : جمع مقباس ، وهى القطعة من النار .

(٥) يزهيها : يستخفها ، ويحركها . ومن رواها يزجيها فهو كذلك أيضاً .

ويسوقون حتف أعدائهم بطُباها ، فيلقى كل فاجـر مصرعه بها كذلك، وكأنها شعَلٌ من نار تحرق العدو، ثم لاذوا بعدها بالفرار ، وقد تركوا جثث قتلاهم فى العراء ، فمن هؤلاء القتلى؟

فكبَّ أبو جـــهل صـريعـاً لوجــهــه وعــتــبــة قــد غـــادرنه وهو عــاثر[1]
وشيـبة والتـميمى غـادرن فى الوغى ومـا منـهم إلا بذى العـرش كــافـر
فـأمسـوا وقـود النار فى مـستـقـرها وكل كــفـــور فى جــهـنم صـــائر
تلظَّى [2] عليهم وهى قد شبَّ حـميها بزبْر الحـديد[3] والحـجارة سـاجـر[4]

إنهم قادة الكفـر : أبو جهل بن هشام الذى خرَّ صـريعاً لوجهه ، وعـتبة بن ربيعة، ولعل التيمى هو عمرو بن عبد اللّه بن جدعان ، وها هو كعب تلميذ القرآن يتـحـدث عن المصـير الـذى ينتظرهم فى جـهنم ، وكـانوا هم وقـود النار ، وهم المسجورون فيها مع الحجارة، ويلخص القـضية كلها بهذين البيتين ، إذ ليس الأمر أمر عـصبية قـبلية ، ولا حميـة جاهلية ، إنه أمـر عقيدة ، وجـهاد من أجل هذه العقيدة .

وكـــان رسـول اللّه قـــد قــال أقــبلوا فـــولوا وقـــالوا : إنما أنت ســاحــر
لأمــــــــر أراد الـلّه أن يهـلـكوا بــه وليس لأمـر حمـه[5] اللّه زاخـــر [6]

**ابن الزبعرى :**

وهو أشعر القوم ، قال يبكى قتلى بدر :

قال ابن هشام : وتروى للأعشى بن زرارة بن النباش أحـد بنى أسيد بن عمر ابن تميم ، حليف بنى نوفل بن عـبد مناف. قـال ابن إسحـاق : حليف بنى عــبد الدار.

---

(١) عاثر : ساقط . ومن رواه عافر فهو الذى لصق بالعفر، وهو التراب .
(٢) تلظى : تلهب .
(٣) زبر الحديد : قطعه . وكان الأصل أن يقول زُبر الحديد . . لكنه سكّن الباء لضرورة الشعر
(٤) ساجر : موقد . (٥) حمه اللّه : قدرة اللّه .
(٦) السيرة النبوية ذ / ٣ / ٢٠ ، ٢١ .

مــــاذا علـى بدر ومــــاذا حــــوله من فــتــيــة بيض الـوجـوه كــرام
تركـوا نبـيـهـا خلـفـهم ومنبـهـاً [1] وابنى ربيـعـة [2] خـير خـصم فئام
والحارث [3] الفياض [4] يبرق وجهه كـــالبـــــدر جلى لـيلـة الإظلام
والعاصى [5] بن منبـــه ذا مـــرة [6] رمحـاً تميـماً [7] غـيـر ذى أوصـام[8]
تنـمى به أعـــــراقـــه وجــــدوده ومــــآثر الأخــــوال والأعــــمــــام
وإذا بكى بـاك فـأعــول [9] شجـوه فـعلى الرئيس الماجـد ابن هشـام[10]
حـيـا الإله أبـا الوليـد [11] ورهطـه رب الأنام وخـــصـــهـــم بســــلام

وابن الزبعرى سهمى ،فلا غرو أن يقدم فى الرثاء قتلى بنى سهم من قومه ، فذكر ابتداء نبيـها ومنبهاً ابنى الحجاج اللذين قتلا فى المعركة، كـما ذكر سيدى بنى أمية عتبـة وشيبة ابنى ربيعة ،ثم عاد إلى الحارث،هو الحـارث بن منبه بن الحجاج وأخوه العـاصى بن منبه ،ذو النسب العـريق، والمجد التليـد ،والمآثر الموروثة من الأخوال والأعمام ،ويعـرج بعد رثائه لقتلى قومه من بنى سهم على سيـد العشيرة أبى جهل بن هشام الرئيس الماجد،وعتبة بن ربيعة ورهطه .

فيجيبه حسان بن ثابت الأنصارى :

ابك بـكت عـــيـناك ثم تـبــــادرت بدم تـعل[12] غروبـها[13] سجـام[14]
مـــاذا بكـيت من الذين تـتـــابعـــوا هلا ذكـــــرت مـكارم الأقـــــوام
وذكـــرت منا مـــاجـــداً ذا هـــمـــة ســـمح الخـلائـق صـادق الإقـــدام
أعنـى النبـى أخــــا المكارم والـندى وأبـر من يـولـى [15] على الإقــســام
فلـمـــثله ولمـثل مـــا يـدعـــو له كـان الممـــدح ثم غـيـر كـــهـام [16]

(1) نبيه ومنبه : ابنا الحجاج السهميان .
(2) ابنى ربيعة : عتبة وشيبة الأمويان .
(3) الحارث بن منبه .
(4) الفياض : الكريم الكثير الإعطاء.
(5) العاصى بن منبه .
(6) المرة : القوة والشدة .
(7) رمح تميم : طويل.
(8) الأوصام : العيوب .
(9) الإعوال : رفع الصوت بالبكاء .
(10) ابن هشام : أبو جهل .
(11) أبو الوليد : عتبة بن ربيعة .
(12) تعل : تكرر .
(13) غروب :جمع غرب وهو مجرى الدمع هنا .
(14) سجام : سائل بشدة .
(15) يولى : يقسم .
(16) الكهام : الضعيف .

ها هو حسان يشمت بابن الزبعرى، ويدعوه لمعاودة البكاء وتكراره دمعاً ودماً، أيبكى سادة قومه الذين سقطوا صرعى فى بدر، وينسى سيد السادات، ماجد الأمجاد محمداً ﷺ سيد الخلائق وأخا المكارم والندى، الموفى بعهده ووعده إذا عاهد ووعد، ولمثل أولئك، ولما يدعون إليه من الإسلام يجب أن يزجى المدح ويساق.

**عودة إلى حسان :**

وقال حسان بن ثابت الأنصارى أيضاً :

تبَلَتْ (١) فؤادك فى المنام(٢) خريدة (٣) ... تسقى الضجيع ببارد بسام

كالمسك تخلطه بماء سحابة ... أو عاتق(٤) كدم الذبيح مُدام(٥)

نُفُجُ (٦) الحقيبة(٧) بوصُها(٨) متنضّدٌ (٩) ... بلهاء (١٠) غيرُ وشيكة الأقسام

بُنيت على قَطَن(١١) أجمَّ (١٢) كأنه ... فُضُلاً إذا قعدت مداكُ (١٣) رُخامِ

وتكاد تكسل أن تجيء فراشها ... فى جِسم خرعبة(١٤) وحُسنِ قوامِ

أما النهار فلا أُفَتِّرُ ذكرها ... والليل توزعنى به أحلامى

أقسمت أنساها وأترك ذكرها ... حتى تغيَّب فى الضريح عظامى

يا من لعاذلة تلومُ سفاهة ... ولقد عصيت على الهوى لُوّامى

بكرت علىّ بسحرة بعد الكرى ... وتقارب من حادث الأيام

زعمت بأن المرء يكرُب(١٥) عمرَه ... عدم لمعتكرٍ (١٦) من الأصرام (١٧)

ها هو حسان بن ثابت رضي الله عنه يتابع الخُطا فى المسير على نهج القصيدة الجاهلية، وذلك فى افتتاح القصيدة بالغزل والتشبيب، وإذا كان هذا الافتتاح

---

(١) تبلت : أسقمت .

(٢) المنام : يحتمل أنه أراد به النوم ، وموضع النوم ، ووقته .

(٣) خريدة : الجارية الحيية الناعمة .

(٤) العاتق : الخمر القديمة .

(٥) المدام : اسم من أسماء الخمرة .

(٦) نُفُج: مرتفعة أو متسعة .

(٧) الحقيبة : ما يجعله الراكب وراءه ، فاستعاره لردف المرأة .

(٨) البوص : الردف .

(٩) متنضد : بعضه فوق بعض .

(١٠) بلهاء : غافلة .

(١١) القطن : ما بنى الوركين إلى الظهر .

(١٢) أجم : ممتلئ .

(١٣) مداك : الحجر الذى يسحق عليه الطيب.

(١٤) الخرعبة : اللينة الحسنة .

(١٥) يكرب : يقرب، أو يحزن من الكرب .

(١٦) المعتكر : الإبل الكثيرة .

(١٧) الأصرام : جمع صرمة ، وصرم ، وهى القطعة من الإبل .

مرفوضاً فى شريعة الله، فسوف يوجهه عليه الصلاة والسلام للابتعاد عنه، وجاءت مقدمة القصيدة هنا من الطول، والتوسع، والدقة بحيث تكاد تكون قصيدة غزلية خالصة، وذلك فى جو الحديث عن أتون الحرب والمواجهة، وإقراره عليه الصلاة والسلام لها يعنى أن هذا الخط مشروع ومقبول فى النهج الإسلامى، وفى مواجهة الخصوم، ونعود إلى حسان وهو يصف محبوبته :

لقد أسقمت فؤادك تلك الجارية الحبيبة الناعمة، تسقى خليلها المضاجع لها بالماء البارد، فهو كالمسك فى طعمه الشهى، أو كالخمر المعتقة. أما أردافها المتسعة فهى عبلة العضلات، بعيدة ما بين المنكبين، صافية الأديم من الغافلات عن الشرك، فى قلبها الطيب، جسمها ممتلئ، وقطنها كأنما هو مقعد رخام لجماله واتساعه، ولحسن خلقها، ونعومة ملمسها، تجد نفسها كسولة عن إتيان فراشها، إنَّ ذكرها حى فى قلبى طيلة النهار فلا أنساها، وهى أحلامى فى الليل، وأقسمت لا أنساها حتى ترَّم أعظمى فى قبرى.

أيا عاذلتى، عجباً منك تلومينني سفاهة أن عصيت اللوام فى الهوى الذى استحكم فى القلب، لقد بكرت الخريدة علىّ سحراً، ونبهتنى من الكرى زاعمة أن المرء يشقى بعمره حين يكون فقيراً، لا إبل عنده ولا مال، ويقصر عمره كذلك، فعليه أن يمسك خوفاً من الفقر.

ثم يدلف إلى بدر بلسانه الحاد الذى يفريهم فرياً، ويبدأ بالحارث بن هشام الذى ترك أخاه أبا جهل بن هشام زعيم حزب الشيطان مجندلاً فى الساحة، وفرّ بنفسه، يقول له :

| | |
|---|---|
| إن كنت كاذبة الذى حدثتنى | فنجوت منجى الحارث بن هشام |
| ترك الأحبة أن يقاتل دونهم | ونجا برأس طِمِّرة[1] ولجام |
| تذر العناجيح[2] الجياد بقفزة | مرَّ الدموك[3] بمُحصَد[4] ورجام[5] |
| ملأت به الفرجين[6] فأرمدّت[7] به | وثوى [8] أحبَّته بشر مقام |

(١) الطمرة : الفرس الكثيرة الجرى.
(٢) العناجيح : الطويل السريع.
(٣) الدموك : البكرة.
(٤) المحصد : الحبل الشديد الفتل.
(٥) الرجامان : قرنا البئر.
(٦) الفرجين : ما بين يديها وما بين رجليها، وقد ملأتهما جرياً.
(٧) أرمدّت به : أسرعت، كذلك أرقدّت.
(٨) ثوى : أقام.

وهذا هو الهجاء المقذع الذى يمضى مثلاً سائراً بين العرب ،وذلك حين يعيِّر الرجل بالجبن ،ويوصم بالفرار عن حماية أحبته ، والتخلى عن أخيه وسيد عشيرته أبى جهل بن هشام،ولا يدع هذا الفرار كلمة عابرة، بل يوغل فى وصفه والحديث عنه ،حتى يحفظ ،ويتناقل . لقد أصبح منجى الحارث بن هشام مثلاً يضرب ،وذلك حين ترك الأحبة ، أن يقاتل دونهم ، فاراً على فرسه السريع الوثابة ، تتجاوز الخيل السراع كلها، كسرعة الهاوى دلوها إلى البئر فى كل قفزة تقفزها ، وقد ملأت فرجيها من البول، فلا تعى على نفسها من شدة الخوف ، مخلفاً وراءه أحبته بشر مقام، ومن هنا يمضى ليتحدث عن بدر :

ملأت به الفرجين فأرمدَّت به ... وثوى أحبته بشر مقام
وبنو أبيه ورهطه فى معركٍ ... نصر الإله به ذوى الإسلام
طَحَنَتْهُم واللّه ينفذ أمره ... حرب يُشبُّ [1] سعيرها بضرام[2]
لولا الإله وجريها لتركته ... جزر السباع [3] ودسنه بحوامى[4]

إنه يغادر الحارث بن هشام ليتحدث عن بدر التاريخ التى نصر اللّه بها ذوى الإسلام، بينما طحنت الحرب المشركين رهط الحارث بضرامها،ولولا قدر اللّه فى نجاته، وسرعة جرى فرسه ،لكان جزر السباع، مداساً بحوافر الخيل.

وفى الديوان بيت آخر يتابع به وصف فرار الحارث بفرسه الذلول :

ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ... ونجا برأس طِمرَّة ولجام
جرداء تمرغ فى الغبار كأنها ... سِرحان غابٍ فى ظلال غمام

فهى تثب مخلفة الغبار خلفها ،وثوب الذئاب المغطاة فى الغابة بالغمام ،وها هو يعود إلى بدر ثانية ، فيقف فى ساحة المعركة ، وقد انجلى الغبار عن هزيمة الكفار.

من بين مأسور يشدُّ وثاقه ... صقر إذا لاق الأسنة حامى

---

(١) يُشبّ : يوقد . (٢) الضرام : ما توقد به النار .
(٣) جزر السباع : طعام السباع .
(٤) الحوامى : جمع حامية ، وهى جانب الحافر.

ومجدَّل[1] لا يستجيب لدعوة | حتى تزول شوامخ[2] الأعلام [3]
بالعار والذلِّ المبين إذا رأى | بيض السيوف تسوق كل همام
بيدى أغرَّ إذا انتمى لم يخزه | نسبُ القصار[4] سميدع[5] مقدام
بيض إذا لاقت حديداً صمَّمت | كالبرق تحت ظلال كل غمام

وهو يعرض الصورتين معاً بمشهد واحد حى، فالمعركة متحركة ،إنه لا يعرض الأسير فقط ، إلا وآسره الصقر ، المقارع للأسنة ،قد ساقه بين يديه ،ولا يعرض القتيل المصرع الذى لا يستجيب لدعاء حتى تزول شوامخ الجبال ، إلا ويعرض معه تلك السيوف التى حصدت وساقت إلى الأسر كل همام ،فهم بين أسير ذليل ، وصريع قتيل ،بيدى قمرٍ ، ذى نسب عريق فى قومه ،وسيد فى عشيرته، ومقدام فى جرأته.

قال ابن هشام : تركنا من قصيدة حسان ثلاثة أبيات من آخرها لأنه أقذع فيها.

وبالعودة إلى ديوان حسان نتابع القصيدة التى ميزت حسان عن غيره، حين طُلب منه الهجاء .

بيض إذا لاقت حديداً صممت | كالبرق تحت ظلال كل غمام
ليسوا كيعمر حين يشتجر القنا[6] | والخيل تضبر[7] تحت كل قتام[8]
فسلحْت إنك من معاشر خانة | سُلُح[9] إذا حضر القتال لئام
فدع المكارم إن قومك أسرة | من وُلد شِجع[10] غير جدٍّ كرام
من صلب خندف ماجدٍ أعراقُه | نجلت[11] به بيضاء ذات تمام

فهو يطعن القوم بأعز ما عندهم ، إنه يصفهم بالجبن والخوف ، ويطعن فى

(١) المجدل : صريع على الأرض.
(٢) الشوامخ : العالية .
(٣) الأعلام : الجبال .
(٤) القصار : الذى قصر سعيهم عن المكارم .
(٥) السميدع : السيد .
(٦) يشتجر القنا : تلتحم المعركة ، والقنا يتصادم .
(٧) تضبر الخيل : تجمع قوائمها وتثب .
(٨) القتام : الغبار .
(٩) سلحت : بالت .
(١٠) من ولد شجع : يقال : إن الوليد بن المغيرة من بنى شجع وليس من بنى مخزوم، ويعيرون بذلك .
(١١) نجلت : ولدت .

صحة نسبهم ،وانتمائهم إلى قريش ، ويصفهم باللؤم،وحين تتبادل الركبان هذه الأشعار، فما الذى يغير هذا الوصف فيهم ، وما الذى يزيل هذا العار الذى ألبسهم إياه، وطبيعة المعركة بشدتها وهو لها لا تدع باباً من أبواب الحرب إلا وتقرعه،وحرب اللسان أعنف وأشد من حرب السنان، وصريع المعركة ينتهى الحديث عنه، أما الشعر فهو الذى يلاحقه بعد موته إن مات ،وفى حياته إن أسر وفر .

وهذا حسان لا يدع الحارث ، إلا ويعود إليه، لأنه يود هجاء أبى جهل بن هشام رمز جاهلية قريش، فيأتى عن طريق هجاء أخيه الحارث :

يا حار[1] قد عولت [2] غير معول — عند الهياج [3] وساعة الأحساب
إذ تمتطى سُرُح[4] اليدين نجيبة[5] — مرطى[6] الجراء طويلة الأقراب[7]
والقوم خلفك قد تركت قتالهم — ترجو النجاة وليس حين ذهاب
ألا عطفت على ابن أمك إذ ثوى — قعص[8] الأسنة ضائع الأسلاب[9]
عجل المليك له فأهلك جمعه — بشنار[10] مخزية وسوء عذاب

إنه يكرر المعانى السابقة بثوب جديد، فساحة الوغى هى ساحة الشرف والدفاع عن الأحساب، وفى هذا المكان عزمت على الفرار على فرسك النجيبة سريعة الجريان، ترجو النجاة وقد خلّفت خلفك أخاك أبا جهل ، قتيل الأسنة ، ضائع الأسلاب،وقد عجّل اللّه تعالى خزيه وجمعه فى الدنيا والآخرة ،وينتقل من أبى جهل وحزبه، ليصفع القوم كلهم الذين حملوا لواء الضلالة قائلا :

لقد علمت قريش يوم بدر — غداة الأسر والقتل الشديد
بأنا حين تشتجر[11] العوالى[12] — حماةُ الحرب يوم أبى الوليد
قتلنا ابنى ربيعة يوم سارا — إلينا فى مضاعفة الحديد

(١) يا حارِ : يا حارث .
(٢) عولت : عزمت .
(٣) الهياجَ : الحرب .
(٤) سُرُح اليدين : سريعة اليدين .
(٥) نجيبة : عتيقة .
(٦) مرطى الجراء : سريعة الجرى .
(٧) الأقراب : جمع قُرب ،وهى الخاصرة وما يليها .
(٨) القعص : القتل بسرعة .
(٩) الأسلاب : جمع سلَب.
(١٠) الشنار : العيب والعار .
(١١) تشتجر : تختلط وتشتبك .
(١٢) العوالى : أعالى الرماح .

وفـــرَّ بهـــا حـكيم يـوم جـــالت بنـو النجـــار تخـطر [1] كـالأسـود
ووأت [2] عند ذاك جـمـــوع فـهـر وأسلمـــهـــا الحـويرث مـن بعـيــد

فحين تشتجر الرماح ، علمت قريش من نحن حين سـقط بطلاها عتبة وشيبة صريعين،وفـر حكيم بن حزام بن خويـلد الأسدى بينما أسلم الحـويرث الأسدى يديه للأسـر ،وذلك عـندمـا واجـهـوا بنى النجـار الذين يخـطرون بين الصـفين كالأسود.

وولّت عند ذاك جـــمـــوع فـــهــر وأسلمـــهـــا الحـويرث مـن بعـيــد
لقــد لاقـــيـــتـــهم ذلاً وقـــتــلاً جـــهـــيـــزاً نافـــذاً تحت الـوريد
وكلُّ القـــوم قـد ولـواْ جـمـــيـعـــاً ولم يـلوُوا [3] على الحـسب التليـد

لقد نسـيت ذؤابة فهر نسبـها التليد ، يوم لاقت الذل والقتل ، فـفرت هاربة مذعورة من سيوف المسلمين. ثم ينتقل من قريش إلى محمد ﷺ وصحبه، فيصف هؤلاء الأمجاد الأبطال بقوله :

مستشعرى[4] حلق الماذى[5] يقدُمهم جلْدُ النحيزة [6] ماضٍ غير رعديد [7]
أعنـى رســـول إله الخلقِ فـــضـلـه على الـبـريـة بالتـــقـــوى وبالجـــود
وقـد زعـمتم بـأن تحمـوا ذمـاركم[8] ومـاء بـدر زعـمـتـم غـيــر مـورود
ثم وردنـا ولم نســـمـع لـقــولـكم حتى شـربنا رواء[9] غيـر تصريد[10]
مسـتعـصمين بحـبل غير مـنجذم[11] مـســـتـحكم من حـبـــال الله ممدود
فـينا الـرسـول وفـينا الحق نتـــبـعــه حتى الممـات ونصر غـيـر مـحدود[12]
وافٍ ومـاض شـهـاب يسـتـضـاء به بدر أنار على كل الأمـاجيـد[13] [14]

---

(١) تخطر : تهتز وتتبختر . وحكيم هو حكيم بن حزام بن خـويلد، وأبو الوليد هو عتبة بن ربيعة ، والحويرث هو الحويرث بن عباد بن عثمان بن أسد . والله أعلم .
(٢) وأت : هى فى الديوان ولّت أى هربت .
(٣) لم يلوُوا : لم يهتموا .
(٤) مستشعرى : لابسى الثوب على الجسم دون حاجز .
(٥) الماذى : الدروع البيض اللينة .
(٦) النحيزة : الطبيعة .
(٧) الرعديد: الجبان .
(٨) الذمار: ما يجب أن يحمى .
(٩) الرواء : التملؤ من الماء .
(١٠) التصريد : تقليل الشرب .
(١١) المنجذم : المنقطع .
(١٢) المحدود : الممنوع هنا .
(١٣) الأماجيد : الأشراف .
(١٤) السيرة النبوية لابن هشام ذ/ ٣/ ٢٨ .

لباسهم دروع الحديد ، وعلى رأسهم بطل جلد لا يعرف الخَورُ إليه سبيلاً ، إنه رسول رب العالمين،وسيد البرية كلها ، فإذا كان أكرم الخلق على الله أتقاهم ، فهو أتقى البشرية ،وهو أجودها ، فأين أنتم يا معشر قريش، وقد زعمتم أن محمداً ومن معه إنما هم أكلة جزور ، وكنتم ترون أن تمنعوهم مذاق ماء بدر ، فما بالنا شربنا الماء رواءًا ، وأسقيناكم الموت الزؤام هناك ، أما آن لكم أن تفيقوا وتؤمنوا بأن قد ربطنا أنفسنا بحبل غير منفصم هو حبلَ اللّه الممدود،نتصل باللّه عن طريق رسول رب العالمين ، فهو الحق الأبلج ،والنصر للحق،مهما انتفش الباطل ، لقد اتصلنا بنور هذه الأرض،وهو الشهاب الذى يستضاء به فيها ،وما جاء إلا ليخرجنا من الظلمات إلى النور بإذنه،ويجعل لنا نوراً نمشى به : ﴿ **قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾** ﴾ [المائدة ] .

وحيث إن حسان سيد الساحة ،وهو المكلف بالهجاء لأعداء اللّه ، فها هو يعطف على بنى أسد بن عبد العزى بن قصى قائلاً لهم :

| | |
|---|---|
| خابت[١] بنو أسد وآب غزيهم[٢] | يوم القليب[٣] بسوءة وفضوح |
| منهم أبو العاصى تجدَّل [٤] مقعصا[٥] | عن ظهر صادقة النجاء [٦] سبوح [٧] |
| حيْناً له من مانع بسلاحه | لما ثوى بمقامه المذبوح |
| والمرء زمعة قد تركن ونحره | يدمى بعاند[٨] معبط [٩] مسفوح |
| متوسداً حرَّ الجبين معفَّرا | قد عُرَّ [١٠] مارن [١١] أنفه بقبوح |
| ونجا ابن قيس فى بقية رهطه | بشفا الرماق[١٢] موليًا بجروح |

واختيار حسان لبنى أسد ،لما كان لهم من عز ومنعة فى قومهم ،فقد كان

(١) خابت : من الخيبة ،ومن رواها حانت من الحين وهو الهلاك .
(٢) الغَزى : جماعة القوم الذى يغزون . (٣) يوم القليب: يوم بدر .
(٤) تجدّل : صرع على الأرض. (٥) مُقعصاً : مقتولاً .
(٦) صادقة النجاء : الفرس ،والنجاء : السرعة .
(٧) السبوح : التى تسبح فى جريها كأنها تعوم .
(٨) العاند : الذى يجرى ولا ينقطع . (٩) المعبط : الدم الطرى .
(١٠) عُرَّ : لطخ بشر . (١١) المارن: ما لان من الأنف .
(١٢) الرماق: الرمق ، بقية الحياة .

الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى أحد المستهزئين الذين ذكرهم القرآن ، (وكان من كبراء قريش، ذكروا أن رسول اللّه ﷺ ذكر ناقة ثمود ، فقال: « انبعث لها رجل عزيز منيع فى رهطه مثل أبى زمعة» [1] وكان ابنه زمعة من أشراف قريش، قتل ببدر كافراً )[2] وهو الذى أشار له حسان بقوله :

والمرء زمعة قد تركن ونحره ... يدمى بعاند معبط مسفوح
متوسد حر الجبين معفراً ... قد عر مارن أنفه بقبوح

أما أبو العاصى، فالغالب على الظن أنه أبو البخترى بن هشام ، واسمه العاصى ، والذى قتله المجزر بن زياد البلوى كما مر معنا آنفاً ، أما ابن قيس الذى فر فلم أهتد له، كما لم تذكر كتب السير والتراجم والأدب عنه شيئاً ،إنما الذى ذكر فراره هو حكيم ابن حزام بن خويلد بن أسد ،وقد أفرد له حسان أبياتاً خاصة به ، فقال:

نجَّى حكيماً يوم بدرٍ شدُّه ... كنجاء مهر من بنات الأعوج[3]
لما رأى بدراً تسيل جلاهة [4] ... بكتيبة خضراء من بلخزرج
لا ينكلون إذا لقوا أعداءهم ... يمشون عائدة [5] الطريق المِنهج[6]
كم فيهم من ماجد [7] ذى منعة ... بطل بمهلكة الجبان المحرج[8]
ومسوَّدٍ يعطى الجزيل[9] بكفّه ... حمال أثقال الديات متوجٍ
زين الندى[10] معاودٍ يوم الوغى[11] ... ضرب الكماة بكل أبيض سلجج[12]

وحكيم بن حزام سيد من سادات بنى أسد لقيه ابن عمه عبد اللّه بن العوام وعبد الرحمن بن العوام أخوا الزبير بن العوام( وكان حكيم راجلاً وعبد الرحمن

---

(١) نسب قريش للمصعب الزبيرى ٢١٨/١ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ٢٩ .
(٣) الأعوج : اسم فرس مشهور فى الجاهلية .
(٤) الجلاه : جمع جلهة ،وهو ما استقبلك من عدوة الوادى.
(٥) عائدة الطريق : حاشيته .
(٦) المنهج : المتسع . وهى فى الديوان ( يمشون مهيعة الطريق ) والمنهج والمهيع والنجع واحد .
(٧) الماجد : الشريف . (٨) المُحرَج : المضيّق عليه .
(٩) الجزيل : الكثير . (١٠) الندىّ : المجلس .
(١١) الوغى : الحرب . (١٢) السلجج : السيف القاطع .

على جمل، فنزل عبد الرحمن عن الجمل ،وقال لأخيه عبد اللّه :انزل،قال: إنى أعرج لا أقدر على المشى .قال: لتنزلن .ودفع الجمل إلى حكيم ،فنجا عليه ، وزعموا أنه قال لأخيه عبد اللّه :ألا تنزل لرجل إن قُتلت كفاك،وإن أسرت فداك؟)وأسلم يوم الفتح ، وشهد حنيناً والطائف ، وكان إذا حلف بيمين يقول : ( لا والذى نجانى يوم بدر ). فلم يدعه حسان دون أن ينال منه ، والفرار عار على العربى لا خلاص له منه ، وحسان بن ثابت، يذكر نجاة حكيم لفراره، كما فرَّ المهر السريع وهو فرس سريع لبنى هلال بن صعصعة ،وذلك عندما رأى أبطال الأوس والخزرج ، تسيل بهم عدوة الوادى ،وذلك كما فى البيت فى الديوان :

لما رأى بدراً تسيل جلاها بكتائب للأوس أو للخزرج

وكم فيهم من ماجد منيع فى قومه ،وسيد معطاء جواد فى عشيرته ،يحمل ديات الغرماء ،زينه كرمه وشجاعته ،حيث يضرب الكماة بكل سيف قاطع بتار .

ولا يدع حسان أحداً من هجائه ، فيدع بنى أسد بن عبد العزى بن قصى ، ليمضى إلى بنى جمح بن هصيص بن كعب والذين أفرزوا أمية بن خلف ،وأخاه أبى بن خلف من قيادات مكة ، فقضى أمية صريعاً ،وابنه على معه .

جمحت بنو جمح لشفوة جدهم إن الذليل موكل بذليل
قتلت بنو جُمح ببدر عنوةً [1] وتخاذلوا سعياً بكل سبيل
جحدوا الكتاب وكذَّبوا بمحمد واللّه يظهر دين كل رسول
لعن الإله أبا خزيمة [2] وابنه والخالدين وصاعد بن عقيل

ثم ها هو يعمم هجاءه على أهل مكة جميعاً بقوله:

ألا ليت شعرى هل أتى أهل مكة إبارتنا [3] الكفار فى ساعة العسر
قتلنا سراة القوم عند مجالنا[4] فلم يرجعوا إلا بقاصمة الظهر

---

(١) عنوة : قهراً وغلبة .

(٢) أبو خزيمة : هو عميرة بن وهب الجمحى ،وقد أسلم وحسن إسلامه ،وابنه وهب بن عمير،والخالدان هما: خالد بن هشام بن المغيرة المخزومى ،وخالد بن الأعلم العقيلى حليف بنى مخزوم .ولا ندرى ما الذى حشرهما فى هجاء بنى جمح ، وهما مخزوميان ، كما ذكرهما الديوان .ولم يرد اسم أحد من بنى جمح فى أسرى بدر وقتلاها اسمه خالد أو صاعد، أو حضر بدراً منهم بهذا الاسم.

(٣) إبارتنا : إهلاكنا.

(٤) مجالنا : معركتنا .

قـتلنا أبا جـهل وعـتـبـة قـبله ... وشـيبـة يكبـو [1] لليـدين ولـلنحـر

قـتلنا سـويداً ثم عـتـبـة بعـده ... وطعـمـة أيضـاً عـند ثائرة[2] القـتر

فكم قـد قـتلـنا من كـريم مـرزأ ... له حـسب فى قـومـه نابه الذكـر

تركنـاهم للعـاويات [3] يـنبـنهـم [4] ... ويصلون ناراً بـعـد حـامـيـة القـعـر

لعمرك مـا حامت [5] فوارس مـالك ... وأشـيـاعـهم يوم التـقـينا على بدر[6]

ويبقى مقتل أبى جهل بن هشام وعتبة وشيبة ابنى ربيعة هو أهم أحداث بدر، وأشهرها فى جزيرة العرب ،فقد انتهت زعامة مكة إلى هذين الزعيمين ،وهذا لا ينفى مقتل الأماجد عريضى النسب الآخـرين حيث تركناهم للوحوش ينهشونهم ، ولـم ينس أن يذكر طعيمـة بن عدى أحد زعماء بنى نوفل ،أما سويد وعـتبة الآخر فلم نقف لهما على أثر .

ويعيد فخره ثانية بكتائب الإسلام المنتصرة :

فـمـا نخـشى بـحـول اللّه قـومـاً ... وإن كـثـروا وأجـمـعـت الزحـوف

إذا مـا ألبـوا جـمـيـعـاً علـينا ... كـفـانـا حـدّهم رب رؤوف

سـمـونا يوم بـدر بالعـوالى ... سـراعـاً مـا تضعـضعنا الحـتـوف

فلم تـر عـصـبـة فى النـاس أنكى ... لمن عـادوا إذا لقـحت[7] كشـوف

ولـكـنـا تـوكـلـنـا وقـلـنـا ... مـآثرنـا، ومـعـقلنا السـيـوف

لقـيناهم بـهـا لما سـمـونا ... ونحـن عـصـابة وهـم ألوف[8]

والفخر الآن ضمن المنهج الإسلامى،فالناصر والمعين والحافظ هو اللّه ،وهو الذى يكفـينا شـر عـدونا ،ولو أكب الناس كلهم علـينا، ومن أين لنا أن نخـشى المنايا،ولا نصبـر فى الوغى،ونكون أنكى نكـاء وأبلى بلاءً فى عـدونا ،طالما أننا توكلنا على اللّه،واعـتمـدنا بعدها على سـيوفنا التى هى أكـبر مآثرنـا ؟! وقد كنا

---

(1) يكبو : يسقط .

(2) ثائرة القتر :ما ارتفع من الغبار .

(3) العاويات : الذئاب والسباع .

(4) ينبنهم : يأتونهم مرة بعد مرة .

(5) ما حامت : ما جبنت .

(6) السيرة النبوية ذ /٣/ ٣٠ .

(7) لقحت كشوف : حملت ناقة، وذلك حين يضربها الفحل فى الوقت الذى لا تشتهيه، واستعارها للحرب.

(8) المصدر السابق : ٣١ ـ ٣٢ .

عصابة من ثلاثمائة ونيف، وهم ألف ونيف، فلم يضرنا ذلك وانتصرنا بعون الله تعالى عليهم .

ثم ها هو يخص الأنصار بالفخر، مستعيداً شريط ذكرياته، قائلاً:

قومى الذين هم آوَوْا نبيهم ... وصدَّقوه وأهل الأرض كفار
إلا خصائص أقوام هُمُ سلف ... للصالحين مع الأنصار أنصار
مستبشرين بقسْم الله قولُهم ... لما أتاهم كريم الأصل مختار
أهلاً وسهلاً ففى أمنٍ وفى سعة ... نِعم النبى ونعم القسم والجار
فأنزلوه بدارٍ لا يُخاف بها ... من كان جارهم داراً هى الدار
وقاسموه بها الأموال إذا قدموا ... مهاجرين وقِسْمُ الجاحد النار

لقد رضوا برسول الله ﷺ قسماً وحظاً، مع الرعيل الأول من المهاجرين معه، وقاسموهم الأموال وكان نصيب الكافرين وحظهم النار، فأصبح بين ظهرانيهم أعز ما يكون جواراً، وحموه بفلذات أكبادهم، وأرواحهم، ودمائهم، وهذه بدر تشهد بذلك:

سرنا وساروا إلى بدر لحينهم[(١)] ... لو يعلمون يقين العلم ما ساروا
دلاّهم بغرور ثم أسلمهم ... إن الخبيث لمن ولاه غرار
وقال: إنى لكم جار فأوردهم ... شر الموارد فيه الخزى والعار[(٢)]
ثم التقينا فولوا عن سراتهم[(٣)] ... من منجدين[(٤)] ومنهم فرقة غاروا

لقد ساروا لحتفهم، ولا غرو فقائدهم الشيطان الذى غرر بهم، وقال لهم: إنى جار لكم فأوردهم الخزى والنار، وانتهت المعركة بذبح سراتهم، ومضوا

---

(١) الحين : الموت والهلاك .

(٢) هو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨) ﴾ [ الأنفال ]

(٣) سراة القوم : خيارهم . (٤) منجدين : قاصدين نجداً ، وهو لمرتفع.

(٥) غاروا : قاصين الغور وهو ما انخفض من الأرض .

(٦) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣/ ٣٧٥، ٣٧٦ .

فارين لا يلوون على شيء فى كل نجد من الأرض وغور فيها.

لقد كان حسان سجلاً لمعركة بدر، وناطقاً باسم المسلمين، ولم ترهب قريش أحداً كما رهبته، فقد جللها بالعار وهو يهجو الفارين منهم، والمنهزمين، والمقتولين، وسلاح الإسلام الجديد هو الذى يرفعه فى وجوههم، ويعيِّرهم قبل هذا كله بالكفر والضلالة، بينما يفخر بالإسلام والقرآن والإيمان، فهو داع ينشر هذا الدين الجديد، ويبشر برسالته، ويقاتل ويصول ويجول فى حرب الكفار، وكان هجاؤهم بحق أشد عليهم من وقع النبل، ولا غرو فروح القُدُس معه.

**كعب بن مالك:**

وإذا كان حسان قد تبنى موضوع الهجاء وجبريل معه، فها هو كعب بن مالك الشاعر الذى عرفه رسول اللّه ﷺ بشعره قبل شخصه.

قال رضي الله عنه فى يوم بدر:

ألا هل أتى غسان فى نأى دارها ... وأخبر شيء بالأمور عليمها
بأن قد رمتنا عن قِسِّى عداوة ... معَدٌّ معاً جهالها وحليمها
لأنا عبدنا اللّه لم نرجُ غيره ... رجاء الجنان إذ أتانا زعيمها
نبى له فى قومه إرث عزةٍ ... وأعراق صدق هذَّبتها أرومها
فساروا وسرنا والتقينا كأننا ... أسود لقاءٍ لا يُرجَّى كليمها[1]
ضربناهم حتى هوى فى مكرنا ... لمنخر سوءٍ من لؤى عظيمها
فولَّوا ودسناهم ببيضٍ صوارم ... سواء علينا حلفها وصميمها [2] [3]

إنه يبتدئ شعره بالحديث إلى غسان قومه الذين انتمى إليهم، وهو أدرى بالحديث إليهم، ويعلمهم أن معد جهالها وحليمها قد رمتهم عن قوسٍ واحدة يريدون القضاء عليهم. ثم ينعطف إلى غسان يدعوها بصورة غير مباشرة إلى اللّه ورسوله، ويحدثهم عن أسباب انتصارهم العظيم أنه إنما كان لأنهم عبدوا اللّه تعالى، ولم يرجوا غيره، ابتغاء الجنان التى وعد بها رسول اللّه ﷺ المؤمنين به،

---

(١) الكليم: الجريح. (٢) الصميم: الخالص من القوم.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ذ/ ٣/ ٣٥ - ٣٦.

وهو النبى المصطفى أعرق الناس نسباً فى قومه .وكان اللقاء بين الأسود فى ساحة الوغى ،وقد جمعت لؤى كل عظمائها وأبطالها ،وكأنما ساقتهم إلى مصارعهم حيث قطّعناهم بسيوفنا .

وإن كان لم يف المعركة حقها فى هذه القطعة ،وكان همه الدعوة إلى اللّه تعالى ، وربط النصر المبين بالإسلام ، فها هو يعود ثانية إلى المعركة ليقول فيها :

| | |
|---|---|
| لعمرك أبيكما يا بنى لؤى | على زهو لديكم وانتخاء |
| لما حامت[1] فوارسكم ببدر | ولا صبروا به عند اللقاء |
| وردناه بنور اللّه يجلوا | دجى الظلماء عنا والغطاء |
| رسول اللّه يقدمنا بأمر | من أمر اللّه أحكم بالقضاء |
| فلا تعجل أبا سفيان وارقب | جياد الخيل تطلع من كداء[2] |
| بنصر اللّه روح القدس فيها | وميكال فيا طيب الملاء[3] [4] |

ولا ينسى أن يخص الشهيد العظيم عبيدة بن الحارث برثائه فيقول :

| | |
|---|---|
| أيا عين جودى ولا تبخلى | بدمعك حقاً ولا تنزرى[5] |
| على سيد هدّنا هلكُه | كريم المشاهد والعنصر[6] |
| جرىء المقدَّم شاكى السلاح [7] | كريم الثنا [8] طيِّب المكسر[9] |
| عبيدة أمسى ولا نرتجيه | لعرف عراناً ولا منكر |
| وقد كان يحمى غداة القتا | ل حامية الجيش[10] بالمبتر[11] [12] |

فهلاك عبيدة ، هو فاجعة المسلمين جميعاً ، فهو بطل المشاهد والملمات ،

---

(١) حامت : منعت .
(٢) كداء : موضع بمكة .
(٣) الملأ : الملأ من الملائكة .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ذ/٣/ ٣٧ .
(٥) لا تنزرى : لا تُقللى من الدمع .
(٦) العنصر : الأصل .
(٧) شاكى السلاح : حادُّ السلاح .
(٨) كريم الثنا : ما يتحدث به عن الرجل من خير أو شر .
(٩) طيِّب المكسر : من رواه بالسين ،فيريد أنه إذا فتش عن أصله وُجد خالصاً، ومن رواه بالشين ، فيريد أنه طيب النَكهة .
(١٠) حامية الجيش : آخرهم .
(١١) المبتر : السيف .
(١٢) السيرة النبوية لابن هشام ذ/ ٣/ ٣٤ ـ ٣٥ .

طيب العنصر والمحتد ، جرىء فى الهيجاء، مدجج بالسلاح كريم النثا، وطيب الأصل حين تبحث عنه ، وقد كنا ندعوه للملمات ، أما الآن فلا نرتجيه بعد استشهاده، للنازلات، فهو البطل المقدم للمواجهة، وهو الذى يحمى ذمار الجيش ، إن أغير عليه.

## قريش تبكى على قتلاها :

وحين انتهى أساطين الشعر من النقائض، والرد على المسلمين، عكفوا ينوحون على قتلاهم، ويتحدثون بفاجعتهم الكبرى ، ويندبون موتاهم .

وأولى الناس بالرثاء عميد القوم أبو جهل ، وأولى الناس برثائه أخوه الحارث ابن هشام .

ألا يا لهف نفسى بعد عمرو ... وهل يغنى التلهف من فتيل[1]

يخبرنى المخبِّر أن عمراً ... إمام القوم فى جفر[2] محيل[3]

فقدماً كنت أحسب ذاك حقاً ... وأنت لما تقدَّم غير فيل[4]

وكنت بنعمة ما دمت حياً ... فقد خُلِّفت فى درج المسيل[5]

كأنى حين أُمسى لا أراه ... ضعيف العقد [6] ذو هم طويل

على عمروٍ إذا أمسيت يوماً ... وطرفٍ من تذكُّره كليل[7] [8]

فأبو جهل قد طوى فى البئر بين يدى أعدائه صريعاً، وكنت أرى أنى فى نعمى ما زال على قيد الحياة، أما اليوم فقد خُلِّفت فى الذل والقهر، همى طويل ، ورأيى خائر، وطرفى كليل، فما معنى الحياة بعده ؟!

وليس أبو جهل خاصاً بأخيه وعشيريه فهو عميد القوم، وإمام الكفر ، فلا بد أن يرثيه شاعر القبيلة ، ولو بعد به نسبه عنه، وهذا ما نسمعه من ضرار بن الخطاب الفهرى :

---

(١) الفتيل : ما يكون فى شق النواة من التمر . يضرب به المثل للشىء القليل .

(٢) الجفر : البئر التى لم تطو . (٣) المحيل : القديم المتغير.

(٤) غير فيل : غير فاسد الرأى .

(٥) درج المسيل : كناية عن موطن الذل والقهر .

(٦) العقد : العزم والرأى . (٧) كليل : معيى .

(٨) السيرة النبوية لابن هشام ذ/ ٣/ ٤٠ . .

ألا مـن لعـين باتـت الليـل لـم تنـم ... تراقب نجـمـاً فى سـواد من الظُلَمْ
كـأن قـذى فـيـهـا وليس بهـا قـذى ... سوى عـبرة من جائل الـدمع تنسجم
فـبلّغ قـريشـاً أن خـيـر نديِّهـا [1] ... وأكـرم مـن يمشى بسـاق علـى قـدم
ثوى يوم بدرٍ رهن خـوصاء [2] رهنها ... كريم المساعى غير وغد [3] ولا برِم [4]
فـآليت لا تـنفك عـينـى بعـبـرةٍ ... على هالـك بعـد الرئيـس أبى الحكم
على هالك أشجى [5] لؤى بن غالبٍ ... أتتـــه المنـايا يـوم بدرٍ فلـم يرِم [6]

وقد أبدع ضـرار فى رثاء أبى جهل فى انتقاء اللـفظ المناسب للبكاء الهادئ ، والوقوف على هذه القافية الساكنة ،وكأنما تمثل اختناق قلبه وراء العبرة فى عينه ، التى لا تزال تنسجم ،حيث لم يـعرف النوم سبيلاً إلى عينيـه ، ولم لا فقد أودى سيد النادى، وأكرم القوم قتيلاً مرمىّ فى بئرٍ ،وهل يبكى على أحد بعد الرئيس ، أبى الحكم، الذى أتته المنايا يوم بدر، وقد أشجى لؤى بن غالب فقده وهلاكه .

ترى كسـر الخطى [7] فى نحر مـهره ... لدى بائن مـن لحـمـه بيـنهـا خِذم [8]
ومـا كـان ليث سـاكـن بطن بيـشـة ... لدى غلل يـجـرى ببطحـاء فى أجم
بأجـــرأ مـنه حين تخـــتـلف القـنا ... وتدعى تزال فى القمـاقمة [9] البهم [10]

إنه لم يهلك إلا بعد أن خـضب الدم مهره ،شـجعتـه رماح القوة ، ومـعقل الأسود فى بيشة ،لن تنتج أشجع من عمرو بن هشام ،ولا أجرأ منه حين تختلف القنا ، وتشتبك الأبطال ، ثم يتجه إلى قومه قائلاً :

فـلا تجـزعـوا آل المغيـرة واصـبـروا ... عليـه ومن يجـزع عليـه فلم يلم [11]
وجـــدوا فـإن الموت مكـرمـــة لكم ... ومـا بعـده فى آخـر العـيش من ندم

---

(١) الندى : المجلس .
(٢) الخوصاء : البئر الضيقة .
(٣) الوغد: الدنىء .
(٤) البرَم : البخل .
(٥) أشجعى : أحزن .
(٦) لم يرِم : لم يبرح .
(٧) الخطى: الرماح .
(٨) الخِذم : قِطع اللحم .
(٩) القماقمة : السادة الكرماء .
(١٠) البهم : الشجعان .
(١١) لم يلم : لم يأت بما يلام به .

وقد قلت إن الريح طيبة[1] لكم    وعز المقام غير شك لذى فهم[2]

فلا بد من الثأر لفقيدكم وعميدكم يا آل المغيرة ،وما خير العيش بعده ،ما لم تثأروا، وسوف تكون الريح والدولة لكم ، حتى ولو متم جميعاً فداءً له ، فهو فخر لكم ومكرمة.

ويتبارى الشعراء العرب من خارج مكة وقريش فى التعاطف معها ،والرثاء لأبطالها. فهذا شداد بن الأسود الليثى يقول :

تحيِّى بالسلامة أم بكر    وهل لى بعد قومى من سلام
فماذا بالقليب[3]، قليب بدرٍ    من القينات[4] والشرْب [5] الكرام
وماذا بالقليب، قليب بدر    من الشيزى[6] تكلل بالسنام[7]
وكم لى بالطوىٍّ [8] طوى بدرٍ    من الغايات والرُسُع [9] العظام
وكم لى بالطوىٍّ طوى بدر    من الحومات[10]،والنعم[11] المسام[12]
وأصحاب الكريم أبى علىٍّ    أخى الكأس الكريمة والندام
وإنك لو رأيت أبا عقيل    وأصحاب الثنية[13] من نعام[14]
إذاً لظللت من وجدٍ عليه    كأم السقب[15] حافلة المرام
يخبرنا الرسول لسوف نحيا    وكيف لقاء أصداء[16] وهام

قال ابن هشام: أنشدنى أبو عبيدة النحوى:

---

(١) إن الريح طيبة : تريد إن الظفر والنصر لكم . قال الله تعالى: ﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [ الأنفال:٤٦]. .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ذ /٣/٣٨ـ ٣٩. قال ابن هشام : وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها لضرار.
(٣) القليب : البئر .
(٤) القينات : الجوارى المغنيات .
(٥) الشرْب : جماعة القوم الذين يشربون .
(٦) الشيزى: جفان تصنع من خشب ، وإنما أراد أصحابها الذين يطعمون فيها .
(٧) السنام : لحم ظهر البعير .    (٨) الطوى : البئر .
(٩) الرُسع : العطايا .
(١٠) الحومات : جمع حومة وهى القطعة من الإبل .
(١١) النعم: الإبل .    (١٢) المسام : المرسل فى المرعى .
(١٣) الثنية :فرجة بين جبلين .    (١٤) نَعام : اسم موضع هنا.
(١٥) السقْب : ولد الناقة حين تضعه .    (١٦) الأصداء : بقية الميت فى قبره.

يخبرنا الرسول بأن سنحيا وكيف حياة أصداءٍ وهام[1]

لقد وقف شداد عند بئر بدر ، وجن جنونه لما رأى فيه . فهو لا يرى جثثاً منتنة، وجيفاً متناثرة ،إنما يراهم أحياء في مجالسهم مع أندادهم من القوم يعاقرون الخمرة . . ويراهم ، وقد مدوا موائدهم لإطعام الضيفان من اللحم والشحم . ويراهم ،ووراءهم قطعان الإبل والغنم،تتحدث عن يسارهم وثرائهم .ويراهم وهم ينفقون من العطايا العظيمة في كل حدب وصوب، إنه فقد صوابه ،ورفض أن يعترف بذبحهم في قليب بدر . إنهم هم أنفسهم الذين كانوا ملء العين والبصر، أمية بن خلف ، وزمعة بن الأسود ،ورفاقهم الكرام الأمجاد . إنهم هاهنا في العراء مجندلين، لقد فرك عيناه ، فإذا الأمر حق، وإذا الموت حق، فماذا تفيد المكابرة، فيملأ الدنيا عويلاً عليهم ، وهو يحس بفقدهم كما تحس الناقة بفقدان فصيلها .أيمكن أن يكون هؤلاء من الأحياء ؟ هيهات لقد سمعنا هذا من قبل ، إنها أساطير الأولين ،أن تحيا الموتى ،وليس منهم إلا الأصداء والهام ؟!

وإذا كان شداد بن الأسود الليثي ، ليس من أشهر الشعراء العرب ،فأمية بن أبي الصلت ،حين يذكر شعراء القرى العربية ،يبرز من أولهم في الطائف كما يقول صاحب الطبقات : ( وبالطائف شعر وليس بالكفر . . ومع ذلك كان فيهم أبو الصلت بن أبي ربيعة ، وابنه أمية بن أبي الصلت وهو أشعرهم . . . ) [2].

فها هو ينوح على أهل بدر .

قال ابن إسحاق : وقال أمية بن أبي الصلت برثي من أصيب من قريش يوم بدر :

ألاَّ بكيت على الكرام بني الكرام أولي الممادح
كبكا الحمام على فروع الأيك[3] في الغُصُن الجوانح[4]
يبكين حرَّى [5] مستكينات[6] يُرِحن مع الروائح

---

(١) الهام : جمع هامة وهي طائر تزعم العرب إنه يخرج من رأس القتيل .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣/ ٤١ ـ ٤٢ .
(٣) الأيك : الشجر الملتف .
(٤) الجوانح: الموائل.
(٥) حرَّى : يجدن حرارة في صدورهن .
(٦) مستكينات : خاضعات .

أمثالهُن الباكيات المثولات من النوائح
من يبكهم يبك على حُزنٍ ويصدُق كل مادح

إن صوت النوح يبرز من خلال هذه القافية وهذا الوزن ،والصوت المخنوق بالبكاء من الرجال ينبث بين هذه الأبيات ،وكل هذا البكاء ابتداءً ليحدثنا عن سبب بكائه فيما بعد :

ماذا ببدرٍ فالعقنقل(١) من مرازبة(٢) جحاجح(٣)
فمدافع البرقين(٤) فالحنَّان(٥) من طرف الأواشح (٦)
شُمطٍ (٧) وشُبانٍ بهاليل(٨) ومغاوير(٩) وحاوح(١٠)

وهذه مكة قد تغير بطنها ،واكفهر لونها بعد فقدان حماة عرينها : من جلساء الملوك، وأعلام القوم :

ألا ترون لما أرى ولقد أبان لكل لامح
أن قد تخبر بطن مكة فهى موحشة الأباطح
من كل بطريق (١١) نقيِّ اللون واضح
وعموص(١٢) أبواب الملوك،وجائب(١٣) للخرق(١٤) فاتح
من السراطمة(١٥) الخلاجمة(١٦) الملاوثة(١٧) المناجح(١٨)

---

(١) العقنقل: الكثيب من الرمل المنعقد .
(٢) المرازبة : الرؤساء واحدهم مرزبان وهى أعجمية.
(٣) الجحاجح : السادة .
(٤) مدافع البرقين: حيث يندفع السيل ، والبرقين موقع .
(٥) الحنَّان : كثيب الرمل . (٦) الأواشح : موضع .
(٧) الشمط: الذين خالطهم الشيب . (٨) البهاليل : السادة واحدهم بهلول .
(٩) المغاوير: الذين يكثرون الغارة واحدها مغوار .
(١٠) وحاوح : واحد وحواح وهو الحديد النفس . (١١) البطريق: رئيس الروم .
(١٢) الدعموص : دويبة تغوص فى الماء وأراد أنهم يكثرون الدخول على الملوك.
(١٣) الجائب: القاطع . (١٤) الخرق : الفلاة الواسعة .
(١٥) السراطمة: جمع سرطم وهو الواسع الحَلْق .
(١٦) الخلاجمة : جمع خلجم وهوالضخم الطويل . (١٧) الملاوثة : جمع ملواث وهو السيد.
(١٨) المناجحة : الناجحون فى سعيهم .

القـــائلـين الفـــاعلين الآمـــرين بـكل صـــالح
المطعـمين الشـحم فـوق الخبز شـحـمًا كـالأنافح[١]
نُقُل الجـفـــان مع الجِفـان إلى جِفـانٍ كـــالمناضح[٢]
ليست بأصغار[٣] لمن يعـفـو [٤] ولاَ رَح[٥] رحارح
للضيف ثم للضيف بعد الضـيف والبسط السلاطح[٦]
وهُب المئـين من المـئين إلـى المئـين من الـلواقـح[٧]
سوق المؤبل لـلمؤبل[٨] صادرات[٩] عن بـلادح[١٠]
لكـرامـــهـم فـــوق الكرام مـــزية دون الـرواجح
كتثاقل الأرطال بالقسطاس[١١] فى الأيدى الموائح[١٢]

وحيث إن الكرم والشجـاعة هو أغلى بضاعة يعتز بها الـعرب، فقد وقف عند كرمهم، وكأنما يقدم عرضاً سينمائيـا شاملاً لا صورة شعرية . فهم قد اكتمل خلْقُهم بجمـال أجسامهـم وضخامتـها . وهم الناجحـون فى كل ما يسعـون إليه ، الذين ينفذون قـولهم فعلاً وخُلُقاً . فـهم المطعمون الشحم والخبز ، وجفانُهم المـتعددة التى تتنقل كأنما هو أحواض سقى الإبل لسعتها ، وليست كتلك الجفان الصغيرة أو الواسعة بغير عمق، والضيفان يغدون ويروحون عندهم. فهم فى شغل دائم بهم ، ولا يكتفون بقرى الضيف فقط ، إنما يهبون المئين من المئين من الإبل لقاصديهم ، فهم كرام الكرام ، ووزنهم يرجح على كل كريم حين توضع موازين الأجواد .

ثم ينتقل ليهاجم المسلمين الذين حاربوهم قائلاً :

---

(١) الأنافح : جمع أنفحة وشبَّه به الشحم .
(٢) المناضح : الحياض وشبَّه الجفان بها لسعتها .
(٣) أصفار : جمع صفر وهو الخالى من الآنية . (٤) يعفو : يقصد طالباً المعروف .
(٥) لارح رحارح : هى الجفان الواسعة من غير عمق .
(٦) السلاطح : الطوال العراض . (٧) اللواقح : الإبل الحوامل .
(٨) المؤبل : الإبل الكثيرة . (٩) صادرات : راجعات .
(١٠) بلادح : مواضع . (١١) القسطاس : الميزان الكبير .
(١٢) الموائح : التى تماوح بينها لثقل من ترفعه .

خذلتهم فئة وهم يحمون عورات الفضائح
الضاربين [1] التقدمية بالمهندة الصفائح
ولقد عنانى[2] صوتهم من بين مستنق وصائح

إنه يبثُّ كل حقده ، ويطلب الإغارة على المسلمين ليستأصلوا شأفتهم :

لله در بنى على أيم[3] منهم وناكح
إن لم يغيروا غارة شعواء[4] تجحر[5] كل نابح
بالمقربات[6] المبعدات[7] الطامحات[8] مع الطوامح
مُرداً على جردٍ [9] إلى أسد مكالبة[10] كوالح[11]
ويلاق قِرن قِرنه مشى المصافح للمصافح[12]
بزهاءألف ثم بين ذى بدن[13] ورامح[14]

قال ابن هشام : تركنا منهما بيتين نال فيهما من أصحاب رسول اللّه ﷺ.

لقد غذَّى حقده بهجاء المسلمين وهو يعلم أن الرسول حق،ولكن الشرف والسمعة هما اللذان حالا دون دخوله فى الإسلام ،إذ (قال لأبى سفيان : إنى لأجد فى الكتب صفة نبى يبعث فى بلادنا ، فكنت أظن أنى هو، وكنت أتحدث بذلك ، ثم ظهر لى أنه من بنى عبد مناف ، فنظرت فلم أجد فيهم من هو متصف بأخلاقه إلا عتبة بن ربيعة، إلا أنه قد جاوز الأربعين ولم يوحَ إليه ، فعرفت أنه غيره . قال أبو سفيان : فلما بُعث محمد ﷺ .قلت لأمية ؛ فقال أمية : أما إنه حق فاتبعه . فقلتُ له : فأنت ما يمنعك ! قال : الحياء من نساء ثقيف ،إنى كنت

(١) الضاربين التقدمية : يريد مقدَّم الجيش . (٢) عنانى : أحزننى وشقَّ على .
(٣) الأيم : الذى لم يتزوج رجلاً كان أو امرأة . (٤) شعواء : متفرقة .
(٥) تجحر : تلجئه إلى جحره .
(٦) المقربات : الخيل التى تقرب من البيوت لكرمها .
(٧) المبعدات : الخيل التى تبعد فى جرى أو مسافة غزوها .
(٨) الطامحات : التى ترفع رؤوسها وتنظر . (٩) الجرد : الخيل العتاق .
(١٠) المكالبة : الذين بهم شبه الكلب وهو السعار ويعنى جدَّتهم فى الحرب .
(١١) الكوالح : العوابس . (١٢) الزهاء : تقدير العدد.
(١٣) البدَن : الدروع القصيرة .
(١٤) الرامح : حامل الرمح .

أُخْبرُ أنى هو ،ثم أصير تابعاً لفتىً من بنى عبد مناف ) (١) .إنه مثل أحبار اليهود والنصارى الذين كانوا يستفتحون بمحمد ﷺ على الأوس والخزرج قائلين لهم : أظل زمان بنى تتبعه ، نقتلكم به قتل عاد وإرم .ولما جاء بالحق كفروا به (٢) .

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩)﴾ [البقرة ] .

فهو يتغذى بأن يرى مصرع المسلمين على يدى قريش،حيث ينزل القرن للقرن، وتُطعن الخيل بالقنا ،وتبلغ القذارة بأمية أن يقول : وتجحر كل نابح ، هذا غير البيتين اللذين حجزهما ابن هشام عنا لإقذاعه فى الهجاء (٣).

وها هو يخص بنى أسدٍ برثائه وبكائه ،تحس باضطرابه واهتزازه فيها .

يقول(٤) :

عين بكّى بالمسبلات(٥) أبا الحارث لا تذخرى(٦) على زمعة
وعقيل بن أسودٍ أسد البأس ليوم الهياج(٧) والدقعة(٨)
فعلى مثل هُلكهم خوت الجوزاء(٩) لا خانة(١٠) ولا خدعة(١١)
وهم الأسرة الوسيطة(١٢) من كعب وفيهم كذروة(١٣) القمعة(١٤)
أنبتوا من معاشر شَعَر الرأس وهم ألحقوهم المنعة
فبنو عمهم إذا حضر البأس عليهم أكبادهم وجعة

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ذ/ ٣/ ٤٢ ـ ٤٥ .

(٢) السيرة الحلبية لابن برهان الدين الحلبى ٣٠١/١ .

(٣) وقد روى أبو ذر الخشنى نص حديث ( ضعيف ) عن أبى هريرة قال: رخص رسول الله ﷺ فى شعر الجاهلية إلا قصيدة أمية بن أبى الصلت فى أهل بدر وقصيدة الأعشى ) وقد رواه الأموى فى مغازيه ، ورواه البزار وأبو يعلى .انظر : هامش السيرة المذكورة ٥/ ٤٥ ـ ٤٧ .

(٤) روى ابن هشام عن أبى محرز خلف الأحمر وغيره أبيات أمية بغير رواية ابن إسحاق ،وقد أثبتنا روايته .

(٥) المسبلات :الدموع السائلة .

(٦) لا تذخرى : لا تبخلى .

(٧) الهياج : التحرك فى الحرب .

(٨) الدقعة : من الدقعات وهو التراب ،ومن رواه بالدفعة فهنا جمع دافع وهو الفقير .

(٩) الجوزاء : اسم نجم .

(١٠) خانة : ج . خائن .

(١١) خدعة جمع خادع .

(١٢) الوسطية : الشريفة .

(١٣) الذروة : أعلى سنام البعير .

(١٤) القمعة : السنام .

وهم المطعمون إن قحط القطر وحالت فلا ترى قزعة[1]

وقد خُصَّ بنو أسد بالرثاء من أمية بن أبى الصلت فى الوقت الذى خصّهم حسان بهجائه. فقد كان لهم صولة ودولة فى حرب الإسلام، وهم المعدون ليوم الهياج والحرب، ويوم ثوران الغبار فى هذا الهياج وإن الجواز لتسقط بكاءً عليهم لأصالتهم ، فلا خونة ولا مخادعون هم . وكيف يكونون كذلك وهم الأسرة الوسيطة من كعب ، بل هم ذروة السنام فى قومهم ، فهم يحمون ذمار قومهم ، وهم ملجؤهم إذا أقطحت الأرض ولم تر فى السماء قزعة ، وبنو عمهم تتوجع أكبادهم عليهم لما نزل بهم من فراقهم وقتلهم [2].

**معاوية بن زهير :**

المازنى حليف بنى مخزوم . يقول ابن إسحاق فيه :

وقال أبو أسامة معاوية بن زهير بن قيس بن . . . بن جشم بن معاوية حليف بنى مخزوم .

قال ابن هشام: وكان مشركاً ، وكان مر بهبيرة بن أبى وهب ، وهم منهزمون يوم بدر ، وقد أعيا هبيرة ، فقام فألقى عنه درعه ، وحمله فمضى به .

قال ابن هشام: وهذه أصح أشعار أهل بدر:

ولما أن رأيت القوم خفوا ... وقد زالت نعامتهم[3] لنفر

وأن تركت سراة القوم[4] صرعى ... كأن خبارهم أذباح عِتر[5]

وكانت جُمة [6] واقت حِماما[7] ... ولقِّينا المنايا يوم بدر

نُصَدُّ عن الطريق وأدركونا ... كأن زُهاءهم[8] غطيان[9] بحر

---

(١) القزعة : السحابة .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٢ / ٤٩ .

(٣) زالت نعامتهم لنفر : تفرقوا وهربوا.

(٤) سراة القوم : خيارهم .

(٥) العتر : ما كان يذبح للأصنام فى الجاهلية .

(٦) جُمة : من رواه بالجيم فالجماعة من الناس ، ومن رواه حُمة فالقرابة .

(٧) الحمام : الموت .

(٨) الزهاء : تقدير العدد .

(٩) غطيان بحر : الماء الكثير الذى يغطى ما يكون فيه .

وقــال القـائـلون : من ابن قــيس فـقـلت أبو أسـامــة غـيـر فــخـر
أنا الجـــشـمى كــيـمـــا تعرفــونى أبيّن نـــسـبــــتى نـقــــراً بنقــــر[1]
فـإن تك فى الغـلاصم [2] من قريش فـــإنــى من مـــعـــــاوية بن بــكر
فـــأبـلغ مـــالكـاً لَمّا غـــشـــينا وعندك ـ مـال ـ [3] إن نبّأت خـبرى

إنه شعر جزل قوى .وأقوى ما فيه اعترافه الصريح بالهزيمة النكراء التى حلّت بقريش وحلفائها ،ولأول مـرة نشن هذا الاعتراف شعراً ، فقـد زالت نعامة القوم فارين مذعـورين ، بينما تركوا سراتهم صرعى فى بئـر بدر ، وكأنما قد قُدِّم هؤلاء الخيار قرابين للأصنام والآلهة،فقد لقت هذه الثلة الهول والموت من أعدائها،وحين حاولت الفرار تلقتهم أمـواج المسلمين تصدهم عن طريق مكة تأخذهم أسرى كأنما المسلمون أمواج بحرٍ يغمر الساحة .

لقد شهد المشركون فيمـا شهدوا الملائكة . أما المسلمون فلم يشهدوهم ، وما أشبـه وصف أبى أسامة بوصف أبى سفـيان بن الحارث ، حين وصف لعـمه أبى لهب ما لقى من المسلمين .

( واللّه مـا هو إلا أن لقينا القـوم فمنحناهم أكـتافنا يقـتلوننا كيـف شاؤوا ، ويأسروننا كيف شاؤوا ، وايم اللّه مع ذلك ما لمت الناس ، لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض ، واللّه ما تليق شيئاً ) . فكذلك أبو أسامة يتحدث عن أمـواج البحـر من المسلمين الذين أردوهم صرعى أو سـاقوهم أسـرى ،وهو الذى لا ينسى أن يفخـر بنسبـته لقيس ثم لجـشم ،وهو ابنها ولا فخـر ،وإن كان القرشيون فى الذؤابة من مضر ، فأنا أنتمى إلى معاوية بن بكر .

ثم ينتقل بنا الحديث عن إنقاذه هبيرة بن أبى وهب المخزومى فيقول :

وأبـلـــغ إن بـلـــغـت المـــرء عـنـــا هبــــيـــــرة وهو ذو علـم وقــــدر
بـأنى إذ دُعــــــــــيت إلـى أُفَيْدٍ[4] كــــررت ولـم يضق بالكـرِّ صــدرى

---

(١) نقراً بنقر : من رواه بالقاف فمعناه التنقير والبحث عن الشيء ،ومن رواه بالفاء فهو الجماعة .
(٢) الغلاصم : أى الأعالى من النسب وأصل الغلصمة الحلقوم الذى يجرى عليه الطعام والشراب .
(٣) مال :أراد يا مالك فرخّم ،وحذف حرف النداء من أوله .
(٤) أُفيدٍ : قال أبو ذر : هو اسم رجل وقال السهيلى : هو تصـغير وفد وهم المتقدمون من كل شيء من ناس أو خيل أو إبل ، وقيل : اسم مكان .

غــشــيّة لا يُكرُّ على مــضــافٍ[1] ولا ذى نعـــمـــة منهم وصـــهـــرى
فـــدونــكم بــنى لأى أخـــاكم ودونك مـــالكاً يـا أم عـــمـــرو
فلولا مـــشـــهـــدى قـــامت عليـــه موقـفةٌ [2] القـــوائم أم أجـــرى [3]
دفـــوع للقُبـــور بمنكبـــيـــهـــا كـأن بوجـهـهـا تحـميم[4] قـــدر
فـــأقـس بالذى قـــد كـــان ربى وأنصـاب لدى الجـمرات مـعـزى [5]
لـــسـوف ترون مـا حـــسبى إذا مـــا تبـــــدَّلت الجـلـود جـلود نمـر
فـما إن خـادر[6] من أُســـد ترْج[7] مُدلٌّ عنبسُ [8] فى الفيل[9] مجرى[10]
فقد أحمى[11] الأباءة[12] من كُلاف[13] فـــمـــا يـدنو له أحـــد بـنقـــر
بـخَلٍ [14] تعـجزُ الحـلفـاء [15] عنـه يواثب كل هـجـهـجـة [16] وزجـر
بأوشك [17] سـورة [18] منى إذا مـا حبوت [19] له بقـرقـرة [20] وهـدر

وها هو يتحـدث عن إنقاذه هبـيرة بن أبى وهب حين ألقى عنه درعـه وحمله فمـضى به ولولا فعله ذاك لكان طعـمة للضبـاع والأسود ،هذه الضبـاع التى تجر أبناءها وراءها ،فتنبش القبور لتنال طعامها من جثث الموتى . وها هو يقسم بالله ، وبالأنصاب والآلهة . إنه فى حمايته لهبيرة لا يقل عن حماية الأسد لعرينه وأولاده حوله . فمـا يجرؤ أحد أن يروم حماه بسوء ،حـتى الطريق التى يخطها فى الرمل تبقى منيعة لا يقربها أحد ،ويهاجم كل عدو يتربص به . هذا الأسد الهصور ليس بحميته وسطوته وسورته إلا أقل منى يوم أنقض عليه بسهامى ذات الحد المرهف ، وكأنما هى حجم جمر .

---

(1) المضاف : المضيَّق عليه الملجأ .
(2) الموقفة : الضبع .
(3) أجرى: جمع جرو .
(4) التحميم : السواد .
(5) معجز: جمع أمعز وهو الأحمر .
(6) الخادر : الأسد فى خدره .
(7) ترْج : موضع تنسب الأسود إليه .
(8) عنبس : عابس الوجه .
(9) الفيل :الشجر الملتف .
(10) مجر :له جراء .
(11) أحمى : جعلها حمى لا تقرب .
(12) الأباءة : أجمة الأسد .
(13) كلاف : موضع .
(14) الخادر : الطريق فى الرمل .
(15) الحلفاء: الأصدقاء .
(16) الهجهجة : زجر السبع .
(17) أوشك : أسرع .
(18) السورة : الحدة والوثبة .
(19) حبوت : قربت .
(20) القرقرة : من أصوات الإبل الفحول .

وأكلف[1] مخبأ [2] من جلد ثور | وصفراء البراية [3] ذات أزر
وأبيض[4] كالغدير ثوى عليه | عمير[5] بالمداوِس[6] نصف شهر
أرفّل[7] فى حمائله وأمشى | كمشية خادر ليث سبطر[8]

وليست سهامى معى فقط ، بل ترسى كذلك ، وقوسى وسيفى الذى عكف عمير على صقله نصف شهر حتى صار كحد النار .

**هند بنت عتبة :**

التى أصبحت نائحة العرب ، وفاقت الخنساء فى بكائها على قتلاها ، وتذكر الروايات التاريخية عنها : . . لما كانت وقعة بدر ،وقتل فيها من مشركى قريش عتبة وشيبة ابنا ربيعة ،والوليد بن عتبة بن ربيعة ، أقبلت هند بنت عتبة ترثى أباها وعمها وأخاها ، وتقول فيهم الأشعار ،وبلغها ما كانت تفعل الخنساء فى الموسم ، وتسويمها هودجها ،ومعاظمتها العرب بمصيبتها ، فقالت هند : أنا أعظم من الخنساء مصيبة . وأمرت بهودجها فسُوِّم براية ،وشهدت الموسم بعكاظ ،وجعلت تسأل عن الخنساء ، فدُلت عليها . فقالت : اقرنوا جملى بجملها .فلما نظرت الخنساء إليها قالت : من أنت يا أخيَّة ؟ فقالت : أنا هند بنت عتبة بن ربيعة ،وأنا أعظم العرب مصيبة ،وقد بلغنى أنك تعاظمين العرب بمصيبتك ، ففيما تعاظمينهم ؟ قالت الخنساء: فى عمرو بن الشريد وصخر ومعاوية ابنى عمرو ، ففيم تعاظمين أنت ؟ قالت :بأبى عتبة بن ربيعة ،وعمى شيبة بن ربيعة ،وأخى الوليد بن عتبة . قالت : أوَ سواء هم عندك يا أختِ ؟ ثم أنشأت تقول :

أبكى أبى عمراً بعين غزيرة | قليل إذا نام العيون هجودها
وصنوَىَّ [9] لا أنسى معاوية الذى | له من سراة الحرمين وفُودها
وصخراً ومن ذا مثل صخر إذا غدا | بساهمة الآطال قُبٍّ يقودها
فذلك يا هند الرزية فاعلمى | ونيران حرب حين شُبَّ وقودها

---

(1) الأكلف : الترس .
(2) المخبأ : فيه انحناء .
(3) صفراء البراية : يعنى قوساً .
(4) أبيض كالغدير : السيف .
(5) عمير : اسم صاقل السيوف .
(6) المدارس : أداة الصقل .
(7) أرفل : أطول .
(8) سبَطر : طويل ممتد .
(9) الصنو : المثيل . وأرادت هنا أخويها صخراً ومعاوية .

فقالت هند مجيبة لها :

أبكِّي عـمـيـد الأبطحين كليـهـمـا وحـامـيـهـمـا من كل بـاغ يريدها
أبى عـتبـة الخيـرات ويحك فـاعلمى وشـيـبـة والحـامى الحـقـيق وليـدها
أولئك أهـل المجـد من آل غـالبٍ وفى العـز منهـا حين تُثنى عـديدها

وها هى تبكى أباها يوم بدر فتقول :

أعـينـىَّ جـوادا بـدمع سـرب[1] على خـيـر خندف [2] لـم ينـقلـب
تـداعـى لـه رهـطـه غـدوة بـنـو هـاشـم وبـنـو المـطـلـب
يذيـقـونـه حـد أسـيـافـهـم يُعـلّونـه [3] بعـد مـا قـد عطب
يجـرونه وعـفـيـر[4] التـراب علـى وجـهـه عـارياً قـد سُلِب
وكـان لنـا جـبـلاً راسـيـاً جـمـيل المراة [5] كـثـيـر العـشب
وأمـا بُرِّى [6] فـلـم أعـنـه فـأوتى من خـيـر مـا يحـتـسب [7]

فقد استطاعت بموهبـتها الشعرية أن تصف لنا وصفـاً دقيقاً مقتل أبيهـا وعمها وأخيـها، فتـشخص لنا المشهـد كأنما نعاينه، حـيث أذاقه بنو عمـه بنو هاشم وبنو المطلب الموت بأسيافـهم ، ونراها هنا ـ على رغم عزتها وعنفوانهـا ـ تعترف بعظم المصيبة التى حلت بأبيها من بنى عمه ،ثم ترينا كيف كانوا يجرونه ليلقوه فى قليب بدر معفراً بالتراب،هذا الوجه المعفر الملطخ بالدم،هو نفسه الذى كان كهف قومه، وملاذهم ، صبوح الوجه، غيداقاً معطاء لقومه ، كما يعطى الماء العشب .

ثم تتمالك فى أبيات أخرى قائلة :

يريـب علينـا دهرنا فـيـسـوءنا ويأبى فـمـا يأتى بـشىء يغـاليـه
أبعـد قـتـيـل من لؤى بن غـالب يراع امـرؤ إن مـات أو مـات

---

(١) السرب: السائل.
(٢) خندف : قبيلة .
(٣) يُعلّونه : يكررون عليه .
(٤) العفر والعفير : التراب الذى على وجه الأرض .
(٥) جميل المراة : أرادت المرآة فنقلت حركة الهمزة ثم حذفتها . ومعناه : جميل المنظر .
(٦) بُرِّى : اسم رجل ،أو لقب له .
(٧) يحتسب : أى ما يكفيه .

ألا رب يوم قـــد رُزئت[1] مـرزأ [2] تروح وتغـــدو بالجـــزيل مـــواهبـــه
فـأبلغ أبـا سـفـيـان عنـى مـألكاً [3] فـإن ألقـــه يومـاً فـســوف أعـــاتبـه
فقد كان حرب[4] يسعر[5] الحرب إنه لكل امرئ فى الناس مـولى يطالبه[6]

قال ابن هشام : وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها لهند .

إنها تعلن للدنيا مـصيبتها ،وكيف أناخ عـليها الدهر بكلكله . وهل يُبكى على فقيد بعد قتل عميد لؤى بن غالب عتـبة بن ربيعة ؟ وهل من مصيبة تذكر بعد هذه المصيبـة؟ وهل ينسى الناس فضلك وجودك ؟ فكم سـترت لقومك من عورات ؟! وكم أغثت من لهفان، وأطعمت من بائس؟!

وتضيف مـعنىً جديداً ،تعـتب فيـه على زوجهـا أبى سفيـان، الذى لم يكن كأبيه، فيشن غارة شعواء على محمد وأصـحابه ،فيثأر لأصحاب القليب ،وعتابها مر لهذا الزعيم الـذى ترك عتبة عمه ، ولم يمت دونه ، وها هى بحـاجة إلى شعر غنائى ، تناوله الركبان بالبكاء فتقول :

لـلّه عـــــــيـنـــا مــن رأى هلـكاً كــــهلـك رجـــالـيـــه
يــا رب بــاك لــى غـــــــداً فى الـنـائبــــات[7] وباكـــيـــة
كـم غــــــادروا يوم الـقـلـيــ ـــب غـــــداة تلك الـواعـــيــــة[8]
مـن كل غـــــيـث فى الـسـنيــ ـــن إذا الكـواكـب خـــــاويـة[9]
قـــد كنـت أحــــذر مــــا أرى فـــأنا الغــــداة مـــوامـيــــة[10]
يـا رب قـــــائلـة غـــــداً يـا ويـح أم مــــعــــــاويـة

قال ابن هشام : وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها لهند.

---

(١) رزئت : فقدت .
(٢) المرزّأ : الكريم الذى يرزؤه القاصدون والأضياف. أى ينقصون من ماله .
(٣) المألك : جمع مألكة وهى الرسالة .
(٤) حرب : هنا : اسم والد أبى سفيان وهو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس.
(٥) يسعر : يهيج .
(٦) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ٥٦ .
(٧) النائبات : نوائب الدهر.
(٨) الواعية : الصراخ ،والوعى : الصوت .
(٩) الكواكب خاوية : أى تسقط من مغربها عند الفجر ،ولا يكون لها أثر ولا مطر .
(١٠) موامية : مختلطة العقل .

إنها معانٍ بسيطة ، لكنها تتناسب مع وجيب القلوب، ونزيف الدموع، وبكاء العيون، وتتناسب مع النادبات اللاتى يندبن قتلاهن . . . وهى لا تنسى دائماً أن تتحدث عن كرم عتبة وجوده ، وعندما يسقط الكريم يشعر المحرومون بفقده ، ويحس البائسون بانتهاء نواله .

وها هى مقطوعة رثائية أخرى ، تطلقها هند :

يا عين بكِّى عتُبة ... شيخاً شديد الرقبة
يطعم يوم المسغبة[1] ... يدفع يوم المغلبة
إنى عليه حرِبة[2] ... ملهوفة[3] مستلبة[4]
لنهبطنّ يثربه ... بغارة منشعبة[5]
فيها الخيول مقربة[6] ... كلُّ جوادٍ سلهبة[7][8]

فعتبة عندها حامى الذمار ، ومطعم الضيفان، ومن أجله لا بد من غارة شعواء على يثرب ، بكل جواد طويل سريع يخرب يثرب على رأس ساكنيها .

**صفية بنت مسافر :**

وهى أموية عبشمية ثانية ، لكنها لم تكن فى رزئها مثل هند ، فهند أصيبت كما قالت بأبيها وعمها وأخيها وبكرها، أما صفية فهؤلاء عمداء قومها ، وسادتهم ، فراحت ترثيهم قائلة :

يا من لعين قذاها عائر[9] الرمد ... حدَّ النهارِ وقَرن الشمس[10] لم يَقِد[11]
أُخبرت أن سراة[12] الأكرمين معاً ... قد أحرزتهم مناياهم إلى أمد
وفرَّ بالقوم أصحاب الركاب ولم ... تعطف غداة إذ أم على ولد

(1) المسغبة : الجوع والشدة .
(2) حرِبة : حزينة غضبى .
(3) ملهوفة : حزينة .
(4) مستلبة : مأخوذة العقل.
(5) بغارة منشعبة : متفرقة ، ومن رواها بالثاء فمعناه سائلة بسرعة .
(6) المقرب من الخيل : الذى يقرب من البيوت لكرمه .
(7) السلهبة : الفرس الطويل .
(8) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣/ ٥٨ ـ ٥٩ .
(9) العاثر : وجع العين .
(10) قرن الشمس : أعلاها .
(11) لم يقد : لم يتبين ضوؤه بعد .
(12) سراة القوم : خيارهم .

قومى صفىَّ ولا تنس قرابتهم — وإن بكيت فما تبكين من بُعُد
كانوا سقوب[1] سماء البيت فانقصفت[2] — فأصبح السمك[3] منها غير ذى عمد[4]

قال ابن هشام : أنشدنى بيتها :كانوا سقوب . . بعض أهل العلم بالشعر .

والملاحظ أن حرارة العاطفة عند صفية هو أدنى منها عند هند ، لما ذكرنا من مستوى القرابة ، وأن مشاركة صفية بنت مسافر بن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس ، هى أدنى إلى المشاركة الوجدانية منها إلى النائحة الثكلى،فهى تصف لنا هول الحرب التى أودت بالقتلى ،وفر الآخرون ، فهل تنام صفية دون أن يؤرقها هذا الحدث الجلل ؟ وكأنما السماء انتقضت عمدها ، فانهدت ،وسقطت كسفاً لهول المصيبة . وتشارك فى مقطوعة ثانية ، وكأنما هى نياحة جديدة على طريقة هند قبلها :

ألا من لعين للتبكـ — ى دمعها قان[5]
كغربى دالج[6] يسقى — خلال الغيث[7] الدّان[8]
وما ليث غريف[9] — ذو أظافير وأسنان
أبو شبلين وثَّابٌ — شديد البطش غرثان[10]
كحبى إذا تولو — وجوه القوم ألوان
وبالكف حسام صار — م أبيض ذكران
وأنت الطاعن النجلا — ء [11] منها مزبد[12] آن [13][14]

فهى تبكى دماً فلا يفنى دمعها كأنما هو دلو عظيمة ،ولم لا تبكى على البطل العظيم والأسد الهصور الذى يطاعن فى الهيجاء ،ويفتك بخصومه ،وها هو الآن قد لقى حتفه .

**قتيلة بنت الحارث :**

وهى أخت النضر بن الحارث كبير مجرمى الحرب ، والذى قتله رسول الله ﷺ صبرا على طريق المدينة ، فها هى أخت قتيلة تبكيه:

(1) السقوب: بالباء عمد الخباء التى يقوم عليها . (2) انقصفت : انكسرت .
(3) السمك : العالى . (4) السيرة النبوية لابن هشام ذ/ 3 / 60 .
(5) دمعها قان : من رواه بالقاف فهو شديد الحمرة أى أن دمعها خالط الدم .
(6) كغربى دالج : الغرب: دلو عظيمة .والدالج : الذى يمشى بدلوه بين البئر والحوض .
(7) الغيث : الكثير الماء . (8) الدانى : القريب.
(9) الغريف : موضع الأسد وهو الأجمة . (10) غرثان : جائع .
(11) النجلاء : الواسعة . (12) مزبد : دم له زبد .
(13) آن : حان . (14) السيرة النبوية لابن هشام ذ /3/ 60 .

يا راكـــبـــا إن الأثـيل[1] مـظنـة     من صـبـح خـامـسـة وأنـت مـوفق

أبلـغ بهــا مــيْتـــاً بـأن تحــيّة     مـا إن تزال بها النجـائب[2] تخفق[3]

منى إليك وعــبـرة مـسـفــوحـة[4]     جادت بواكـفها[5] وأخـــرى تخـنق

هل يســمــعنِّى النضـــر إن ناديتـــه     أم كــيف يـســمع مـيت لا يـنطق

لعل قتيلـة هذه أشهر الشاعرات ، فـقد استطاعت أن تجلى مشـاعرها بصورة قصصية تمثيلية شدتنا فيهـا إلى هذه الصحراء ،التى تخب فيها الجمال ،وقد حملت الركب تحية إلى أعز من فى دنياه أخيها النضر بن الحارث ، وبللت التحية بالدموع المنهمرة،والمنخنقة،لأنها تعلم أن النضر ميت، فكيف يسمع وينطق ويرد التحية ؟! وحين هيجت هذه المشاعر ،مـضت بصورة تختلف تماماً عن سابقاتهـا تمدح محمد ابن عبد اللّه سيد بنى هاشم وتعاتبه لما أنزل بأخيها من الموت وبها من الفاجعة .

أمـحـمـد يـا خـيـر ضنء[6] كـريمة     فى قـومهـا والفحل فـحل معـرق[7]

مــا كــان ضـــرك لو مننـت وربما     من الـفـــتـى وهو المغـــيظ المحـنق

إن كنت قـــابل فـديـة فلينفـــقن     بأعـــز مــــا يغلـو به مــــا ينـفق

فـالنـضـر أقـرب من أســرت قـرابة     وأحــقــهم إن كــان عــتق يعــتق

ظلت ســيـوف بنى أبيـه تـنوشـه[8]     لـلّه أرحـــــام هنـاك تشـــــقـق

صـبـــراً يقـاد إلى المنيــة مـتـعـــبـاً     رسف[9] المقـيد وهـو عان مـوثق[10]

قال ابن هشـام : فيقـال واللّه أعلم : إن رسول اللّه ﷺ لما بلغه هذا الشـعر قال: «لو بلغنى هذا قبل قتله لمننت عليه »[11].

وسهولة الشـعر وجزالته لا تدع حاجـة لشرحه ، فالحـوشى من الألفاظ خال منه، وهو ينبض بالعطفة الحية تعظيماً لمحمد ،واعـترافاً بسيادته ،وعتباً عليه إن لم يمن على النضر الذى قتل بأسياف بنى أبيه،فقطعوا أرحامهم بعد أن أوثقوه رباطاً .

(١) الأثيل : تصغير الأثل وهو موضع .
(٢) النجائب : الإبل الكرام .
(٣) تخفق :تسرع .
(٤) مسفوحة : جارية .
(٥) الواكف : السائل .
(٦) الضنء : الأصل .
(٧) المعرق : الكريم .
(٨) تنوشه : تتناوبه .
(٩) الرسف: المشى الثقيل كمشى المقيد .
(١٠) فى رواية : أنها قتيلة بنت النضر بن الحارث أى ابنته .
(١١) قال المحقق فيه : رواه ابن إسحاق معلقاً .ورواه الواقدى فيما عزاه إلـيه الحافظ فى الإصابة .ورواه الزبير ابن بكار فيما عزاه إليه الحافظ فى الإصابة . فيكون الحديث ضـعيفاً .وخاصة أن الزبير قد غمز من الأبيات وقال: إنها مصنوعة .

# الباب الثالث

# الشعر فى غزوة أحد



# الفصل الأول

## الشعر بين بدر وأحد

**مقتل عصماء بنت مروان :**

يذكر ابن إسحاق بعد إسلام سعد بن معاذ قوله :

( فوالله ما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلمًا أو مسلمة،ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة ، فأقام عنده يدعو إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون إلا ما كان من دار بنى أمية بن زيد ، وخطمة ووائل وواقف ، وتلك أوس الله وهم الأوس بن حارثة ، وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت ، وكان شاعراً لهم قائدا يستمعون منه ويطيعونه ، فوقف بهم عن الإسلام ، فلم يزل على ذلك حتى هاجر رسول الله ﷺ ، ومضى بدر وأحد والخندق . . ) [1] .

وعصماء بنت مروان هى : من بنى أمية بن زيد . . وكانت تحت رجل من بنى خطمة ، ويقال له : يزيد بن زيد ، فقالت تعيب الإسلام وأهله :

| | |
|---|---|
| باست [2] بنى مالك والنَّبيت | وعوف وباست [3] بنى الخزرج |
| أطعتم أتاوىَّ [4] من غيركم | فلا من مرادٍ ولا مذحِجِ [5] |
| تُرجُّونه بعد قتل الرؤوس [6] | كما يُرتجى مرَقُ المنضَجِ |
| ألا أَنِفٌ [7] يبتغى غِرة [8] | فيقطعُ من أمل المرتجى |

قال : فأجابها حسان بن ثابت :

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٢ / ٩١ .

(٢) رواية الواقدى : فباست وهى أصح من حيث الوزن .

(٣) الاست : الدبر .

(٤) الأتاوى : الغريب .

(٥) لا من مراد ولا من مذحج : قبيلتان من اليمن .

(٦) قتل الرؤوس : قتل أشراف القوم .

(٧) أنف الأنف : الذى يتكبر عن الشىء ويكبر نفسه عنه ، وهنا بمعنى الأبى الشجاع .

(٨) غرة : غفلة .

بنـــو وائــل وبـنــو واقـف | وخطـمــة دون بـنى الخـــزرج
متى ما دعت سفهها ويحها | بِعَولَتِها [1] والمـنـايـا تجى
فهزت فتىّ ماجداً عِرْقه | كــريم المداخل والمخرج
فضرجها [2] من نجيع [3] الدما | وبعد الـهدو [4] فلم يَحرَج [5] [6]

وقال رسول الله ﷺ حين بلغه ذلك : ألا آخذ لى من ابنة مروان ؟

فسمع ذلك من قـول رسول الله ﷺ عميـر بن عدى الخطمى ، وهو عنده ، فلما أمسى من تلك الليلة سرى عليها فى بيتها فقتلها ، ثم أصبح مع رسول الله ﷺ فقـال : يا رسول الله ، إنى قد قـتلتهـا ، فقال : « نصـرت الله ورسوله يا عمير ؟ » فقال : هل علىَّ شىء فى شأنها يا رسول الله ؟ فقال : « لا ينتطح فيها عنزان »[7] .

لقد كان يمكن أن تبـقى هذه الحادثة مغمورة ، لولا أن ابنة مـروان شاعرة ، وسخـرّت شعـرها فى حرب الإسـلام وأهله ، وشتم رسـول الله ﷺ ، وراحت تعبئ قـومها من الأوس ، وتعبئ الخـزرج ،وتعيب عليهم بأقذع الشـتم أن أطاعوا محمـداً الغريب النائى عنهم ، ولا يمت لهم بقراية قريبة ولا بعـيدة ، فلا هو من مراد ولا مذحج ، وليس من فرع اليمن ولا قحطان كله ، وهو الذى قتل رؤوس قومه بكم ،وتُرجُّون به الخير بعد ذلك ، هلا قام رجل أبى أنف يغار على قومه ، فيقتله غيلة ، ويقطع دابره .

وما إن وصلت حسـان حتى أرسل رسالة تهديد مرعـبة رداً على تلك الرسالة الوقحـة، يخاطب قومـها الذين صبروا على سـفهـهـا بالنيل من محمـد رسول الله ﷺ، أمـا تتحـرك النخـوة والمروءة فى رجل من بنى خطمـة أو وائل أو واقف ، فيثأر لرسول الله ﷺ منها .

(1) بعولتها : بارتفاع صوتها من العويل .
(2) ضرجها : لطخها .
(3) نجيع : كثير .
(4) بعد الهدو : بعد ساعة من الليل .
(5) لم يحرج : لم يأثم .
(6) وزاد الواقدى بيتًا آخر فى نهاية الأبيات المذكورة ، وهو :
فأوردك الله برد الجنا | ن جذلان فى نعمة المولج
(7) السيرة النبوية لابن هشام ذ/ ٤ / ٣٧٧ ـ ٣٧٨ .

وهزت الأبيات عميراً ﷺ ، وقد زلزله هجاؤها قبل أبيات حسان ، ففى رواية الواقدى :

( قال عمير بن عدى بن فرشة بن أمية الخطمى حين بلغه قولها، وتحريضها :

( اللهم ، إن لك علىَّ نذراً لئن رددتَ رسول الله ﷺ إلى المدينة لأقتلنها ، ورسول الله ﷺ يومئذ فى بدر ، فلما رجع رسول الله جاءها عمير بن عدى فى جوف الليل حين دخل عليها بيتها ، وحولها نفر من ولدها نيام منهم من ترضعه فى صدرها ، حتى أنفذه من ظهرها ) (١) .

وكانت أبيات حسان ثناء على فعل عمير ، كما فى رواية الواقدى .

( فيومئذ ظهر الإسلام فى بنى خطمة ، وكان منهم رجال يستخفون بالإسلام خوفًا من قومهم ، فقال حسان بن ثابت يمدح عمير بن عدى ، أنشدنا عبد الله ابن الحارث . . ) (٢) .

ونص الأبيات أقرب إلى رواية الواقدى منها إلى رواية ابن إسحاق وهى وصف لما وقع ثناء عليه أكثر منها حث على القتل ، وهكذا اشترك الشعر والسيف فى المعركة مباشرة بعد بدر .

حدثنى عبد الله بن الحارث عن أبيه قال : كان قتل عصماء لخمس ليال بقين من رمضان ، مرجع النبى ﷺ من بدر ، على رأس تسعة عشر شهراً .

### قتل أبى عفك :

روى الواقدى عن شيوخه بسنده : إن شيخًا من بنى عمرو بن عوف يقال له أبو عَفَك ، وكان شيخًا كبيراً ، قد بلغ عشرين ومائة سنة حين قدم النبى ﷺ المدينة ، وكان يحرض على عداوة النبى ﷺ ، ولم يدخل فى الإسلام ، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى بدر ، رجع وقد ظفَّرهُ الله بما ظفره ، فحسده وبغى وقال :

قد عشت حينًا وما إن أرى ... من الناس داراً ولا مجمعا
أجمَّ عقولاً وآتى إلى ... منيب سراعًا إذا ما دعا

(١) المغازى للواقدى : ١ / ١٧٢ .
(٢) المصدر نفسه ١٧٤ .

فسلَّبهم أمرهم راكب حراماً حلالاً لشتىّ معا
فلو كان بالملك صدَّقتم والبنصر تابعتم تبعًا

لقد بدأ الحقد الدفين ينفث قلوب الحاقدين ، فمن المرأة إلى الشيخ الكبير الذى عتا فى السن ، وراح يتلذذ فى هجاء رسول الله ، والأبيات عند ابن إسحاق أدق ، ولعل ابن هشام صحجها .

لقد عشت دهراً وما إن أرى من الناس داراً ولا مجمعا
أبرَّ عهوداً وأوفى لمن يُعاقدُ فيهم إذا ما دعا
من أولاد قيلة [1] فى جمعهم يهدُّ الجبال ولم يخضعا
فصدَّعهم راكب جاءهم حلال حرام لشتى معا
فلو أن بالعز صدقتمُ أو الملك تابعتم تبعا

فقومه لا يعلم فى الدنيا أبرَّ منهم عهداً ، أو أصدق منهم وفاء ، إذا ما عاقدوا وعاهدوا ، يهدون الجبال ، ولا يخضعون لسلطان ظالم ، لقد كان هذا شأنهم قبل أن يأتيهم الوافد الذى مزق شملهم ، لم يكن صاحب عز فيتبع ، أو صاحب ملك فيطاع، والأولى بهم أن يتبعوا ملوكهم الأقدمين أولى العز والسلطان من التتابعة .

( فقال رسول الله ﷺ : « من لى بهذا الخبيث ؟ » فخرج سالم بن عمير أخو بنى عمرو بن عوف ، وهو أحد البكائين فقتله ، فقالت أمامة المزيرية فى ذلك :

تكذب دين الله والمرء أحمد لعمرو الذى أمناك [2] إذ بئس ما يمنى
حباك [3] حنيف [4] آخر الليل طعنة أبا عفك خذها على كبر السن

وزاد الواقدى فى روايته :

فإنى وإن أعلم بقاتلك الذى أبانك حلس الليل من أنسٍ أو جنّى

---

(١) أولاد قيلة : كناية عن الأنصار والخزرج ، وهى امرأة ينسبون إليها .
(٢) أمناك : أنساك .
(٣) حباك : أعطاك .
(٤) حنيف : مسلم .

ذكر الواقدى بسنده قال : قتل أبو عفك فى شوال على رأس عشرين شهراً .

وهكذا نرى عدوين سقطا قتيلين لحربهما الشعرية ضد الإسلام ، وهو من جهة ثانية يدلنا على خطر الشعر ودوره فى هذا المجتمع ، ولذلك كان لا بد أن يعلن القتل شعراً ، كما أعلنت الحرب شعراً كذلك ، فتأتى أمامة المزيرية[1] لتعلن قتله لأنه كذّب الله ورسوله ، وعبأ النفوس لحرب محمد عليه الصلاة والسلام .

تكذب دين الله والمرء أحمد ... لعمرو الذى أمناك إذ بئس ما يمنى

حباك حنيف آخر الليل طعنة ... أبا عفك خذها على كبر السن

ومهمة هذه الرسالة الشعرية كذلك أن يعرف كل شاعر مسؤولية قوله ، حين يقدم على مثل ما أقدم عليه العدوان ، ولعل مقتل عصماء بنت مروان ، وأبى عفك ، كان حدثًا لا يذكر أمام مقتل سيد يهود كعب بن الأشرف .

**مقتل كعب بن الأشرف :**

قال ابن إسحاق : وكان من حديث كعب بن الأشرف أنه لما أصيب أصحاب بدر ، وقدم زيد بن حارثة إلى أهل السافلة ، وعبد الله بن رواحة إلى أهل العالية بشيرين بعثهما رسول الله ﷺ إلى من بالمدينة من المسلمين بفتح الله عز وجل ، وقتل من قتل من المشركين . . . قال كعب بن الأشرف ـ وكان رجلاً من طيئ أحد بنى نبهان ، وكانت أمه من بنى النضير ـ حين بلغه الخبر :

أحق هذا ؟ أترون محمداً قتل هؤلاء الذين يسمى هذان الرجلان ، فهؤلاء أشراف العرب ، وملوك الناس ، ووالله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم ، لبطن الأرض خير من ظهرها .

فلما تيقن عدو الله الخبر ، خرج حتى قدم مكة ،فترل على المطّلب بن أبى وداعة بن ضبيرة السهمى ، وعنده عاتكة بنت أبى العيص بن أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف، فأنزلته وأكرمته ،وجعل يحرض على رسول الله ﷺ ، وينشد الأشعار ، ويبكى أصحاب القليب من قريش الذين أصيبوا ببدر ، فقال :

---

(١) أمامة المزيرية : وقد سماها ابن حجر فى الإصابة أمامة الربذية . ولم يذكر عنها شيئًا سوى هذه الأبيات فى ترجمتها .

طحنت رحى بدرٍ لمهلك أهله | ولمثل بدر تستهل [1] وتدمع
قُتلت سراة [2] الناسِ حول حياضهم | لا تَبعدوا إن الملوك لصُرَّع
كم قد أصيب به من أبيض ماجد [3] | ذى بهجة [4] يأوى إليه الضيّع [5]
طلْق اليدين[6] إذ الكواكب أخلفت [7] | حمّال أثقالٍ يسود ويربع [8]
ويقول أقوام أُسرٌّ بسخطهم | إن ابن الأشرف ظل كعبًا يجزع
صدقوا فليت الأرض ساعة قُتّلوا | ظلت تسوخ بأهلها وتصدّع
صار الذى أثر الحديث [9] بطعنة | أو عاش أعمى مرعشًا لا يسمع
نبئت أن بنى المغيرة كلهم | خشعوا لقتل أبى الحكيم وجُدّعوا [10]
وابنا ربيعة عنده ومنبّه | ما نال مثل المُهلكين وتُبَّع
نبئت أن الحارث بن هشامهم | فى الناس يبنى الصالحات ويجمع
ليزور يثرب بالجموع وإنما | يحمى على الحسب الكريم الأروع[11]

لقد أعلن كعب بن الأشرف نقضه للعهد بينه وبين محمد ﷺ : فى انضمامه لمعسكر المشركين والتحاقه بهم ضده ، وذلك كما نصت الوثيقة مع اليهود :

( وأنه لا تجار قريش ، ولا من نصرها ، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب . . . ) .

(وإن بطانة يهود كأنفسهم ، وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ . . وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ) .

( . . وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم آثم ، وإنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة ، إلا من ظلم وأثم ، وأن الله جار لمن برَّ واتقى ، ومحمد رسول الله ﷺ) (12) .

---

(1) تستهل : تسبل بالدمع .
(2) سراة القوم : خيارهم .
(3) الماجد : الشريف .
(4) البهجة : حسن الظاهر .
(5) الضيَّع : جمع ضائع وهو الفقير .
(6) طلق اليدين : كثير المعروف .
(7) أخلفت : لم يكن منها مطر على ما كانت العرب تنسب إلى الكواكب .
(8) يربع : يأخذ الربع . ويقال هذا لمن كان رئيسًا .
(9) أثر الحديث : تحدث به وأشاعه .
(10) جدّعوا : قطعت آنافهم . وأراد هنا : ذهاب عزهم .
(11) الأروع : الذى يروع بحسبه وجماله .
(12) السيرة النبوية لابن هشام و / 1 / 353 - 354 .

فقد أهدر كعب دمه بهذا الانضمام الوقح السافر إلى معسكر قريش ، ورثاء قتلاهم، ودعوة الحارث بن هشام ، وتعبئته لغزو يثرب ثأرًا لأبى جهل بن هشام ، وأقرانه ، فملوك الأرض قد قتلوا .

وجاء الجواب النارى لكعب من حسان مباشرة ، جزاءً وفاقًا على خيانته وغدره :

أبكى لكعبٍ ثم عُلَّ بعبرة ... منه وعاش مجدعًا لا يسمع [1]
ولقد رأيت ببطن بدرٍ منهم ... قتلى تسح [2] لها العيون وتدمع
فابك فقد أُبكيتَ عبدًا راضعًا [3] ... شبه الكليب إلى الكليبة يتبع
ولقد شفا الرحمن منا سيدًا ... وأهان [4] قومًا قاتلوه وصُرّعوا
ونجا وأفلت منهم من قَلبُه ... شَعفٌ [5] يظل لخوفه يتصدع

وزاد الواقدى ، والزيادة فى ديوان حسان :

ونجا وأفلت منهم متسرّعًا ... فلٌّ [6] قليل هارب يتهزع [7]

وأُتبعت الخطوة بأن دعا رسول الله ﷺ فأخبره بنزول كعب على من نزل فقال حسان:

ألا أبلغوا عنى أسيدًا رسالة ... فخالك عبد الشراب [8] مجرّب
لعمرك ما أوفى أسيد [9] بجاره ... ولا خالد ولا المفاضة [10] زينب [11]
وعتَّاب عبد غير موفٍ بذمةٍ ... كذوب شؤون الرأس قرد مدرب

فلما بلغها هجاؤه نبذت رحله ، وقالت : ما لنا ولهذا اليهودى ؟ ألا ترى ما

---

(١) فى الديوان :

( ما زال كعب يستهل دموعه ... للهالكين مجدعًا . . )

وهو الأصح ليستقيم به المعنى ، انظر : الديوان ٥/ ٤٢٦ .

(٢) تسح :تصُبُّ . (٣) الراضع : اللئيم .

(٤) وأهان : وهى عند الواقدى : وأحان أى أهلك .

(٥) شعفٌ : قلبه محترق . ومن رواه بالغين فمعناه بلغ حزنه إلى شغاف قلبه .

(٦) الفل : الفارين . (٧) يتهزع : يتخوف .

(٨) الشراب : الخمر . (٩) أسيد :هو أسيد بن أبى العيص . ومات مشركًا .

(١٠) خالدا وعتاب ولدا أسيد . (١١) المفاضة من النساء : الضخمة البطن .

يصنع بنا حسان؟ فتحول ، فكلما تحوَّل عند قوم دعا رسول الله ﷺ حسان ، فقال : ابن الأشرف نزل على فلان ، فلا يزال يهجوهم حتى نبذ رحله ، فلما لم يجد مأوى قدم المدينة ) (١) .

لقد كانت الرسالة تصل عن طريق الركبان ، على جناح السرعة ، فتقض مضجع المهجو ، فينبذ رحل كعب خوفًا من لسان حسان بن ثابت رضي الله عنه ، حتى نجحت الحرب فى إعادة كعب إلى حصنه بالمدينة .

وتدخل امرأة مسلمة المعركة الشعرية ، فالنيل من رسول الله ﷺ يجعل المسلمين طفلاً ورجلاً وفتاة وامرأة مرجل غضب ضد المعتدى الأثيم .

قال ابن إسحاق : وقالت امرأة من المسلمين ، من بنى مريد تجيب كعبًا (٢) .

قال ابن هشام : وأكثر أهل العلم بالشعر ينكر هذه الأبيات لها ، وينكر نقيضتها لكعب بن الأشرف :

تحنن (٣) هذا العبد كل تحنن ... يبكى على قتلى وليس بناصب (٤)
بكت عين من يبكى لبدر وأهله ... وعُلَّت (٥) بمثليها لؤى بن غالب
فليت الذين ضرَّجوا (٦) بدمائهم ... يرى ما بهم من كان بين الأخاشب (٧)
فيعلم حقًا عن يقين ويُبصروا ... مجرَّهم فوق اللحى والحواجب

فأجابها كعب بن الأشرف فقال :

ألا فازجوا منكم سفيهًا لتسلموا ... عن القول يأتى منه غير مقارب
أتشتمنى إن كنت أبكى بعبرة ... لقوم أتانى ودهم غير كاذب
فإنى لباك ما بقيت وذاكر ... مآثر قوم مجدهم بالجباجب(٨)
لعمرى لقد كانت مُريدُ (٩) لمعزلٍ ... عن الشر فاحتالت وجوه الثعالب

---

(١) المغازى للواقدى ١ / ١٨٧ .

(٢) المرأة هى ميمونة بنت عبد الله من بنى مريد أو مرين بطن من بلى يقال لهم : الجعادرة ، كانوا حلفاء بنى أمية بن زيد من الأنصار . وذكرها ابن سعد وابن إسحاق وذكرا إسلامها .

(٣) تحنن : من الحنان وهو الرحمة .

(٤) الناصب : المعيى .

(٥) عُلّت : كررت .

(٦) ضرَّجوا : لطخوا .

(٧) الأخشبان : جبلان بمكة .

(٨) الجباجب : منازل مكة .

(٩) مريد : قبيلة أو مرين .

فحقَّ مُريدٌ أن تُجدَّ [1] أنوفهم ... بشتمهم حيَّىْ لؤى بن غالب
وهبت نصيبى من مريد لجعدر [2] ... وفاءً وبيت الله بين الأخاشب

لقد صبت كل طاقاته الشعرية فى الدفاع عن قريش ، إنه مواطن فى الدولة الإسلامية ، ويعلن صراحة حلفه لأعدائها ، ضاربًا بالصحيفة والمعاهدة التى تحكمه عرض الحائط ، ومعلنًا أن هذا مبدأ يؤمن به ، ويعتنقه ، وليس حاله عارضة .

فإنى لباكٍ ما بقيت وذاكر ... مآثر قوم مجدهم بالجباجب

ولا يخفى أبدًا الود والحب المتبادر بينه وبينهم .

أتشتمنى إن كنت أبكى بعبرة ... لقوم أتانى ودهم غير كاذب

وأما حلفاء محمد ﷺ من مريد فحقهم أن تُجدَّ أنوفهم وتقطع لحربهم للؤى ابن غالب ، وهذا يعنى إعلان الحرب ولا شك على محمد ﷺ وأهله ، وانضمامه لمعسكر قريش ، ولا يكتفى بذلك فهو يعود إلى المدينة متحديًا .

( ثم رجع كعب بن الأشرف إلى المدينة فشبَّب [3] بنساء المسلمين حتى آذاهم ) .

وينقل لنا البيهقى فى دلائله أخطر وأسفه من ذلك فهو يتحالف رسميًا مع قريش .

( فعن عكرمة عن ابن عباس قال : قدم حيى بن أخطب ، وكعب بن الأشرف مكة على قريش ، فحالفوهم على قتال رسول الله ﷺ فقالوا لهم : أنتم أهل العلم القديم وأهل الكتاب فأخبرونا عنا وعن محمد ؟ قالوا : ما أنتم وما محمد ؟ قالوا : نحن ننحر الكوماء [4] ، ونسقى اللبن على الماء ، ونفك العناة [5] ، ونسقى الحجيج ، ونصل الأرحام . قالوا : فما محمد ؟ قالوا :

---

(1) تجدّ أو تجذّ : تقطع .
(2) جعدر : قبيلة : وهى مريد نفسها .
(3) شبب : تغزل .
(4) الكوماء : الناقة العظيمة السنام الطويلة .
(5) العناة : جمع عان وهو الأسير .

صنبور [١] قطع أرحامنا واتبعه سراق الحجيج من غفار . قالوا : لا ، بل أنتم خير منه ، وأهدى سبيلاً . وأنزل الله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً** (٥١) ﴾ [النساء] [٢] .

أما حيى بن أخطب فلم يكن له لسان كعب ولا شعره ، وكان خطر كعب أشد ، والذى بلغ من تحديه أن يتغزَّل بنساء المسلمين ، وعلى رأسهن أم الفضل بنت الحارث زوج العباس بن عبد المطلب ، وكانت مسلمة من الأوائل .

وكما يقول جابر بن عبد الله فيما رواه عند البيهقى .

ثم قدم كعب بن الأشرف المدينة معلنًا بمعاداة النبى ﷺ وبهجائه ، فكان أول ما خرج منه قوله :

| | |
|---|---|
| أذاهب أنت لم تحلل بمنقبة [٣] | وتارك أنت أم الفضل بالحرم |
| صفراء رادعة [٤] لو تعصر اعتصرت | من ذى القوارير والحناء والكتم [٥] |
| إحدى بنى عامر [٦] هام الفؤاد بها | ولو تشاء شفت كعبًا من السقم |
| لم أر شمسًا قبلها طلعت | حتى تبدّت لنا فى ليلة الظُلَمِ |

ويتابع ابن إسحاق :

. . . فقال رسول الله ﷺ ـ كما حدثنى عبد الله بن المغيث بن أبى برزة :

« من لى بابن الأشرف ؟ » . دوائى

وفى رواية البيهقى عن جابر بن عبد الله :

« من لى بكعب بن الأشرف ؟ فإنه قد آذى الله ورسوله » .

---

(١) صنبور : أى منفرد عن قومه ، أو الرجل الضعيف الذليل بلا أهل وعقب وناصر ، أو اللئيم .
(٢) دلائل النبوة للبيهقى ٣ / ١٩٣ ـ ١٩٤ .
(٣) المنقبة : الطريق الضيق : ويعنى مغادرة الحرم .
(٤) صفراء رادعة : متعطرة : ورادعة : يفوح منها أثر الطيب .
(٥) الكتم : نبات يخلط بالحناء ويخضب به الشعر .
(٦) إحدى بنى عامر بن صعصعة ، والمعروف أنها هلالية ، وبنو هلال من بنى عامر بن صعصعة .

فقام محمد بن مسلمة فقال : يا رسول الله أعجب إليك أن أقتله ؟[1] .

قال : « نعم » . قال : فأْذن لى أن أقول شيئًا [2] . قال : « قل » . فأتاه محمد بن مسلمة ، فقال : إن هذا الرجل قد سألنا صدقة ، وإنه قد عنَّانا [3] ، وإنى قد أتيتك أستسلفك . قال : وأيضا لتملَّنّه [4] . قال : إنا قد اتبعناه ، فنكره أن ندعه حتى ننظر أى شىء يصير شأنه ، وقد أردنا أن تُسلفنا . قال : أرهنونى نساءكم . قال : كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العربَ ؟ ! قال : فارهنونى أبناءكم. قال :كيف نرهنك أبناءنا فيقال : رُهِن بوسق أو وسقين [5] . قال : فأى شىء ؟ قالوا : نرهنك اللأمة . قال سفيان : يعنى السلاح . قال : فواعده أن يأتيه فجاءه ليلاً ، ومعه أبو نائلة ، وهو أخو كعب من الرضاعة ، فدعاه من الحصن ، فنزل إليهم . فقالت امرأته: أين تخرج هذه الساعة ؟ قال : إنما هو محمد بن مسلمة ، وأخى أبو نائلة . قال ـ أى محمد بن مسلمة : إذا ما جاء فإنى قائل بشعره فأشمَّه ثم أُشمكم،فإذا رأيتمونى أثبت يدى فدونكم . قال : فنزل إليهم متوشحًا ، وهو ينفح منه ريح الطيب. فقال : ما رأيت كاليوم ريحًا أى أطيب . أتأذن لى أن أشم رأسك ؟ قال : نعم فشمّه ثم شمّ أصحابه . ثم قال : أتأذن لى:قال نعم. فلما استمكن منه قال : دونكم فضربوه فقتلوه ، فأتوا رسول الله ﷺ فأخبروه ) رواه البخارى فى الصحيح عن على بن المدينى [6]، وزاد : إنما هو أخى محمد بن مسلمة ، ورضيعى أبو نائل، إن الكريم لو دُعى إلى طعنة بليل لأجاب . وهو فى الإسناد الأول:لو أن الفتى دعى لطعنة لأجاب،

---

(١) أعجب إليك أن أقتله : أيعجبك أن أقتله .

(٢) فأذن لى أن أقول : أى أقول غير الحقيقة مخادعًا إياه . على سبيل جواز ذلك فى الحرب ، لأن الحرب خدعة .

(٣) عنَّانا : من العناء . أى التعب .

(٤) لتملنَّه : من الملل والضجر .

(٥) وسق : حمل .

(٦) البخارى ٥ / ٢٥ ـ ٢٦ . زاد فى روايته : ويدخل مع محمد بن مسلمة معه رجلان . قيل لسفيان : سماهم عمرو قال: سمى بعضهم . . وقال غير عمرو : أبو عبس بن جبر ، والحارث بن أوس ، وعباد ابن بشر . وقع فى رواية الحميدى قال : فأتاه ، ومعه أبو نائلة ، وعبَّاد بن بشر ، وأبو عبس بن جبر ، والحارث بن معاذ . . ووقعت تسميتهم كذلك فى رواية ابن سعد . فعلى هذا كانوا خمسة . ويؤيده قوله عباد بن بشر من قصيدة فى هذه القصة :

وكان الله سادسنا فأبنا ... بأنعم نعمة وأعز نصر

فتح البارى ٧ / ٣٣٩ .

وفى رواية لأبى داود عن كعب بن مالك :

( فلما قتلوه فزعت اليهود ، ومن كان معهم من المشركين ، فغدوا على رسول الله ﷺ حين أصبحوا فقالوا: إنه طرق صاحبنا الليلة، وهو سيد من ساداتنا فقتل ، فذكَّرهم رسول الله ﷺ الذى كان يقول فى أشعاره، وينهاهم به، ودعاهم رسول الله ﷺ إلى أن يكتب بينهم وبين المسلمين كتابًا ينتهوا إلى ما فيه. فكتب النبى ﷺ بينه وبينهم وبين المسلمين عامة صحيفة كتبها رسول الله ﷺ تحت العِذق الذى كان فى دار ابنة الحارث، وكانت تلك الصحيفة بعد رسول الله ﷺ عند على بن أبى طالب رضي الله عنه (١) (٢).

وكعب بن مالك رضي الله عنه الذى نقل لنا جزءًا من الرواية نثرًا ها هو يصوغها لنا شعرًا فيقول :

فغودر منهم كعبٌ صريعًا ... فذلَّت بعد مصرعه النضير
على الكفين ثَمَّ وقد علته ... بأيدينا مشهرة (٣) ذكور (٤)
بأمر محمد إذ دسّ ليلاً ... إلى كعب أخا كعب (٥) يسير
فما كره (٦) فأنزله بمكرِ ... ومحمد أخو ثقة جسور

غير أن أحد القادة الفدائيين المشاركين فى قتل كعب بن الأشرف ، وهو شاهد عيان ، يحدثنا شعرًا عن قتل كعب ، وهو سيد عظيم من سادات الأوس ، إنه عباد بن بشر ، وكأنما الخطة والمعركة مشهد خاص أمامنا نتملى برؤيته فى لفظ سهل مشرق ، ومعنىً مبين ، يقول عباد :

---

(١) سنن أبى داود ٣ / ١٥٤ ح ٣٠٠٠ باب : كيف كان إخراج اليهود من المدينة . ويعلق الدكتور العمرى بقوله: فكتبت صحيفة عامة ، ما تذكر رواية أبى داود فى رواية تصلح للاحتجاج بها ، ويبدوا أن كتابة الصحيفة كانت تأكيدًا لما فى المعاهدة التى كتبت قبل بدر بين المسلمين واليهود بعد أن أثار مقتل ابن الأشرف مخاوف يهود ، السيرة النبوية الصحيحة ١ / ٣٠٣ ـ ٣٠٤ .

(٢) دلائل النبوة للبيهقى ٣ / ١٩٨ . هذا وقد كان مقتل كعب بن الأشرف على أعقاب إخراج يهود بنى قينقاع الذين نقضوا العهد من المدينة. وقد ذكرها ابن إسحاق فى السيرة بتفصيل وافٍ أعرضنا عنه خشية الإطالة. ولا تزال آثار حصن كعب قائمة إلى اليوم قرب المدينة المنورة .

(٣) المشهرة : السيوف المجردة من أغمادها .

(٤) الذكور : جمع ذكر ، وهو أيبس الحديد وأجوده .

(٥) أخا كعب : أبو نائلة ، وهو أخوه من الرضاعة .

(٦) ماكره : مكره .

صرخت له فلم يحفل [1] لصوتى ... وأوفى طالعًا من فوق قصر

فعدتُ له فقال من المنادى ... فقلت أخوك عباد بن بشر

فقال محمد [2] أسرع إلينا ... فقد جئنا لتشكرنا [3] وتقرى

وترفدنا فقد جئنا سغابًا [4] ... بنصف الوَسق [5] من حبّ تمر

وهذى درعنا رهنًا فخذها ... لشهر إن وفى أو نصف شهر

فقال معاشر سغبوا وجاعوا ... لقد عدموا الغنى من غير فقر

وأقبل نحونا يهوى سريعًا ... وقال لنا لقد جئتم لأمر

هذه الحلقة الأولى من الخطة ، ينتقل بعدها لتنفيذ الخطة :

وفى أيماننا بيض حداد [6] ... مجربة بها الكفار نفرى [7]

فعانقه ابن مسلمة المرادى [8] ... به الكفار كالليث الهزبر

وشدّ بسيفه صلتًا [9] عليه ... فقطَّره [10] أبو عبس بن جبر

وصلت وصاحباى فكان لما ... قتلناه الخبيث كذبح عتر [11]

وجاء برأسه نفر كرام ... هم ناهيك من صدق وبر

وكان الله سادسنا فأبنا [12] ... بأفضل نعمة وأعز نصر[13]

**محيصة وحويصة :**

فلما أصبح رسول الله ﷺ من الليلة التى قُتل فيها ابن الأشرف قال رسول الله ﷺ : من ظفرتم به من رجال اليهود فاقتلوه ، فخافت اليهود ، فلم يطلع عظيم من عظمائهم ، ولم ينطقوا،وخافوا أن يبيتوا كما بيّت ابن الأشرف .

---

(1) لم يحفل : لم يهتم .
(2) محمد : هو محمد بن مسلمة .
(3) تشكرنا : تمنحنا الشكر .
(4) سغابًا : جائعين .
(5) الوسق : حمل بعير .
(6) البيض الحداد : السيوف القاطعة
(7) نفرى : نقطع ونمزق .
(8) المرادى : المناضل عن قومه .
(9) صلتًا : صقيلاً ماضيًا .
(10) قطّره : صرعه .
(11) كذبح عتر : العتيرة التى تذبح فى حب الآلهة .
(12) أبنا : رجعنا .
(13) المغازى للواقدى ١ / ١٩١ . وقد صححنا بعضها عن الإصابة ٤ / ٧ / ١٩٢ . وسير أعلام النبلاء للذهبى ١/ ٣٤٠ .

وكان ابن سنينة من يهود بنى حارثة ، وكان حليفًا لحويصة بن مسعود ، وكان حويصة ابن مسعود إذ ذاك لم يسلم ، وكان أسنَّ من محيصة ، فوثب محيصة بن مسعود على ابن سنينة فقتله ، فلما قتله جعل حويصة يضربه ، ويقول :

أى عدو الله أقتلته ؟ ! أما والله لرب شحم فى بطنك من ماله .

قال محيصة : والله لقد أمرنى بقتله من لو أمرنى بقتلك لضربت عنقك .

قال : فوالله إن كان أول إسلام حويصة قال : آلله لو أمرك محمد بقتلى لقتلتنى؟!

قال : نعم . والله لو أمرنى بضرب عنقك لضربتها .

قال : والله إن دينًا بلغ بك هذا لعجب . فأسلم حويصة .

قال ابن إسحاق : حدثنى هذا الحديث مولىً لبنى حارثة عن ابنة محيصة عن أبيها محيصة .

فقال محيصة فى ذلك :

| | |
|---|---|
| يلوم ابن أمى لو أُمرت بقتله | لطبَّقت (١) ذفراه (٢) بأبيض قاضب(٣) |
| حسام كلون الملح أُخلص صقله | متى ما أصوبه (٤) فليس بكاذب |
| وما سرنى أنى قتلتك طائعًا | وأن لنا ما بين بصرى (٥) ومأرب(٦) |

فهو بأمر رسول الله ﷺ لا يجد حرجًا أن يقتله ، فى الوقت الذى يبلغ حبه له ،لو أعطى ملك ما بين بصرى ومأرب مقابل أن يفرّط فى أخيه أو يناله بسوء ، أو يقتله، فلن يفعل .

وكان لهذا الموقف الأثر العظيم والدافع لإسلام أخيه حويصة ، فهو لم يعهد عقيدة تفعل بأبنائها ما فعلت عقيدة الإسلام بأخيه .

---

(١) لطبّقت : قطعت وأصبت المفصل .
(٢) الذفرى : عظم يأتى خلف الأذن .
(٣) أبيض قاضب : سيف قاطع .
(٤) أصوّبه : أميله للضرب به .
(٥) بصرى : مدينة بالشام .
(٦) مأرب : موضع باليمن .

### غزوة السويق :

لا بد أن نشير من خلال طبيعة الحرب بين الجاهلية والإسلام إلى غزوة السويق ، فهى تحمل فى ثناياها ، وعلى أعقابها حربًا شعرية ، إذ أن ( أبا سفيان نذر ـ بعد بدر ـ أن لا يمس رأسه ماءً من جنابة حتى يغزو محمدًا ، فخرج فى مائتى راكب من قريش ليبر بيمينه ، فسلك النجدية [١] حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له ثيب من المدينة على بريد [٢] أو نحوه ، ثم خرج من الليل حتى أتى بنى النضير تحت الليل ، فأتى حُيَىّ بن أخطب ، فضرب عليه بابه ، فأبى أن يفتح له بابه وخافه ، فانصرف عنه إلى سَلاّم بن مشكم ، وكان سيّد بنى النَّضير فى زمانه ذلك، وصاحب كنزهم ، فاستأذن عليه ، فذن له ، فقراه [٣] ، وسقاه [٤] ، وبطن [٥] له من خبر الناس ، ثم خرج فى عقب ليلته حتى أتى أصحابه ، فبعث رجالاً من قريش إلى المدينة ، فأتوا ناحية منها، يقال لها العُرَيْض ، فحرقوا فى أصوار من نخل بها ، ووجدوا بها رجلاً من الأنصار وحليفًا له فى حرث لهما ، فقتلوهما ،ثم انصرفوا راجعين ، ونذر[٦] بهم الناس ، فخرج رسول الله ﷺ فى طلبهم، حتى بلغ قرقره الكدر، ثم انصرف راجعًا وقد فاته أبو سفيان وأصحابه . . .

قال ابن إسحاق : وقال أبو سفيان عند منصرفه لما صنع به سلام بن مشكم .

وإنى تخيرت المدينة واحدًا ... لحلف فلم أندم ولم أتلوَّم
سقانى فروانى كميتًا [٧] مدامة ... علَى عجل منى سلام بن مِشكم
ولما تولى الجيش قلت ولم أكن ... لأفرحه [٨] أبشر بعز ومغنم
تأمل فإن القوم سر [٩] وإنهم ... صريح[١٠] لؤى لاشماطيط[١١] جرهم[١٢]
وما كان إلا بعض ليلة راكب ... أتى ساغبًا [١٣] من غير خلة[١٤] معدم

(١) النجدية : اسم مكان .
(٢) البريد : أربعة فراسخ ، والفرسخ ثلاثة أميال .
(٣) قراه : أكرمه .
(٤) سقاه : الخمر .
(٥) بطن له : أى علم له من خبر الناس .
(٦) نذر بهم الناس : أنذروا فخرجوا وراءهم .
(٧) الكميت : من أسماء الخمر ، والمدامة كذلك .
(٨) لأفرحه : لأثقل عليه ، وأشق عليه .
(٩) سر القوم : خالصهم من النسب .
(١٠) الصريح : الخالص أيضًا .
(١١) الشماطيط : المختلطون من قبائل شتى .
(١٢) جرهم : قبيلة قديمة .
(١٣) الخلة : الحاجة والفقر .
(١٤) ساغبًا : جائعًا . ومن رواها ساعيا ، فمعناها معروف .

فقد فضح أبو سفيان بهذه الرسالة الشعرية خيانة اليهود ، وزعيمهم سلام بن مشكم الذين مثلوا الطابور الخامس فى أيامهم ، فكانوا جواسيس لقريش ، ينقلون لها خبر المسلمين ، ولو كان الأمر مع رجل عادى لهان الأمر ، أما أن يكون مع سيدهم سلام بن مشكم ، وصاحب كنزهم فهذا يعنى إعلان الحرب ضد رسول الله ﷺ، وانضمام بنى النضير فى حلف جديد يناقض الحلف بينهم وبين محمد ألا يؤوا محدثًا ، ولا يعينوا قريشًا .

لقد كانت غزوة السويق فى ذى الحجة على رأس اثنين وعشرين شهراً من هجرة رسول الله ﷺ ، وكان الرد على هذه الخيانة هو مقتل كعب بن الأشرف زعيم بنى النضير الذى أعلن العداوة رسميًا للمسلمين ، ولم يزد أبو سفيان فى وصفه أكثر من وصفه تواطؤه مع سلام ، وغزوه المدينة ليلاً وقتل رجلين من المسلمين ، فراح يفخر بها ردًا على فاجعة بدر .

## الفصل الثانى

# الشعر فى المعركة : التعبئة العامة

لما أصيب يوم بدر من كفار قـريش أصحاب القليب ،ورجع فَلُّهم إلى مكة ، ورجع أبو سفيان بعـيره ، مشى عبد الله بن أبى ربيعـة ،وعكرمة بن أبى جهل ، وصفـوان بن أمية فى رجـال من قريش ، ممن أصيب آباؤهـم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر ،فكلموا أبا سفيان بن حرب ، ومن كانت له فى قريش تجارة ، فقالوا : يا معشر قـريش ، إن محمداً قد وتركم ، وقتل خيـاركم ، فأعينوا بهذا المال على حربه ، فلعلنا ندرك منه ثـأرنا بمن أصاب منا ، ففعلوا ،فـاجتمعت قـريش لحرب رسول الله ﷺ حين فعل ذلك أبو سفيان بن حرب ،وأصحاب العير بأحابيشهم ، ومن أطاعها من قبائل كِنانة ، وأهل تِهامة [١] .

والذى يعنينا من هـذا النص هو دور الشعـر فى المعـركـة، فكيف انضم إلى قريش حلفاؤها وجيرانها من كِنانة وأرض تِهـامة . والجواب باستنطاق الشعر الذى قامم بدوره بتـعبئـة هؤلاء الأنصار والحلفاء ضـد محمـد وأصحابه ، والشـاعران اللذان برزا فى هذا الميـدان هما أبو عـزة الجمـحى، ومسـافع بن عبـد مناف وهو جمحى كذلك ، ويشير الواقدى إلى اشتراك شاعرين آخرين فى الحرب الدعائية ، وتعبئة صفوف القبائل المجاورة للانضـمام إلى غزو محمد ، وهذان الشاعران هما عمرو بن العاص السهمى ، وهبيـرة بن أبى هبيرة المخزومى ، لقد كانت قريش فى بدر ألف مقـاتل،ومن خلال المعركـة الشعريـة ضمت ضعـفى هذا العدد من هذه القبائل، فبلغ ثلاثة آلاف مقاتل .

أما أبو عزة الجمـحى ، فهو الشاعر الأسير الغـادر ، الذى رحمه رسول الله ﷺ فأطلق إسـاره على ألا يعين على حـربه ، لكن صفوان بـن أمية ـ سـيد بنى جمح بعد وفاة أبيـه أمية ـ ألح عليه حتى نكث عهده ، ومـضى فى القبائل يدعو

(١) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ٨٨ .

الناس إلى نصرة قريش ، وحرب رسول الله ﷺ .

لقد كانت بنى عبد مناة بن كنانة ، وبنى مالك بن كنانة هم أقرب الناس رحمًا إلى قريش .

( فقد ولد كنانة بنين كثيرة ، لم يُعقب منهم أحد إلا النضر ـ وهو قريش ، ورأس نسبها ـ وعبد مناة ، ومالك ،وملكان ، وحدال ) [1] . فمضى أبو عزة الجمحى إلى قبيلة وولد عبد مناة بن كنانة يقول فيهم :

يا بنى عبد مناة الرزام [2] أنتم حماة وأبوكم حام
لا تسلمونى لا يحل إسلام لا تعدونى نصركم بعد العام

أما بنو مالك بن كنانة فقد مضى فيهم مسافع بن عبد مناف الجمحى ، وراح يقول فيهم :

يا مالِ [3] مالِ الحسب [4] المقدم أنشد [5] ذا القربى وذا التذمم [6]
من كان ذا رحم [7] ومن لم يرحم[8] الحلف وسط البلد المحرم
عند حطيم [9] الكعبة المعظم

فخرجت قريش بحدّها وحديدها وأحابيشها ، ومن تابعها من بنى كنانة ، وأهل تهامة ، وخرجوا معهم بالظُعن(١٠) التماس الحفيظة [11] ، وألا يفروا . . . فأقبلوا حتى نزلوا بعينين بجبل ببطن السبخة مقابل المدينة [12] .

وأدى الشعر دوره ابتداء فى تعبئة الناس فى الخروج للمعركة .

---

(١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ط . دار المعارف ١٨٠ .
(٢) الرزام : جمع رازم ، وهو الذى يثبت فى مكانه لا يبرحه ، أى يثبتون فى الحرب ولا ينهزمون .
(٣) يا مال : أراد يا مالك ، فحذف الكاف للترخيم .
(٤) الحسب : الشرف .
(٥) أنشد : أذكر .
(٦) ذا التذمم : هو الذى له ذمام وعهد .
(٧) ذو رحم : ذو قرابة .
(٨) من لم يرحم : من لم يكن ذا قرابة .
(٩) الحطيم : ما بين الحَجر إلى ميزاب الكعبة .
(١٠) الظعن : هنا النساء ، وأصل الظعن : الهودج .
(١١) الحفيظة : الأنفة والغضب .
(١٢) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ٨٩ .

ونلاحظ أن ما وصلنا من هذا الشعر بسيط وعادى، فليس بين أيدينا إلا هذه الأبيات لأبى عزة ،ومسافع، ليست هذه الأبيات من القوة والفاعلية والضخامة بحيث تعبئ هذه الأعداد الضخمة، وهذا يعنى أنه فاتنا شئ كثير من هذا الشعر الذى حقق هذه الثمرة .

**التعبئة داخل المعركة :**

**أ ـ فى الصف المشرك :**

فلما التقى الناس ودنا بعضهم من بعض ،قامت هند بنت عتبة فى النسوة اللاتى معها ،وأخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال ، ويحرضنهم ،فقالت هند فيما تقول:

ويها (١) بنى عبد الدار ويها حماة الأدبار (٢)

ضربًا بكل بتار (٣)

وتقول :

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق فراق غير وامق (٤)

وزاد الصالحى فى روايتة :

نحن بنات طارق (٥) نمشى على النمارق (٦)

الدار (٧) فى المخانق (٨) والمسك فى المفارق (٩)

---

(١) وَيْهًا : كلمة معناها الإغراء . أى : أقبلوا . وأما واهًا فمعناها التعجب . وإيهًا : معناها الأمر بالكف . انظر : الروض الأنف للسهيلى .

(٢) حماة الأدبار : الذين يحمون أعقاب الناس ، ويدافعون عنهم .

(٣) البتار : السيف القاطع .

(٤) الوامق : المحب .

(٥) نحن بنات طارق : قيل : إنه النجم . والأصح كما قال السهيلى : إنها تمثلت بهذا الرجز وإنه لهند بنت طارق ابن بياضة الإيادى قالته فى حرب الفرس لإياد . الروض الأنف ٢ / ٣ / ١٦١ .

(٦) النمارق : جمع نمرقة . وهى الوسادة .

(٧) الدر : جمع درة .

(٨) المخانق : القلائد .

(٩) المفارق : مفرق الشعر فى الرأس .

إن تقـــــبلـوا نعــــــانق أو تـدبـروا نـفـــــــارق

فــــراق غـــــيـــــر وامـق

أما سبب تحريض بنى عبد الدار فلأنهم هم حملة لواء قريش ، كما كان حمل لواء رسول الله ﷺ مصعب بن عمير من بنى عبد الدار ، وذلك حسبما تم اتفاق قريش فى أن يكون لواء الحرب فى بنى عبد الدار ، وسنشهد فيما بعد دفاعهم المستميت عن هذا اللواء .

ولم تكتف هند بتحريض مقدمة الجيش ، وحملة اللواء ، بل راحت تنتقل مع النسوة فى صفوف الجيش كله ، تستنهض هممهم بهذا الرجز الذى تحفظه عن هند بنت طارق الإيادية ، ولا تستطيع أن تثير النخوة فيهم إلا بإثارة الشهوة الجنسية فى أجسادهم نحو نسائهم ، فهذه هى القيم العليا فى الجاهلية التى يتحرك من خلالها أبطال المعامع والحروب ، فهن يثرن نخوة أبطالهم بتذكيرهم بالفراش الليلى ، حيث الدر والزينة فى القلائد ، والعطر والمسك فى الأعناق ، وأما إذا ولو الأدبار ، فهن يولين عنهم لفراق المبغض المزدرى .

**ب ـ فى الصف المسلم :**

ومن هذا الأفق الهابط فى الصف المشرك إلى الأفق الوضىء العالى فى الصف المسلم ، كما روى الإمام أحمد ومسلم عن أنس رضي الله عنه ، والطبرانى عن قتادة بن النعمان ، وإسحاق بن راهويه والبزار عن الزبير بن العوام ، قالوا : عرض رسول الَّلة ﷺ سيفًا يوم أحد ، فأخذه رجال فجعلوا ينظرون إليه ، وفى لفظ :فبسطوا أيديهم ، كل إنسان يقول : أنا فقال : «من يأخذه بحقه ؟» فأحجم القوم . فقام رجل فأمسكه عنهم ، وعند إسحاق بن راهويه عن عمرو بن يحيى المازنى أن الزبير طلبه ثلاث مرات، كل ذلك يعُرض عنه رسول الَّله ﷺ (١) .

قال ابن هشام : حدثنى غير واحد من أهل العلم أن الزبير بن العوام قال : وجدُت فى نفسى حين سألت رسول الَّله ﷺ السيف فمنعنيه،وأعطاه أبا دجانة ، وقلت : أنا ابن صفية عمته ، ومن قريش ، قمت إليه فسألته إياه قبله ، فأعطاه إياه وتركنى ، والَّله لأنظرن ما يصنع ، فاتبعته ، فأخرج عصابة له حمراء ،

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٤ / ٢٨٥ .

فعصب بها رأسه ، فقالت الأنصار : أخرج أبو دجانة عِصابة الموت ، وكذا كانت تقول له إذا تعصَّب بها فخرج وهو يقول :

أنا الذى عاهدنى خليلى ونحن بالسفح [1] لدى النخيل
ألا أقوم الدهر فى الكيول [2] أضرب بسيف اللّه والرسول

قال ابن إسحاق : فجعل لا يلقى أحدًا إلا قتله ، وكان فى المشركين رجل لا يدع لنا جريحًا إلا ذفَّف [3] عليه ، فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه ، فدعوت الله أن يجمع بينهما ، فالتقيا ، فاختلفا ضربتين ، فضرب المشرك أبا دجانة ، فاتقاه بدرقته ،فعضَّت بسيفه،وضربه أبو دجانة فقتله ،ثم رأيته قد حمل السيف ، على مِفرَق رأس هند بنت عتبة ، ثم عدل السيف عنها ، فقلت : الله ورسوله أعلم [4].

قال ابن إسحاق : وقال أبو دجانة سماك بن خَرَشة : رأيت إنساناً يخمش الناس خمشاً [5] شديداً فصمدت له [6] ، فلما حملت عليه السيف ولول [7] ، فإذا امرأة ، فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة [8] .

لقد كانت التعبئة فى الصف الإسلامى بهذا السيف المطروح للأبطال ، كى يقاتلوا فيه ، وحجز عن كثير منهم حين لم يسألوا عن حقه ، إلى أن تقدم أبو دجانة سائلاً ، وما حقه يا رسول الله ؟ .

فكان الجواب النبوى الخالد : « أن تضرب به العدو حتى ينحنى » .

وفى رواية :« ألا تقتل به مسلماً ، ولا تفِرَّ به عن كافر » .

---

(١) السفح : جانب الجبل أو أسفله . (٢) الكيول : خلف الصفوف .
(٣) ذفف عليه : أجهز عليه وقتله .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ١٠١ .
(٥) يخمش : من رواه بالسين المهملة يشدهم ويشجعهم ، مأخوذ من الحماسة . ومن رواه بالشين المعجمة فمعناه يهيجهم ، ويحضهم يقال : حمشت الرجل : إذا أغضبته .
(٦) فصمدت إليه : فقصدته .
(٧) ولول : يقال : ولولت المرأة إذا قالت ؛ يا ويلى وقال ابن دريد : الولولة : رفع المرأة صوتها فى فرح أو حزن .
(٨) السيرة النبوية لابن هشام ذ/٣/١٠١ .

وتابعه الزبير ، وكعب بن مالك من قيادات المهاجرين والأنصار فرأوه قد صدق مت عاهد الله عليه ، بعد أن غنى أرجوزته الحية فرحاً بفوزه بسيف الله ورسوله ، ولم يكن أبداً خلف الصفوف ، إنما كان على رأس الكتيبة الخرساء ، نستمع إلى وصف آخر له من كعب بن مالك ﷺ :

قال ابن عُقبة : قال كعب بن مالك :

خرج رجل من المشركين نحو المسلمين ، وهو يقول : استوسقوا كما استوسقت جزر الغنم ، وإذا رجل من المسلمين قائم ينتظره ،وعليه لأمته ، فمضيت حتى كنت من ورائه ، ثم قمت أقدر الكافر والمسلم بنظرى فإذا الكافر أفضلهما عدة وهيئة ، قال : فلم أزل أنتظرهما حتى التقيا ، فضرب المسلم الكافر على حبل عاتقه ضربة بالسيف،فبلغ بالسيف ، فبلغ وركيه ، وانفرق فرقتين [١] ، ثم كشف المسلم عن وجهه وقال :

كيف ترى يا كعب ؟! أنا أبو دجانة [٢] .

**بين هند وأبي دجانة :**

ونكث ﷺ مرة واحدة إكراماً لسيف رسول الله ﷺ .

روى البيهقى عن هشام بن عروة عن أبيه عن الزبير بن العوام ، قال : عرض رسول الله ﷺ سيفاً يوم أحد ، فقال :«من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ » فقمت فقلت: أنا يا رسول الله،فأعرض عنى،ثم قال:« من يأخذ هذا السيف بحقه ؟»، فقام سِماك بن خرشة ، فقال: أنا آخذه يا رسول الله بحقه فما حقه ؟ قال :« ألا تقتل بهِ مسلماً ،ولا تفر به عن كافر ». قال :فدفعه إليه ، وكان إذا أراد القتال أعلم بعصابة ، قال : قلت: لأنظرن إليه اليوم كيف يصنع. قال : فجعل لا يرتفع إليه شيء إلا هتكه وأفراه حتى انتهى إلى نسوة فى سفح جبل معهن دفوف لهن فيهن امرأة تقول :

| | |
|---|---|
| نحن بنات طارق | نمشى على النمارق |
| إن تقبلوا نعانق | ونبسط النمارق |
| أو تدبروا نفارق | فراق غير وامق |

---

(١) فرقه فرقتين : قسمه قسمين .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٤/ ٢٨٦ .

قال : فأهوى بالسيف إلى امرأة ليضربها ، ثم كفّ عنها ، فلما انكشف القتل قلت له : كل عملك قد رأيت ما خلا رفعك بالسيف على المرأة ثم لم تضربها ؟! قال :

إنى والله أكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أقتل به امرأة (١) .

أما زوجها أبو سفيان القائد العام :

فكان يمكن أن يكون كأمس الدابر ، لكن شِعره الذى نافح فيه عن نفسه ، هو الذى عرض قضيته .

وقال ابن إسحاق :

والتقى حنظلة بن أبى عامر - الغسيل - وأبو سفيان، فلما استعلاه ، حنظلة بن أبى عامر رآه شداد بن الأسود ، وهو ابن شَعوب (٢) قد علا أبا سفيان فضربه شداد فقتله ، فقال رسول الله ﷺ : « إن صاحبكم - يعنى حنظلة - تغسله الملائكة » فسألوا أهله ما شأنه ؟ فسئلت صاحبته عنه فقالت : خرج وهو جنب حين سمع الهاتفة (٣) . قال ابن هشام : ويقال : الهائعة . . . (٤) .

وقال شداد بن الأسود فى قتله حنظلة :

لأحمين صاحبى ونفسى بطعنة مثل شعاع الشمس

وقال أبو سفيان بن حرب ، وهو يذكر صبره فى ذلك اليوم ، ومعاونة ابن شعوب إياه على حنظلة :

ولو شئت نجّتنى كُميتٌ طمرَّة (٥) ولم أحمل النعماء (٦) لابن شعوب
وما زال مهرى مزجر الكلب (٧) منهم لدُن غدوة حتى دنت لغروب (٨)

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٣/ ٢٣٣ .
(٢) ابن شعوب : نسبة إلى أمه وهو من بنى عبد مناة بن كنانة .
(٣) الهاتفة : الصيحة . ويرد : الهائعة من الهياع وهو الصياح .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ذ/ ٣ / ١٠٨ .
(٥) كميت طمرة : فرس سريعة الوثب .
(٦) لم أحمل النعماء : لم أحمل من ابن شعوب علىَّ بمناصرتى وإنقاذى من حنظلة .
(٧) مزجر الكلب : يريد أنه لم يبعد عنهم إلا بمقدار الوضع الذى يزجر الكلب فيه .
(٨) دنت لغروب : يعنى الشمس ، وإنما أضمرها لأنه تقدَّم ذكرها بالغدوة .

أقـــــاتلـهم وأدّعـى يالَغـــــالـبِ        وأدفـــعـــهم عـنى بركن صـليب (١)

إنه يفخر بصبره بالحرب، وعدم فـراره منها، ولو شاء لفعل ذلك، إنما كان مهره بجواره، فلم يبعد منهم إلا بمقدار الموضـع الذى يُزجر الكلب فيه، وهو مضطر إلى ذلك فقد كان عـتب زوجه هند شديداً عليه فى بدر يوم جاء سليـماً معافىّ ، وترك أباها وأخاها وعمها جثـثاً فى بدر، فهو يريد غسل ذلك الوهن فى ذلك اليوم، ومن أجل هذا راح ينادى زوجه هنداً

فـــبـكّى ولا تُرعى (٢) مـقالة عـاذل        ولا تسأمى من عـبرة (٣) ونحـيب (٤)
أباك وإخــوانـاً له قـــد تتـــابعـــوا        وحُقَّ لهم مــن عـــبـــرة بنصــــيب

فهـو يدعو هنداً لتـتابع بكاءها، وعـويلها على الأمـجاد من أهلهـا، وحقّ لهم ذلك، لكن عليها أن تعلم أنه قد أخذ اليوم بثأرهم، وقتل قَتَلتهم فعليها أن تشتفى بعد هذه الحرقة القاتلة .

وسَلَّى الذى قـد كـان فى النفس أننى        قـــتلت مـن النجـــار كل نجــــيب
ومن هاشم قـرمـاً (٥) كريمـاً ومُصعـباً        وكـان لدى الهـيجـاء (٦) غـيـر هوب
ولو أنـنى لم أشـف نفـــسىَ منـهم        لكانت شجى(٧) فى القلب ذات ندوب(٨)
فآبوا وقد أودى(٩) الجلابيب(١٠) منهم        بهم خدب(١١) من معطب(١٢) وكئيب(١٣)
أصــــابهمُ مــن لم يكن لـدمــائـهم        كِفـــــاءً وولا فى خُطَّة بـضــــــريب

فقد قتلت من بنى النجار نجبـاءهم وأبطالهم ، وجندلت حمزة بن عبد المطلب الهاشمى قاتل أبيك وأخيك وعمك ورويت رمحى من مصعب بن عمير العبدرى،

(١) الصليب : الشديد كقوله تعالى : ﴿أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ .
(٢) لا تَرعى : لا تحفظى . ومن رواها تُرعى بضم التاء معناها لا تُبقى .
(٣) العبرة : الدمعة .        (٤) النحيب : البكاء بصوت .
(٥) القرم : الفحل الكريم من الإبل . وعنى هاهنا حمزة والمصعب : الفحل من الإبل .
(٦) الهيجاء : الحرب .        (٧) الشجا : الحزن .
(٨) الندوب: أثر الجروح .
(٩) أودى : هلك .        (١٠) الجلابيب : كناية عن أخلاط القبائل .
(١١) الخَدَب : الطعن النافذ إلى الجوف .        (١٢) المعطِب : الذى يسيل دمه .
(١٣) الكثيب : الحزين ، ومن رواه الكبيب فمعناه المكبوب على وجهه .

ولو لم أفعل ذلك وأشتفى من حرقة ثأرى لعدت والشجا فى قلبى له ندوب ، بينما آبوا وجروحهم تشخب دماً ، إنه يتكلم بصفته القائد العام للجيش فهو الذى قاد المعركة ، وهو الذى قتل الصناديد من آل هاشم وبنى النجار .

فجاء جواب حسان بن ثابت له فيما ذكر ابن هشام :

| | |
|---|---|
| ذكرت القروم الصيد [1] من آل هاشم | ولست لزورٍ قلته بمصيب |
| أتعجب أن أقصدت [2] حمزة منهم | نجيباً [3] وقد سميته بنجيب |
| ألم يقتلوا عمراً وعتبة وابنه | وشيبة والحجاج وابن حبيب |
| غداة دعا العاصى علياً فراعه | بضربة عضب [4] بلّه بخضيب [5] [6] |

وحين تفخر بقتل حمزة ،فلا بد أن تذكر مع هذا الفخر أنه هو الذى ذبح عتبة وشبة ابنى ربيعة والوليد بن عتبة،وأن بنى النجار هم الذى ذبحوا عمرو بن هشام أبا جهل ، وابنى الحجاج السهميان ،وابن حبيب،وهذا على ﷺ يخضب العاصى بن سعيد بدمه ، بضربة سيف قاصمة قضت عليه .

لقد كانت عواطف أبى سفيان مضطربة بين أن يفخر بصبره يوم أحد ،وأنه لم يفر،وبين كتمانه أمر إنقاذ ابن شعوب له بعد أن أودى على الموت، فلولا هذا لم يعرف عدم فراره حين فرت قريش الجولة الأولى،وآثر ذكر فضل ابن شعوب عليه حتى لا ينسى ثباته يوم أحد ، ففى رواية يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير تفصيلُ أوضح إذ يقول :

(لما انكشف المشركون ضرب حمزة فرس أبى سفيان بن حرب فوقع على الأرض،فصاح وحنظلة يريد ذبحه،فأدركه الأسود بن شداد،فحمل على حنظلة بالرمح فأنفذه ، ومشى إليه حنظلة بالرمح،وقد أثبت ثم ضربه الثانية فقتله،فذُكِر ذلك لرسول الله ﷺ فقال:«إنى رأيت الملائكة تغسله بين السماء والأرض بماء المزن فى صحاف الفضة » [7] .

(١) الصيد : الملوك المتكبرون .
(٢) أقصدت : أصبت .
(٣) النجيب : الكريم
(٤) العضب : السيف القاطع .
(٥) الخضيب : هنا الدم .
(٦) السيرة النبوية لابن هشام ذ/٣/ ٢٧٣ .
(٧) سبل الهدى والرشاد للصالحى عن ابن إسحاق وابن سعد وأبى نعيم ٤/ ٣١٤ .

أما رواية الواقدى ، فتلقى تفصيلاً وأضواء أكثر على هذا الحادث

وأخذ حنظلة بن أبى عامر سلاحه ، فلحق برسول الله ﷺ بأحد وهو يسوى الصفوف، قال: فلما انكشف المشركون اعترض حنظلة بن أبى عامر لأبى سفيان بن حرب، فضرب عرقوب فرسه، فاكتعت الفرس، ويقع أبو سفيان على الأرض، فجعل يصيح : يا معشر قريش : أنا أبو سفيان بن حرب، وحنظلة يريد ذبحه بالسيف، فأسمعَ الصوتُ رجالاً لا يلتفتون إليه من الهزيمة ، حتى عاينه الأسود بن شعوب، فحمل على حنظلة، بالرمح فأنفذه، فمشى إليه حنظلة بالرمح، وقد أثبته، ثم ضربه الثانية فقتله، وهرب أبو سفيان ، يعدو على قدميه فلحق ببعض قريش، فنزل عن صدر فرسه، وردف وراء أبى سفيان فذلك قول أبى سفيان [١] .

ولم ينج أبو سفيان من نعماء ابن شعوب عليه إذ يقول :

ولولا دفاعى يا ابن حرب ومشهدى ... لألفيت يوم النعف [٢] غيرَ مجيب
ولولا مكرى المهر بالنعف قرقرت [٣] ... ضباع عليه أو ضراء [٤] كليب [٥]

فهو يؤكد أن نجاة أبى سفيان إنما كانت لكرّه بعد فراره ، وإنقاذه له ، ولولا ذلك لكنت جثة لا تجيب فى المعركة ، ولولا ذودى عنك فى سفح الجبل ، لكنت طعمة الضباع والأسود الضارية هناك . هكذا كانت الجولة الأولى ، فقد فرت قريش لا تلوى على شىء كما قال الزبير :

( والله لقد رأيتنى أنظر إلى خدم هند بنت عتبة، وصواحبها مشمرات هوارب ما دون أخذهن قليل ولا كثير، إذ مالت الرماة إلى العسكر حين كشفنا القوم عنه، وخلَّوا ظهورنا للخيل ، فأُتينا من خلفنا ، وصرخ صارخ : ألا إن محمداً قد قُتِل ، وانكفأ علينا القوم بعد أن أصبنا أصحاب اللواء [٦] .

**أصحاب اللواء :**

ولقد كانت المعركة حامية الوطيس عند اللواء :

---

(١) المغازى ١/ ٢٧٣ .
(٢) النعف : سفل الجبل .
(٣) قرقرت ضباع : أسرعت لأكله .
(٤) الضراء : الضاربة .
(٥) الكليب : اسم لجماعة الكلاب .
(٦) السيرة النبوية لابن هشام ذ/ ٣/ ١١٠ .

ولما اشتد القتال يومئذ جلس رسول الله ﷺ تحت راية الأنصار، وأرسل على ابن أبى طالب أن قدَّم الراية ، فتقدَّم على ، وقال : أنا أبو القصم [1] ، وصاح طلحة بن أبى طلحة صاحب اللواء، من يبارز فلم يبرز إليه أحد، فقال: يا أصحاب محمد، زعمتم أن قتلاكم فى الجنة، وقتلانا فى النار . كذبتم واللات، لو تعلمون أن ذلك حق لخرج إلىّ بعضكم، فبرز إليه على بن أبى طالب، فالتقيا بين الصفين، فبدره [2] علىّ فصرعه، ولم يجهز عليه، فقال له بعض أصحابه، أفلا أجهزت عليه؟ فقال: إنه استقبلنى بعورته فعطفتنى عليه الرحم، وعرفت أن الله تعالى قتله، وكان قتل صاحب لواء المشركين تصديقاً لرؤيا رسول الله ﷺ: « كأنى مردف كبشاً ». فسُرَّ رسول الله، وأظهر التكبير، وكبر المسلمون ، وشدوا على المشركين يضربونهم، حتى اختلت صفوفهم، قال أبو عبيدة الزبير بن بكار ، وفى ذلك يقول الحجاج بن عِلاط السلمى :

| | |
|---|---|
| لله أى مذبب [3] عن حرمة | أعنى ابن فاطمة المعمَّ [4] المخولا |
| جادت يداك له بعاجل طعنة | تركت طليحة للجبين مجدَّلاً [5] |
| شددت شدة باسل فكشفتهم | بالجر إذ يهوون أخول أخولا [6] |
| وعللت [7] سيفك بالدماء ولم تكن | لترده حرّان [8] حتى ينهلا |

وصار أصحاب رسول الله ﷺ كتائب متفرقة ، فحاسوا [9] العدو ضرباً حتى أجهضوهم [10] عن القتال، فحمل لواءهم أبو شيبة عثمان بن أبى طلحة، فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب، فضربه بالسيف على كاهله فقطع يده ورجله حتى انتهى إلى مؤتزره [11] ، وبدا [12] سحره [13] فقتله ، فحمله أبو سعد بن أبى طلحة ، فرماه سعد بن أبى وقاص، فأصاب حنجرته، فدلع لسانه، فقتله، فحمله مسافع بن طلحة، فرماه عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح ، فقتله، فحمله الحارث بن

---

(1) أبو القصم : أبو الدواهى العظيمة .
(2) بدره : أسرع إلى ضربه .
(3) المذبب : المدافع .
(4) المعم : الكريم الأعمام .
(5) المجدّل : اللاصق بالأرض .
(6) أخول أخولا : واحداً بعد واحد .
(7) العلل : الشرب بعد الشرب .
(8) حرّان : عطشان .
(9) حاسوا : قتلوا .
(10) أجهضوهم : نحّوهم وأزالوهم عن مكانهم .
(11) مؤتزره : وسطه .
(12) بدا : ظهر .
(13) سَحْره : رئته .

طلحة فرماه عاصم بن ثابت فقتله ،كلاهما يشعره سهمًا [1] فيأتى أمه سلافة بنت سعد بن الشهيد [2] ،فيضع رأسه فى حجرها ، فتقول: يا بنى: من أصابك ؟ فيقل : سمعت رجلاً يقول خذها ، وأنا ابن الأقلح،فنذرت إن أمكنها الله من رأس عاصم أن تشرب فيه الخمر،وجعلت لمن جاء به مائة من الإبل،فحمل اللواء كلاب بن طلحة بن أبى طلحة،فقتله الزبير بن العوام ،وقيل:قزمان ،فحمله الجلاس بن طلحة،فقتله طلحة بن عبيد الله،فحمله أرطأة بن شرحبيل،فقتله على ابن أبى طالب،فحمله شريح بن قارظ ، فليس يدرى من قتله ، فحمله أبو زيد ابن . . عبد مناف بن هاشم بن عبد الدار فقتله قُزمان ،فحمله قاسط بن شُرحبيل فقتله قزمان أيضًا ،فحمله صؤاب غلام لهم حبشى فقالوا : لا نؤتين من قبلك، فقُطعت يمينه،فأخذ اللواء بشماله،فقطعت،فالتزم القناة بصدره وعنقه،وقال: اللهم هل أعزرت [3] ؟ فقالوا: نعم. فرماه قزمان فقتله ،وهو أثبت الأقاويل ، فتفرق المشركون،فأخذت اللواء عمرة بنت علقمة الحارثية، فأقامته فثابوا عليه [4]، وفى لفظ ، لاثوا به [5] . ولما انكشف [6] المشركون منهزمين ، لا يلوون [7] على شيء ، ونساؤهم يدعون بالويل [8] ، وتبعهم المسلمون يقتلونهم حيث شاؤوا ، حتى أجهضوهم عن العسكر .

قال الزبير بن العوام ، والبراء بن عازب : لقد رأيتنا ننظر إلى خدم [9] هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب يرفعهن عن سوقهن [10] حتى بدت خلاخيلهن [11] ، وانهزم القوم ما دون أخذهن قليل ولا كثير ، وكانت الهزيمة لا شك فيها ، ودخل المسلمون عسكر المشركين فانتهبوه [12] .

فقال حسان بن ثابت فى ذلك :

---

(١) يُشعر سهماً : يرمية به حتى يُدخل النصل فيه .
(٢) سُلافة : اسم امرأة مشركة .
(٣) أعزرت : أعذرت . كان فى لسانه عجمة فأبدل الزاى بالذال .
(٤) ثابوا : رجعوا .
(٥) لاثوا به :اجتمعوا حوله والتفوا .
(٦) انكشفوا : انهزموا .
(٧) لا يلوون :لا يلتفتون ، ولا يعطف بعضهم على بعض .
(٨) ويل : كلمة تقال لمن وقع فى بلية أو هلكة لا يترحم عليه .
(٩) خدم هند : جمع خَدَمة ، وهى الخلخال ، والمعنى أنهن شمرن ثيابهن حتى بدت خلاخيلهن .
(١٠) السوق : جمع ساق .
(١١) الخلاخيل : جمع خلخال وهو معروف .
(١٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٤/ ٢٨٧-٢٨٩ .

فـخـرتم باللواء وشـر فـخـر ... لـواء حـين رُدَّ إلـى صـؤاب
جـعلتم فـخـركم فـيـه بعـبـد ... وألأم مـن يطـا (١) عَفَرَ (٢) التراب
ظننتم والـسـفـيـه له ظنونٌ ... ومـا أن ذاك مـن أمـر الصـواب
بأن جـلادنـا يوم التـقـينا ... بمكة بيـعكم حُمـر العـيـاب (٣)
أقـرَّ لعين أن عُصـبـت يداه ... ومـا أن يُعـصـبـان على خـضـاب

قال ابن هشام : آخرها بيتًا يروى لأبى خِراش الـهذلى ، وأنشد فيه له خلف الأحمر ، فى أبيات له ، يعنى امرأته فى غـير حديث أحد ، وتروى الأبيات أيضًا لمعقل بن خويلد الهذلى .

قال ابن إسحاق : وقال حسان بن ثابت فى شأن عَمرة بنت علقمة الحارثية :

إذا عـضل (٤) سـيـقت إلينا كـأنهـا ... جَداية (٥) شركِ (٦) معلمات الحواجب
أقمنـا لهم طعنًا مبـيرًا (٧) منـكّلا (٨) ... وحـزناهم بالـضـرب من كل جـانب
فلولا لواء الحـارثيـة (٩) أصبـحوا ... يباعون فى الأسواق بيع الجلائب (١٠)

قال ابن هشام: وهذه الأبيات فى أبيات له .

لقد كان اللواء والصراع حـوله أعنف المواقف فى الجولة الأولى من المعركة ، وكـان التحـدى الذى توجه إلى المـسلمين ابتـداءً من طلحـة بن أبى طلحة كـبش الكتـيبة ، حـتى ليحلف باللات أنهـم لكاذبون فى دعواهم بالجنة للمـؤمنين والنار للكافرين ، وكان خروج فتى الفتيان له على بن أبى طالب الذى طار ذكره منذ بدر ولما يناهز الخامسة والعشرين من عمره ، ليـتبارى الشعراء بعدها فى وصف بطولته

---

(١) يطا : أراد يطأ فسهل الهمزة .
(٢) العَفَر : التراب الذى لونه بين الحمرة والغبرة .
(٣) العياب : جمع عيبة ، وهى التى يرفع الرجل فيها متاعه .
(٤) عَضَلٌ سيقت إلينا : اسم قبيل من العرب ، خرج مع قريش وهم من بنى كنانة .
(٥) الجداية : الصغيرة من أولاد الظباء .
(٦) شرْك : اسم موضع .
(٧) مبيرًا : مهلكًا .
(٨) منكّلا : أى قامعًا لهم ولغيرهم .
(٩) الحارثية : نسبـة إلى بنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، وأخوها الحليس بن علقمـة سيد الأحابيش من بنى كنانة الذى انضموا مع قريش فى أحد .
(١٠) الجلائب : ما جلب إلى الأسواق ليباع فيها .

التى قصمت العدو اللدود .

فعلى ابن فاطمة بنت أسد بن هاشم ، وأى نسب فى الأرض يفوق نسبه فأعمامه وأخواله من بنى هاشم ، وهو الهاشمى العريق عمًا وخالاً ، ومن لطليحة العبدرى غيره يجندله صريعًا بعد تحديه السافر ، وكانت المواجهة عظيمة فقد كانوا يسقطون الواحد تلو الآخر ، حتى تروَّى السيف بالدم .

وانتهت الجولة الأولى بسقوط اللواء بعد أن صرع العبد صؤاب ، وفرت قريش وكنانة تدوس لواءها بأرجلها ،ترجو النجاة بأرواحها ، غير أن الجولة الثانية التى ابتدأت بكرّ خالد بن الوليد على المسلمين من خلفهم بعد أن أخلوا الجبل ، وغدا ظهر المسلمين مكشوفًا ، فاستردت قريش وكنانة معنوياتها من جديد ، وعادوا لمواجهة المسلمين الذين حصروا بين المشركين من أمامهم ومن خلفهم ، فجاء دور الحارثية عمرة بنت علقمة التى رفعت اللواء بيدها ، والتف حولها المشركون،وهذا ما يعنيه حسان بقوله :

ولولا لواء الحارثية أصبحوا ... يباعون فى الأسواق بيع الجلائب

**الجولة الثانية :**

أربع لقطات متتاليات ، كانت فى الجولة الثانية،ألقت الضوء على أهم أحداثها .

**اللقطةالأولى** : محاولة قتل رسول الله ﷺ،وهوالهدف الاستراتيجى الأكبر لقريش؛لأنهم يرون بقتله إنهاء الإسلام فى الأرض،ونشهد على الساحة أخوين شقيقين .

**أحدهما** : سعد بن أبى وقاص ، وقد نثر كنانته ، وهو يرمى بالسهام بين يدى رسول الله ﷺ فقد روى البخارى والحسن بن عرفة ، عن سعد قال : نثر لى رسول الله ﷺ كنانته يوم أحد وقال:« ارم فداك أبى وأمى » (١) وقال الزهرى: السهام التى رمى بها سعد يومئذ كانت ألف سهم (٢) .

---

(١) البخارى ٥ / ٣٢ - ٣٣ . وسبل الهدى والرشاد للصالحى .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ذ/٣/ ١٢٥ .

**ثانيهما** : عتبة بن أبى قاص . وكان أكبـر هدفه قتل محمد ﷺ ، وحيث لم يتمكن من ذلك ، فرمى بالحجر فى وجهه فكسر رباعيته ، وأدمى شفته .

ويرى سعد ما فعل أخوة عتبة برسول الله ﷺ فيتميز غيظاً ، ويقول :

والله ما حرصت على قتل رجل كحرصى على قتل عتبة بن أبى وقاص، وإن كان ما علمت لسيىء الخلق، مبغضاً فى قومه ، ولقد كفانى منه قول رسول الله : « اشتد غضب الله على من دمَّى وجه رسوله » .

قال حسان بن ثابت الناطق الإعلامى للمسلمين لعتبة بن أبى وقاص :

إذا الله جـازى مـعـشــراً بفـعـالهم ... وضــرَّهم الرحـــمن رب المشـــارق

فـأخـزاك ربى يا عـتـيب بن مـالك ... ولقَّاك قـبل الموت إحـدى الصـواعق

بسـطت يمـيناً لـلنبـى تعــمـــداً ... فـأدمـيت فـاه ، قُطعت بالبـوارق (١)

فــهـــلا ذكـــرت الله والمـنزل الذى ... تصير إليـه عند إحدى البوائق (٢) (٣)

قال ابن هشام : تركنا منها بيتين أقذع فيهما .

أما البيتان اللذان تركهما ابن هشام فهما فى ديوان حسان :

لقـد كـان خـزياً فى الحـيـاة لقـومـه ... وفى البعث بعد الموت إحدى العوالق(٤)

فمن عاذرى من عــبد عذرة (٥) بعدما ... هوى فى دجوجى من البحر(٦) خافق(٧)

أما الذى ترجم دعوة حسان وغيظة إلى فـعل،فكان حاطب بن أبى بلتعة،كما روى الحاكم عنه : أنه لما رأى مـا فعل عتـبة برسول الله ﷺ قـال: يا رسول الله من فعل هذا بك ؟قـال :«عتبـة بن أبى وقاص » قلت : أين توجه ؟ فـأشار إلى حيث توجه ، فمضيت حتى ظفرت به ، فضربته بالسيف فطرحت رأسه ، فأخذت

---

(١) قُطَعت بالبوارق : السيوف ، والبوارق الدواهى ومصائب الدهر .

(٢) البوائق : المهالكَ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ذ/ ٣/ ١١٧ .

(٤) العوالق : ما علقه من الشر .

(٥) عبد عذرة : كانت أم أبى وقاص من بنى عُذرة .

(٦) دجوجى من البحر :ظلمة شديدة من البحر .

(٧) ديوان حسان بن ثابت ١/ ١٦٢ .

رأسه وفرسه ، وجئت به إلى رسول الله ﷺ، فـفرح بذلك ، ودعا لى فقال : « رضى الله عنك » .

**اللقطة الثانية** :وكانت لعدو لدود آخر . كان قد توعد رسول الله ﷺ بقتله . إنه أبى بن خلف الجمحى .

قال ابن إسـحاق: وكان أبى بن خلف كمـا حدثنى صالح بن إبراهيم بن عـبد الرحمن بن عـوف ، يلقى رسول الله ﷺ بمكة ، فيـقول: يا محـمد . إن عندى العوذ (١) ، فرساً أعلفه كل يوم فرقاً من ذرة (٢) ،أقتلك عليه ، فيقول رسول الله ﷺ :« بل أنك أقتلك إن شاء الله » .

قال :فلما أسند رسول الله ﷺ فى الشعب أدركه أبى بن خلف وهو يقول :

أى محمد، لا نجوتُ إن نجوت، فقال القوم: يا رسول الله، أيعطف عليه رجل منا ؟ فـقال رسـول اللهﷺ: «دعـوه» فلما دنا تنـاول رسول الله ﷺ الحـربة من الحارث بن الصـمة(يقول بعض القـوم فيمـا ذكر لى:فلما أخـذها رسول الله ﷺ انتفض بها انتفاضة، تطاير عنه تطاير الشعراء (٣) عن ظهر البعير إذا انتفض بها. ثم استقبله فطعنه فى عنقه طعنة تدأدأ (٤) منها عن فرسه مـرارا، فلما رجع إلى قريش وقد خدشه فى عنقه خدشاً غير كبيـر فاحتقن الدم، قال: قتلنى والله محمد ؟ قالوا له: ذهب والـله فـؤادك ! والله إن بـك من بأس (٥)، قال: إنـه قد كان قـال لى بمكة: «أنا أقتلك» . فوالله لو بصق علىَّ لقتلنى .

فمات عدو الله بسرف (٦) ، وهم قافلون به إلى مكة .

قال ابن إسحاق : فقال حسان بن ثابت فى ذلك :

لقـــد ورث الضــــلالة عن أبيـــه ... أبـىٌّ يـوم بـارزه الـرســــــول

أتيـت إليـــه تحــمل رِمَّ عـظم (٧) ... وتوعــده (٨) وأنت بـه جــهــول

---

(١) العوذُ : اسم الفرس .

(٢) مكيال يسع ستة عشر مداً . وقال بعضهم : يسع اثنى عشر رطلاً .

(٣) الشَعراء : قال ابن هشام : ذباب له لذغ .

(٤) تدأدأ : قال ابن هشام : تقلَّب عن فرسه فجعل يتدحرج .

(٥) إن بك من بأس : ما بك من بأس .

(٦) سرف : اسم موضع .

(٧) تحمل رِمَّ عظم : أى عظماً رميماً بالياً . والقصة معروفة .

(٨) توعده : تهدده .

وقـــد قـــتلت بنـو النجـــار مـنكم　　أمـيـــة إذ يغــوث : يـا عـــقـــيل
وتبَّ ابـنا ربيـــعـــــة إذ أطاعـــا　　أبا جـــهل لأمـهـــمـــا الهـبـــول [1]
ووأفلـت حـــــارث [2] لما شـــغلـنا　　بأســـر القـوم أســرته [3] فـليـل

وقال حسان بن ثابت أيضاً فى ذلك :

ألا مـن مـــبلـغ عنى أُبـيـــــاً　　لقـــد أُلقـيت فى سُحـق السعـــيـر
تمنـى بالضـــلالة مـن بعـــيـــدٍ　　وتقـــــسم إن قـــدِرت مع الـنذور
تمنـيك الأمـــانى من بـعـــيـــد　　وقـــول الـكفــر يرجع فـى غـــرور
فـقـد لاقـتك طـعنة ذى حـفـاظ [4]　　كـــريم البـــيت ليس بذى فـــجـــور
له فـــضل عـلى الأحـــيـــاء طراً　　إذا نابـت ملمـــــات الأمـــور [5]

فقد عرض حسان أبى بن خلف صريعاً ملحقاً بأخـيه أمية ،وأنداده عتبة وشيبة ابنى ربيعة ، بعد أن كان يستغـيث طالباً الأسر ،وقد يكون مقتل أبى بن خلف من أكبر الأهداف الثمـينة التى تحققت فى أحد ، فهو عدو لدود حـقود من طبقة أبى جهل ، والنضـر بن الحارث ، وعقبـة بن أبى معيط ، وهو أشـقى الناس ، وقد ربطه رسول الله ﷺ مع فـراعنة الأمم السابقين ،فقال :« من حـافظ عليها - أى الصلاة - كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيـامة ، ومن لم يحافظ عليها لم يكن لـه نـور ولا برهـان ولا نجاة ، وكـان يوم الـقيامـة مع فرعون وهـامان وأبى بن خلف » [6].

ومـن المناسب أن يذكـر هـذا العـدو اللدود باستهـزائه بمحمد ﷺفى مكة يوم ( مشى إلى رسوله الله ﷺ بعظم بالٍ قد ارفتَّ فقال: يا محمد،أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعدما أرم ؟! ثم فتـه فى يده ، ثم نفخه فى الريح نحو رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ:

(١) الهبول : الفقد .
(٢) حارث : الحارث بن هشام .
(٣) أسرته فليل : مفلولون أى مهزومون .
(٤) الحفاظ : الغضب فى الحرب .
(٥) السيرة النبوية لابن هشام ذ/ ٣/ ١٢٢-١٢٤ .
(٦) مجمع الزوائد للهـيثمى . وقال المحقق فيـه : رواه أحمد والطبرانى فى الكبير والأوسـط . ورجال أحمد ثقات .

« نعم أنا أقول ذلك يبعثه الله وإياك بعدما تكونان هكذا، ثم يدخلك الله النار» [1] وذلك فى قوله :

أتيتَ إليه تحمل رِمَّ عظمٍ وتوعده وأنت به جهول

ولم ينس فى الأبيات الثانية أن يشير إلى جريمة أبى يوم كان يتوعد الرسول ﷺ بقتله فى مكة :

تمنى بالضلالة من بعيد وتقسم أن قدرت مع النذور
تمنيك الأمانى من بعيد وقولك الكفر يرجع فى غرور

**اللقطة الثالثة** : وترتبط بأخطر حدث تم فى غزوة أحد ، وهو مقتل حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه .

قال ابن هشام : ولما وقف رسول الله ﷺ على حمزة قال:

« لن أصاب بمثلك أبداً وما وقفت موقفاً قط أغيظ إلىَّ من هذا » .

ثم قال :« جاءنى جبريل فأخبرنى أن حمزة بن عبد المطلب مكتوب فى أهل السموات السبع : حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله » .وكان رسول الله ﷺ وأبو سلمة بن عبد الأسد ، وحمزة بن عبد المطلب إخوة من الرضاعة أرضعتهم مولاة لأبى لهب [2] .

قال ابن إسحاق :ووقعت هند بنت عتبة - كما حدثنى صالح بن كيسان ، والنسوة اللاتى معها يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ يجدعن [3] الآذان والآنف ، حتى اتخذت من آذان الرجال خدماً [4] وقلائد، وأعطت خدمها وقلائدها وقِرَطتها [5] وحشياً غلام جبير بن مطعم، وبقرت [6] عن كبد حمزة فلاكتها [7] فلم تستطع أن تُسيغها فلفظتها [8] ، ثم علت على صخرة مشرفة، فصرخت بأعلى صوتها فقالت :

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ذ/ ٣/ ٤٥٥ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ذ/ ٣/ ١٣٩ ، ١٤٠ .
(٣) يجدّعن :يقطعن ، وأكثر ما يقال فى الأنف.
(٤) خَدَماً : جمع خَدَمَة ، وهى الخلخال .
(٥) قِرطتها : أطواقها التى تطوق صدرها بها .
(٦) بقرت : شقت .
(٧) لاَكتها : مضغتها .
(٨) لفظتها : طرحتها .

نحن جزيناكم بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات سُعْرِ (1)
ما كان عن عتبة لى من صبر ولا أخى وعمّه وبكرى
شفيت نفسى وقضيت نذرى (2) شفيت وحشى غليل صدرى (3)
فشكر وحشى علىَّ عمرى حتى ترمَّ أعظُمى (4) فى قبرى (5)

لقد افتتحت هند بنت عتبة كبرى حاقدات التاريخ - فيما قبل إسلامها - المعركة، فتحتها عملياً حين راحت تقطع مع صويحباتها الآذان والآنف ،ويتخذنها قلائد ، وتوجت ذلك كله ببقر بطن حمزة بن عبد المطلب ،واستلال كبده ، ومضغها لتأكلها لعلها تشفى حقدها ،وتأرها من حمزة الذى قتل الأحبة، أباها وعمها وأخاها ، وأعلنت النصر فى أحد بقولها :

نحن جزيناكم بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات سعر

وهى لا تخفى مصابها العظيم بفقد أعز أحبائها ، ولا تخفى أنها اشتفت بقتل حمزة من وحشى ، فشكر وحشى لها حتى تصبح عظامها رميماً بالية فى القبر.

وكما برزت الهندان فى بدر ، فهاهما تبرزان فى أحد .

هذه عقلية بنى عبد مناف ابنه عم هند بنت عتبة، وبنت أثاثة بن عباد بن المطلب تبرز لها قائلة :

خَزيتِ فى بدر وبعد بدر يا بنت وقاعٍ (6) عظيم الكفر
صبَّحك الله غداة الفجر ملهاالشميين الطوال الزهر (7)
بكل قطاع حسام يفرى (8) حمزة ليثى وعلى صقرى
إذ رام شيب (9) وأبوك غدرى فخضبا منه ضواحى النحر (10)

---

(1) ذات سعر : ذات التهاب .

(2) النذر : هو نذرها أن تلوك كبد حمزة إن ظفرت به ، ويتضح ذلك من الأبيات التى تليها .

(3) الغليل : حرارة الجوف .

(4) ترمَّ أعظمى : تبلى والعظم الرميم هو العظم البالى.

(5) السيرة النبوية لابن هشام ذ/ ٣/ ١٣٣ . وعتبة أبوها وشيبة عمها ، والوليد أخوها ، وأما بكرها فهو أبان بن حفص بن المغيرة ، ومن المرجح أنه قتل ببدر كافراً . (انظر : جمهرة أنساب العرب ٧٧) .

(6) الوقاع : كثير الوقوع فى الدنايا .

(7) الزهر : البيض ، واحدهم أزهر .

(8) يفرى : يقطع .

(9) شيب : هو شيبة فرخَّمته فى غير النداء على الترخيمين جميعاً .

(10) ضواحى النحر . ما ظهر منه ، والنحر : الصدر .

لقد قُتل ليثها حمزة ، أما صقرها على فلا يزال حياً يثأر لها من قتلة حمزة بن عبد المطلب ، وكان شيبة وعتبة والوليد يريدون إنهاء الليوث الثلاثة يوم بدر ، فخضب على وحمزة نحور قادة بنى أمية وأوردوهما شعوب .

إن ضعف المرأة وحقدها لا يمكن أن تخفيه على أحد، ولأنها امرأة أكرم أبو دجانة ﷺ سيف رسول الله ﷺ أن تقتل به امرأة ، وإلا لكانت كأمس الدابر مع أبيها وعمها وأخيها وبكرها، وحيث أكرمها الله تعالى ومنَّ عليها بالحياة ، لم تجد حرجاً أن تتابع التشفى والثأر دون مواربة ولا خجل . نعم هى تعلن أنها بقرت بطن حمزة عن الكبد:

| | |
|---|---|
| شفيت من حمزة نفسى بأحد | حتى بقرتُ بطنه عن الكبد |
| أذهَبَ عنى ذاك ما كنت أجد | من لذعة الحزن الشديد المعتمد [1] |
| والحرب تعلوكم بشؤبوب برد [2] | تُقدِم إقداماً عليكم كالأسد [3] |

ولئن كانت شريعة الجاهلية تبيح لهذه الموتورة الثائرة أن تروى هذا الحقد ، لكنها لا تبيح ذلك لزوجها القائد العام أبى سفيان بن حرب .

قال ابن إسحاق :

وقد كان الحليس بن زبان أخو بنى الحارث بن عبد مناة وهو يومئذ سيد الأحابيش[4]، قد مر بأبى سفيان، وهو يضرب فى شدق حمزة بن عبد المطلب بزج الرمح ويقول : ذق عقق [5] .

فقال الحليس: يا بنى كنانة هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون لحماً [6].

فقال : ويحك اكتمها عنى ، فإنها كانت زلة [7] [8] .

واضطر بعدها إلى التنصل من كل آثار هذا الحقد فى التشفى بالجثث الميتة ،

---

(١) المعتمد : القاصد المؤلم .

(٢) بشؤبوب برد : دفعة المطر الشديد .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ذ/ ٣/ ١٣٤ .

(٤) سيد الأحابيش : سيد الأعراب الذين كانوا حول مكة ومعظمهم كان من قبائل بنى كنانة .

(٥) ذق عقق : أراد يا عاق ذق جزاء عقوقك وخروجك على عشيرتك .

(٦) لحماً : يريد أنه ميت لا يقدر عى الانتصار .

(٧) زلة : خطيئة وفضيحة طلب أبو سفيان كتمانها .

(٨) المصدر نفسه ١٣٥ .

فقد أكرمها المسلمون وواروها قليب بدر ، إنها جثث المشركين ، بينما كان هذا التمثيل الفظيع من مشركى قريش بجثث المسلمين .

قال ابن إسحاق : ثم نادى أبو سفيان : إنه كان فى قتلاكم مثُل، والله ما رضيت ، وما سخطت ، وما نهيت وما أمرت [1] .

إنها امرأة موتورة، لم يفكر أحد من المسلمين أن يرد عليها مباشرة ، إلا أن عمر رضي الله عنه آذاه هذا التحدى والتشفى بأعظم سادات المسلمين حمزة، فقال لحسان الناطق الإعلامى الإسلامي الذى لا بد أن يدلى بدلوه فى كل حادثة وكل مناسبة فهو وزير الإعلام فى الدولة المسلمة.

قال ابن إسحاق : فحدثنى صالح بن كيسان أنه حُدِّث أن عمر بن الخطاب قال لحسان بن ثابت : يا ابن الفريعة [2] ، لو سمعت ما تقول هند ، ورأيت أشَرَها ، قائمة على صخرة ترتجز بنا وتذكر ما صنعت بحمزة ؟

قال له حسان : والله إنى لأنظر إلى الحربة تهوى ، وأنا على رأس فارع - أطمة - فقلت : والله إن هذا السلاح ما هى بسلاح العرب ، وكأنها إنما تهوى إلى حمزة ، ولا أدرى ، لكن أسمعنى بعض قولها أكفكموها ، قال : فأنشده عمر بن الخطاب بعض ما قالت . فقال حسان بن ثابت :

أشرت لكاع وكان عادتها  لؤمًا إذا أشرت مع الكفر

قال ابن هشام : وهذا البيت فى أبيات فيها تركناها ، وأبياتًا أيضًا له على الدال ، وأبياتًا أخر على الذال لأنه أقذع فيها .

أشِرَت [3] لكاع [4] وكان عادتها  لؤم إذا أشرت مع الكفر
لعن الإله وزوجها معها  هند الهنود طويلة البظر [5]

---

(١) المصدر نفسه ١٣٦ .

(٢) ابن الفريعة : هى أم حسان بن ثابت رضي الله عنه ، وكان ينسب إليها ، وهى الفريعة .

(٣) أشرت : بطرت .

(٤) لكاع : هى اللئيمة : يقال للمؤنث ولكاع ، وللمذكر لكع .

(٥) البظر : ما بين اسكتى المرأة والبظراء طويلته ، كما وصفها هنا .

أخرجت مُرْقِصةً [1] إلى أُحُدِ ... في القوم مُعنِقةً [2] على بكر [3]
بكرِ ثقال [4] لا حراك به ... لا عن معاتبة ولا زجر
وعصاك استك تتقين بها ... دق العُجابَة [5] عارى الفهر [6]
قرحت عجيزتها ومشرجُها [7] ... من نصّها نصّا [8] على القهر
ظلت تداويها زميلتها ... بالماء تنضحه وبالسدر

لقد قدّم حسان صورة تمثيلية شاخصة لهند بنت عتبة بعد الشتم المناسب لها ، وهى على جملها الهزيل البطىء ، حيث فر الناس على ركابهم وخيلهم ، وهى تخاف أن تقع أسيرة بين المسلمين ، وهذا جملها لا يطاوعها على الحركة ، وهى تتحرك وتقفز عليه ، تضربه بالحجر ، وتضرب عرقوبيه ليغذ السير ، وترتفع وتنخفض فوقه حتى تكسرت عجيزتها وشرجها ، وتقرحت من الجروح ، تحرك هذا البكر البطىء ، ولم تكن هذه القروح والجروح عندها إلا من شدة قهر جملها على سرعة السير ، حتى مكثت مدة تداوى عجيزتها وشرجها وتنضح الماء عليه وتغسله بالسدر كذلك .

وينتقل بنا من هذا المشهد إلى لقطة ثانية يعود بنا معها إلى بدر :

أقبلت زائرة مبادرة ... بأبيك وابنك يوم ذى بدر
وبعمك المسلوب بزته [9] ... وأخيك منعفرين [10] فى الحفر

ها هو يضع الأربعة وجثثهم وقد عُفّروا بالتراب فى قليب بدر ، العم والأب والابن البكر والأخ ، وذلك ردًا على قولها يوم راحت تشتفى من حمزة :

ما كان عن عتبة لى من صبر ... ولا أخى وعمّه وبكرى

---

(1) مُرقصة : لاعبة .
(2) معنقه : راكبة .
(3) البكَر : الجمل .
(4) ثقال : البطىء من الإبل .
(5) العجابة : بالضم عصب مركب فيه فصوص من عظام كفصوص الخاتم يكون عند رسغ الدابة ، وكل عصبة فى يد أو رجل .
(6) الفهر : الحجر قدر ما يدق به الجوز أو ما يملأ الكف .
(7) المَشرج : فرج المرأة .
(8) نصٌ : نص الدابة استخرج أقصى ما عند دابته من السير .
(9) المسلوب بزته : الذى سلب لباسه وسلاحه فى الحرب .
(10) منعفرين : من التعفير بالتراب داخل بئر بدر .

ويتابع الأمر حتى يصدّق للمقولة التى رمتها بالفاحشة عند زوجها الفاكه بن المغيرة[1]، وقبل زواجها بأبى سفيان :

| | |
|---|---|
| ونسيت فاحشة أتيت بها | يا هند ويحك سبة الدهر |
| فرجعت صاغرة بلا ترة [2] | مما طلبت بها ولا وتر [3] |
| زعم الولائد أنها ولدت | ولدًا صغيرًا كان من عهر [4] [5] |

وإنه بعد أن صدَّق إشاعة الفاحشة بها ، تراجع قليلاً وذكر أن الولائد يزعمن أنها ولدت ولدًا من زناها ، ونحن نحسب أن حسانًا لا يمكن أن يصل به الحقد إلى هذا الحد من القذف الحرام دون بينة ، وأن هذه الأبيات منحولة عليه ، ومبادئ الإسلام وأخلاقه تأبى على شاعر الرسول ﷺ ، وهو يمثل الرسالة والرسول ، أن يقذف أعراض الحرائر بالزنا ، وعلى الأقل أن الأبيات الأخيرة الثلاثة مضافة إلى القصيدة إن سلمنا ببقية الأبيات له .

**اللقطة الرابعة والأخيرة :**

وكانت بعد أحد ، يذكرها ابن إسحاق بقوله :

فخرج رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى حمراء الأسد ، وهى من المدينة على ثمانية أميال ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم ،فيما قال ابن هشام ، فأقام بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء، ثم رجع إلى المدينة،وقد مر به - كما حدثنى عبد الله ابن أبى بكر - معبد بن أبى معبد الخزاعى ، وكانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عيبة نصح [6] لرسول الله ﷺ بتهامة صفقتهم [7] معه ، لا يخفون عنه شيئًا كان بها ،ومعبد يومئذ مشرك فقال :يا محمد ، أما والله لقد عزَّ علينا ما أصابك ، ولوددنا أن الله عافاك فيهم ، ثم خرج رسول الله ﷺ بحمراء الأسد ، حتى لقى أبا سفيان بن حرب ، ومن معه بالروحاء ، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه وقالوا : أصبنا حد أصحابه وأشرافهم وقادتهم ثم نرجع قبل أن

---

(١) الفاكه : ما روى عن قذف الفاكه بن المغيرة لهند بالزنا يوم كانت زوجته .

(٢) ترة : نقص أو مظلمة .

(٣) وتر : الثأر .

(٤) عهر : زنا .

(٥) ديوان حسان بن ثابت ١ / ٣٨٤ .

(٦) عيبة نصح : موضع سر .

(٧) صفقتهم معه : اتفاقهم معه أو ميلهم معه .

نستأصلهم ! لنكرن على بقيتهم فلنفرغن منهم ، فلما رأى أبو سفيان معبدًا قال : ما وراءك يا معبد؟ قال : محمد قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط يتحرقون عليكم تحرقًا ، وقد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم ، وندموا على ما صنعوا فيهم من الحنق (1) عليكم شيئًا لم أر مثله قط . قال : ويحك ! ما تقول ؟

قال : ما أرى أن ترتحل حتى أرى نواصى الخيل . قال . فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم . قال : فإنى أنهاك عن ذلك . قال : والله لقد حملنى ما رأيت على أن قلت أبياتا من شعر . قال : وما قلت؟ قال : قلت :

كادت تهد (2) من الأصوات راحلتى ... إذ سالت الأرض بالجرد(3) الأبابيل(4)
تردى (5) بأسد كرام لا تنابلة (6) ... عند اللقاء ولا ميل (7) معازيل(8)
فظلت عدوا (9) أظن الأرض مائلة ... لما سموا (10) برئيس غير مخذول
فقلت: ويح ابن حرب من لقائكم ... إذا تغطمطت(11) البطحاء بالجيل(12)
إنى نذير لأهل البسل(13) ضاحية(14) ... لكل ذى إربة (15) منهم ومعقول
من جيش أحمد لا وخش(16) قنابله(17) ... وليس يوصف ما أنذرت بالقيل(18)

فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه .

لقد أثر هذا الشعر حتى غير مصير معركة ، وقلب موازين المواجهة ، وثنى جيشًا عن هدفه حين أحسن معبد وصف الجيش الإسلامى وقوته .

---

(1) الحنق : شدة الغيظ وقوته .
(2) تهد : تسقط لهول ما رأت من شدة الجيش وكثرته .
(3) الجرد : الخيل العتاق .
(4) الأبابيل : الجماعات يقال : إن واحدها إبيل .
(5) تردى : تسرع .
(6) التنابلة : القصار .
(7) الميل : جمع أميل ، وهو الذى لا رمح معه .
(8) المعازيل : الذين لا سلاح معهم.
(9) العدوة : المشى السريع أو الركض .
(10) سموا : ارتفعوا .
(11) تغطمطت : اهتزت وارتجت .
(12) الجيل : الصنف من الناس .
(13) البسل : أهل الحرم .
(14) الضاحية : البارزة للشمس.
(15) الإربة : الفعل .
(16) الوخش : رذالة الناس وأخساؤهم .
(17) قنابله : جمع قنبلة ، وهى القطعة من الخيل.
(18) القيل : القول .

# الفصل الثالث

## الشعر بعد معركة أحد

انتهت المعركة الحربية وابتدأت معركة العقيدة في الشعر ، حيث يتسابق الفريقان الآن لاحتلال الساحة العربية عن نتائج هذه الحرب وآثارها .

وبرز فرسان الشعر الثلاثة عند المسلمين: حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة، كما برز فرسان الشعر الثلاثة عند المشركين : عبد الله بن الزبعرى ،وضرار بن الخطاب ، وهبيرة بن أبي وهب ، لكنا نجد كعبًا بن مالك رضي الله عنه الفارس الأول في هذه المعركة ومن خلال هذه الأشعار التي برزت بعد المعركة نستطيع أن نقوّم الشعر ونحكم عليه فهو مصبوغ بالإعداد الكامل ، وتفريغ الطاقات الشعرية بهدوء وروية، وهو غير الشعر الذي يتم مباشرة ، وعفو الخاطر بمناسبة معينة .

لقد قدَّم لنا كعب رضي الله عنه أربع قصائد خالدات ابتداءً وليست ردًا على أحد ، إنما كانت عرضًا صادقًا عظيمًا وأمينًا للمعركة ولابد لنا قبل الولوج إلى شعر كعب أن نمضي معه فنشهد دوره في غزوة أحد ، فهو الفارس البطل المقاتل في معركة السيف كما هو الفارس البطل المقاتل في معركة القلم .

روى الطبراني بسند رجاله ثقات عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال : لما كان يوم أحد، وصرنا إلى الشعب كنت أول من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت :

هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم،فأشار إليَّ بيده أن أسكت ، ثم ألبسني لأمته ولبس لأمتي ، فلقد ضربت حتى جرحت عشرين جراحة ، أو قال :بضعة وعشرين جراحة،كل من يضربني يحسبني رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فلما عرف المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبلوا عليه ، ولما رأوه سالمًا كأنهم لم يصبهم شيء حين رأوه وفرحوا بذلك فرحًا شديدًا (١) وفي رواية : ( فلما عرف المسلمون رسول الله نهضوا به ونهض

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٤ / ٣٠٦ ، ٣٠٧ .

معهم نحـو الشعب ، ومعه أبو بكر الصديق ، وعـمر بن الخطاب ،وعلى بن أبى طالب ، وطلحة بن عـبيد الله ، والزبير بن العـوام ، والحارث بن الصَّمة ورهط من المسلمين ) [١].

ويروى لنا ابن إسحاق عـن محمد بن شهـاب الزهرى قال : (وكان أول من عرف رسـول الله ﷺ بعد الهـزيمة وقـول الناس :قتل رسول اللـه ﷺ كعب بن مالك. قال: عرفت عينيه تزهران من تحت المِغفَر . فناديت بأعلى صوتى : يا معشر المسلمين، أبشروا. هذا رسول الله ﷺ: فأشار إلىّ رسول الله ﷺ أن أنصت) [٢].

فلقد حدثنا عن مـشاعره رضي الله عنه بعد أن أن تحطمت مـعنويات المسلمين بخـبر مقتل رسـول الله ﷺ وكأنما ردت إليهم حيـاتهم حين عرفوه حـيًا ، وأن كعبًا هو أول من رآه ، من بريق عـينيه ﷺ فلم يتـمالك أن صـاح بالمسلميـن : يا معـشر المسلمـين أبشروا هذا رسـول الله ﷺ ، وجاء الأمـر المعاكس إليـه أن اصمت ، وحتى يتـحمل الخطر الذى سببـه بإعلان حياة النبى ﷺ ، حـيث سيشتـد هجوم المشركـين للقضـاء عليـه ، فـغدا الفدائى الأول فـى أحد ، والذى أعاد لنا سـيرة على رضي الله عنه ليلة الهـجـرة ،حيث لبس لأمـة الحـرب النبويـة ، ومضى يقـاتل ، والمشركون يتجهـون إليه، على أنه محمد بن عبد الله ، يقصـدون قتله ، وكلفته هذه الحرب الضـروس بضعًا وعشرين جـراحة كلها فداء نبـيه محمد علـيه الصلاة والسلام .

هذا الفارس الفدائى البطل الذى رأيناه فى قلب المعمـعة أسدًا هصورًا ، وليثًا ضاريًا ، ها نحن نشهده هنا البطل الأول فى معركة الشعر والشعراء .

**عينية كعب :**

وهى أكبر قصائد أحد ونكتفى بها نموذجا عن شعره يفتتحها بقوله :

ألا هل أتى غـسـان عنـا ودونـهـم ... من الأرض خرق[٣] سيره متنعنع[٤]

(١) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ١٢١ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ١٢٠ ـ ١٢١ .

(٣) الخرق : الفلاة الواسعة التى تخرق فيها الريح .

(٤) متنعنع : من رواه بالنون فهو المضطرب ، ومن رواه بالتاء فهو المتردد .

صحارٍ وأعلام[1] كأن قتامها من البعد نقع [2] هامد [3] متقطع
تظل به البزل[4] العراميس[5] رُزّحًا [6] ويخلو به غيث السنين فيمرع[7]
به جيف الحسرى[8] يلوح صليلها[9] كما لاح كتّان التجار الموضّع
به العين[10] والآرام[11] يمشين خلقة[12] وبيض نعامٍ قبضه يتقلع[13]

إنه يناجى قومه غسان ملوك الشام الذين ينتمى وإياهم إلى أرومة واحدة ، وبينها وبينهم فلوات واسعة ، ومسيرات مضنية ، وصحار مقفرة ، وجبال راسية كأنما لونها الأسود من بُعد غبار هامدا متقطع ،تسير به الإبل القوية الشديدة وقد أهلكها السير وأنضاها التعب ، وأعياها الجهد ، وحيث يهطل الغيث المغيث فتمرع الأرض وتخضوضير الآركام والأودية وفى بطون هذه الصحراء جيف الإبل التى قتلها الإعياء ولحمها المنثور المتغير اللون وصار كلون كتان التجار.المصبوغ وأما حياة الصحراء وأحياؤها فعلى رأسها بقر الوحش بيض البطون ، سمر الظهور مع أولادهن ، وآثار النعام حيث تلقى بيضه وقد تفسخ وتقشر .

ويدلف كعب رضي الله عنه بنا إلى المعركة بعد إرسال رسالته إلى غسان أهل الأنصار فى الشام.

مجالدنا عن ديننا كل فخمة[14] مذربة [15] فيها القوانس [16] تلمع
وكل صموت[17] فى الصوان [18] كأنها إذ ألبست نهى[19] من الماء مترع[20]
ولكن ببدر سائلوا من لقيتهم من الناس والأنباء بالغيب تنفع
وإنا بأرض الخوف لو كان أهلها سوانا لقد أجلوا بليل فأقشعوا [21]

---

(١) الأعلام : الجبال المرتفعة .
(٢) النقع : الغبار .
(٣) الهامد : التلبد الساكن .
(٤) البزل : الإبل القوية مفردها بازل .
(٥) العراميس : الشديدة
(٦) الرزَّح : المتعبة .
(٧) يمرع : يصخب .
(٨) الحسرى : المعيية أو المعيبة .
(٩) الصليب : الودك والودك :دسم اللحم ودهنه الذى يستخرج منه .
(١٠) العين : بقر الوحش .
(١١) الآرام : البيض البطون السمر الظهور .
(١٢) خلقة : قطعة إثر قطعة .
(١٣) القيض : قشر البيضة الأعلى .
(١٤) فخمة : كتيبة عظيمة .
(١٥) مذربة : بالذال حادة وبالدال من الدربة .
(١٦) القوانس : رؤوس بيض السلاح .
(١٧) الصموت : هى الدرع المحكمة النسج.
(١٨) الصوان : الذى يصان به الشىء درعًا كان أو ثوبًا .
(١٩) النَّهى والنِّهى : الغدير .
(٢٠) مترع : مملوء .
(٢١) أقشعوا : فروا وزالوا .

إذا جـــاء منـا راكب كـــان قــوله أعدوا لما يزجى[1] ابن حرب ويـجمع
فـــمــهـمــا هم النـاس مما يكيـــدنا فنـحن له مـن ســـائر النـاس أوسع
فلو غـيرنا كانت جـمـيـعًا تكـيده الـ ـبـرية قـد أعطـوا يـدًا وتوزعـوا[2]
نجـــالـد لا تَبــقى عـلينا قـــبـــيـلة من الناس إلا أن يهـابوا ويفظعـوا[3]

( قال ابن هشـام : وكان كـعب بن مالك قد قـال : مجالدنا عـن جذمنا كل فخمة . فقال رسول اللـه ﷺ : « أيصلح أن تقول : مجالدنا عن ديننا ؟ » فقال كعب : نعم . فقال رسول الله ﷺ : « فهو أحـسن » فقال كعب : مجالدنا عن ديننا ) [4].

إنها التربية النبوية العظيمـة فكعب إنما بعث رسالته إلى غسان ليعلن أنه يدافع عن حسبه وأصله .

فقـال : مجالدنا عن جـذمنا . لكن الرسول المصطفـى ﷺ يريد أن يصحح نقطة الانطلاق الأولى فقـال لكعب : « أيصلح أن تقول : مـجالدنا عن ديننا ؟ » وبذلك حول المصطفـى ﷺ المعركة كلهـا من معركـة قبلية جـاهلية ، إلى معـركة عـقيـدة ، إنما يدافع بهـا المسلمون عـن دينهم قبل كل شـيء وما هذه الكتـائب العظيمـة المدربة التى تلمع فيـها بوارق السيـوف ، وأسنة الرماح ، وتلك الدروع السابغة المحكمة كـأن الكماة وهم يتحركون فيها هدير مـاء متدفق ، وماضى هؤلاء الأبطال واضح فاسألوا بدرًا وأهلها عن ماضيهم .

وحيث صوّر لنا المظاهر الخـارجية للمعركـة من الدروع والفوارس والأسلحة مضى بنا إلى أعماق هؤلاء الأبطال الذين تصل إليهم أنبـاء جمع أبى سفيان لكنانة والعرب لغـزو المدينة ولو كان غـير أبطال المسلمين قـد سمـعوا بهذا الجـمع لفروا مذعورين ، لكننا نحن الذين لا تروعنا كتائب الأعـداء ، ولو كانت كالجبال ، ولو اجتمعت البرية كلهـا علينا ، لما توانينا ، أو تراجعنا ، ونجالد أعداءنا ولو تكالبت كل القبائل علينا لقاتلناهم جميعًا .

---

(١) يزجى : يسوق . (٢) توزعوا : انقسموا .
(٣) يفظعوا : يُهالوا ويفظعوا من الشىء الفظيع .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ١٩٢ .

وها هو يعود بنا إلى بداية المعركة كما ابتدأ بها القرآن آيات آل عمران : ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١)﴾ [ آل عمران ] .

ولما ابتنوا بالعِرض(1) قال سراتنا(2) عــــلام إذا لم نمنع العِرض نزرع

وفينا رسول الله نتبع أمره إذا قال فينا القول لا نتطلعا (3)

تدلى عليه الروح (4) من عند ربه ينزل من جو السماء ويرفع

نشاوره فيما نريد وقصرنا (5) إذا ما اشتهى أنا نطيع ونسمع

وقال رسول الله لما بدوا لنا ذروا عنكم هول المنيات واطمعوا

وكونوا كمن يشرى الحياة تقربا إلى ملك يُحيا لديه ويرجع

ولكن خذوا أسيافكم وتوكلوا على الله إن الأمر لله أجمع

وهنا ينطلق بنا كعب فى شعره إلى عالم آخر قصر المشركون دونه ، فلئن تشابه الجيشان ابتداءً فى العُدّة الحربية ، وتشابها فى المشاعر البشرية ، لكن الجديد هنا هو هذا القائد الجديد للأمة ، وعلى غسان فى الشام أن تسمع بهذا القائد الجديد ، إنه رسول رب العالمين ﷺ ، فهو بشر لكنه يسمو على هذه البشرية أن الوحى يأتيه من الله تعالى ، وجبريل الأمين رسوله ، وقصارى جهدنا أن ننتظر أمره فيما يحبه ويشتهيه فنسمع له ونطيع ، وها هو يدعونا إلى جنات عند المليك الرحمن ، وإلى أن نستشهد ونبيع هذه الحياة لله قربى وزلفى إليه ، ولا داعى للخوف، فإن من يتوكل على الله فهو حسبه، لقد اختلط دم وعظم كعب بالإسلام، وتمثل قول الله عز وجل الذى عاشه المؤمنون واقعًا سعيدًا : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)

---

(١) العِرض : موضع خارج المدينة حيث عسكر المشركون .

(٢) سراتنا : خيارنا .

(٣) لا نتطلع : لا ننظر إليه إجلالاً وهيبة .

(٤) الروح : جبريل عليه السلام .

(٥) قَصرُنا : غايتنا .

﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤)﴾ [ آل عمران ] وحاول كعب أن يصوغ هذه المعانى التى يعيشها المسلمون شعراً ، ويزجيها للمشركين .

وها نحن نسير معه إلى ساحة المعركة :

فسرنا إليهم جهرة فى رحالهم ... ضُحَيّا [١] علينا البيض[٢] لا نتخشع[٣]

بملمومة [٤] فيها السنَوَّر[٥] والقنا ... إذا ضربوا أقدامها لا تورع[٦]

فجئنا إلى موج من البحر وسطه ... أحابيش منهم حاسرا [٧] ومقنع[٨]

ثلاثة آلاف ونحن نصية[٩] ... ثلاث مئين إن كثرنا وأربع

نعاورهم [١٠] تجرى المنية بيننا ... نشارعهم [١١] حوض المنايا ونشرع

تهادى قسىُّ النبع[١٢] فينا وفيهم ... وما هو إلا اليثربى [١٣] المقطع

ومنجوفة [١٤] حرمية[١٥] صاعدية [١٦] ... يَذر عليها السم ساعة تصنعُ

تصوب[١٧] بأبدان الرجال وتارة ... تمر بأعراض البصار تقعقع

وخيل تراها بالفضاء [١٨] كأنها ... جراد صبًا[١٩] وفى قرة[٢٠] يتريع[٢١]

ونراه ينسحب هنا من المعركة حتى لا يكون طرفًا فيها ، ويصف بموضوعية كاملة معركة الجيشين دون أن يتحيز إلى واحد منهما ، فقد كان المسير ضحىّ إلى القوم ، وإذا بنا نفاجأ بموج من البشر كأنه موج البحر ثلاثة آلاف مقاتل منهم حاسرا ومنهم متقنع بالحديد ، وصرنا وسطهم كجزيرة صغيرة فى هذا البحر ، فنحن سبعمائة مقابل هذه الآلاف الثلاثة ، وابتدأت الحرب الضروس وكأننا نتبادل

(١) ضُحَيًّا : ضحى .
(٢) البيض : السيوف .
(٣) لا نتخشع : لا نخاف .
(٤) ملمومة : كتيبة مجتمعة .
(٥) السَنَوَّر : السلاح .
(٦) لا تَوْرع : لا تفرق .
(٧) الحاسر : الذى لا درع عليه.
(٨) المقنع : الذى لبس المغفر على رأسه .
(٩) النَّصِيَّة : الخيار من القوم .
(١٠) نعاورهم : نداولهم .
(١١) نشارعهم : نشاربهم .
(١٢) النبع : شجر تصنع منه القسى.
(١٣) اليثربى : الأوتار نسبت إلى يثرب .
(١٤) منجوفة : مقشورة منحوتة .
(١٥) حرمية : منسوبة إلى الحرم .
(١٦) صاعدية : منسوبة إلى صانع اسمه صاعد .
(١٧) تصوب : تقع .
(١٨) الفضاء : المتسع من الأرض .
(١٩) الصبا : الريح الشرقية .
(٢٠) القَرّة : البرد .
(٢١) يتريع : يجىء ويذهب .

كؤوس المنايا بدل كؤوس الخمر ، يتداول الموت بيننا وبينهم ، فنشرب كأس المنايا ويشربون ، والنبل تتهادى بين الجانبين ، وأوتار القسى تتقطع ، والسهام المشحوذة بالسم تفعل فعلها فى الجيشين معًا، فهى بين أجساد الرجال ، تحيلهم جثثًا على الأرض ، أو تقعقع حيث تقع على الأرض، وليست السهام وحدها التى تلعب فى ساحة المعركة ، فالخيل كذلك تصول وتجول كأنها جراد منتشر فى الفضاء ، وقد نزل به برد قارس ، فراح يجرى بعنف ليتدفأ فى جريه .

ويحدثنا عن الجولة الأولى بين الفريقين ، ولا عجب فقد عاشها ، واكتوى بنارها، وتجرع غصصها ، وذاق لذة النصر المؤزر فيها :

| | |
|---|---|
| فلما تلاقينا ودارت بنا الرحى[1] | وليس لأمر حمَّه الله [2] مدفع |
| ضربناهم حتى تركنا سراتهم [3] | كأنهم بالقاع [4] خشب مصرع |
| لدن غدوة حتى استفقنا عشية | كأن ذكانا [5] حر نار تلفع |
| وراحوا سراعًا موجعين [6] كأنهم | جهام [7] هراقت ماءه الريح مقلع |
| ورحنا وأخرانا بطاء كأننا | أسود على لحم ببيشة[8] ظلّع[9] |
| فنلنا ونال القوم منا وربما | فعلنا ولكن ما لدى الله أوسع |

لقد دارت رحى المعركة،وسقط سراتهم صرعى بالقاع كأنهم الخشب المنهارة ، فقد كان نار حربنا أشد لذعًا من النار عليهم . ومضوا هاربين مثخنين بالجراح كأنما هم مطر صُبّ صبًا على الأرض ، والريح تلعب به ، ونحن نلحق بهم ونتبع أثرهم ،وأخرانا تلحق بنا ترجو الغنيمة كما لو دعيت الأسد إلى الفرائس الشهية ، فنلنا من القوم ونالوا منا ورحمة الله أوسع بنا من ذلك .

وحيث يمضى منتقلاً إلى الجولة الثانية حيث انتصر المشركون ، نجده يمضى إلى أعماق الجيش المسلم،فيتحرك بعيدًا عن واقع الأرض ،إذ يصله برب السماء ،

---

(١) رحى الحرب : معظم موقع القتال فيها .
(٢) حمَّه الله : قدره الله .
(٣) سراتهم : خيارهم .
(٤) القاع : المنخفض من الأرض .
(٥) ذكانا : التهابنا فى الحرب .
(٦) موجفين : مسرعين .
(٧) الجهام : السحاب الرقيق الذى ليس فيه ماء .
(٨) بيشة : اسم موضع تنسب إليه الأسود ، وهى من مكة على خمس مراحل .
(٩) ظلع : غامزات متمايلات فى مشيهن .

فتختلف صورة المحنة اختلافًا جذريًا عما هى عند المشركين ، فقد تتشابه المظاهر من القتل، والطعن والذبح ، لكن النفوس العامرة بالإيمان ، وهى تتلقى المحنة ، تسمو على هذا الواقع الصعب الرهيب .

ودارت رحانا واستدارت رحاهم ... وقد جعلوا كلا من الشر يشبع
ونحن أناس لا نرى القتل سبة ... على كل من يحمى الذمار[1] ويمنع
جلادٌ [2] على ريب الحوادث لا نرى ... على هالك عينًا لنا الدهر تدمع
بنو الحرب لا نعيا [3] بشيء نقوله ... ولا نحن مما جرَّت الحرب نجزع[4]
بنو الحرب إن نظفر فلسنا بفحش ... ولا نحن من أظفارها [5] نتوجع
وكنا شهابًا [6] يتقى الناس حرّه ... ويفرج عنه من يليه ويسفع [7]

لقد ارتفع كعب فى هذه الأبيات من البيئة المحلية إلى البيئة العالمية ، فهذه المعانى التى عبر بها تمضى عبر القرون تمثل طبيعة كل أمة تذود عن حقها ، وتحمى ذمارها ، ولا ترى عارًا فى أن تقدم دم كل شبابها وقودًا لحماية هذا الوطن ، ولئن استحر القتل ونزل البلاء ، فلا جزع ولا خور ، وإن كان الظفر فالعدل شيمتنا نرفض الفحش والخنا بالتعامل مع عدونا ، وإن نزلت بنا المحنة ، فلا نتأوه ولا نتوجع ، هذه الأبيات الأربعة فى المعانى الخالدة التى طرحتها تجاوزت حدود الزمن وحدود البيئة لتكون شعرًا عالميًا يمكن أن يستشهد به كل قادة الثورات فى الأرض ، والمستضعفون فيها ، وهم يجاهدون لنيل حقهم من عدوهم .

ويعود بنا بعد هذه الجولة إلى أرض أحد ثانية ، ولا ينسى خصمه اللدود ابن الزبعرى الذى افتخر بنصر أحد ، ومحنة المسلمين ، ها هو يخاطبه قائلاً :

فخرت عليَّ ابن الزبعرى وقد سرى ... لكم طلب من آخر الليل متبع
فسل عنك فى عليا معد وغيرها ... من الناس من أخزى مقامًا وأشنع
ومن هو لم تترك له الحرب مفخرًا ... ومن خده يوم الكريهة [8] أضرع [9]

(١) الذمار : ما يجب على الرجل أن يحميه .
(٢) جلاد : جمع جليد وهو الصبور .
(٣) المعاياه : أن تأتى بكلام لا يهتدى له أى لا يُفهم .
(٤) الجزع : شدة الهلع والتشكى .
(٥) أظفار الحرب : آثارها وويلاتها .
(٦) الشهاب : القطعة من النار .
(٧) يسفع : يحرق .
(٨) يوم الكريهة : يوم الحرب .
(٩) أضرع : أذل .

شددنا بحـول اللـه والنصـر شـدة ... علـيكم وأطراف الأسـنة شـرع [1]
تكر القنـا فـيكم كـأن فـروغـهـا [2] ... عزالى [3] مـزادٍ مـاؤها يـتـهـزع [4]
عـمـدنـا إلى أهل اللواء ومن يـطـر ... بذكـر اللواء فهـو فى الحمـد أسـرع
فـخـانوا وقـد أعطوا يدًا وتخـاذلـوا ... أبى اللـه إلا أمـره وهـو أصـنـع[5]

ولقد فخر ابن الزبعرى بالنصر يوم أحد ، وها هو يدعوه إلى عليا معد من هو أكرم نسبًا وأعلى حسبًا ، ومن الذى ذلّ يوم الكريهة نحن أم أنتم ؟ وأى فخر بقى لكم وقد سقط حملة اللواء الـتسعة صرعى جثثًا بين أرجل المسلمـين ، لقد عمدنا إلى أهل اللواء حـتى قتـلناهم ، وديس اللواء ، وسـقط ، ومن يطر بذلك اللواء فهـو الأسرع والأكبر فـخرًا فى تاريخ الحروب ، ولعلك يا ابن الزبعـرى نسيت أو تناسيت يوم كانت الأسنة مشرعة فى نحـوركم ، والقنا فيكم تشخب بالدم الأحمر الفـوار كأنما هى فم مـزادة ينهمـر الماء انهمـاراً منه ، لقد قـتلنا ذودًا عن أرضنا ، وعدتم خائبين ، وقتلنا حملة لوائكم ، وأسقيناكم نجيع الدم كما أسيقتمونا ، فأى فخر بعدها تفخر فيه ؟

**لامية كعب ﷺ :**

رغم أن ابن إسحاق ذكر أن هذه القصيدة إنما كـانت ردًا على قصيدتين لعمرو ابن العاص ، وضـرار بن الخطاب ، لكن المتفحص فيـها لا يجد ذلك ، فقـصيدة كعب ﷺ ليست على قـافية قـصيدة ضرار ، وإن كـانت على وزنها ، كمـا أنها تختلف عن أبيات عـمرو فى الوزن والقافية ، والمرجح أنهـا قصيدة صاغـها كعب ابتداءً من وحى تفاعله مع أحد وتأثره بها .

وقد لخصّ فى بداية القصيدة طبيعة المعركة بين الفريقين بقوله :

أبلغ قـريشًا وخـيـر القـول أصـدقـه ... والصدق عـنـد ذوى الألباب مقـبول
أن قـد قـتلنا بـقـتـلانـا سـراتكم ... أهـل اللـواء فـفـيمـا يكـثـر القيل

---

(1) شُرَّع : ماثلة لطعن . (2) الفروغ : الطعن المتسع .
(3) عزالى مزاد : العزالى : جمع عزلاء ، وهو فم المزادة والسقاء .
(4) يتهزع : يتقطع ، ومن رواه بالراء فمعناه يتفرغ ويسرع سيلانه .
(5) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ١٨٧ ـ ١٩٢ .

ويوم بدر لقيناكم لنا مدد   فيه مع النصر ميكال وجبريل
إن تقتلونا فدين الحق فطرتنا   والقتل فى الحق عند الله تفضيل
وإن تروا أمرنا فى أمركم سفهًا   فرأى من خالف الإسلام تضليل

وتكاد تكون هذه القطعة الأدبية من هذه الأبيات الخمسة غرة القصيدة ، ومن غرر شعره ، وبعيدة عن الحوشى من الألفاظ ، سهلة المتناول ، مشرقة المعانى ، محكمة السبك ، تكفى عن قصيدته كلها .

إنه يبلغ قريشًا هذه الرسالة الحاسمة ، قد قتلنا خياركم تحت اللواء ، وقتلتهم خيارنا ، ففيهم القيل والتبجح والتعالى ، ويوم بدر قتلنا سراتكم ، دون أن تقتلوا منا أحدًا يذكر ، ومعنا ميكال وجبريل جنود فى جيشنا ، إن تقتلونا فالقتل فى سبيل دين الله شرف لنا ، وكرامة يسوقها الله تعالى لنا ، وإن كنتم ترون أنا سفهاء من قومكم خرجوا عليكم ، فالأمر عندنا أكبر من ذلك ، لأن رأى من خالف الإسلام هو ضال ومضلل .

بينما ينصب بقية القصيدة كلها على وصف الحرب ، ومن الناحية الفنية ترتفع إلى الذروة فى الصورة البيانية والبديعية التى تحشد فيها إذ يقول:

فلا تمنوا لقاح الحرب[1]   إن أخا الحرب أصدى اللون[2] مشغول
إن لكم عندنا ضربًا تراح[3] له   عرج الضباع له خذم [4] رعابيل
إنا بنو الحرب نمريها [5] وننتجها [6]   وعندنا لذوى الأضغان تنكيل[7]
إن ينج منها ابن حرب بعدما بلغت   من التراقى وأمر الله مفعول
قد أفادت له حلمًا وموعظة   لمن يكون له لب ومعقول

وكعب يشير إلى نجاة أبى سفيان من الموت ، وقد رآه بعينه حين انقض عليه حنظلة الغسيل ﷺ ، لولا أن ابن شعوب طعن حنظلة فأرداه قتيلاً ، وهذا ما يشير إليه من وصول روح أبى سفيان التراقى .

---

(١) لقاح الحرب : زيادتها ونموها .
(٢) أصدى اللون : لونه بين السواد والحمرة .
(٣) تراح : تفرح وتهتز .
(٤) خذم : قطع اللحم .
(٥) نمريها :نستدها .
(٦) ننتجها : من النتاج .
(٧) تنكيل : الزجر المؤلم .

ويعود ليتوعد قريشًا حين همت بغزو المدينة :

ولـو هبطـتم ببطـن السيل كـافحكـم ... ضـرب بـشـاكلـة الـبطحـاء ترعـيـل

تلقـاكـم عُصـبٌ حـول الـنبى لهـم ... مما يعـدون للهـيجـا مراسـيـل

من جـذم غسـان مسـتـرخ حمـائلهم ... لا جبـنـاء ولا مـيل معـازيـل

يمشون تحت عمـايات القتال [1] كما ... تمشى المصاعبة [2] الأدم[3] المراسيل[4]

أو مثل مـشى أسود الطل[5] ألثقها[6] ... يوم رذاذ من الجـوزاء [7] مشمول[8]

فى كل سابغة [9] كالنهى[10] محكمة ... قيامها فلج [11] كالسـيف بهلول[12]

ترد حـد قـرام النبل خـاسـئـة ... ويرجع السـيف عنهـا وهو مـفلول

ولو نزلتم ببطن السيل فاجأكم الضرب الخـاطف السريع من عصائب الإسلام التى تحوط المصطفى بقلبـها ونفسهـا ، يخوضون غمـار القتال كما يمـشى الجمل الأورق الهـائج ، أو هرولة الأسـود ، وقد نزل بهـا مطر السـمـاء فراحت تعـدو بدروعها الحصينة المحكمة التى ترتد عنها السيوف مفلولة والنبل خاسئة:

ولو قـذفـتم بسلـع عن ظهـوركم ... وللـحـيـاة ودفع المـوت تأجـيل

مـا زال فى القـوم وتر منـكم أبدًا ... تعفو[13] السلام[14] عليه وهو مطلول[15]

عـبـد وحـر كـريم مـوثـق قنصًا ... شطر المـدينة مـأسـور ومـقـتـول

ولو تجـاوزتم جبل سلـع ، واقتـربتم المدينة لاقـتنصـتكم القلوب الموتورة ، وانتهيتم كلكم بين مقتول ومأسور:

كنا نـؤمل أخـراكـم فـأعـجـلكم ... منا فوارس لا عزل [16] ولا ميل [17]

إذا جنى فـيـهم الجانـى فقـد علمـوا ... حـقًا بأن الذى قـد جـر مـحـمـول

---

(١) عمايات القتال : ظلماته .

(٢) المصاعبة : الفحول من الإبل .

(٣) الأُدم من الجمال : البيض .

(٤) المراسيل : يمشى بعضها خلف بعض .

(٥) الطل : الضعيف من المطر .

(٦) ألثقها : بلها .

(٧) الجوزاء : اسم لنجم معروف .

(٨) مشمول : هبت عليه ريح الشمال .

(٩) السابغة : الدروع .

(١٠) النهى : الغدير من الماء .

(١١) فلج : نهر.

(١٢) البهلول : الأبيض .

(١٣) يعفو : يتغير .

(١٤) السلام : الحجارة .

(١٥) المطلول : الذى لم يأخذ بثأره .

(١٦) العزل : الذى لا رماح لهم .

(١٧) الميل : الذى لا تراس معهم .

ما نحن لا نحن من إثم مجاهرة ولا ملوم ولا فى الغرم مخذول

ولقد كنا نؤمل الإجهاز عليك ، لولا عجلة الفوارس منا ومغادرة الجبل ، ومع ذلك فتحملنا المحنة بصدر رحب ، لأننا نعلم أنها قدر الله المحتوم .

**نونية كعب :**

أما القصيدة الثالثة التى أطلقها من تفاعله بجوّ أحد ، فلا تضيف معانى جديدة ، عن البيئة الجاهلية . ولولا بيتين أو ثلاثة فيها لما عرف قارئها أهى شعر جاهلى أم شعر إسلامى ، فيها روعة الشعر وفيها الغوص فى الوصف ، وتنصب على المكرمتين العظيمتين للعرب الكرم والشجاعة . وفيها إبداع فنى ، وتشهد فيها ثروة لغوية ضخمة لدى كعب . لكنها لا تعطينا آفاقًا جديدة ، أو آمادًا فسيحة يخرج فيها عن معطيات الشعر الجاهلى ، إنما تثرى عندنا عبقرية كعب الشعرية ، وعلى نهج الشاعر الجاهلى ينطلق فى مخاطبة فتاته يحدثها عن جوده ثم عن شجاعته :

إنك عمر أبيك الكريم أن تسألى عنك من يجتدينا[1]
فإنى تسألى ثم لا تكذبى يخبرك من قد سألت اليقينا

أنه يطلق هذه القصيدة ، وفى ذهنه معلقة عمرو بن كلثوم ،وكأنما يعارضها بأسلوب آخر وشاعرية مؤثرة فهو وقومه كهف الفقراء ، وملاذ المحتاجين :

بأنا ليالى ذات العظا م[2] كنا ثمالاً[3] لمن يعترينا[4]
نلوذ البجود[5] بأذرائنا[6] من الضر فى أزمان السنينا
بجدوى[7] فصولِ أولى وُجدنا[8] وبالصبر والبذل فى المعدمينا
وأبقت لنا جلمات[9] الحرو ب ممن نوازى[10] لدن أن بُرينا[11]

---

(١) يجتدينا : يطلب معروفنا .
(٢) ليالى ذات عظام : ليالى الجوع التى تجمع فيها العظام فتطبخ .
(٣) الثمال : الغياث.
(٤) يعترينا : يزورنا .
(٥) البجود : المرأة الضعيفة .
(٦) أذرائنا : نواحينا .
(٧) الجدوى : العطية .
(٨) الوُجد : سعة المال .
(٩) جلمات الحروب : ما أبقيت الحروب من المال .
(١٠) نوازى : نساوى .
(١١) بُرينا : خُلقنا.

معاطن [1] تهوى إليها الحقو ... قَ [2] يحسبها من رآها الفتينا [3]
تَخَيّس [4] فيها عتاق الجما ... ل طحمًا[5] دواجى[6] حمرًا[7] وجونا
ودفاع [8] رجل [9] كموج الفرا ... تِ يقدم جأواء[10] جولا[11] طحونا[12]
ترى لونها مثل لون النجو ... م رجراجة [13] تبرق [14] الناظرينا

لكن أرضنا وساحنا التى نذوذ عنها بحراتها السود ، وأرضها المعطاء . ترى من يجرؤ أن يغزونا بها ؟

فإن كنت عن شأننا جاهلاً ... فسل عنه ذا العلم ممن بلينا
بنا كيف نفعل إن قلصت [15] بأنا ... عوانًا[16] ضروسًا[17] عضوضًا[18] حجونا[19]
ألسنا نشد عليها العصا[20] ... ب حتى تدرُّ وحتى تلينا
ويوم له وَهَج [21] دائم ... شديد التهاول [22] حامى الأرينا [23]
طويل شديد أوار القتا ... ل تُنْفى قواجزه [24] المقرفينا [25]
تخال الكماة [26] بأعراضه [27] ... ثمالاً [28] على لذة منزفينا [29]
تعاور [30] أيمانهم بيتهم ... كؤوس المنايا بحد الظبينا [31]
شهدنا فكنا أولى بأسه ... وتحت العماية [32] والمعلمينا [33]

(1) المعاطن : مواطن الإبل وأراد بها الإبل .
(2) الحقوق : الإبل التى لا نظير لها .
(3) الفتينا : الحرار جمع حرة وهى الأرض ذات الحجارة السوداء .
(4) تخيس : تذلل.
(5) الطُحم : الكثيرة .
(6) الدواجى : المقيمة .
(7) الجون : السود .
(8) الدفاع : ما يندفع من السيل .
(9) الرجل : الرجالة .
(10) جأواء : كتيبة لونها بين السواد والحمرة .
(11) الجول : الحركة .
(12) الطحون : التى تهلك ما تمر به .
(13) الرجراجة : التى يموج بعضها فى بعض.
(14) تبرق : تحير وتُبهت .
(15) قلصت : ارتفعت وانقبضت .
(16) العوان : الحرب التى قوتل فيها مرة بعد مرة .
(17) الضروس : الشديدة .
(18) العضوض : كثيرة العض .
(19) الحَجون : المعوجة الأسنان
(20) العصاب : ما يعصب الضرع
(21) الوهج : الحر ومن رواه الرهج فهو الغبار .
(22) التهاول : الهول والشدة .
(23) الأرين : جمع إرة وهى حفرة النار .
(24) القواجز : من القجز وهو عدم التثبت .
(25) المقرفون : اللئام .
(26) الكماة : الشجعان .
(27) بأعراضه : بنواحيه .
(28) ثمالاً : مددًا ، ويروى ثمالى : سكارى .
(29) منزفينا : ذهب الخمر بعقولهم .
(30) تعاور : تداول .
(31) بحد الظبينا : جمع ظبة وهو حد السيف.
(32) العماية : السحابة.
(33) معلمينا : يعلّمُون أنفسهم بالحرب .

فإن جاءت الحرب العوان الضروس شددنا على ضرعها حتى تدرأ أكثر فأكثر ، ويتابع وصف يوم الحرب ويوم الكريهة الذى ينبعث غباره ، ويصطلى ناره ، والذى يتزحزح فيه الضعاف اللئام ، بينما يثبت الكماة فيه كأنما هم عكَّف على شراب ، يتداولون كؤوس الموت كتداول كؤوس الشراب ، ينتقل من وصف اليوم إلى وصف رجاله وسلاحه فيقول :

بخرس (١) الحسيس حسانٍ رواء (٢) ... وبُصرية (٣) قد أجمن (٤) الجفونا (٥)

حيث يختار السيوف الخرس لذلك فيقول:

فما يتقلقلن وما ينحنين ... وما ينتهين إذا ما نهينا
كبرق الخريف بأيدى الكما ... ة يفجعن(٦) بالظل هامًا (٧) سكونا (٨)

وهى ميراث الأجداد للآباء ، وميراث الآباء للأبناء:

وعلمنا الضرب آباؤنا ... وسوف نعلم أيضًا بنينا
جِلاد (٩) الكماةِ وبذل التلا (١٠) ... د عن جل (١١) أحسابنا ما بقينا
إذا مرَّ قرنٌ (١٢) كفى نسله ... وأورثه بعده آخرينا
نشب وتهلك آباؤنا ... وبينا نربى بنينا فنينا

ولولا هذه الأبيات الأخيرة لشككنا أن تكون القصيدة فى العصر الإسلامى ، حيث يعود إلى إلى خصمه ابن الزبعرى ويراه هو قرنه المناجز فى الشعر فيهجوه قائلاً :

سألت بك ابن الزبعرى فلم ... أنباك فى القوم إلا هجينا
خبيثا تطيف بك المنديات ... مقيمًا على اللؤم حينًا فحينا
تبجست تهجو رسول المليـ ... ك قاتلك الله جلفًا لعينا

---

(١) الخرس : لا صون له وهى السيوف .
(٢) رواء : مروية بالدم .
(٣) بصرية : منسوبة إلى بصرى .
(٤) أجمن : مللن .
(٥) الجفون : أغماد السيوف .
(٦) يفجعن بالظل : ظلال بسيوف .
(٧) الهام : جمع هامة وهى الرأس هنا .
(٨) السكون : المقيم الثابت .
(٩) الجلاد : الضاربة بالسيوف .
(١٠) التلاد : المال القويم .
(١١) جل : معظم .
(١٢) قرن :الذى يقاوم بشدة .

تقـــــــــول الخنـائـم ترمـى بـه نقـى الثـــيــاب تـقــيًا أمــينا[1]

فيطعن بنسبـه فهو الهجين ، ويطعن بخـلقه فهو اللئيم ، ويطعن بلســانه فهو الفاحش، ويطعن بسلوكه فهو رجل المخـازى وبعد هذا كله يجرؤ أن يهجو رسول المليك التقى النقى الأمين ؟ إنها الوقاحة الخالصة .

**القصيدة الرابعة : البائية :**

وهى على صغرها تكاد تكون قطعة أكثر منهـا قصيدة ، لكن الروح الإسلامية فيها قوية ، وقد تحررت من معارضة ومناقـضة أى شاعر آخر ، فأتت سهلة فخمة اللفظ قوية السبك ، مشرقة المعنى :

سـائل قـريشًا غداة السـفح من أحـد ماذا لقـينـا ومـا لاقـوا من الهـرب
كنا الأسـود وكانوا النمـر إذ زخفـوا مـــا إن نراقب مـن آلٍ ومن نـسب
فكم تـركنا بهـــا من ســيـــد بطلٍ حـامى الذمـار كريم الجـد والحـسب
فـينا الـرسـول شـهـاب ثم يتـبـعـه نور مـضـئ له فـضل على الـشـهب
الحق منطـقـه ، والعـــدل سيـــرته فـمن يجـبـه إليـه ينـج من تبب[2]
نجد[3] المقـدم ، ماضى الهم، مـعتـزم حين القلوب على رجف[4] من الرعب
يمضى ويذمرنا [5] من غير مـعصية كأنه البـدر لـم يطبع [6] على الـكذب
بدا لـنا فـــاتبـــعـنـاه نصـــدقُه وكـذبوه فـكنا أسـعــــد العـــرب
جالوا[7] وجلنا فما فاؤوا[8]وما رجعوا ونحن نثفنهم[9] لم نأل[10] فى الطلب
ليـســا سـواءً وشـتى بين أمـــرهـمـا حزب الإله وأهل الشرك والنصَب[11]

إنه الشعر الإسلامى الخالص فى مقطوعته هذه يزجـيها لحبيبه وقائده المصطفى ﷺ، يفرغ مـا بقلبه من حب وإعجاب بـعظمته وشجـاعته ، وصبـره وجلاده فى

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ذ/ ٣ / ٢٢٦ ـ ٢٣٠ .
(٢) التبب : الخسران .
(٣) النجد : الشجاع .
(٤) الرجف : التحرك .
(٥) يذمرنا : يحضنا .
(٦) لم يطبع : لم يخلق .
(٧) جالوا : تحركوا .
(٨) فاؤوا : رجعوا
(٩) نثفنهم : نطردهم .
(١٠) لم نأل : لم نقصر .
(١١) النصب : الحجارة المعبودة .

الحرب، ونوره الذى لم أفق آفاق الوجود ، وهم الجنود تحت رايته ، وهم حزبه وحزب الله ، حاربوا حزب الشرك والنصب وليسا سواء أبدًا ، فالمصدقون أسعد العرب والمكذبون أشأمهم وأشقاهم ، وأنبتت رابطة النسب أمام رابطة العقيدة .

**ثانيًا : المعارضات :**

وبعد أن عشنا مع كعب ﷺ فى تخليده لأحد وحربها ولأوائها ، نعود إلى حسان وكعب ثانية ، فى حرب المساجلات الشعرية بين الفريقين ، حيث يختار المتبارزون القافية والوزن نفسه ، وتكاد تكون المعانى نفسها كذلك فى صياغة جديدة ، تبرز قوة الشاعرية وتنقل للبيئة العربية آثار المعركة المادية والنفسية والفكرية ، والعقدية والحربية.

وتبدأ المعركة بين هبيرة بن أبى وهب المخزومى ، وشاعر الإسلام حسان بن ثابت . وينطلق هبيرة على سجيته فى مناجاة محبوبته :

ما بال هم عميد [1] بات يطرقنى ... بالود من هن هند إذ تعدو عواديها[2]
باتت تعاتبنى هند وتعذلنى ... والحرب قد شغلت عنى مواليها
مهلاً فلا تعذلينى إن من خُلقى ... ما قد علمت وما إن لست أخفيها

وينتقل من هند إلى قومه وسلاحه وفرسه .

مساعف [3] لبنى كعب بما كلفو[4] ... حمال عبء [5] وأثقال أعانيها
وقد حملت سلاحى فوق مشترف [6] ... ساط [7] سبوح[8] إذا تجرى يباريها[9]
كأنه إذ جرى عَيْرٌ [10] بفدفدة [11] ... مكدم [12] لاحق بالعون [13] يحميها
من آل أعوج[14] يرتاح[15] الندى[16] له ... كجذع شعراء مستعلٍ مراقبها

(١) هم عميد : هم موجع .
(٢) العوادى : الشواغل .
(٣) مساعف : مطيع مُوات .
(٤) كلفوا : أحبوا .
(٥) العبء : الحمل الثقيل .
(٦) فوق مشترف : فرس يتشرف الناس بركوبه .
(٧) ساط : بعيد الخطو .
(٨) سبوح : يسبح فى جريه كأنه يعوم .
(٩) يباريها : أى يسابق الخيل .
(١٠) العيْر : الحمار الوحشى .
(١١) الفدفدة : الفلاة .
(١٢) مكدَّم : معضوض .
(١٣) العون : جمع عانة وهو حمار الوحش .
(١٤) آل أعوج : اسم فرس مشهور فى العرب.
(١٥) يرتاح : يستبشر ويهتز .
(١٦) الندى : مجلس القوم .

أعـددنه ورقـاق (١) الحـد منتخـلا(٢) ومـارنًا (٣) لخطوب قـد ألاقيـهـا
هذا وبيضاء(٤) مثل النهى(٥) محكمة نيطـت على(٦) فـما تبـدو مـساويهـا

وبهذا السلاح المدجج والفرس السبوح يحدثنا عن معركة أُحد:

سـقنـا كنانـة من أطراف ذى يـمن عُرْضَ البلاد(٧) على ما كان يزجيها(٨)
قـالت كنـانة : أنَّى تذهـبـون بـنا قلنا : النخـيل(٩)، فأموها ومن فـيها

ثم يدخل ساحة المعـركة فى تسلسل منطقى وعرض أخاذ ، تتضح فـيه قدرته الشعرية العالية:

نحن الفوارس يوم الجر (١٠) من أحد هابت مـعـدٌ فـقـلنا نحن نأتـيـهـا
هابوا ضِرابًا وطعنًا صـادقًا خـذمًا(١١) مما يرون وقـد ضمت قـواصـيهـا (١٢)
ثَمَّت رحنا كـأنا عارض (١٣) برد (١٤) وقـام هام (١٥) بنى النجـار يبكيـهـا
كـأن هاهم عـند الـوغى فِلَقٌ (١٦) من قيض(١٧) ربد(١٨) نفته عن أداحيها(١٩)
أو حنظل ذعذعته(٢٠) الريح فى غصن بالٍ تعـاوره(٢١) منهـا سـوافيـهـا (٢٢)
قد نبذل المال سحًا (٢٣) لا حساب له ونطعن الخبل شزرًا (٢٤) فى مآقيها(٢٥)

(١) رقاق الحد : السيوف .
(٢) منتخلا: متخيراً .
(٣) المارن : الرمح اللين عند الهز .
(٤) البيضاء : الدرع .
(٥) النهى : الغدير من الماء .
(٦) نيطت على : لصقت ولظت .
(٧) عرض البلاد : سعتها .
(٨) يزجيها :يسوقها .
(٩) النخيل : يقصد المدينة وهى اسم لعين قربها .
(١٠) الجر : أصل الجبل وهو فى الجيم المفتوحة .
(١١) الخذم :الذى يقطع اللحم سريعًا .
(١٢) قواصيها : ما تفرق عنها وبعد .
(١٣) العارض : السحاب .
(١٤) البَرِد : الذى فيه برد .
(١٥) الهام : جمع هامة وهى هنا الرأس .
(١٦) الفلق : جمع فِلقة وهى القطعة من الشىء .
(١٧) القيض : قشر البيض من الأعلى .
(١٨) الرُبد: النعام لأن ألوانها بين البياض والسواد .
(١٩) أداحيها : جمع أدحى وهو الموضع الذى تبيض فيه النعام .
(٢٠) ذعذعته : حركته .
(٢١) تعاوره : تداوله .
(٢٢) السوافى : الرياح .
(٢٣) السح : الصب .
(٢٤) الشزر : الطعن عن يمين وشمال .
(٢٥) المآقى :مجارى الدموع .

وفى حديث الشعرى ، ينقل لنا صوراً متعددة من المعركة التى ظفر فيها وقومه مشيراً إلى كثرة القتلى من المسلمين ، ويصور ذلك بالرؤوس التى ندرت عن كاهلها ، وكأنها قطع من بيض النعام الذى زالت عنه قشرته قذفته عن موضعها الذى تنام فيه ، أو حنظل طار من غصنه بفعل الريح العنيفة ، وكعادة أبطال العرب ، ينتقل من حديث المعركة إلى حديث الجود :

وليلة يصطلى [1] بالفرث [2] جاورها ... يختص بالنقرى [3] المثرين داعيها
وليلة من جمادى ذات أندية ... جربًا [4] جمادية قريت أسريها
لا ينبح الكلب فيها غير واحدة ... من القربس [5] ولا تسرى أفاعيها
أو قدت فيها لذى الضراء[6] جاحمة[7] ... كالبرق ذاكية [8] الأركان أحسيها
أورثنى ذاكم عمرو [9] ووالده ... من قبله كان بالمثنى [10] يفانيها
كانوا يبارون أنواء النجوم فما ... دنت عن السورة [11] العليا مساعيها

إن هبيرة يعرض صوراً حية وكأنما نحن معه وهو يحدثنا عنها ، حيث يعرض الليلة الباردة القارسة حتى أن الأفاعى لتختبئ فلا تظهر ، والكلب قد انزوى فلا ينبح من شدة البرد ، أوقدت النار ليهتدى بها التائهون الجائعون وهو مجد تليد أورثه إياه آباؤه وأجداده ، الذين كانوا يبارون النجوم بالسؤدد والرفعة ، فيجيبه حسان بن ثابت بقوله :

سقتم كنانة جهلاً من سفاهتكم ... إلى الرسول فجند الله مخزيها
أوردتموها حياض الموت ضاحية ... فالنار موعدها والقتل لاقيها
جمعتموها أحابيشًا بلا حسب ... أئمة الكفر غرتكم طواغيها
ألا اعتبرتم بخيل الله إذ قتلت ... أهل القليب ومن ألقينه فيها
كم من أسير فككناه بلا ثمنٍ ... وجزَّ ناصية كنا مواليها

(1) يصطلى : يتسخن .
(2) الفرث : ما يخرج من الكرش .
(3) النقرى : أن يدعو قومًا دون قوم .
(4) جرباء : شديدة البرد .
(5) القربس : البرد مع الصقيع .
(6) ذى ضراء : ذى حاجة .
(7) جاحمة : ملتهبة .
(8) ذاكية : مضيئة .
(9) عمرو : هو جد هبيرة بن أبى وهب .
(10) المثنى : مرة بعد مرة .
(11) السورة : الرفعة والمنزلة .

والملاحظ أن حسان لم يوف الرد حقَّه ،وأظهر الجانب الإسلامى فى المعركة، وذكر ببدر وصرعاها على يد المسلمين . ذلك أن هبيرة لم يتحدث عن الحرب بأكثر من سبعة أبيات ، فكان الرد فى صلب القصيدة تاركًا الفخر بالجود ومناجاة الأحبة ووصف الأسلحة ، إلى قصائد أخرى يبدع فيها شعره .

**عبد الله بن الزبعرى :**

وينطلق ابن الزبعرى الشاعر القرشى الكبير ، يتحدث عن أمجاد أُحد :

يا غراب البين أسمعت فقل ... إنما تنطق شيئًا قد فُعِل
إن للخير وللشر مدى ... وكلا ذلك وجه وقُبُل[١]
والعطيات خساس [٢] بينهم ... وسواء قبر مثرٍ [٣] ومُقِل [٤]
كل عيش ونعيم زائل ... وبنات [٥] الدهر يلعبن بكل

لقد ابتدأ بأربعة أبيات فى الحكمة تكاد تكون شعرًا إسلاميًا خالصًا ، من تسليم بالقدر ، وسنن صراع الخير والشر ، والموت هو النهاية الحتمية للإنسان يتساوى فيها الفقير والغنى ، ونعيم الدنيا زائل ، ومصائبها تترى . ثم يقفز فجأة يتحدى حسان بن ثابت شاعر النبوة قائلاً لله :

أبلغا حسان عنى آية [٦] ... فقريض الشعر يشفى ذا الغلل
كم ترى بالجر [٧] من جمجمة [٨] ... وأكف قد أترت [٩] ورجل [١٠]
وسرابيل [١١] حسان سريت [١٢] ... عن كماة [١٣] أهلكوا فى المنتزل [١٤]
كم قتلنا من كريم سيد ... ماجد الجدين مقدام بطل
صادق النجدة قرم [١٥] بارع [١٦] ... غير ملتاث[١٧] لدى وقع الأسل [١٨]

---

(١) قُبل : مواجهة .
(٢) خساس : حقيرة .
(٣) مثر : غنى .
(٤) مُقِل : فقير .
(٥) بنات الدهر : حوادث الدهر .
(٦) الآية : العلامة .
(٧) الجر : أصل الجبل .
(٨) الجمجمة : الرأس .
(٩) أترت : قطعت .
(١٠) الرجل : الأرجل .
(١١) السرابيل : الدروع .
(١٢) سريت : جردت .
(١٣) الكماة : الشجعان .
(١٤) المنتزل : موضع الحرب .
(١٥) القرم : الفحل الكريم .
(١٦) البارع : المبرز على غيره .
(١٧) الملتاث : الضعيف .
(١٨) الأسل : الرماح .

فـــسل المهـــــراس من ســـــاكنُه بين أقـــحـــاف (١) وهام كـــالحـــجل

ليت أشـــيـــاخى ببـــدر شـــهـــدوا جـــزع الخـــزرج من وقـــع الأسل

حـــين حكت بـقـبـــاء بركـــهـــا (٢) واسـتحـوا لقـتل فى عبـد الأشل(٣)

ثم خـــفـــوا عند ذاكـم رُقـــصًا رقص(٤) الحقـان (٥) يعلو فى الجـبل

فـقلتنـا الضـعف من أشـرافـهم وعـــدلنـا مـــيل بدر فـــاعـــتـــدل

لا ألـــوم الـــنـــفـــس إلا أنـــنـــا لو كـــررنا لـفـعلنا المفـــتـــعل

بســيـــوف الهند تعلو هامـــهم عـللاً تـعلوهم بـعـــد نهـل (٦)

لقد بلغ ابن الزبعـرى قمة فـخره فى هذه القصيـدة الهادئة الواضحـة السهلة الممتنعة ، وعبَّر عن انتصار قريش أبلغ تعبير ، وهو يتحدث عن المهراس الذى قتل فيه المسلمون ، كما كان المسلمون يتـحدثون عن القليب الذى قتل فيه المشركون . ولا ينفى فرحته واغتباطه بهذا النصـر ، مشيرًا إلى أن عدد المسلمين المقتولين يربو على ضـعف المشركـين ، وهو ببدر ، وهو يعـترف ببطولة الأنصـار ، لكن الذين يقـتلونهم أشد منهم بأسًا . والغـريب أنه يضع المعـركة بين قـريش ، وبين الأوس والخزرج ، ولا يشير أبدًا إلى المسلمين المهاجرين الذين حضروا المعركة ، ولا أقل لمن أن يفتخر بقتل البطل الإسلامى العظيم حمزة ، ولكنه ركّز على بنى النجار من الخزرج وبنى عـبد الأشـهل من الأوس . ومضت قـصيـدته مثلاً فى التـاريخ فى مقـدماتها ونهـاياتها ، فـجاء حسـان الشاعر العظيم ليـرد الصاع صـاعين على ابن الزبعرى بالوزن نفسه والقافية نفسها قائلا دون مقدمات كذلك :

ذهبـت بابن الزبـعـــرى وقـــعـــة كـان منا الـفـضل فـيـهـا لو عـدل

ولـقـــــــد نلـتـم ونلـنـا مـنكـم وكـــذاك الحـــرب أحـــيـــانًا دول

إذ شـــددنـا شـــدة صـــادقـــة فأجـأناكم (٧) إلى ســـفح الجـــبل

إذ تولـون علـى أعـــقـــابكم هربًا فى الشـعـب أشبـاه الرسل (٨)

نضع الأســـيـــاف فى أكـتـــافكم حـــيث نـهـــوى عللاً بعـــد نهل(٩)

(١) الأقحاف : جمع قحف وهو الرأس .

(٢) البرك : الصدر .

(٣) عبد الأشل : يقصد بنى عبد الأشهل .

(٤) الرقص : المشى السريع .

(٥) الحقان : صغار النَّعام .

(٦) العلل : الشرب الثانى ، والنهل : الشرب الأول ، يريد معاودة الضرب .

(٧) أجأناكم : ألجأناكم .

(٨) الرسل : الإبل المرسلة ، خمسًا خمسًا .

(٩) العلل بعد المنهل : الشرب بعد الشرب .

نخرج الأضياح [1] من أستاهكم [2] كسلاح النيب [3] يأكلن العصل [4]
ضاق عنا الشعب إذ نجزعه وملأنا الفرط [5] فيها والرجل [6]
لم يفوتونا بشيء ساعة غير أن ولوا بجهل وفشل

فقد أبرز حسان الجولة الأولى التى انتصر بها المسلمون ، وذبحوا فيها أبطال قريش تحت اللواء ، وألجؤوا قريشًا إلى الهرب ، ووقع فيهم القتل والضرب ، فلقد صدق الشاعران فيما عرضاه ،وأضاف حسان معنى جديداً زاد فيه على ابن الزبعرى حين تحدث عن هول ضرب المسلمين حتى ليخرجوا اللبن من أستاه المشركين،هاربين كالإبل المرسلة، ثم يعود أدراجه إلى بدر حيث غصة المشركين .

وبالعودة إلى الديوان نجد إضافات مهمة ، حيث تبلغ القصيدة فى الديوان اثنين وعشرين بيتًا ، بينما هى فى السيرة لابن هشام تبلغ خمسة عشر بيتًا ، لكنها فى الديوان مضطربة كذلك حيث يختلط الحديث فيها عن بدر وأُحد ، وفى محاولة لترتيب القصيدة بالتوفيق بين السيرة والديوان ، يمكن أن تكون كما يلى :

وقتلنا منكم أهل اللوا [7] إذا لقيناكم كأنا أسد طل [8]
كم قتلنا من كريم سيد ماجد الجدين مقدام بطل
وشريف لشريف ماجد لا نباليه لدى وقع الأسل
حين أعلنتم بصوت كاذب وأبو سفيان كى يعلو هبل

فقد خلَّدت صفحة الشعر الحسانى حدثين مهمين ، هما : مقتل أهل اللواء التسعة ، وفخر أبى سفيان بهبل كما روى ابن إسحاق :

(ثم إن أبا سفيان بن حرب حين أراد الانصراف ، أشرف على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته فقال : أنعمت فعال ، إن الحرب سجال ، يوم بيوم ، أعل هُبَل ( أى أظهر دينك ) فقال رسول الله ﷺ : « قم يا عمر فأجبه » ، فقل :

---

(١) الأضياح : جمع ضيح وهو اللبن المخلوط .
(٢) من أستاهكم : من أدباركم .
(٣) سلاح النيب : غائط الإبل التى سلحت.
(٤) العصل : نبات تأكله الإبل فيخرج منها أحمر .
(٥) الفرط : ما علا من الأرض .
(٦) الرجل : المطمئن من الأرض .
(٧) أهل اللواء : حملة اللواء .
(٨) أسد طل : اسم مكان اسْتن بالأسد .

« الله أعلى وأجل ، لا سواء، قتلانا فى الجنة ، وقتلاكم فى النار » .

وهذا هو المنطقى . فكيف يمكن أن يغيب عن حسان الموتور الثائر صرعى اللواء التسعة من أعرق قريش وقادتهم ، دون أن يتحدث عنها فى قصيدته ، وحيث ألقى الضوء الكشاف على النصر الأول للمسلمين فى الجولة الأولى عاد أدراجه ليذكر غصة الموت القرشية ، ليذكر بدرًا وعقابيلها فى الصف المشرك :

فسدحنا [١] فى مقام واحد ... منكم سبعين غير المنتحل [٢]
وأسرنا منكم أعداءهم ... فانصرفتم مثل إفلات الحجل [٣]
بحناطيل [٤] كجنان [٥] الملا [٦] ... من يلاقوه من الناس يهل [٧]
وعلونا يوم بدر بالتقى ... طاعة الله وتصديق الرسل
برجال لستم أمثالهم ... أُيدوا [٨] جبريل نصرًا فنزل
وتركنا فى قريش عورة ... يوم بدر وأحاديث مثل
وقتلنا كل رأس منهم ... وقتلنا كل جحجاح [٩] رفل [١٠]
ورسول الله حقًا شاهد ... يوم بدر والتنابيل [١١] الهبل [١٢]
فى قريش من جموع جمعوا ... مثل ما يجمع فى الخصب [١٣] الهمل [١٤]
نحن لا أمثالكم ولداستها [١٥] ... نحضر البأس إذا البأس نزل [١٦]

وعادت روح بدر ، وتنزل جبريل والملائكة تحوم فوق رؤوس المشركين ، حيث قُتل منهم كل جحجاح بطل ، ورَم أنفه من الخيلاء ، ومضت مثلاً فى التاريخ ، ورسول الله ﷺ المبعوث حقًا من رب العالمين كان هنا كما كنتم أنتم شاهدين ذلك المشهد يوم جمعت قريش فى أشتاتها ، كما تجمع الإبل فى المكان

---

(١) سدحنا : وفى رواية شدخنا أى قتلنا . (٢) غير المنتحل : غير باطل ولا مبالغ فيه .
(٣) إفلات الحجل : انهزامكم كإفلات الحجل من الشَرَك .
(٤) الحناطيل : الجماعات . (٥) الجنان : الجن .
(٦) الملا : المتسع من الأرض . (٧) يهل : يرتاع من الهول والفزع .
(٨) أيدوا جبريل : أيدوا بجبريل وحُذف الجار فتعدى فنصب .
(٩) الجحجاح : السيد . (١٠) رفل : الذى يجر ثوبه خيلاء .
(١١) التنابيل : القصار اللئام . (١٢) الهُبل : الذين ثقلوا لكثرة اللحم .
(١٣) الخصب : الأرض الخصبة . (١٤) الهمل : الإبل المهملة بدون راع .
(١٥) ولد استها : تقدير منادى : يا وُلْدَ استها أى يا أولاد أدبارها وهى كلمة تقولها العرب عند السب .
(١٦) انظر : السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ١٩٤ ـ ١٩٦ . انظر الديوان ١ / ق ١١ ص ٦٧ ـ ٦٨ .

الخصب دون راعٍ ، حيث ذبحنا منكم سبعين قتيلاً ، وأسرنا منكم أعدادهم ، وفررتم فرار الحجل،نحن بنو الحرب أنا لكم يا بنى أدبار الحرب ، ولستم أبناءها ، نحن بنو البأس إذا البأس نزل .

**ابن الزبعرى وحسان ثانية :**

وقال عبد الله بن الزبعرى فى يوم أُحد يبكى القتلى :

| | |
|---|---|
| ألا ذرفت [1] من مقلتيك دموع | وقد بان من حبل الشباب قطوع |
| وشط [2] بمن تهوى المزار وفرَّقت | نوى [3] الحى دار بالحبيب فجوع |
| وليس بما ولّى على ذى حرارة | وإن طال تذراف الدموع رجوع |
| فذر [4] ذا ولكن هل أتى أم مالك | أحاديث قومى والحديث يشيع |

وإن كان افتتح فى قصيدته الأولى حديثه بالحكمة ، لكنه هنا يعود للبكاء على الأطلال ومناجاة الحبيبة التى قلته ، وفرقت الأيام بينها وبينه ، وقد فجع الحى بنوى الحبيبة ، ولا يجدى تذراف الدموع عليها ، لكن هناك ما هو أخطر ، حديث القوم الذين مضوا إلى المدينة :

| | |
|---|---|
| ومجنبنا [5] جرداً إلى أهل يثرب | عناجيج [6] منها متلد [7] ونزيع [8] |
| عشية سرنا فى لُهام [9] يقودنا | ضرور الأعادى للصديق نفوع |
| نشد علينا كل زعفٍ [10] كأنها | غدير بضوج[11] الواديين نقيع [12] |
| فلما رأونا خالطتهم مهابة | وعاينهم أمر هناك فظيع [13] |
| وودوا لوْ أنّ الأرض ينشق ظهرها | بهم وصبور القوم ثم جزوع |

إن المعانى تتكرر ولا تضيف جديداً فقد قادوا الخيل إلى أهل يثرب بكل

---

(١) ذرفت : سالت .
(٢) شط : بعد .
(٣) النوى : البعد والفراق .
(٤) ذر : دع .
(٥) مجنبنا : قودُنا .
(٦) العناجيج : الطوال الحسان .
(٧) المتلد : الذى ولد عندك .
(٨) النزيع : الغريب .
(٩) اللهام : الجيش الكثير .
(١٠) الزعف : الدروع اللينة .
(١١) الضوج : جانب الوادى .
(١٢) نقيع : مملوء بالماء .
(١٣) الفظيع : الكريه .

أنواعهـا ، دون أن يمتطوها ، وذلـك فى جيش لجب همـه إيقاع الضرر والـفتك بعدوه ، وصوت صلصلة الدروع، يملأ الأفق كفوران الماء وشلالاتها فى الوادى ، فوقع الرعب فى قلوبهم، وودوا لو أن الأرض ينشق ظهرها من خوفهم ورعبهم ، فالصبور فيهم جزوع ، ينتقل بعدها لحومة الوغى وساحة المعركة :

| | |
|---|---|
| وقـد عُريت بيض كأن وميـضهـا [١] | حـريق ترقى فـى الأباء [٢] سريع |
| بأيمانـنا [٣] نعلو بـهـا كل هامــة [٤] | ومنهـا سِمـام [٥] للعـدو ذريع [٦] |
| فعادرن قتلـى الأوس عاصبة [٧] بهم | ضبـاع [٨] وطيـر يعتفـين[٩] وقـوع |
| وجـمع بنى النجار فى كل تلعـة [١٠] | بأبدانـهم من وقـعـهن نجـيع [١١] |
| ولولا علو الشعب [١٢] غادرن أحمدًا | ولكن علا، والسمهرى[١٣] شروع [١٤] |
| كـمـا غـادرت فى الكر حـمـزة ثاويًا | وفى صدره ماضى الشباة[١٥] وقيع[١٦] |
| ونعـمـان قـد غـادرن تحـت لوائه | على لحمه طير يُحفن[١٧] وقوع كما |
| بأحـد وأرمـاح الكمـاة يـرونهم | غال[١٨] أشطان[١٩] الولاء[٢٠] نزوع[٢١] |

أما قتلى الأوس فقد لحمتهـا الضباع والطيور الجارحة ، وجمع بنى النجار فى كل موقع نجيع الدم قد روى الأرض منهم ، وكان يمكن لمحمـد أن يكون صريعًا لولا نجاته إلى أعلى الشعب كمـا صرع حمزة وهو فى صدره الشباة قد اخـترقته . وذاك نعمان بن عـبد عمرو سيد بنى النجـار ، قد عكفت الطير على جثتـه ، فقد كانت الرماح تنوش المسلمـين فتهلكهم كما تهلك الحبـال من شدة ما تنزح من ماء البئر .

---

(١) الوميض : الضوء .
(٢) الأباء : الأجمة الملتفة الأغصان .
(٣) أيماننا : سواعدنا .
(٤) هامة : رأس .
(٥) سمام : سموم .
(٦) الذريع : الذى يقتل سريعًا .
(٧) عاصبة بهم : لاصقة بهم .
(٨) الضباع : ضرب من السباع .
(٩) يعتفين: يطلبن الرزق .
(١٠) التلعة : ماء على أعلى الوادى .
(١١) النجيع : الدم .
(١٢) الشعب : الطريق فى الجبل .
(١٣) السمهرى : الرماح .
(١٤) شروع : مائلة للطعن .
(١٥) شباة كل شىء : حَدُّه .
(١٦) وقيع : محدد .
(١٧) يحفن : يستدرن .
(١٨) غال : أهلك .
(١٩) الأشطان : الحبال .
(٢٠) الدلاء : جمع دلو .
(٢١) النزوع : جذب الدلو وإخراجها من البئر ، والنَزوع : المستقى .

فانبعث حسان يواجه الضربة بالضربة القاضية ، ويرد على القصيدة بقصيده مماثلة تنقضها .

| | |
|---|---|
| أشاقك من أم الوليد ربوع | بلاقع [1] ما من أهلهن جميع |
| عفاهنّ[2] صيفى الرماح وواكف [3] | من الدلو [4] رجاف السحاب هموع |
| فلم يبق إلا موقد النار حوله | رواكد أمثال الحمام كنوع[5] |
| فدع ذكر دار بدوت بين أهلها | نوى لمتنيات الحبال قطوع |

وكما تغنى ابن الزبعرى بأحبته وبكى على فراقهم . فهذا حسان يبكى على فراق حبيبته أم الوليد التى غادرت ربعها فجعلتها بلاقع يبابًا . قد عفت على آثارها الريح ، ودرست معالمها الأمطار الغزيرة ، فلم يبق شاهداً على تلك الديار إلا موقد النار ، وأنا فى القدر مثل الحمام اللاصق بالأرض ، فدع هذا البكاء المتشنج،وامض إلى أمجاد قومك بأحد :

| | |
|---|---|
| وقل إن يكن يومًا بأحد بعده | سفيه فإن الحق سوف يشيع [6] |
| فقد صابرت فيه بنو الأوس كلهم | وكان لهم ذكر هناك رفيع |
| وحامى بنو النجار فيه وصابروا | وما كان منهم فى اللقاء جزوع |
| أمام رسول الله لا يخذلونه | لهم ناصرٌ من ربهم وشفيع |
| وفوا إذ كفرتم يا سخين [7] بربكم | ولا يستوى عبد وفى ومضيع |
| بأيديهم بيض إذا حمش [8] الوغى | فلابد أن يردى [9] لهن صريع |
| كما غادرت فى النقع[10] عتبة[11] ثاويًا | وسعدًا صريعًا والوشيج[12] شروع[13] |

وبمقدار ما يركز ابن الزبعرى على عدد القتلى فى الأوس والخزرج يركز حسان

---

(١) بلاقع : القفر الخالى .
(٢) عفاهن : غيرهن .
(٣) واكف : مطر سائل .
(٤) الدلو : نجم الدلو .
(٥) كنوع : لاصقة بالأرض .
(٦) يشيع : ينتشر .
(٧) يا سخين : أراد يا سخينة وبها تعيَّر قريش لمداومتهم على شرب هذا الشراب .
(٨) حمش : اشتد .
(٩) يردى : يهلك .
(١٠) النقع : الغبار .
(١١) عتبة والصحيح هو عثمان بن طلحة كما فى الديوان .
(١٢) الوشيج : الرماح .
(١٣) شروع : مائلة للطعن .

على مصابرة الأوس والخزرج . وأن هذا القتل شرف لهم ، فما جزعوا وما فروا ولكن صبروا وصابروا ، وأطاعوا ربهم وشتان بين عاص لربه ومطيع له . وفوق هذا ، فقد صرعوا أكابر القوم ، فهذا كبش الكتيبة عثمان بن أبى طلحة حمل لواء قريش ، وذاك أخوه سعد بن أبى طلحة قد خُلِّفوا صرعى فى ساحة المعركة .

ولكن أشقى القوم وأكبر القتلى هو صريع محمد ﷺ :

وقد غادرت تحت العجاجة [1] مسندًا ... أبياً وقد بلَّ القميص نجيع [2]
بكف رسول الله حيث تنصَّبت ... على القوم مما قد يثرن نقوع [3]
أولئك قومى سادة فى فروعهم ... ومن كل قوم سادة وفروع
بهنَّ يعز الله حين يعزنا ... وإن كان أمر يا سخينَ فظيع [4]

أما مصرع حمزة أسد الله وأسد رسوله ، فله شأن آخر غير قتلاكم المتنتة الصائرة إلى النار :

فإن تذكروا قتلى وحمزة فيهم ... قتيل ثوى لله وهو مطيع
فإن جنان الخلد منزلةُ له ... وأمر الذى يقضى الأمور سريع
وقتلاكم فى النار أفضل رزقهم ... حميم[5] معًا فى جوفها وضريع[6] [7]

ولا جديد عند الشاعرين فى قصيدتيهما ، إلا تكرار المعانى السابقة فى النقائض السابقة ، ثم الإشارة إلى مصرع أبى بن خلف سيد بنى جمح وأشقى الخلق على يد المصطفى صلوات الله عليه .

**بين عمرو بن العاص وكعب بن مالك :**

وهما مقطوعتان صغيرتان . فعمرو بن العاص ، غلب عليه الجانب العسكرى والسياسى ، وقوله الشعر ليس صناعة أو وظيفة ، بل هو تعبير عن مشاعره بهذا الأبيات الستة :

---

(١) العجاجة : الغبرة .
(٢) النجيع : الدم .
(٣) النقوع : جمع نقع وهو الغبار .
(٤) الفظيع : الكريه .
(٥) الحميم : الحار .
(٦) الضريع : نبات أخضر يرميه البحر .
(٧) السيرة النبوية لابن هشام ذ/ ٣ / ٢٠٣ ، والديوان ١ / ق١٨٣ ص ٣٣٧ .

خرجنا من الفيفا [١] عليهم كأننا — مع الصبح من رضوى[٢] الحبيك[٣] المنطق[٤]
تمنَّت بنو النجار جهلاً لقاءنا — لدى جنب سلع [٥] والأمانُّى تصدق
فما راعهم بالشر إلا فجاءة — كراديس [٦] خيل فى الأزقة تمرق [٧]
أرادوا لكيما يستبيحوا قبابنا — ودون القباب اليوم ضرب محرق
وكانت قِبابًا أو منت قبل ما ترى — إذا رامها قوم أبيحوا وأُحنقوا [٨]
كأن رؤوس الخزرجيين غدوة — وأيمانهم بالمشرفية بَرْوَقُ [٩]

لقد انقضوا عليهم من الصحراء ، مع إطالة الفجر ، وأحاطوا بهم إحاطة السوار بالمعصم ، وبنو النجار فى غرورهم يحسبون أن يوم بدر سيتكرر ، فما راعهم إلا الخيل فى صفوفهم تخترقهم . لقد كانوا يأملون استباحة قبابهم وعسكرهم ، ولكن هيهات فدون هذه القباب ضرب محرق ، لا يقصدها أحد إلا صُدَّ وارتد غاضبًا حانقًا عاجزًا عن النيل منها . أما رؤوس الخزرجيين ، فكانت تتهاوى كالبَرْوَق .

فأجابه كعب بن مالك بطل أحد وشاعرها ، وهو لا ينفى القتل ، إنما يفخر بالصبر من سبع مئين ، أمام ثلاثة آلاف كما فى القصيدة الثانية يقول :

ألا أبلغا فهراً على نأى دارها — وعندهمُ من علمنا اليوم مصدق
بأنا غداة السفح [١٠] من بطن يثرب — صبرنا ورايات المنية تخفق [١١]
صبرنا لهم والصبر منا سجية [١٢] — إذا طارت الأبرام[١٣] نسمو ونرتقُ[١٤]
على عادة بكا جرينا بصبرنا — وقِدمًا لدى الغايات نغدو فنسبق
لنا حومة [١٥] لا تستطاع يقودها — نبى أتى بالحق عِفٌّ [١٦] مصدق

(١) الفيفا : القفر الذى لا ينبت شيئًا وقفره للضرورة .
(٢) رضوى : اسم جبل .
(٣) الحبيك : الذى فيه طرائق .
(٤) المنطق : المحزم الشديد .
(٥) سلع : اسم جبل قريب من المدينة .
(٦) الكراديس : جماعات الخيل .
(٧) تمرق : تخرج .
(٨) أُحنقوا : اشتعلوا غضبًا .
(٩) البروَق : نبات له أصول تشبه البصل .
(١٠) غداة السفح : جانب الجبل .
(١١) تخفق : تضطرب وتتجول .
(١٢) السجية : الطبيعة والعادة .
(١٣) الأبرام : جمع بَرَم وهى اللئام .
(١٤) نرتُق : نسد ونصلح .
(١٥) الحومة : الحُجة .
(١٦) عِف : عفيف .

ألا هل أتى أفناء [١] فِهر بن مالكٍ … مقطع أطراف وهام[٢] مفلق[٣] [٤]

لقد أضاف حسان وكعب رضي الله عنهما بعدًا جديدًا فى الحرب والمعارك ، فلم تعد النتائج تحسب بعدد القتلى . إنما تحسب بالصبر على الجلاد ، والذود عن الدين والأرض والعِرض ، فلا تستباح هذه المحارم ، وقد صبر الأوس والخزرج على هول المعركة ، ولم يتراجعوا ، وبقوا خلف نبيهم عليه الصلاة والسلام سدًا منيعًا دون يثرب أو دون شبرٍ منها ، حتى تزحزح العدو وانداح عائدًا إلى بلده ، مخلفًا خلفه الأطراف المقطعة والهام المفلقة .

ولا ينسى عمرو بن العاص أن يفخر علينا بثباته فى المعركة وهو من القادة الكبار فيها، فيتحدث بذلك قائلاً :

لما رأيت الحرب ينزو [٥] … شرّها بالرضف [٦] نزوا
وتناولت شهباء [٧] تلحو [٨] … الناس بالضراء لحوا
أيقنت أن الموت حق … والحياة تكون لغوا
حمّلْتُ أثوابى على … عتَدٍ [٩] يبذُّ [١٠] الخيل رهوا [١١]
سَلِسٍ إذا نكّبْن فى البيـ … ـداء يعلو الطرف علوا
وإذا تنزل ماؤه [١٢] من … عطْفه[١٣] يزداد زهوا
ربذ [١٤] كيعفور [١٥] الصريـ … ـمة [١٦] راعه [١٧] الرامون دحوا [١٨]
شنج [١٩] نساه [٢٠] ضابطٍ [٢١] … للخيل أرخاءً وعدوا [٢٢]

---

(١) أفناء : أخلاط .
(٢) هام : جمع هامة وهى الرأس هنا .
(٣) مفلق : مقطَّع .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ٢٠٤ ، ٢٠٥ .
(٥) ينزو : يرتفع ويشب .
(٦) الرضف : الحجارة المحماة بالنار .
(٧) شهباء : كتيبة كثيرة السلاح .
(٨) تلحو : تقشر وتضعف .
(٩) العتد : الفرس الشديد .
(١٠) يبذ الخيل : يسبقها .
(١١) الرهو : الساكن اللين .
(١٢) ماؤه : عرقه .
(١٣) عطْفه : جانبه .
(١٤) ربذ : سريع .
(١٥) يعفور : ولد الظبية .
(١٦) الصريمة : الرملة المتقطعة .
(١٧) راعه : أفزعه .
(١٨) الدحو : الانبساط .
(١٩) شنج : منقبض .
(٢٠) نساه : عرق مستبطن الفخذين .
(٢١) ضابط : ممسك .
(٢٢) الإرخاء والعدو : ضربان من السير .

فَغدى لهم أمى غداة	الروع إذ يمشون قطوا (1)
سيرًا إلى كبش الكتيـ	ـبة (2) إذ جلته الشمس جلوا

قال ابن هشام : وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها لعمرو (3) .

وعمرو بن العاص تحس الهدوء فى شعره ، والانتقاء فى ألفاظه حتى وهو يصف اضطراب فرسه وسرعه ركضه،إنه الداهية القرشى الذى يعد العدة لعدوه . فها هو لما رأى الحرب ينزو شرها بالنار ، وتحركت كتيبة شهباء تهشم الناس بالضراء والبأس ، ورأى الموت يتراقص أمامه ، وانتهت حياته كأنما هى ضرب من اللغو ، شمَّر عن ساقيه وامتطى فرسه الذى يبذ الأفراس وينافسها . سلس مقاده فى البيداء يقطعها بمنتهى طرفه، وحين يتنزل عرقه يشمخ بأنفه زهوًا وكبرًا لما أنجز يحوم فى قلب المعركة ويجول دون أن يتمكن الرامون من إصابته فكأنه ظبى أغن رأى صائده وراح يراوغه. لقد أنهت الكتيبة مهمتها ، حين أودت بكبش الكتيبة .

**ضرار بن الخطاب الفهرى :**

وينزل إلى ساحة المعركة الشعرية بطلها المناجز ضرار بن الخطاب الفهرى ينزل أولاً بطلاً مناجزًا مثل كعب بن مالك رضي الله عنه .فيتحدث عن بطولته قائلاً :

ثم وجدِّك (4) لولا مُقدمى فرسى	إذا جالت الخيل بين الجزع(5) والقاع(6)
ما زال منكم بجنب الجزع من أحد	أصوات هام(7) تزاقى(8) أمرها شاع(9)
وفارس قد أصاب السيف مفْرَقَه(10)	أفلاق هامته كفروة (11) الراعى
إنى وجدك لا أنقل منتطقًا (12)	بصارم مثل لون الملح قطَّاع

(1) القطو : مشى فيه تبختر .
(2) كبش الكتيبة : رئيسها .
(3) السيرة النبوية لابن هشام ذ/ 3 / 208، 209 .
(4) وجدك : قسم بالجد .
(5) الجزع : منعطف الوادى .
(6) القاع : المنخفض من الأرض .
(7) الهام : جمع هامة وهو الطائر الذى تزعم العرب أنه يخرج من رأس القتيل .
(8) تزاقى : تصيح .
(9) شاع : شائع .
(10) المَفرق : حيث يتفرق الشعر فوق الجبهة .
(11) كفروة الراعى : إناء الخشب الذى يحمله أو الفروة .
(12) منتطق : محتزم .

على رحالة [1] ملواح [2] مثابرَة [3] نحو الصريخ[4] إذا ما ثوَّب الراعى

وما انتميت إلى خُور[5] ولا كُشُف[6] ولا لئام غداة البأس أو راع [7]

بل ضاربين حبيك[8] البيض إذ لحقوا شم[9] العرانين[10] عند الموت لذاع[11]

شم بها ليل مسترخٍ حمائلهم يسعون للموت سعيًا غير دعداع[12]

وكأنما نزل إلى الساحة يصفها بعد انتهاء المعركة وهو يتنقل بين الجثث ، فيسمع أصوات الهوام العاكفة على هذه الجثث ،أو أرواح القتلى تنعق من كل جانب ، فذاك فارس قد أصاب السيف مفْرِقه وقد فلقت هامته كأنها فروة راع . وهو مع ذلك منتطق بسيفه ممتط فرسه السبوح الذى يصغى إلى الصريخ فيتنفض مذعوراً مجيبًا له . إنه من سلالة الأبطال الشجعان الذين لا يعرفون الخور ، ولا ينكشفون عند المواجهة غداة البأس ، بل يضربون الدروع المحكمة فيقطعونها ويقطعون أجساد أعدائهم معهاشم الأنوف يلذعون لذع النار فى حربهم ، سادة فى أقوامهم ، مسترخية حمائل سيوفهم عليهم لطولهم ، يسعون للموت دونما خوف ولا وجل ، ويعود ثانية ليوزع نفسه بين نفسه وقومك :

لما أتت من بنى كعب مزيَّنة [13] والخزرجية فيها البيض تأتلق

وجردوا مشرفيات [14] مهندة [15] وراية كجناح النسر تختفق

فقلت يوم بأيام ومعركة تنبى [16] لما خلفها ما هزهز[17] الورق

قد عُودوا كل يوم أن تكون لهم ريح القتال وأسلاب [18] الذين لقوا

إنه يريد أن يتحدث عن بطولته وقومه من خلال بطولة الخزرجيين الذين تأتلق

---

(1) الرحالة : السرج .

(2) الملواح : الفرس الشديدة التى ضمر لحمها .

(3) مثابرة : متابعة .

(4) الصريخ: المستغيث .

(5) خور : ضعفاء .

(6) كشف : مهزومون .

(7) أوراع : جبناء .

(8) الحبيك : الأبيض طرائقه .

(9) شم : مرتفعة .

(10) العرانين : مقدمة الأنف .

(11) لُذاع : يلذعون بالنار .

(12) دعداع : ضعيف .

(13) مزينة : منوعة السلاح .

(14) المشرفيات : سيوف منسوبة إلى المشارف بالشام .

(15) والمهندة : منسوبة للهند .

(16) تنبى : تخبر .

(17) هزهز الورق : حُرك .

(18) الأسلاب : جمع سَلَب .

السيوف فى جوانبهم وجرَّدوا سيوفـهم للمواجهة ، ورفعوا راية لهم تخفق كجناح النسر ، فقلت فى نفسى : هذا يوم له ما بعده ، فـهو يعادل كل المعارك السابقة ، إذ عُود الخزرجيون أن تكون لهم ريح القتال دائمًا ، وأسلاب الذين يلقونهم . أما اليوم فلا كالأيام السابقة :

خَيرت نفسى على ما كان من وَجَل [1] ... منهـا وأيقنت أن المجـد مسـتبق
أكرهت مهرى حتى خاض غمرتهم[2] ... وبلَّه من نجيع [3] عـانِد [4] علـق [5]
فظل مهـرى وسربالى حسيـدهما [6] ... نفخ العروق[7] رشاش الطَعن والورقُ[8]
أيقـنت أنى مـقـيم فى ديـارهم ... حتـى يفارق مـا فى جوفـه الحدق [9]
لا تجـزعـوا يا بنـى مـخـزوم إن لكم ... مـثل المغـيـرة فـيكم مـا به زهق [10]
صـبـرًا فِدى لكم أمى ومـا ولدت ... تعاوروا[11] الضرب حتى يدبر الشفق[12]

لا مجد للفارس إلا بالطعان فى يوم الكريهـة . فها هو يكره مهره على ما فى قلبه من وجل حـتى خاض غـمرات المسلمين وعـاد مبلولاً بنجـيع الدم الإسلامى الأحـمر . لقـد تشابه لـونى ولون مهـرى من غمـرة الدم القـانى الذى طعنت به المسلمين ، وانتهى الوجل عندى فأنا مقـيم حتى تفارق روحى الجسد . وأنا اليوم سأثأر لبنى مخزوم ، فدى لكم أمى ونفـسى . تابعوا الضراب والطعان منذ انبلاج الفجر حتى يدبر الشفق فقد آن الأوان للثأر .

**قصيدته العصماء فى أُحد :**

وها هو يجاوز المقطوعـات المنوعة ، ليعـمل كما عـمل كعب ، ويفرغ طاقـته الشعرية الإبداعية فى أُحد . يتجنب نفسه ، وينتمى إلى قومه ، ويأتى بلون جديد فى الشعـر لم نعهـده فى أُحد فى كل مـا مرَّ معنا من قـصائد . لقـد تجاوز الخط

---

(١) الوجل : الفزع .
(٢) غمرتُهم : جماعتهم .
(٣) النجيع : الدم .
(٤) عاند : لا ينقطع ومن رواه عائل فمعناه أحمر .
(٥) العلَق : من أسماء الدم .
(٦) حسيدها : لونهما .
(٧) نفح العروق : من رواه بالحاء المهملة فهو ما ترمى به من الدم ومن رواه بالخاء فمعلوم .
(٨) الوَرَق : الدم المنقطع ويروى العرق .
(٩) الحدق : جمع حدقه وهى سواد العين .
(١٠) ما به زهق : ما به عيب .
(١١) تعاوروا : تداولوا .
(١٢) السيرة النبوية لابن هشام ذ/ ٣ / ٢٠٧، ٢٠٨ .

الأحمر ، وراح يهجو المهاجرين مع الأنصار ، بعد أن توقف ابن الزبعرى وهبيرة عند هذا الخط لم يتجاوزاه . أما هو فقد اقتحم ، وأعاد أجواء بدر من جديد .

قال ابن إسحاق : وقال ضرار بن الخطاب فى يوم أُحد :

ما بال عينك قد أزرى[1] بها السهد ... كأنما جال فى أجفانها الرمد

أمن فِراق حبيب كنت تألفه ... قد حال من دونه الأعداء والبعد

أم ذاك من شغب قوم لا جداء[2] ... إذا الحروب تلظَّت[3] نارها تفد

بهم ما ينتهون عن الغى الذى ركبوا ... وما لهم من لؤى ويحهم عضد

وقد نشدناهُم[4] بالله قاطبة ... فما تردَهُم الأرحام والنشد

بوضوح بين ، وبعبارة مشرقة ، بعيدة عن التعقيد وحوشى الألفاظ راح يخاطب نفسه عن الذى حال بينه وبين النوم حتى ازدراه السهد ، وكأنما الرمد قد أصاب أجفانه ، والخاطر الأول أن ذاك إنما لفراق حبيب حالت الأعداء والفيفاء دونه ، لكن حقيقة الأمر أنه الهم من قوم بغوا على أهلهم ليسوا أهلاً للحرب والنزال . ركبوا رؤوسهم ، ووقفت لؤى كلها ضدهم ، وناشدناهم بالأرحام أن يرعووا ويحفظوا هذه الدماء لكن دون جدوى . فماذا كان ؟

حتى إذا ما أبوا إلا محاربة ... واستحصدت[5] بيننا الأضغان[6] والحقَدُ

سرنا إليهم بجيش فى جوانبه ... قوانس[7] البيض والمحبوكة[8] السُّرُدُ[9]

والجُرد[10] ترفل بالأبطال شازبة[11] ... كأنما حِدأً[12] فى سعرها تُوَدُ

جيش يقودهم صخر[13] ويرأسهم ... كأنه ليث غاب[14] هاصر[15] حَرِدُ[16]

فأبرز الحَيْن قومًا من منازلهم ... فكان منا ومنهم ملتقى أُحُد

(١) أزرى : قصَّر .

(٢) لا جداء : لا منفعة ولا قوة .

(٣) تلظت : التهبت .

(٤) النشيد : اليمن .

(٥) استحصدت : تقوت واستحكمت .

(٦) الأضغان : العدوات .

(٧) القوانس : أعالى بيض السلاح .

(٨) المحبوكة : الشديدة .

(٩) السرد : المنسوجة بعين الدروع .

(١٠) الجُرْد : الخيل العتاق .

(١١) شازبة : ضامرة خفيفة اللحم .

(١٢) حِدأ : جمع حَدأة .

(١٣) صخر : أبو سفيان بن حرب .

(١٤) غاب : جمع غابة وهى موضع الأسد .

(١٥) هاصر : كاسر .

(١٦) حَرِد :غاضب .

وحين ينتقل لوصف الجيش يغوص فى لآلئ الألفاظ وأصداف الكنايات والاستعارات والتشبيهات ، فالجيش الذى ساروا به يعج بالسلاح ، والدروع المحبوكة القوية، والخيل تتبختر بالفرسان ضامرة اللحم، كأنما هى الحدأة تسير فى تؤدة وخيلاء . وعلى رأس هذا الجيش ليث كاسر غاضب هصور هو أبو سفيان بن حرب ، وبرز قومنا لنا والتقينا فى أحد . فماذا كان ؟

فغودرت منهم قتلى مجدلة [1] ... كالمعزِ أصرده [2] بالصروح [3] البرد
قتلى كرام بنى النجار وسطهم ... ومُصعَبُ من قنانا حوله قصَدُ [4]
وحمزة القرْم [5] مصروع تطيف به ... ثكلى وقد حُزَّ منه الأنف والكَبد
كأنه حين يكبو فى جديته [6] ... تحت العجاج وفيه ثعلب [7] جَسد [8]
حُوارِ [9] ناب [10] وقد ولَّى صحابته ... كما تولى النعام الهارب الشُرُدُ
مجلحين [11] ولا يلوون قد ملئوا ... رعباً فنجتهم العوصاء [12] والكؤد [13]
تبكى عليه نساء لا بعول لها ... من كل سالبة أثوابها قدد [14]
وقد تركناهم للطير ملحمة ... وللضباع إلى أجسادهم تَفِدُ

قال ابن هشام : وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها لضرار .

ومن ينكر بطولة حمزة وعظمته إلا المكابر . لكنه مع ذلك سقط صريعًا ، تطيف به نساؤه وقد مُثّل به فحزَّت أنفه وأذنه . ويجْلى صورة هذا الصريع الذى يسقط مجندلاً بدمه وقد احتزته الرماح ، كأنما هو ولد الناقة قد نفرت عنه أمه وأهله ، ثم يلاحق أولئك الفارين وقد ملأ قلوبهم الرعب كالنعام الشاردة ، بينما ترك القتلى وليمة للطيور الجارحة وملحمة للوحوش المفترسة .

لنتصور لو أن المسلمين فقدوا حسانًا وكعبًا ، وكانوا يرون هذين الشاعرين الفحلين، وقد أطلق ضرار قصيدته هذه يحملها الركبان إلى كل صقع فى الجزيرة، كيف تكون النتيجة ، وكيف تنهار سمعة المسلمين فى الأرض العربية . وهنا تبرز

(١) مجدلة : لاصقة بالأرض .
(٢) أصرده : بالغ فى برده .
(٣) الصروح : المكان الصلب الغليظ .
(٤) قصَد : قطع متكسرة .
(٥) القرم : الرجل السيد .
(٦) الجديَّة : طريقة الدم .
(٧) الثعلب : ما دخل من الرمح فى السنان .
(٨) جَسد : قد يبس عليه الدم .
(٩) الحوار : ولد الناقة .
(١٠) الناب : المسنة من الإبل .
(١١) مجلحين : مصممين .
(١٢) العوصاء : عقبة صعبة .
(١٣) الكؤد : جمع كؤود .
(١٤) قِدَد : قطع .

عظمة وجود هذين الفحلين .

**عصماء حسان تواجه عصماء ضرار :**

وقد جمع حسان نفسه وقومه فى قصيدة واحدة :

مَنَع النـوم بالـعَشــــاء همـــــوم ... وخـــيــــال إذا تغـــور [1] النجـــوم

من حـبـيب أضـاف [2] قلـبك مـنه ... ســقم فـــهـــو داخـل مكتـــوم

يا لقـــومى هـل يقـتـل المرءَ مـثلى ... واهن الـبطـش والعـظام ســـؤوم

لو يدب الحـــولى [3] مـن ولد الـذ ... رّ [4] عليــه لأندبنهــا الـكلوم[5]

شــأنهـــا الـعطر والفــراش ويـعلو ... هـا لجـــــيــن ولـؤلـؤ منـظـوم

لم نفـتـهـا شـمس النهــار بشىء ... غـيــر أن الشـبـاب لـيس يدوم

لقد وفَّى حديثه عن محبوبته فى هذه المقدمة . فقد أصاب قلبه السقم من حبها ، وكاد يقتله هواها وهى الضعيفة الكاعب ، همها العطر والفراش والزينة ، ولرقة جسدها البض الناعم ما لو مسته صغار الهوام لانفجر من جسدها الغض اللون كلوم ودماء. هى أجمل من شمس النهار . لكن هل يدوم الشباب ؟ .

إن خـــالى خطيب جــابيــة الجـــو ... لان [6] عند النعـمـان حـين يقـوم

وأبى فى ســمـيحـة [7] القـائل الفـا ... صل يوم التـفت عليـه الخـصـوم

يصل الـقــول بالبــيـان وذو الرأ ... ى من القــوم ظالع [8] مكعـوم [9]

وأنا الصـــقـــر عند باب ابـن سَلمى ... يوم نُعـمــانُ فـى الكبـول [10] مقيم

وأُبـى وواقــــد أطـلـقــــا لـى ... ثم رحـنا وقـفُلـهم مـحـطوم [11]

ورهنت الـيـديـن عنهم جـمـيــعًا ... كل كـيف جـزء لهــا مـقـســوم

وَسَطَت[12] نسبتى الذوائب[13] منهم ... كل دار فــيـــهــا أب لى عظـيم

رب حِلم أضـــاعـــه عـــدم المـا ... ل وجــهل يحـظى عليــه الـنعـيم

---

(1) تغور : تغيب .

(2) أضاف : نزل .

(3) الحولى : الصغير .

(4) ولد الذر : صغار النمل .

(5) الكلوم : الجراحات .

(6) جابية الجولان : من أعمال الشام قرب حوران .

(7) سميحة : اسم بئر بالمدينة كان عندها احتكام الأوس والخزرج فى حروبهم إلى ثابت بن المنذر والد حسان .

(8) ظالع : متضايق .

(9) مكعوم : ممنوع عاجز عن الكلام .

(10) الكبول : القيود .

(11) محطوم : مكسور .

(12) سطت : توسطت.

(13) الذوائب : الأعالى .

مـــا أبـالى أنبَّ [1] بـــالحَزْنِ [2] تيـــس أم لحـــانى [3] بظهـر غيب لئـيم
لا تســـــبنـنى فلـست بســـــبِىًّ [4] إن ســـــبـى من الرجـــــال الكـريم
تلك أفـــعـــالنا وفـــعل الـزبعـــرى خـــامل [5] فى صـــديقه مـــذمـوم

وإذا كان قد اختار لمحبـوبته ستة أبيات، فقد اختار لنفسه ضـعفها يتحدث عن نسبه ومجده التليد ، حين يفخر ابن الزبعرى بمجـده وحسبه . فخال حسان مسلمة ابن مخلد بن الصـامت هو الخطيب المفوّه إمام الملوك . وعند النعـمان بن الحارث الغسانى هو ماء السماء ، هذا نسبه من حيث خؤولته فعراقة المجد عند الغساسنة . وأمـا نسبـه من أبيه فـأبوه ثابت بن المنذر بن حـرام هو الحكم الفـصل فى قومـه الأوس والخزرج . وهو الذى أعيا البلغاء وبذّ ذوى الرأى فيهم بإصلاح ذات بينهم وإنهاء الحرب بيـنهم . وهو ليس يفخر بنسبـه وانتهى الأمر . فهـو صاحب المجد التليد عند المناذرة اللخمـيين ، فهو الصقر عند باب النعـمان بن المنذر اللخمى ابن سلمى، لكن نعمان الثالث هو نعمان بن مالك وأبى بن كعب اللذين كانا أسيرين . فمن أطلقهما من الأسر غيرى، حيث حبسهما النعمان بن المنذر، فهو عريق أبًا وخالاً وجدًا ونفسًا. وأين من ابن الزبعرى الخامل المذموم الذى لا يعرفه حتى صديقه .

ثم ماذا عن المعركة بعد كل هذه المقدمات ؟ !

ولىَ الـبـــــأس مـنكـم إذا رحلـتم أســـرة من بنى قـــصى صـــمـــيم [6]
تـســـعـــــة تحـــمل اللـواء وطارت فى رعـــــاع [7] من القنـا مـخـــزوم
وأقـامـوا حـتى أبـيـحـوا جـمـيـعًا فى مـــقـــــام وكلهم مــــدمـــوم [8]
بدم عـــــانكِ [9] وكـــان حـفــاظًا أن يقـــيـــمـــوا إن الكريـم كـــريم
وأقـامـوا حـتى أزيروا شـعـوبًا [10] والقنـا فى نحـــورهم مـــحطوم [11]
وقــــريـش تفــــــر منـا لواذًا [12] أن يقــيـــمـوا وخـف منهـــا الحلوم

---

(1) نبَّ : صاح . (2) الحَزَن : الوعز .
(3) لَحانى : ذكرنى .
(4) لست بسبى : لست السباب لى فما أنت أهل لذلك ، إنما شبْه كريم .
(5) خامل : مجهول . (6) الصميم : الخالص النسب .
(7) الرعاع : الضعفاء .
(8) كلهم مدموم : جريح مطلى بالدم ومن رواه بالذال فهو الذى لا ينقطع .
(9) العانك : الأحمر . (10) شعَوب : اسم للمنية.
(11) محطوم : مكسور . (12) لواذًا : مستترين .

لم تُطِق حـــمله العـــواتق [1] منـهم إنما يحـــمل الـلواء النجـــوم[2] [3]

لقد قلب حسان المعركة على رأس ابن الزبعـرى ورأس ضرار . فصميم قصى الذين جاؤوا لحرب المسلمين ، سقط قـادتهم التسعة صرعى تحت اللواء ، وطارت مخـزوم من الرعب من هول طعن القنا فيهـا ، أما بنو عبد الدار فـصبروا فأقـموا يجالدون المسلمين حتى أبيحوا جميـعًا واصطبغوا بالنجيع الأحمر ، وجاءتهم المنايا راقصات لهم . وفى رواية الديوان :

لم يولوا حـــتى أبيـــدوا جـــمـيـــعًا فى مـــقـــام وكلـهم مـــدمـــوم
بدم عـــانـك وكـــان حِفـــاظًا أن يقـــيـــمـــوا إن الكرى كـــريم
وأقـــامـــوا حـــتى أُزيروا شَـــعـــوبًا والقـنا فى نـحـــورهم مـــحـطوم

فقد استقبلوا الرماح مشرعات فى صدورهم ، والسهام عارزات فى أجسادهم حتى قتلوا جـميعًا ، بينما فرت قـريش عنهم ، وحاولت عمرة الحـارثية أن تحافظ على اللواء فـسـقط ، إنما يحمـل اللواء النجوم لا العـواتق ولفـرح حـسان بهـذه القصيدة ذكر ابن هشام عنه .

قال حسان هذه القصـيدة : « منع النوم بالعشاء هموم » ليلاً فدعـا قومه فقال لهم : خشيت أن يدركنى أجلى قبل أن أصبح فلا تردوها عنى [4] . كما ذكر ابن هشام عنها قوله : هذه أحسن ما قيل [5].

**رثاء حمزة :**

لقد كـان أهم حدث فى أحد دوَّت له جـزيرة العرب هو مـقتل أسد بن عـبد المطلب أسد الله وأسد رسوله ، فقد ظغت بطولاته على كل البطولات فى بدر ثم فى أحد . فكان هو الحدث المركزى الرئيـسى الذى تناقلته الركبان فى كل مكان ، وساهمت هند بـنت عتبـة فى نشر هذا الحدث على أوسـع مدىّ شعـرًا ونثرًا ثأرًا

(١) العواتق : جمع عاتق وهو ما بين الكتف والعنق ، أو النساء كناية عن حمل عمرة الحارثية للواء .
(٢) النجوم : المشاهير من الناس .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٢١٢ ـ ٢١٤ ، والديوان ١ / ق ٥ ص ٤٠ .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ص ٢٠٤ .
(٥) المصدر نفسه ص ٢١٢ .

لأبيها وعمها القتيلين . ومع أن على بن أبى طالب لم يكن بأقل بأسًا وضراوة فى الحرب من عمه، غير أن حمزة قد طغى صيته على الساحة العربية، ويكفى أن نقف مع رسول الله ﷺ ،وقد تلقى نبأ استشهاد عمه رضي الله عنه كما ورد فى كتب السيرة :

قال ابن إسحاق : ( وخرج رسول الله ﷺ فيما بلغنى يلتمس حمزة بن عبد المطلب، فوجده ببطن الوادى، قد بُقر بطنه عن كبده، ومُثل به ، فجدع أنفه وأذناه.

فحدثنى محمد بن جعفر بن الزبير : أن الرسول الله ﷺ قال حين رأى ما رأى :

« لولا أن تحزن صفية ، ويكون سنة من بعدى ، لتركته حتى يكون فى بطون السباع ، وحواصل الطير ، ولئن أظهرنى الله على قريش فى موطنٍ من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم » .

فلما رأى المسلمون حزن رسول الله ﷺ وغيظه على من فعل بعمه ما فعل ، قالوا: والله لئن أظفرنا الله بهم يومًا من الدهر لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب .

قال ابن هشام : ولما وقف رسول الله ﷺ على حمزة قال : « لن أصاب بمثلك أبدًا ، ما وقفت موقفًا أغيظ لى من هذا » ثم قال :

« جاءنى جبريل فأخبرنى أن حمزة بن عبد المطلب مكتوب فى أهل السموات السبع حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله » .

وكان رسول الله ﷺ وحمزة وأبو سلمة بن عبد الأسد أخوة من الرضاعة أرضعتهم مولاة لأبى لهب (١) .

والمشهد الثانى الذى نلقاه عن حمزة رضي الله عنه : أقبل رسول الله ﷺ حتى طلع على بنى عبد الأشهل ،وهم يبكون على قتلاهم ، فذرفت عينا رسول الله ﷺ ، ثم قال :

« لكن حمزة لا بواكى له » (٢).

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ذ/ ٣ / ١٣٨ ـ ١٤٠ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٤ / ٣٣٧ .

ولما أذن بلال بصلاة المغرب خرج رسول الله ﷺ ، وهو على تلك الحال يتوكأ على السعدين فصلى بهم ثم عاد إلى بيته ، ومضى سعد بن معاذ إلى نسائه ونساء قومه، فساقهن حتى لم تبق امرأة إلا جاء بها إلى بيت رسول الله ﷺ يبكين حمزة بين المغرب والعشاء ،والناس فى المسجد يوقدون النيران يتكمدون بها من الجراح ، وأذن بلال العشاء حين غاب الشفق الأحمر ، فلم يخرج رسول الله ﷺ حتى ذهب ثلث الليل ، ثم ناداه : الصلاة يا رسول الله ، فهب رسول الله ﷺ من نومه وخرج فإذا هو أخف فى مشيته منه حين دخل ، وسمع البكاء . فقال : « ما هذا ؟ » فقيل: نساء الأنصار يبكين على حمزة . فقال : « رضى الله عنكن وعن أولادكن »وأمر أن ترد النساء إلى منازلهن .

وذكر ابن هشام أنه ﷺ أقبل عليهن ، وهنَّ على باب المسجد يبكين على حمزة ، فقال : « ارجعن رحمكن الله ، لقد واسيتن ، رحم الله الأنصار ، فإن المواساة فيهم ما علمت قديمة » فرجعن بليلٍ مع رجالهنّ (١).

وروى أبو يعلى برجال الصحيح عن ابن عمر ، وعن أنس ، والإمام أحمد وابن ماجه بسند صحيح عن ابن عمر ، والطبرانى عن ابن عباس رضي الله عنهم : أن رسول الله ﷺ لما رجع من أحد سمع الأنصار يبكين على أزواجهن فقال: « لكن حمزة لا بواكى له » ،فبلغ النساء ذلك ، فجئن يبكين على حمزة ، فانتبه من الليل، فسمعهن ، وهن يبكين ، فقال : « ويحهن ما زلن يبكين منذ الليل ، مروهن فليرجعن ولا يبكين على هالك بعد اليوم » .

وغدا حمزة بن عبد المطلب هو فقيد المدينة كلها ، وبجواره سبعون شهيدًا من الشهداء قتلوا :

وأدرك أبطال الشعر هذه الرغبة النبوية ، فانطلق الرثاء كله لحمزة رضوان الله عليه ،وإخوته معه ، دون أن يُشرك أحد باسمه سواه .

إنه مجتمع عجيب حقًا أن يفكّر كله بنفس واحدة ، ويتحرك بمشاعر واحدة ؛ لأن رسول الله ﷺ أحب ذلك .

كعب بن مالك يبكى حمزة وقتلى أحد :

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٤ / ٣٣٧ .

قال ابن إسحاق : وقال كعب بن مالك يبكى حمزة بن عبد المطلب وقتلى أحد من المسلمين :

نشـــــجت وهـل لك مـن منشج ... وكنـت مـــتى تـذكـــر تلـجج
تـذكُّر قـــــوم أتـانـى لـهـم ... أحــاديث فى الـزمن الأعــوج
تقـلب مـن ذكـــرهـم خــافق ... من الـشـــوق والحـــزن المنـضج

إلى هنا ويلتقى الراثون جميعًا فى هذه المشاعر ، ومن هنا يفترق المسلمون بعدها فى هذه المشاعر عن غيرهم من أهل الأرض.

وقـــتـــلاهم فـى جنان النـعـــيم ... كـــرام المداخـل والمخـــرج
بما صـــبـــروا تحـت ظل الـلواء ... لواء الـرســول بذى الأضــوج
غـــداة أجـــابت بأســيــافـــهـــا ... جـــمـــيـــعًا بـنو الأوس والخــزرج
وأشـــيـــاع أحـــمـــد إذ شـــايعـــوا ... عـلـى الحـق ذى الـنـور والمنـهـج
فـــمـــا برحـــوا يضــربون الكمــاة ... ويمـــضـــون فى القـــسطـل المرهج
كـــذلك حـــتـى دعـــاهم مليك ... إلـى جـنـة دوحـــــة المـولـج
فـكلـهـم مــــات حُرَّ الـبــــلاء ... علـى ملـة اللـه لم يـحـــرج (1)

فقد كان الشعر صدى للقرآن الكريم الذى زكى الشهداء ووعدهم بالجنة .

قال ابن إسحاق : وحدثنى إسماعيل بن أمية عن أبى الزبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « لما أصيب إخوانكم فى أحد ، جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ، ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظل العرش،فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم ، وحسن مقيلهم ، قالوا : يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهدوا فى الجهاد ، ولا ينكلوا عن الحرب ، فقال تعالى : فأنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله على رسوله ﷺ هذه الآيات :

**﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام و / ٢ / ٦٣٠ ـ ٦٣١ .

﴿ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) ﴾

[ آل عمران]

فى هذه الأجواء الندية العبقة بأريج الجنة راح كعب وحسان وإخوانهم من الشعراء يدبجون أروع مراثيهم عن الشهادة وجنان الخلد :

| | |
|---|---|
| كحمزة لمّا وفى صادقًا | بذى هبَّة صارم سلجج |
| فلاقاه عبد بنى نوفلٍ | يبربر كالجمل الأدعج |
| فأوجره حربة كالشهاب | تلهب فى اللهب الموهج |
| ونعمان أوفى بميثاقه | وحنظلة الخير لم يحنج |
| عن الحق حتى غدت روحه | إلى منزل فاخر الزبرج |
| أولئك لا من ثوى منكم | من النار فى الدرك المرتج |

لقد أفرد لحمزة ﷺ ثلاث أبيات ، شخصت مصرعه بيد العبد الأسود الذى يبربر كالجمل،وقذف الحربة فى صدره فقتله ، وأفرد بيتين لاثنين من سادة قومه ، أحدهما حنظلة الغسيل الذى غسلته الملائكة ، وثانيهما نعمان بن مالك . وحنظلة من الأوس ، وليس من الخزرج ، وترك كعب الحديث عن سيدى قومه الشهيدين من بنى سلمة عمرو بن الجموح ، وعبد الله بن عمرو بن حرام ، والنعمان بن مالك الذى أوفى بميثاقه هو من أحد فروع الخزرج البعيدة عن بنى سلمة ، ووفاؤه بميثاقه ، كما روى السدى : ( أن النعمان بن مالك قال لرسول الله ﷺ فى خروجه إلى أحد : والله يا رسول الله لأدخلن الجنة . قال له :« بم » قال : بأنى أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، ولا أفر من الزحف . فقال : « صدقت » [١] .

وصدق . ولم يفر من الزحف .

لقد آن الأوان لضرار بن الخطاب أن يشتفى من كعب ، ويرد عليه ، فقد كان كلاهما بطلين فى الشعر وبطلين فى الحرب . ولم يترك كعب ضرارًا يهنأ حتى عيَّره بهزيمة بدر ، وآن الأوان لضرار أن يشفى ويشتفى ويقول :

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ٣ / ٦ / ٢٤٦ .

أيجـــزع كـــعب لأشـــيـــاعـــه ويـبـكـى من الـزمـن الأعـــــوج
عـــجـــيج المـذكى رأى إلفـــه تـروَّح فى صـــادر مـــــحنـج
فـــــــراح الـروايا وغـــــادرنـه يعـــجِعج قـسرًا ولم يحـدج (١)
فـــقـــولاً لـكعـب يثنـى البـكا وللـنىء مـن لحـــمــــه ينـضج
لمصـــرع إخــوانـه فى مكر مـن الـ ـخـــيل ذى قـــسطل مـــرهج (٢)

فضـرار يدعو كـعبًا ليبكى كـما يبكى ذلك الجـمل المسن الذى رأى رفاقـه قد غادروه ،وتركوه وحيدًا يصرخ ولا من مجيب ، يبكى على إخوانه ، فليبك دمًا ، ولينضج لحمه النىء بشوى المصيبة المحرقة على فقدان إخوانه فى الحرب .

وها هو ضرار يسـتدعى موتاه عتـبة بن ربيعة وعمـرو بن هشام يستحـثهم من القليب ليفرحوا بمقتل قاتليهم :

فـــيـــا ليت عـــمـــرا وأشـيـــاعـــه وعـتـبـــة فى جـمـعنـا السـورج (٣)
فـيـشــفــوا النفــوس بأوتارها (٤) بقـــتـلى أصـــيـب من الخـــزرج
وقـــتـلى من الأوس فى مــــعـــرك أصـيـبـوا جـمـيعًا بذى الأضـوج (٥)
ومـقـــتـل حـــمـــزة تحت الـلواء بمـطرد مـــــارن مـــــخلـج (٦)
وحـــيث انثـنى مـــصـــعـب ثاويًا بضـــــربـة ذى هبــــة سلـجج (٧)
بأحـــد وأســـيـــافنـا فـــيـــهم تـلـهب كـــــــاللـهب الموهـج
غـــداة لـقـــيـناكم فى الحـــديد كـــأســـد البـــراح فلم نعـنج (٨)
بكـل مـــجـلحـــة (٩) كـالعـقـاب وأجـرد ذى مـيـعـة مـسـرج (١٠)
فـــدسـناهـم ثم حـــتـى انثـنوا سـوى زاهق النفس أو مـحـرج (١١)

---

(١) الروايا : الإبل التى تحمل الماء ، ويعجعج . يصوّت ، لم يحدج : مركب من مراكب النساء .
(٢) القسطل : الغبار ، ومرهج : مرتفع ثائر . (٣) السورج : المتوقد .
(٤) الأوتار : جمع وتر وهو الثأر .
(٥) ذى الأضوج : جمع ضوج وهو جانب الوادى .
(٦) المطرد : الذى يهتز وأراد به رمحًا ، والمارن : اللين ، والمخلج : الذى يطعن بسرعة .
(٧) ذى هبة : أراد به السيف ، وسلجج : هو المرهف الحاد القاطع .
(٨) البراح : المتسع من الأرض ، ولم نعنج : لم يصرفنا أحد عما أردناه بكم .
(٩) مجلحة : مصممة والمراد السريعة . (١٠) ذى ميعة : ذى نشاط وحدة .
(١١) مُحرج : الذى ضيقت عليه الأمور .

**مرثية ثانية لكعب :**

وإذا كانت المرثية السابقة دون المستوى الفنى والشعرى لكعب ، فإن مرثيته هذه ، من غرر شعره التى أبدع فيها . ويكفى أنه وصل للذروة فى بعض أبياتها حتى مضى مثلا فى كتب الأدب والنقد والبلاغة أنه أفخر بيت قالته العرب ، ووفَّى بهذه المرثية حق حمزة ﷺ ، حيث برز مدى ما يكنّه من إجلال وإكبار لسيد الشهداء:

طرقت همومك فالرقاد مسهد [١] وجزِعت أن سُلخ[٢] الشباب الأغيد[٣]
ودعت فؤادك للهوى ضَمرية[٤] فهواك غورى [٥]، وصحوك منجد[٦]
فدع التمادى فى الغواية سادرًا قد كنت فى طلب الغواية تفند [٧]
ولقد أنّى [٨] لك أن تناهى طائعًا أو تستفيق إذا نهاك المرشد

إننا مجرد أن نلقى فى بداية القصيدة الحرص على منادمة الحبيبة ، أو البكاء على الأطلال. فهذا يعنى أن الشاعر قد أراد لقصيدته هذه أن تمضى فى أرض العرب، وأعدَّها إعدادًا كبيرًا لتنقل عنه . ولعله أراد لقصيدته هذه ما أراد حسان لقصيدته الآنفة الذكر .

منع النوم بالعشاء هموم وخيال إذا تغور النجوم

وكما انتهى حسان بمجبوبته بقوله : غير أن الشباب ليس يدوم ابتدأ كعب بقصيدته:

وجزعت أن سُلِخ الشباب الأغيد

ويدلف إلى حمزة ﷺ مباشرة بعد يأسه من محبوبته :

ولقد هددت لفقد حمزة هدة ظلَّت بنات الجوف [٩] منها ترعد

---

(١) المسهد : قليل النوم .
(٢) سُلخ :أزيل.
(٣) الأغيد : الناعم .
(٤) ضَمرية : منسوبة إلى بنى ضَمرة .
(٥) غورى : منسوب إلى الغور وهو المنخفض من الأرض .
(٦) منجد : المرتفع من الأرض .
(٧) تفند : تلام وتكذب .
(٨) أنى : حان.
(٩) بنات الجوف : يعنى قلبه .

ولوَ أنه فُجعت حـراء (١) بمثله | لـرأيت راسى (٢) صخرها يتبدد
قرم (٣) تمكَّن فى ذؤابة (٤) هاشم | حيث النبوة والندى والسؤدد
والعاقر الكوم(٥) الجلاد (٦) ،إذا غدت | ريح يكاد الماء منها يجمد
والتارك القرن الكمى(٧) مجدلاً (٨) | يوم الكريهة والقنا يتقصد (٩)
وتراه يرفل (١٠) فى الحديد كأنه | ذو لِبدة(١١) شثن(١٢) البراثن(١٣) أربد(١٤)

وكما هدت مكة لفقدان أكبر صناديدها أبى جهل وعتبة بن ربيعة . فقد هُدَّت المدينة لفقدان أكبر صناديدها حمزة بن عبد المطلب ، وما حديث كعب إلا صورة تمثل كل جندى وقائد مسلم فى المدينة . هدَّه فقد حمزة ولا عجب فقد سمع المسلمون قول نبيهم فيه : « لن أصاب بمثلك أبدًا » ، فكيان كعب كله قد هُدَّ لذلك ، ولِمَ لا ترعد بنات جوفه لفقدان الفحل المنحدر من ذؤابة بنى هاشم ، المصطفَين من الله ، والذين اختار الله تعالى معدن النبوة منهم ، حيث الندى والسؤدد ، أليس هو ابن عبد المطلب مطعم الحجيج ، فهو على سنّة أبيه يعقر الإبل فى الليلة الباردة شديدة البرد ، للعافين والفقراء والعالة . وكما يعقر الكوم فى الليل البهيم ،يعقر الخصم البطل فى يوم الكريهة،حيث تُكَسَّر القنا وتقصف ، وإذا رفل بنو النعمة فى الحرير فهو يرفل فى الحديد ، كأنما هو الأسد الهصور فى براثنه . إنه :

عم النبى محمد وصفيّه | ورد الحِمام فطاب ذاك المورد
وأتى المنية معْلمًا (١٥) فى أسرة | نصروا النبى ومنهم المستشهد
ولقد إخال (١٦) بذاك هندًا بُشّرت | لتميت داخل غُصَّةٍ لا تبرد

ولا بد لبنى هاشم من ضحايا وشهداء . فقدموا أنفس من عندهم وأزكاه ،

---

(١) حراء : الجبل المعروف .
(٢) الراسى : الثابت .
(٣) القرم : الفحل .
(٤) ذؤابة هاشم : أعاليها .
(٥) الكوم : جمع كوماء وهى الناقة العظيمة .
(٦) الجلاد : القوية .
(٧) الكمى : الشجاع .
(٨) مجدَّلاً : مطروحًا بالأرض .
(٩) يتقصد : يتكسر .
(١٠) يرفل : يجُرُّ .
(١١) ذو لبدة : أسد .
(١٢) شثن : غليظ .
(١٣) البراثن : للسباع بمنزلة الأصابع للناس .
(١٤) أربد : أغبر يخالطه سواد .
(١٥) معلما : مشهرًا نفسه بعلامة .
(١٦) إخال : أحسب.

عم النبى ﷺ وصفيه ، ولقد بشّرت هند بقتله ، على أمل أن تبرد غصة حلقها المحترقة ، وما إخالها تبرد .

من صحبنا بالعقنقل [1] قومها يومًا تغيَّب فيه عنها الأسعد
وببئر بدرٍ إذ يرد وجوههم جبريل تحت لوائنا ومحمد
حتى رأيت لدى النبى سراتهم [2] قسمين : يقتل من يشاء ويطرد

ويرتفع كعب إلى الذروة فى شعره يوم يدلف من يشرى هند إلى الحديث عن غصتها فى بدر يوم أكبَّ قادة مكة صرعى فى بئره ، وقاد الملحمة ضدهم جبريل ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، وكأنا تحت اللواء الإسلامى إلى أن أصبح سراتهم السبعون، أسرى بين يدى محمد ﷺ ، يقتل من يشاء ، ويمُنَّ على من يشاء بالعفو ، وهؤلاء غير الصرعى السبعين الذين ثووا فى مبرك الإبل :

فأقام بالعطن [3] المعطَّن منهم سبعون عتبة منهم والأسود
وابن المغيرة قد ضربنا ضربة فوق الوريد [4] لها رشاش[5] مزبد
وأمية الجمحى قوَّم ميله عَضْبٌ بأيدى المؤمنين مهند
فأتاك فُلٌّ [6] المشركين كأنهم والخيل تثفنهم [7] نعام شُرَّدُ

وهؤلاء السبعون ليسوا جنودًا عاديين ،إنما هم سراة كذلك فيهم الأسود بن عبد الأسد المخزومى وأبو جهل بن هشام المخزومى ، وأمية بن خلف الجمحى اللذين قوّما بالسيوف فاعتدلا . وأما الفارُّون منهم فنعام شاردة.

وعندما تستوى الأيام والأيام دول . هيهات يستوى القوم المجرمون والمؤمنون .

لا سواء : قتلانا فى الجنة ، وقتلاكم فى النار:

شتان من هو فى جهنم ثاويًا أمدًا ومن هو فى الجنان مخلد

ويودعنا كعب فى أحد بمواساة صفية الهاشمية أخت حمزة قائلاً :

---

(١) العقنقل : الكثيب من الرمل . (٢) سراتهم : خيارهم .
(٣) العطن : مبرك الإبل حول الماء ، والمعطن الذى قد عوّد أن يتخذ عطنًا .
(٤) الوريد : عرق فى صفحة العنق . (٥) رشاش مزبد : يعنى دمًا قد علته الرغوة .
(٦) الفُلُّ : القوم المنهزمون . (٧) تثفنهم : تطردهم .

صفية قومى ولا تجزعى | وبكّى النساء على حمزة
ولا تسأمى أن تطيلى البكا | على أسد الله فى الهزة
فقد كان عزاً لأيتامنا | وليت الملاحم فى البِزة (١)
يريد بذاك رضا أحمد | ورضوان ذى العرش والعزة (٢)

فقد انتهى فى الصف الإسلامى مذبح الشهرة ، ليقوم مقامه مذبح الشهادة وطلب رضوان ذى العرش والعزة (٣) .

**مرثية حسان بن ثابت :**

لابد أن تعيش المدينة مأساتها وسعادتها . ولابد أن تنطلق النوائح تبكى على حمزة، وعلى الشاعر أن يكون قادراً على نقل هذه المنائح إلى الدنيا كلها ، ولا شك أن حسان بن ثابت قد أعجبته مرثية أمية بن أبى صلت ، لصناديد مكة وفرسانها ، ولن يدعه ينفرد فيها ، ولم يعارضه بها فى بدر . أما وقد فقد حمزة والشهداء السبعون معه من إخوانه فليطلق لعبقريته عقالها فى النوح على حمزة وإخوته ، وإلا فكيف يبلغ رسالة الإعلام الإسلامى إلى الأرض . لابد أن تنجلى الصورة الإسلامية للمدينة من خلال الرؤى الشعرية الخالدة لحسان وكعب وغيرهما، فى تناغم آلام الفقد ولوعة الثكل مع نسائم الجنة وعبيق الشهادة ، وفرح الشهداء .

يا مىّ قومى فاندبِنَّ لسجيرة شجو (٤) النوائح
كالحاملات الوقر بالثقل الملمات (٥) الدوالح (٦)
المعولات (٧) الخامشات وجوه حرات صحائح
وكأن سيل دموعها الأنصاب (٨) تخضب بالذبائح
ينقضن أشعاراً لهن هناك بادية المسائح (٩)

(١) البِزَّة : هنا بكسر الباء ومعناه الحرب ومن رواه البزة : بالفتح فمعناه الأسلاب .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ٢٢٣ ـ ٢٢٥ .
(٣) المصدر نفسه ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .
(٤) الشجو : الحزن .
(٥) الملمات : الثابتات .
(٦) الدوالح : التى تحمل الثقل .
(٧) المعولات : الباكيات .
(٨) الأنصاب : حجارة كانوا يذبحون لها ويطلونها بالدم .
(٩) المسائح : ذوائب الشعر .

وكأنهـا أذناب خيلٍ بالضـحى شمس (١) روامـح (٢)
من بين مشزور (٣) ومجزور يذعذع (٤) بالبوراح (٥)
يبكين شـجو مسـلبات(٦) كـدَّحـتـهن (٧) الكـوادح
ولقد أصـاب قلوبهـا مجلَ (٨) له جُلَبٌ قـوارح (٩)
إذا أقـصد الحـدثان (١٠) من كنـا نرجَّى إذ نشــائح

أبيات عشـرة لحسان . وكأنه دخل بين النساء اللاتى يلطمن الخـدود ويشققن الجيوب، وذلك قبل تحـريم النياحة على الموتى دموعهن الغزيرات كـالدماء السائلة على النصب ، وقد نـشرن شعورهـن من بين مجدولة ومـعقوصـة ، ووجوههن المخمشة المجرحـة ، تعبر عن قلوبهن المخمشة المجرحة كذلك . فمـا بعد فقيدهم فقيـد يرثى ، ولا بعد عمـيدهن عميـد يرجى ، فزهرة شباب المدينة مـن أصحاب أحمد قد قُتلوا :

أصحاب أحـمد غالهم (١١) دهر ألَمَّ به جـوارح (١٢)
من كـان فـارسنا وحـامـينا إذا بُعـثَ المسـالح (١٣)
يا حـمـزُ لا والله لا أنـسـاك مـا ضـرَّ اللقـائح (١٤)
لمنـاخ أيتـــام وأضـــيـــافِ وأرملة تـلامح (١٥)
يا فارسًا يا مدرهًا (١٦) يا حمز قد كنت المصامح (١٧)
عنـا شـــديدات الخـطوب إذا يـنوب لهـن فـادح
ذكَّرتنـى أســد الرســول وذاك مــدرهنا المنافح

---

(١) شُمس : نوافر جمع شَمُوس .
(٢) روامح : أى ترمح بأرجلها تدفع عنها .
(٣) شزور : مفتول .
(٤) يذعذع : يغرق .
(٥) البوارح : الرياح الشديدة .
(٦) مسلبات : اللاتى لبس ثياب الحزن .
(٧) كدحتهن : أثرت فيهن .
(٨) مجل : جُرح فيه ماء .
(٩) قوارح : موجعة .
(١٠) الحدثان : حادثات الدهر .
(١١) غالهم : أهلكهم .
(١٢) بوارح : أحزان شديدة .
(١٣) مسالح : القوم الذين يقدمون طليعة الجيش .
(١٤) ضرّ اللقائح : ربطت أخلاقها ليجتمع فيها اللبن .
(١٥) تلامح : تنظر بعينيها لمامحًا .
(١٦) المدره : المدافع .
(١٧) المصامح : المدافع الشديد .

عنَّا وكــان يُعَدُّ إذ عُدَّ الشـريفـون الجحـاجح [1]
يعلو القماقم [2] جهـرة سبط [3] اليديـن أغرَّ واضح
لا طائـش [4] رعش ولا ذو عِلة بالجـمـيل آنح [5]
بحـر فليس يُغيّبُ جـاراً منه سَيـبًا [6] أو منـادح [7]

إنه عم أصحاب أُحد فى بيتين ثم خصّص حمزة ﷺ بأحد عشر بيتًا ، فهو لا ينسـاه ما صُرَّت اللقـائح فى أضرعـها الحـافلات باللبن ، فـهو منزل الأيـتام ، والضيوف ، وموئل الأرامل اللاتى لا يسألن الناس إلحافًا . وهو ليس لنُوَب الدهر من الفقـر ، بل لنوبها من الحرب كذلـك إذا الليوث أقبلت تلبَّبُ ، فهـو الفارس المجلى والذائد عن عرين قـومه الخطوب الشداد : إنه أسـد رسول الله ﷺ الذى يصُدُّ عنا كيـد العدو وهو من أشراف قـومه بل هو سيد هؤلاء الأشـراف ، جوداً وجمـالاً وجرأة ، وجـرأته لا تدفعـه للتهـور إذ ليس هو الطائش الرعش ، وليس البطىء الوانى، وهو البحر العباب الذى لا ينقص مهما فتح منه الناهلون .

ثم يعود فى اثنى عشر بيتًا أخرى يخص بها الشهداء الآخرين السبعين رضوان الله عليهم .

أودى شـبـاب أولى الحـفـائظ والثـقـيـلون المراجح
المطعـمـون إذا المشـاتى مـا يصـفّفْهُن [8] نـاضـح [9]
لِحمَ الجلاء [10] وفوقه من شحـمه شطب [11] شرائح
ليـدافعـوا عن جارهـم ما دام ذو الضـغن المكاشح [12]
لهـفـى نسـيـان رزُئناهـم كـأنهم المصـابح

---

(1) الجحاجح : جمع جحجاح وهو السيد .
(2) القماقم : السادة .
(3) سبط اليدين : جواد .
(4) الطائش : الخفيف .
(5) الآنح : البعير الذى يثقله حمله فيخرج صوتًا من صدره .
(6) السيّب: العطاء .
(7) المنادح : الاتساع .
(8) ما يصفـفهن : ما يحليهن . وحكـى الفراء أن العرب تقول : أقمت ثـلاثًا لا أذوقهن طعامًا ، أى لا أذوق طعامًا فيهن .
(9) الناضح : الذى يشرب دون الرى .
(10) الجلاد : الإبل القوية .
(11) الشطب : الطرائف فى السيف .
(12) المكاشح: المعادى .

شمٌّ (١) بطارقة(٢) غطارفة(٣) ، خضارمة ، مسامح (٤)
المشـــترون الحــمــد بالأمــوال إن الحــمــد رابح
والجامزون (٥) بلجـمـهم يومًا إذا ما صـاح صـائح
من كـان يرمى بـالنواقـر (٦) من زمـانٍ غيـر صـالح
ما إن تزال ركـابه يَرسِمن (٧) فى غيْر صَـحاصح (٨)
راحت تبارى(٩) وهو فى ركب صدورهم رواشح(١٠)
حـتى تثوب له المعـالى ليس من فـوز السفـائح (١١)

فهم أهل الحفائظ والنهى الذين يرجحون غيرهم حلمًا وجودًا ، المطعمون فى القرّ لحم الإبـل الشهيـة ، وهم حمـاة الحمى إذا جد الجـد ونادى المنادى : إنهم المصابيح الهداة الرؤساء السادة الأجواد ، الذين يشـترون مجدهم ببذل أموالهم ، والمنقضون بخيولهم إذا جاء صريخ الحرب،وحين تقع النوائب وتدلهم الخطوب ، فهم أبطال الميدان ، وركائبهم تنضح بالعرق وهى تقاتل أعداءهم .

ثم يعود ثانية بنا إلى حمزة ، ويناجيه فى مرقده :

يا حـمز قـد أوحـدتنى كالعـود شـذبه الكوافح (١٢)
أشكو إليك وفوقك الترب المكوَّر (١٣) والصفائح (١٤)
من جندل نلقيه فوقك إذ أجاد الضرح (١٥) ضارحفى
واسع يحـشُونه(١٦) بالتـراب سـوَّته المماسح (١٧)
فعزاؤنا أنا نقول وقولنا برح (١٨) بوارحمن كان أمسى
وهو عـــمـــا أوقع الحــــدثان جـــانح (١٩)

---

(١) شم : أعزاء .
(٢) بطارقة : رؤساء .
(٣) غطارفة : سادة .
(٤) مسامح : أجواد .
(٥) الجامزون : الواثبون .
(٦) البواقر : الدواهى .
(٧) يرسمن : من الرسم ، ضرب من السير .
(٨) الصحاصح : الأرض المستوية .
(٩) تبارى : تعارض .
(١٠) رواشح : ترشح بالعرق .
(١١) السفائح : جمع سفيح وهو من قداح الميسر .
(١٢) الكوافح : الذى يقابلونه بالقطع .
(١٣) المكوّر : فوق بعضه .
(١٤) الصفائح : الحجارة العريضة .
(١٥) الضرح : القبر .
(١٦) يحشونه : يصبونه .
(١٧) المماسح ؛ ما يمسح به التراب ويسوى .
(١٨) البرح : الأمر الشاق .
(١٩) الجانح : المائل إلى جهة .

فليـــأتـنا فلتـــبك عـــيـناه لهلـكانا النـوافح [1]
القـــائلين الفـــاعلين ذوى الســـمـاحـة والمـمــادح
من لا يـزال ندى يديه لـو طوال الدهـر مـــائح [2]

قال ابن هشام : وأكثـر أهل العلم بالشعر ينكرها لحسان ، وبيـته ( المطعمون إذا المشاتى ) وبيته ( الجامزون بلجمـهم ) وبيته ( من كان يُرمى بالنواقر ) عن غير ابن إسحاق [3] .

هذا وقد برزت عـاطفة حسـان فى الأبيات الأخيـرة أكثر منهـا من ذى قبل ، بينما كان المديح والرثاء هو الهـدف ، ومعارضة حائيـة ابن الصلت ، حتى أنها لا تخرج فى معانيـها عن معانى تلك القصيدة ، وهنـا عندا نراه يناجى حمزة رضوان الله عليه وقـد أهيل التراب على قبـره الشريف ، يأتى بمعنى جـديد ولطيف حيث يدعـو الناس الذين لم تنزل بهم الأحـداث والمصـائب ، ليـشـاركوا فـى مصـاب المسلمين الجلل بفـقيدهم العظيـم ، وشهدائهم الذين يقـولون ويفعلون من ذوى السماحة والندى والسؤدد .

ونشيـر ثانية إلى أن حـسان فى أبيـاته الثلاثة والأربعـين ، لم يأت ولا بمعنى إسلامى واحد ،أضـافه إلى المعانى الجاهلية ، ولعل هذا هو الذى حـدا بأكثر أهل العلم بالشـعر أن ينكروها لحـسان ، خاصـة وجو القـرآن العظيم وما أشـاعه فى الحديث عن الشهادة والشهداء لا يمكن أن يمر دون أن يتفاعل المسلم معه .

وها نحن نرى كيف أن حسان تفاعل مع هذه المعانى كتفاعل كعب رضي الله عنهما فى:

**المرثية الثانية :**

وهى أقل عدداً فى أبياتهـا ، لكنها أوفر حظاً ، وأعمق شاعرية ، وعـاد فيها إلى منادمة الأطلال ، وهذا يعنى أن أقدم عليها بعد تعمق وعناية واهتمام .

أتعـرف الدار عـفـا[4] رسمها [5] بعدله صوب[6] المسبل [7] الهاطل [8]

---

(١) النوافح : الذين كانوا ينفحون بالمعروف ويوسعون به .

(٢) المائح : الذى ينزل فى البئر فيملأ الدلو ، والمائح الذى يجذب الدلو عليه .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ذ/ ٣/ ٢١٥-٢٢٠ ، والديوان ١/ ق ٢٧٨ ص ٤٥٠ -٤٥٢ .

(٤) عفا :درس وغبر .

(٥) الرسم : الأثر .

(٦) الصوب : المطر .

(٧) المسبل : المطر السائل .

(٨) الهاطل : الكثير السيلان .

بين السـراديح [1] فـأُدمـانة [2] ... فـمـدفع الروحـاء فى حـائل
سـاءلتهـا عن ذاك فـاسـتـعـجـمتْ [3] ... لم تدر مـا مـرجـوعـة السـائل

لقد هطل المطر ، وأعفى على رسم الدار فذهبت معالمها ، وهو يخاطب ذلك المحب الذى خلف دار محبوبته خلفه شاقًا طريقه من الرادح فأُدمانةٍ فمدفع الروحاء فى حائل، وينوب عن المحب فيسأل الدار عن أحبابها ، ولا من مجيب .

دع عنك دارًا قـد عـفـا رسـمـهـا ... وابك علـى حـمـزة ذى الـنـائل [4]
المالئ الشـيزى [5] إذا أعصـفت [6] ... غبراء [7] فى ذى الشبم [8] الماحل [9]
والتارك الـقرن [10] لدى لبـدة [11] ... يعثر فى ذى الخُرُصِ [12] الذابل [13]
واللابس الخـيـل إذا أجـمـحت [14] ... كـالليث فى غـابتـه البـاسل [15]
أبـيـض فـى الـذروة مـن هـاشـم ... لم يمـر [16] دون الحق بـالبـاطل

وها هو يدع البكاء على الدار وأطلالها لهمّ أكبر منها هو البكاء على حمزة ذى الندى والسؤدد ، ويختار طريقًا شعريًا خاصًّا لعرض جوده وشجاعته ، فهو لا يضيف جديدًا فى المعنى ، إنما يختار صياغة جديدة لهذه المعانى فى ثوب قشيب أخّاذ ، فحمزة ﷺ هو المالئ جفان الخشب بالطعام ، حين تُمحل الأرضَ وتعصف بها الريح المهلكة . وإذا كان يملأ الشيزى طعامًا ، فهو يطعم الموت لقرنه الذى يعثر فى أحشائه بالرمح ، وهو المقتحم على الخيل اقتحام الأسد فى غابته ، وإن سألت عن حسبه فهو فى الذروة من هاشم مع النبى ﷺ ،وجوده وجرأته وبطولته لا تنفخ فى غروره ، بل هو مذللٌ للحق يدور معه حيث دار ، هذه الأمة وحده . ماذا فعل به خصومه .

---

(1) سراديح : وهو الوادى أو المكان المتسع .
(2) أدمانة : موضع .
(3) استعجمت : لم تحر جوابًا .
(4) النائل : العطاء .
(5) الشيزى : جفان من خشب .
(6) أعصفت الريح : اشتدت .
(7) الغبراء : التى تثير الغبار .
(8) الشبم : البارد .
(9) الماحل من المحل وهو القحط .
(10) القرن : الذى يقاوم فى القتال .
(11) اللبد : السرج .
(12) ذى الخُرُص : الرمح .
(13) الذابل : الرقيق .
(14) أحجمت : تأخرت .
(15) الباسل : الشديد الكريه .
(16) لم يمر : لم يجادل من المراء .

مــال شـــهــيـــداً أســيـــافكم | شلَّت يـدا وحـــشـى من قــــاتل
أى امـــــرئ غـــــادر فى إلَّةً [١] | مطـرورة [٢] مــارنة [٣] العــامل [٤]
أظلـمت الأرض لـفـــقـــدانه | واســودَّ نـور القــمــر الـناصل [٥]
صـلى عـلـيـــه الله فـى جنـة | عـــاليـــة مكـرمـــة الـداخل
كنـا نرى حـــمـــزة حِرزاً لـنا | فـى كـل أمـــــرنـا بـنـا نـازل
وكــــان فى الإســـلام ذا تدرأ [٦] | يكفـيك فــقـد القــاعـد الخــاذل

لقد سقط شـهيداً بين أسيافكم فشلَّت يدا وحـشى قاتله . وهل درى وحشى أى بطلٍ مدجج بالسلاح قتل ؟ وإن كانت الأرض قد أظلمت لفقدانه ، والقمر قد اسودّ ، فقد أضاءت السماء بضـيافته فى الجنة ، وزُفَّ إلى الحور العين ، إنما نحن فقدناه فى الملمات ، فهو حامى الذمار عند كل نازلة .

أما البـيت الأخير فلا يستقيم معناه كـما فى السيـرة ، ويكفيك فقد القـاعد الخادل ، إنما يتضح معناه كـما هو فى الديوان لم يكن بالوانى ولا الخاذل ، ولأن هنداً هى التى فرحت به ، فلابد أن يناجيها حسان بقوله :

لا تفـــرحـى يا هند واســتـــحـلبى | دمـــعًا وأذرى [٧] عـبـرة [٨] الثـاكل
وابكى عـلى عـــتـبـــة إذ قطَّهُ [٩] | بالسيف تحت الرهج [١٠] الجائل [١١]
إذ خـــــرَّ [١٢] فى مـشـيـــخـة منكم | من كـل عـــات قلبـــه جـــاهل
أرداهــم [١٣] حــمـــزة فى أسـرة [١٤] | يمشون تحت الحلق [١٥] الفاضل [١٦]
غـــــداة جــــبـــــريل وزيـر له | نعـم وزير الفــارس الحــامل [١٧]

إنه عـود على بدء . فلن يعـود أبوك يا هند ، ولن يعـود بكرك فـاستـجلبى

---

(١) الإلة : الحربة .
(٢) المطرورة : الممددة .
(٣) مارنة : لينة .
(٤) العامل : أعلى الرمح .
(٥) الناصل : الخارج من السحاب .
(٦) ذا تدرأ : مدافعة .
(٧) أذرى : اذرفى .
(٨) العبرة : الدمعة .
(٩) قطَّه : قطعه .
(١٠) الرهج : الغبار .
(١١) الجائل : المتحرك ذهابًا ورجوعًا .
(١٢) خُرَّ : سقط .
(١٣) أرداهم : أهلكهم .
(١٤) فى أسرة : فى قرابة .
(١٥) الحلَق : الدروع .
(١٦) الفاضل:الذى يفضل منه وينحر على الأرض .
(١٧) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ٢٢٠ ـ ٢٢٣ ، والديوان ١ / ق ١٦٢ ص ٣٢١ .

الدمع وأنت الثكلى الوالهة ، ولا تنسى البكاء على عتبة أبيك الذى قطّه حمزة فى المعترك مع مشيخة قريش حيث أرداهم شهيدنا مع قرابتهم بدروعهم السابقة ، وإن شئت أن تعرفى سر بطولته فى حياته ، وسر بطولته فى شهادته ، فلا تنسى أن جبريل أمين الله فى الأرض كان وزيراً له فى بدر .

لقد أترع حسان المرثية هذه بالمعانى الإسلامية ، وبين يديه مرثية كعب ، ولئن بلغ كعب الشأوة فى بيته :

ويوم بدر إذ ترد وجوههم ... جبريل تحت لوائنا ومحمد

فقد بلغ حسان الشأو كذلك يوم قال :

غداة جبريل وزير له ... نعم وزير الفارس الحامل

**مرثية عبد الله بن رواحة :**

أما شاعرنا عبد الله بن رواحة ثالث الفرسان ، فلأوّل مرة نلتقى معه فى هذه اليتيمة الغالية التى يرثى بها بطل المسلمين حمزة وإخوانه ، ويشارك فى مضمار السباق فى الحديث عن أُحد :

قال ابن إسحاق : وقال عبد الله بن رواحة يبكى حمزة بن عبد المطلب .

قال ابن هشام : أنشدنيها أبو زيد الأنصارى لكعب بن مالك [١] .

بكت عينى وحقَّ لها بكاها ... وما يغنى البكاء ولا العويل [٢]
على أسد الإله غداة قالوا ... أحمزة ذاكم الرجل القتيل
أصيب المسلمون به جميعًا ... هناك وقد أصيب به الرسول
أبا يعلى [٣] لك الأركان هُدَّت ... وأنت الماجد البَرُّ الوصول
عليك سلام ربى فى جنان ... مخالطها نعيم لا يزول
ألا يا هاشم الأخيار صبراً ... فكل فعالكم حسن جميل
رسول الله مصطبر كريم ... بأمر الله ينطق إذ يقول

(١) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣/ ٢٣١ .
(٢) العويل : البكاء مع رفع الصوت .
(٣) أبو يعلى : كنية حمزة .

إنها مرثية مصبوغة بالصبغة الإسلامية الكاملة ، ليس فيها من آثار الجاهلية شيء ، ولا تحتاج إلى شرح لسهولة ألفاظها ودنو معانيها ، وإن لم يكن فيها روعة الشعر وقوته كما هى عند حسان وكعب .

وبعد حديثه عن مصاب المسلمين فى أسد الله حمزة ، ابن هاشم وسليله ، شرف العرب كلها ، حيث كان الوحى فى هذا المعدن النفيس الكريم ، لينتقل منه إلى بدر :

| | |
|---|---|
| ألا من مبلغ عنى لؤيًا | فبعد اليوم دائلة تدول [1] |
| وقبل اليوم ما عرفوا وذاقوا | وقائعنا بها يُشفى الغليل [2] |
| نسيتم ضربنا بقليب بدر | غداة أتاكم الموت العجيل |
| غداة ثوى أبو جهل صريعًا | عليه الطير حائمة [3] تجول |
| وعتبة وابنه خرًّا [4] جميعًا | وشيبة عضَّه السيف الصقيل |
| ومتركنا أمية مجلعبا [5] | وفى حيزومه [6] لدن [7] نبيل |
| وهام بين ربيعة سائلوها | ففى أسيافنا منها فلول |
| ألا يا هند فابكى لا تملى | فأنت الواله[8] العبرى [9] الهبول [10] |
| ألا يا هند لا تبدى شماتًا | بحمزة إن عزكم ذليل [11] |

لقد أبدع عبد الله بن رواحة ﷺ فى عرض القضيتين الكبيرتين فى بدر وأُحد ، فأحسن العرض دون اللجوء إلى الحوشى من اللفظ وإلى الكثافة من الصور ، وكأنما هو مصور يعرض الصورة على ما هى دون أى إضافة أو تحسين ، ويسبق قرينه بكثافة المعانى الإسلامية فى هذه اليتيمة الرائعة .

**مراثى منوّعة :**

وبعد عرض هذه المراثى لأعلام الشعر وفرسانه ، تطالعنا قطع منوعة من

---

(١) دائلة تدول : عن دوران الحرب .
(٢) الغليل : حرارة العطش أو الحزن .
(٣) حائمة : باحثة مستديرة .
(٤) خرّا : سقطا .
(٥) مجلعبًا : ممتدًا مع الأرض .
(٦) الحيزوم : أسفل الصدر .
(٧) اللدان : الرمح اللين .
(٨) العبرى : الكثيرة الدمع .
(٩) الواله : الحزينة .
(١٠) الهبول : الفاقد .
(١١) السيرة النبوية لابن هشام ذ/ ٣ / ٢٣١ ـ ٢٣٣ .

المراثى نعرض لها كما وردت فى السيرة .

**رثاء أصحاب اللواء :**

أولا يستحق هؤلاء التسعة من بنى عبد الدار دمعة واحدة عليهم ؟ ! فقد قدمها الأعشى بن زرارة التميمى إذا يقول :

حيى من حىٍّ علىَّ نأيهم ... بنو أبى طلحة لا تُصْرَفَ
يمرُّ ساقيهم عليهم بها ... وكل ساقٍ لهم يُعرف
لا جارهم يشكو ولا ضيفهم ... من دونه باب لهم يَصْرِفُ

إنه يُحيى أولئك الأبطال من بنى طلحة ، دون أن يسمع من يرد عليه تحيته ، فما دهاهم ؟ !

ألم يكونوا نجوم قومهم ، يمر عليهم ساقيهم صباح مساء ، ويقصدهم القصداء لنوالهم من كل مكان فلا يجدونهم ، حتى ولا يجدوا صوتًا لصرير أبوابهم بعد أن اغتالتهم يد المنية .

**مرثية صفية :**

لكن بنت عبد المطلب الشاعرة ، تبذ فى صدق مشاعرها ـ لفقدها أعز أحبابها فى حياتها ـ أعلام الشعراء فى التعبير عن فقدانها لحبيبها :

أسائلة أصحاب أحد مخافة ... بنات أبى من أعجم (1) وخبير
فقال الخبير إن حمزة قد ثوى ... وزير رسول الله خير وزير
دعاه إلّه الحق ذو العرش دعوة ... إلى جنة يحيا بها وسرور
فذلك ما كنا نرجّى ونرتجى ... لحمزة يوم الحشر خير مصير

وقد ارتفعت فوق أعلام الشعر كلهم فى النهل من المعانى الإسلامية ، حين عرضت شهادته دعوةً وُجّهت له من العليم الخبير إلى الجنة . فلبّى الدعوة ، ولم نكن نرجو له أعظم من هذا المصير ، لكن هذا لا يمنعها أن تعرض فتات كبدها ،

(1) الأعجم : هو الذى لا يفصح .

وحرقة قلبها علينا عليه :

فوالله لا أنساك ما هبت الصبا ... بكاءً وحزنًا محضرى ومسيرى [1]

على أسد الله الذى كان مدرهًا [2] ... يذود [3] عن الإسلام كل كفور

فيا ليت شلوى[4] عند ذاك وأعظمى ... لدى أضبع [5] تعتارنى ونسور

أقول وقد أعلى النعىُّ [6] عشيرتى ... جزى الله خيرًا من أخٍ ونصير [7]

**مرثية شماس بن عثمان :**

وبمقدار صدق صفية فى رثائها لأخيها تطلعنا نُعْمُ زوجة شماس بن عثمان ﷺ أحد الصحابة المهاجرين الذين استشهدوا بأُحد . فقالت :

يا عين جودى بفيض غير إبساس[8] ... على كريم من الفتيان أبَّاس [9]

صعب البديهة ميمون نقيبته ... حمَّال ألوية ركّاب أفراس

أقول لما أتى الناعى له جزعًا ... أودى الجواد وأودى المطعم الكاسى

وقلت لما خلت عنه مجالسه ... لا يبعد الله عنا قرب شماس

إنها وإن صدقت فى عاطفتها ، لكنها لم تتمكن من عرض مشاعرها الإسلامية، أو تصبغها بهذه الصبغة ، وعاشت المعانى الجاهلية التى تجعل من الفقيد المطعم الكاسى . .وتجعله حمال الألوية وركاب الأفراس ، كما كانت الخنساء ترث أخاها صخرًا ، فتمد الثاكلات المترملات بهذه المعانى ، وتكاد تفقد صوابها من هول المصيبة،آملة أن يكون خبر قتله كذبًا،وألا يبعد الله عنها قرب شماس .

مما اضطر أخاها أبا الحكم بن سعيد بن يربوع أن يردها إلى صوابها ، ويناجيها معزيًا وموجهًا فى الوقت نفسه :

أغضى حياءك فى سِترٍ وفى كرم ... فإنما كان شماسٌ من الناس

---

(١) مسيرى : مغيبى .

(٢) المدره : الذى يدفع عن القوم .

(٣) يذود : يدفع ويمنع .

(٤) الشلو : البقية .

(٥) أضبُع : جمع ضبع وهو نوع من السباع .

(٦) النعى : من يأتى بخبر الوفاة .

(٧) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ٢٣٨ ـ ٢٣٩ .

(٨) غير إبساس : غير قليل

(٩) الأبّاس : الذى يغلب غيره .

لا تقتلى النفس إن حانت منيته — فى طاعة الله يوم الروع [1] والباس
قد كان حمزة ليث الله فاصطبرى — فذاق يومئذ من كأس[2] شماس [3]

فطالما أنه قتل فى طاعة الله ، فلم تقتلى نفسك غمًا وحسرة ، وليس هو الشهيد وحده ، فأسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب ، سيد الشهداء قد ذاق ما ذاق شماس من المنية ، فلك فى هذا الأسوة والقدوة .

ولا نغادر شعر أُحد ، إلا ونياط قلب هند بيدنا ، فلم ينسه أحد الشعراء ، ولم تنس أن تقول إضافة لما قذفته من حقد وغيظ أنها لم تشتف نفسها بعد :

رجعت وفى نفسى بلابل جمة — وقد فاتنى بعض الذى كان مطلبى
من أصحاب بدر من قريش وغيرهم — بنى هاشم منهم ومن أهل يثرب
ولكننى قد نلت شيئًا ولم يكن — كما كنت أرجو فى مسيرى وركبى[4]

وهذه آخر لقطات أحد بين أيدينا ، ولما تشتف نفس هند بعد ، فقد أبقى الله لها ما يؤرقها ، أبقى محمداً ﷺ ووزيريه أبى بكر وعمر ، وفتى الفتيان على ، وكان رجاؤها أكبر من ذلك ، فلتبق على حزنها إلى الأبد .

---

(١) الروع : الفزع .
(٢) كأس شماس : المنية .
(٣) السيرة لابن هشام ذ / ٣ / ٢٣٩ ـ ٢٤٠ .
(٤) المصدر نفسه ص ٢٤٠ ـ ٢٤١ .

# الباب الرابع

## الشعر فى غزوة الخندق



# الفصل الأول
# الشعر بين أحد والخندق

**دماء زكية جديدة :**

أخرج البخارى عن أبى هريرة ﷺ : بعث النبى ﷺ سرية عينا [1] ، وأمر عليهم عاصم بن ثابت ، وهو جد عاصم بن عمر بن الخطاب فانطلقوا حتى إذا كانوا بين عسفان [2] ومكة ، ذكروا لحى من هذيل يقال لهم : بنو لحيان[3] فتبعوهم بقريب من مائة رام ، فاقتصوا آثارهم ، حتى أتو منزلاً نزلوه ، فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من المدينة ، قالوا : هذا تمر يثرب ، فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم ، فلما انتهى عاصم وأصحابه لجؤوا إلى فدفد [4] ، وجاء القوم فأحاطوا بهم ، فقالوا : لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا ألا نقتل منكم رجلاً ، فقال عاصم : أما أنا فلا أنزل فى ذمة كافر ، اللهم أخبر عنا نبيك ، فقاتلوهم حتى قتلوا عاصمًا فى سبعة نفر بالنبل ، وبقى خبيب وزيد ورجل آخر ، فأعطوهم العهد والميثاق ، فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم ، فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قسيهم فربطوهم بها ، فقال الرجل الثالث الذى معهما : هذا أول الغدر ، فأبى أن يصحبهم ، فجرروه ، وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه ، وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة ، فاشترى خبيبًا بنو الحارث بن عامر ابن نوفل ، وكان خبيب [5] هو قتل الحارث يوم بدر ، فمكث عندهم أسيرًا ، حتى إذا أجمعوا قتله استعار موسى من بعض بنات الحارث يستحد بها ، فأعارته ، قالت : فغفلت عن صبى لى ، فدرج إليه حتى أتاه فوضعه على فخذه ، فلما رأيته فزعت فزعة ، عرف ذلك منى ، وفى يده الموسى ، فقال : أتخشين أن أقتله ؟

---

(١) عينا ، أى : متجسسون له خبر قريش .

(٢) بين عسفان ومكة : فى مكان اسمه الهدأة على سبعة أميال من عسفان .

(٣) لحيان : هو ابن هذيل نفسه. (٤) فدفد : الرابية المشرفة .

(٥) ذكر الدمياطى أن قاتل الحارث هو خبب بن يساف ، وليس خبيب بن عدى ، ولعلهم قتلوه به ، ولو لم يكن هو قاتله .

ما كنت لأفعل ذاك إن شاء الله ، وكانت تقول : ما رأيت أسيرًا قط خيرًا من خبيب، لقد رأيته يأكل قطف [1] عنب ،وما بمكة يومئذ تمرة،وإنه لموثق بالحديد ، وما كان إلا رزق رزقه الله ، فخرجوا من الحرم ليقتلوه ، فقال : دعونى أصلى ركعتين ، ثم انصرف إليهم فقال : لولا أن تروا أن ما بى جزع من الموت لزدت ، فكان أول من سن الركعتين عند القتل هو ثم قال :

ولست أبالى حين أقتل مسلمًا ... على أى شق كان فى الله مصرعى

وذلك فى ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله ، وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشىء من جسده يعرفونه ، وكان عاصم قتل عظيمًا من عظمائهم يوم بدر ، فبعث الله عليه مثل الظلة من الدبر ، فحمته من رسلهم ،فلم يقدروا منه على شىء [2] .

ونمضى فى ثنايا هذه السرية العظيمة ، فنرافق عاصمًا أمير السرية رضي الله عنه قبل استشهاده، وقد رفض أن ينزل على عهد مشرك ، وهو يرتجز قائلاً :

ما علتى وأنا جلد نابل [3] ... والقوس فيها وتر عنابل [4]

تزل عن صفحتها المعابل [5] ... الموت حق والحياة باطل

وكل ما حم [6] الإله نازل ... بالمرأ والمرء إليه آيل [7]

إن لم أقاتلكم فأمى هابل [8]

قال ابن هشام : هابل : ثاكل .

وقال عاصم بن ثابت أيضًا :

أبو سليمان وريش المقعد [9] ... وضالة [10] مثل جحيم المرقد

(١) القطف : بكسر القاف : العنقود .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧ / ٣٧٨ ـ ٣٧٩ (ح ٤٠٨٦) .

(٣) النابل : صاحب : النبل .

(٤) العنابل : الغليظ الشديد .

(٥) المعابل : جمع معبلة ، وهو نصل عريض طويل .

(٦) حم : قدر .

(٧) آيل : صائر .

(٨) هابل : ثاكل .

(٩) ريش المقعد : النبل التى كان يريشها رجل اسمه المقعد .

(١٠) الضالة : شجرة تصنع منها السهام والقسى .

إذا النواجى[1] أفرشت[2] لم أرعد [3] ومجنأ [4] من جلد ثور أجرد [5]

ومؤمن بما على محمد [6]

وقال عاصم بن ثابت أيضًا :

أبو سليمان ومثلى رامى وكان قومى معشرًا كرامًا [7]

إنه عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح الرامى الأشهر فى أحد ، وما هذا الغدر إلا لتصفية الحساب معه ، فقد اشتهر فى أحد ينذر أم الفقيدين سلافة التى قتل ابناها حملة اللواء على رجليها بيد عاصم كما روى ابن إسحاق فى السيرة .

وقتل عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح فقتل مسافع بن طلحة ، وأخاه الجلاس ابن طلحة ، كلاهم يشعره [8] سهمًا فيأتى أمه سلافة ، فيضع رأسه فى حجرها ، فتقول : يا بنى : من أصابك ؟ فيقول سمعت رجلاً حين رمانى وهو يقول : خذها وأنا ابن الأقلح ، فنذرت إن أمكنها الله من رأس عاصم أن تشرب فيه الخمر ،وكان عاصم قد عاهد الله أن لا يمس مشركًا أبدًا ، ولا يمسه مشرك [9] .

اشتهر النذران عند العرب ، وجاءت لحيان من هذيل لتنال الجائزة الكبرى من سلافة ، فهذا رأس عاصم بعد استشهاده .

فلما قتل عاصم أرادت هذيل أخذ رأسه ، ليبيعوه من سلافة بنت سعد بن شهيد ، وكانت قد نذرت حين أصاب ابنيها يوم أحد ، لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن فى قحفه الخمر ، فمنعته الدبر[10] فلما حالت بينهم وبينه الدبر قالوا: دعوه حتى يمسى فتذهب عنه فنأخذه ) . فبعث الله الوادى ، فاحتمل عاصمًا فذهب به ، وكان عاصم قد أعطى الله عهدًا أن لا يمسه مشرك ، ولا يمس مشركًا أبدًا تنجسا ، فكان عمر بن الخطاب ﷺ ، يقول حين بلغه أن

(١) النواجى : الإبل السريعة .
(٢) أفرشت : أقلعت .
(٣) لم أرعد : لم أخف .
(٤) مجنأ : قوس فيه انحناء .
(٥) أجرد : أملس .
(٦) مؤمن بما على محمد : أى ما نزل على محمد ﷺ .
(٧) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ٢٤٢ ـ ٢٤٤ .
(٨) يشعره : يصيبه فى جسده .
(٩) المصدر نفسه ١٠٧ .
(١٠) الدبر : الزنابير والنحل .

الدبر منعتـه ، يحفظ الله العبد المؤمن ، كـان عاصم نذر ألا يمسـه مشرك ، ولا يمس مشركًا أبدًا ، فى حياته فمنعه الله بعد وفاته ، كما امتنع منه فى حياته .

فعاصم البطل الرامى قاتل الأحبة ، اشـتهر بين العرب بنذر سلافة أن تشرب بقحفه الخمر إن مكنها الله منه ، وحـان موعد هذا الغدر ليدعى أن ينزل على ذمة المشركين وعهدهم ، فكان جوابه :والله لا نقبل من مشرك عقدًا ولا عهدًا أبدًا ، وفى رواية :

أما أنا فلا أنزل فى ذمة كافر .

لا غرو ، فمن ينذر أن لا يمس مشركًا تنجسًا ، كيف ينزل فى ذمته ؟ ! فهو يمثل قمة المفاصـلة والاعتزاز بالعقيدة ، ولم ينزل وسيفـه معه وقوسه ووتره التى رمى بها فى ظهور ونـحور العدو بين يديه ؟ ! ما هى علتـه فى قبول الذل ، وهو الجلد القوى المتسلح بالنبل القوى وترًا ، والحاد القاطع نصلا ؟ !

هل الرغبـة فى الهدف ؟ هل الرعب من المـوت هو العذر ؟ هذا لغيـر المسلم عقيدة ودمًا وعظمًا وشعرًا وبشرًا أما هو فهو يعلم أن:

الموت حـق والحـــيـــاة باطـل وكـل مـــــاحـم الإلـه نـازل
بـالمـرء والمـرء إلـيــــــه آيـل

فثكلتـه أمه إن لم يقـاتلهم عن آخر رمق ، إنما الذى يخـشاه هو العـجز عن تحقيق مـهمته فى نقل أخـبار قريش ، ولم يهتم ، فـهو يرسل هذا الواقع مع ربه جل وعلا ليخبر عبده ورسوله به .

( اللهم أخبر عنا نبيك ).

قـاتل ذودًا عن دينه بقوسـه ونبله وذودًا عـما يؤمن به مما أنزل على مـحمـد ﷺ، وحين يفخر عاصم بقومه :

أبو سـليـمـان ومـثلى رامـا وكـان قـومى مـعشـرًا كـرامًا

فبـعد أن انصهر قـومه بالإسلام ، وأصبـحوا هم أنصار الله ورسوله ، فـقد

التحم الفخر بالعقيدة مع الفخر بالقوم والقبيلة ، وأصبحوا جزءًا من هذا الدين فهم الأنصار بصريح القرآن:

﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ﴾ [التوبة : ١٠٠] .

وهم : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩)﴾ [ الحشر] .

هذا هو المستوى الأول للذين رفضوا عهد المشركين ،وقاتلوا حتى آخر رمق .

وماذا عن المستوى الثانى الذى قبل بعهد المشركين ، وانتهى أسيرًا بيدهم؟ وهو خبيب بن عدى رضي الله عنه ، لنحضر معه لحظاته الأخيرة ، ساعة قتله من خلال صورة حية أخرى غير صورة ابن إسحاق ، هى صورة الواقدى :

(فأخرجوه بالحديد حتى انتهوا به إلى التنعيم ، وخرج معه النساء والصبيان والعبيد، وجماعة من أهله ، فلم يتخلف أحد ، إما موتور [1] فهو يريد أن يتشافى بالنظر من وتره ، وإما غير موتور فهو مخالف للإسلام وأهله ، فلما انتهوا به إلى التنعيم ومعه زيد بن الدثنة ، فأمروا بخشبة طويلة فحفروا لها ، فلما انتهوا بخبيب إلى خشبته قال: هل أنتم تاركىَّ فأصلى ركعتين ؟ قالوا : نعم ، فركع ركعتين أتمهما من غير أن يطوّل فيهما . . . ثم قال : أما والله لولا أن تروا أنى جزعت من الموت لاستكثرت من الصلاة ، ثم قال : اللهم أحصهم عددًا ، واقتلهم بددًا ، ولا تغادر منهم أحدًا ) .

إنه فرد أعزل من السلاح ، مقدم على الموت ، فماذا كانت آثار دعوته فى صف قريش ؟

فقال معاوية بن أبى سفيان : لقد حضرت دعوته ، ولقد رأيتنى ، وإن أبا سفيان ليضجعنى إلى الأرض ، فَرَقًا [2] ، أن أسمع دعاءه ، ولقد جبذنى [3] يومئذٍ أبو سفيان جبذة ، فسقطت على عجب ذنبى ، لم أزل أشتكى تلك السقطة زمانًا . وقال حويطب بن عبد العزى : لقد رأيتنى أدخلت أصبعى فى أذنى ،

---

(١) موتور : له ثأر عند المسلمين قُتل أبوه أو أخوه أو أحد من أهله .

(٢) فرقًا : خوفًا .

(٣) جبذنى : جذبنى .

وعدوت هربًا فـرقًا أن أسمع دعـاءه . وقال حكيم بن حزام : لقـد رأيتنى أتوارى بالشجر فرقًا من دعوة خبيب . وعن سعيد بن عمرو قال : سمعت جبير بن مطعم يقول : لقد رأيتنى يومئذ أتستر بالرجال فرقًا من أن أشرف لدعوته .

وعن عثمان بن محمد الأخنسـى ، قال استعمل عمر بن الخطاب ﷺ سعيد ابن عامر بن جذيم الجمحى على حمص ، وكانت تصيبه غشية ، وهو بين ظهرى أصحابه، فذكر ذلك لعمر بن الخطاب فسأله فى قدمة قدم عليه من حمص. فقال: يا سعيد ! ما الذى يصيبك ؟ أبك جنة ؟ قال :

لا والله يا أمير المؤمنين،ولكنى فيمن حضر خبيبًا حين قُتل وسمعت دعوته ، فوالله ما خطرت على قلبى ، وأنا فى مـجلس إلا غشى على . قال : فزادته عند عمر خيرًا .

وعن عروة بن الزبير ، عن نـوفل بن معاوية الديلى ، قال : حضـرت يومئذ دعوة خبـيب ، فلا كنت أرى أن أحدًا ممن حضر ينفلـت من دعوته ، ولقد كنت قائمًا فأخلدت إلى الأرض فرقًا من دعوته ) [١] .

هؤلاء جبـابرة قريش ، وبعد غـزوة أحد ، وأمام هذا الفـرد المسلم الأعزل ، يتابع نوفل حديثه عنهم بقوله : ( ولقد مكثت قريش شهرًا أو أكثر وما لها حديث فى أنديتها إلا دعوة خبيب ) [٢] .

لقد كـانت هذه الرسالة التى بثت الرعب فى صـفوف جبـابرة مكة أعظم أثرًا بكثير من نقل أخبار قريش إلى المدينة .

**البيئة الشعرية :**

ونتابع مع الواقدى هذه اللحظات الأخيرة لتلك الأبيات الخالدة :

ثم وجـهوه إلى المدينة ، وأوثقـوه رباطًا ، ثم قالوا : ارجع عـن الإسلام ، نخل سبـيلك ، قال : والله مـا أحب أنى رجعت عن الإسـلام ، وأن لى ما فى الأرض جميعًا! ، قالوا :فتحب أن محمدًا مكانك وأنت جالس فى بيتك ؟ قال : والله ما أحب أن يشاك محمد بشوكـة ، وأنا جالس فى بيتى . فجعلوا يقولون : ارجع يا خبيب! قال : لا أرجع أبدًا ! قالوا : أما واللات والعزى ، لئن لم تفعل

(١) مغازى الواقدى ١ / ٣٥٨ ـ ٣٦١ .
(٢) المصدر نفسه .

لنقتلنّك ! قال: إن قتلى فى الله قليل ! فلما أبى عـليهم ، وقد جعلوا وجهه من حيث جاء قال : أما صـرفكم وجهى عن القبلة ، فإن الله يقول : ﴿ **فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّه** ﴾ [ البقرة : ١١٥] ثم قال : اللهم إنى لا أرى إلا وجه عدو ، اللهم إنه ليس هاهنا أحد يبلّغ رسولك السلام عنى ، فبلغه أنت عنى السلام .

فحدثنى أسامة بن زيد،عن أبيه ، أن رسول الله ﷺ كان جالسًا مع أصحابه، فأخـذته غميـة كما كـان يأخذه إذا أنزل عليه الوحى ،ثـم سمعناه يقـول ( وعليه السلام ورحمة الله » ثم قال : « هذا جبريل يقرئنى من خبيب السلام »[١] .

فى هذه اللحظات الأخيرة ، قد أشرقت روح خـبيب ، وزغردت أمامه الحور العين، ورأى الموت ماثلاً أمامـه ، وتعرض عليه الدنيا تتراقص بنعيـمها مع الكفر بالله ورسـوله، نعود إلى ابن إسحـاق ليعـرض لنا أبياته الخـالدة التى لخص فيـها الموقف كله ، والقضية كلها :

| | |
|---|---|
| لقد جـمع الأحزاب [٢] حولى وألبوا | قـبائلهم واسـتـجمـعـوا كل مجـمع |
| وكلهـم مـبـدى العـداوة جـاهد | عـلى لأنـى فى وثـاق بمـضـيـع |
| وقـد جـمـعـوا أبناءهم ونسـاءهم | وقـرنت مـن جـذع طويل ممـنع |

هذا هو المشـهد الأول الخـارجى على الساحـة ، أما المشـهد الثـانى الداخلى النفسى فهو :

| | |
|---|---|
| إلى الله أشـكو غـربـتى ثم كـربتى | وما أرصد الأحـزاب لى عند مصرعى |
| فذا العرش ، صبرنى على ما يراد بى | فقد بضعوا[٣] لحمى وقد ياس[٤] مطمعى |

ويمضى بنا بعيداً فى مشهد ثالث يخترق الآفاق والآماد،كيف سيكون المصير، وتكون الصورة بعد القتل ، ولم هذا كله ؟ إنه الداعية على خشبة الموت .

| | |
|---|---|
| وذلك فـى ذات الإله وإن يـشـأ | يبارك علـى أوصال شلو [٥] ممزع [٦] |

ثم يعود أدراجه إلى المشـهد الرابع ، الذى يعرض عليه الكفر فيـه من جبابرة

---

(١) مغازى الواقدى ١ / ٣٥٨ ـ ٣٦١ .
(٢) الأحزاب : الجماعات .
(٣) بضعوا : قطعوا .
(٤) ياس : لغة فى يئس .
(٥) الشلو : البقية .
(٦) الممزع : المقطع .

مكة ، مقابل نجاته من الموت ، ويحسب المجرمون أن غرضهم نجح ، حين رأوا دموعه الغزار تسقط .

وقد خيرونى الكفر والموت دونه ... وقد هملت[1] عيناى من غير مجزع

ولكن شتان بين الثرى والثريا ، فهم يحسبون الدموع جزعًا من الموت ، فيعرض لنا لقطة سينمائية خالدة من أعماقه ، يسلط عليها الضوء كله ، يتحدث بها فى مشهد خامس عن سبب طول نحيبه :

وما بى حذار الموت إنى لميت ... ولكن حذارى جحم [2] نار تلفع

ولئن نجا من النار ، فليسمع العدو ما عنده ، وما فى أعماقه حول دنياهم ، وعذابهم وقتلهم ، وذلك فى مشهد سادس .

فوالله ما أرجو[3] إذا مت مسلمًا ... على أى جنب كان فى الله مصرعى
فلست بمبدٍ للعدو تخشعًا [4] ... ولا جزعًا إنى إلى الله مرجعى[5]

وهنا يلتقى البطلان العظيمان ،وهما يترافقان إلى الجنة ، عاصم وهو يقول :

الموت حق والحياة باطل ... وكل ما حم الإله نازل

بالمرء والمرء إليه آيل

مع خبيب البطل :

فلست بمبد للعدو تخشعًا ... ولا جزعًا إنى إلى الله مرجعى

وإذا كانت التجربة الشعورية الشعرية هى فى القمة لبطل بين الحياة والموت ، فقد جاء حسان يرسل تلك القصيدة أرتالاً شعرية ، تملأ دنيا العرب ، وتجعل التفكير بالبطولة والصبر على العقيدة ، والآثار الضخمة لهذه العقيدة ، هى الشغل

---

(١) هملت عيناى : سالت مدامعها . (٢) الجحم : الملتهب المتقد .
(٣) ما أرجو: بمعنى ما أخاف،وهى لغة . وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣)﴾ [ نوح ] أى : لا تخافون .
(٤) التخشع : التذلل . (٥) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ٢٥٠ ـ ٢٥١ .

الشاغل للقبائل العربية ، وذلك عوضًا عن الحديث عن أحد ومحنتها .

يقول حسان رضي الله عنه :

| | |
|---|---|
| مـا بال عـينك لا ترقـا [1] مدامعـها | سحا[2] على الصدر مثل اللؤلؤ القلق[3] |
| على خـبيب فـتى الفتـيان قد علـموا | لا فشل[4] حـين تلـقـاه ولا نزق [5] |
| فـاذهب خـبـيب جـزاك الله طيـبـة | وجنة الخـلد عند الحـور فـى الرفق |
| مــاذا تقـولـون إن قـال النـبى لكم | حــــين الملائـكة الأبرار فـى الأفق |
| فـيم قــتلتم شـهـيــد الله فى رجل | طاغ قد أوعث[6] فى البلدان والرفق[7] [8] |

قال ابن هشام : ويروى ( الطرق ) وتركنا ما بقى منها لأنه أقذع فيها .

ولم يعد حسان يبحث هنا عن المعانى الجاهلية فى الفخر ، فقد كان ثبات خبيب واستشهاده قد طغا على الأجواء جميعًا ، فلا بدع أن يكون الحديث عن جنة الخلد والحور العين ، وأن تناقش قريشًا ويسابها فى المفهوم الإسلامى نفسه .

| | |
|---|---|
| مــاذا تقـولـون إن قـال النـبى لكم | حــــين الملائـكة الأبرار فـى الأفق |

فقد أصبحت الشهادة ومفاهيمها تغزو المجتمع الجاهلى رغم عدم إيمانه بها ، ويعجب من قريش كيف تقتل شهيدًا فى طاغية عاث كفرًا وطغيانًا فى قومه ، وفى العودة إلى الديوان نلحظ الأبيات التى تركها ابن هشام :

| | |
|---|---|
| أبـا إهـاب [9] فـبـين لـى حـديثكم | أين الغــــزال مــحلـى الدر والورق |
| لا تذكـرن إذا مــا كنت مـفـتــخـرًا | أبا كـثـيـبة قـد أسـرفت فى الحـمق |
| ولا عــزيزًا فـإن الـغـدر منـقـصــة | إن عـزيرًا دقـيق الـنفس والخلق [10] |

فهو يعير أبا إهاب بغدرة غدرها فى الجاهلية سنتحدث عنها فيما بعد . واكتفى

---

(1) لا ترقا : لا تنقطع .
(2) السح : الصب .
(3) القلق : المتحرك الساقط .
(4) الفشل : الجبان الضعيف القوة .
(5) النزق : السيئ الخلق .
(6) أوعث : اشتد فساده .
(7) الرفق : جمع رفيق .
(8) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ٢٥٢ .
(9) أبو إهاب : هو والد حجير بن أبى إهاب الذى اشترى خبيبًا لقتله .
(10) الديوان ١ / ٢٣١ ق ٩٦ .

بالهجاء بهذا الحد .

وكانت المقطوعة الثانية ، تنصب على الرثاء والثناء على خبيب مع التهديد والوعيد بالحرب .

| | |
|---|---|
| يا عين جودى بدمع غير منسكب | وابكى خبيبًا مع الفتيان لم يؤب[١] |
| صقرا توسط فى الأنصار منصبه | سمح السجية محضًا[٢] غير مؤتشب[٣] |
| قد هاج عينى على علات [٤] عبرتها | إذ قيل نص[٥] على جذع من الخشب |

هذا هو خبيب ومأساته الصقر العظيم ذو الخلق العالى ،والنسب الرفيع يصلب على الخشب أما نذر الحرب فمع المقطع الثانى :

| | |
|---|---|
| يا أيها الراكب الغادى لطيته [٦] | أبلغ لديك وعيدا [٧] ليس بالكذب |
| بنى كهيبة[٨] أن الحرب قد لقحت[٩] | محلوبها [١٠] الصاب[١١] إذا تمرى لمحتلب |
| فيها أسود بنى النجار تقدمهم | شهب الأسنة فى معصوصب[١٢] لجب[١٣][١٤] |

قال ابن هشام : وهذه القصيدة مثل التى قبلها ، وبعض أهل العلم بالشعر ينكرهما لحسان ، وقد تركنا أشياء قالها حسان فى أمر خبيب لما ذكرتُ .

وبالعودة إلى الديوان يكشف لنا حسان خفايا الغدر المذكور فى القصيدة الأولى :

---

(١) لم يؤب : لم يرجع .
(٢) المحض : الخالص وأراد به هنا خلوص نسبه .
(٣) المؤتشب : المختلط .
(٤) العلات : المختلطات .
(٥) نص : رفع من النص فى السير ، وهو أرفعه .
(٦) الطيَّة : وهو ما انطوت عليه نيتك من الجهة التى تتوجه إليه .
(٧) الوعيد : التهديد .
(٨) بنو كهيبة : قال السهيلى : جعل كهيبة كأنه اسم علم لأمهم . وفى الديوان كهيفة ، وهى جدة الحارث ابن عامر بن نوفل ، وهى امرأة من كنانة .
(٩) لقحت : ازداد شرها .
(١٠) محلوبها : لبنها .
(١١) الصاب : العلقم .
(١٢) المعصوصب : الجيش الكثير .
(١٣) اللجب : الكثير الأصوات .
(١٤) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

| | |
|---|---|
| سائل بنى الحارث المزرى بمعشره | أين الغزال عليه الدر من ذهب |
| يا حار قد كنت لولا ما غضب له | لله درك فى عزٍ وفى نسب |
| جلّلت قومك مخزاة ومنقصة | ما لن يجلّله حى من العرب |
| يا سالب البيت ذى الأركان حليته | أدِّ الغزال فلن يخفى لمستلب |
| بئس البنون وبئس الشيخ شيخهم | تبًا لذلك من شيخ ومن عقب |
| تلكم قبيلة خُصَّت وقللها | دعوى خبيب التى حقَّت ولم تخب[1] |

وقصة سرقة غزال الكعبة التى أشار إليها حسان ﷺ قصة طويلة وطريفة نجتزئ منها ما يخص الحارث بن عامر بن نوفل الذى قُتل به خبيب ، وحليفه أبو إهاب بن عزيز التميمى ، وهو أخوه فى الرضاعة كذلك .

. . . إن عيرًا أقبلت من الشام تحمل خمرًا فأناخت بالأبطح، فقال أبو لهب : ويلكم أما عندكم نفقة ؟ قالوا : لا والله . قال : فعليكم بغزال الكعبة ، فإنما هو غزال أبى . . . فقاموا وانطلقوا وهم يهابون ، وقد أصابتهم ليلة باردة فيها ظلمة ومطر ، حتى انتهوا إلى الكعبة وليس حولها أحد ، فحمل أبو مسافع وأبو لهب الحارث بن عامر على ظهورهما حتى ألقياه فى الكعبة ، فضرب الغزال فوقع ، فتناوله أبو لهب ، ثم أقبلوا عليه . . . وذهب القومْ فاشتروا كل خمر كان بالأبطح ، ثم أقبلوا به إلى أصحابهم . . . فمكثوا شهرًا يشربون أو أكثر .

ثم إن المطيبين نافروا الأحلاف ، وقالوا : لا نرضى حتى نقطع أيديهم ، أو يردوا الغزال بعينه أو يؤدى كل رجل منهم مائة ناقة ، فمكثوا بذلك ، ثم إن الحارث بن عامر أُخرج ، وقد أُلبس حِلَّة المطعم بن عدى [2]، وقد أهل بعمرة ، وطاف بالبيت لا يكلمه أحد حتى خرج على وجهه فمكث عشر سنين لا يدخل مكة ، فقال أبو إهاب : ما يمنعكم أن تصنعوا بى كما صنعتم بصاحبكم ، أمن أجل أنى حليف تستخفون بى ! فألبسوه حلة ، وأخرجوه مهلاً بعمرة .

فلما كان يوم بدر أقبل أبو مسافع وأصحابه الذين هربوا فقالوا : يا معشر قريش لم تنفوننا وتطردوننا ، أما لنا عندكم أن نقاتل محمدًا وأصحابه ، فإن قتلنا

---

(١) ديوان حسان بن ثابت ١ / ٣٧٠ .

(٢) المقصود هو المطعم بن عدى سيد بنى نوفل والذى توفى قبل بدر .

فهو مـا تريدون ، وإن بقينا فهو عـوض ما صنعنا ، فأقبلوا فـشهدوا بدرًا ، فقُتل أبو مـسافع ، والحـارث بن عامر ، وأُفلت أبو إهاب ، وكـان الحـارث بن عامـر يجالس النبى ﷺ قبل أن يخرج ، وأعجبه حديثـه فقال قريش : قد صبأ ، فقُتل يوم بدر ، قتله خبيب ، فقال حسان بن ثابت :

يا حار قـد كنت لولا مـا غضـبت له | لـله درك فـى عـــز وفـى نسـب
جلَّلت قـــومك مـخـزاة ومنقـــصـة | مــــا لن يجـلله حــى من العـــرب
يا سـالب البيت ذى الأركـان حليتـه | أدِّ الغــزال فـلن يخـفى لمســتلب

إلى آخر الأبيات [1] .

ويعيد عليهم الاتهام فى المقطوعة الثالثة بعد الثناء على خبيب رضي الله عنه .

لو كـان فى الدار قـرم[2] ماجد بطل | ألوى [3] من القوم صقـر خاله أنس
إذن وجـدت خبـيبـاً مـجلساً فـسحـاً | ولم يُشـدَّ عـليـه الســجن والحـرس
ولم تسقك إلى الـتنعيم[4] زعنفة [5] | من القبـائل منهم من نَفَت عُدَس [6]
دلَّوك [7] غدرًا وهم فـيهـا أولو خلق | وأنت ضيم [8] لها فى الدار مـحتبس

وزاد الواقدى بيتًا هو :

فـاصـبـر خـبـيب فـإن القـتل مكرمـة | إلـى جنـان نعـــــيم تـرجع الـنفَسُ

إن حسان ليسـير بين الأشواك ، فهو يضع مبـضع الجراح ، ويخشى أن ينال بعض السـادة الذين آزروا الإسـلام فى مكة ، وها هو هنا يخلص بين الشـوك ، وحين ينزل حميم هجائه بالحارث بن عامر بن نوفل ، وحليفه وأخيه أبى إهاب بن عزيم لا ينسى المطعم بن عـدى السيد العظيم سيد بنى نـوفل ، وحتى لا ينال حر

(١) المنمق لابن حبيب .
(٢) القرم : الرجل السيد ، وأصله الفحل من الإبل .
(٣) ألوى : شديد الخصومة .
(٤) التنعيم : المسمى اليوم بمسجد عائشة ، وهو على أربعة أميال من مكة .
(٥) زعنفة : الذين يكونون أتباعًا للقبائل .
(٦) عُدس : قبيلة من تميم .
(٧) دلوك : غروك ، ومنها قوله تعالى : ﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ .
(٨) الضيم : الذل ، وأراد ذو ضيم فحذف المضاف ، وأقام المضاف إليه مقامه .

هجائه ، تخَلَّص بذكاء نادر من هذه المعضلة ، فقال :

لو كـان فى الدار قـرم مـاجـد بطل ألوى من القـوم صـقـر خـاله أنس
إذن وجـدت خُبـيـبًا مـجلسًا فـسـحًا ولم يشـد عليـك الكبل والحـرس

والمطعم بن عـدى قدمات ، وهو الـقرم الماجد البـطل ، حامى العريـن خاله أنس الأصم ، ولو كان موجودًا لوجدت المجلس الفـسيح الهنئ ، لكن لئام القوم هؤلاء الزعنفه الغادرون هم الذين قادوك للقـتل ، والمطعم بن عدى قد توفى قبل بدر . ومدحـه حسان ﷺ أعطر المديح ، فـلا بد أن يفـرق فى بنـى نوفل بين سادتها وسفهائها وحليفها أبى إهاب الذى نفته عُدَس من تميم فحالف بنى نوفل .

ولأن خبيبًا قد قُتِل تلك القتلة الغادرة،فقد طغى حديثه على حديث الجميع ، وقد اشـترك وزيد بنَ الدَثُنَّة ﷺ فى المصير الواحـد ، إلا أن قصيدة خـبيب قد مزقت الحجب وهتكت الأستار ، ودخلت البيوتات العربية .

وبعـد أن أخذ حـسان حـقَّه من قريش الخـصم الأول ، العدو الألد ، عـاد لتصفية حساباته مع هذيل عامة ،ولحيان خاصة الذين غدروا بهذه الثلة العظيمة .

فها هو يهجو هذيلاً فيما صنعوا بخبيب وأصحابه :

أبلغ بنـى عـمـرو (١) بأن أخـاهم شـراه امـرؤ قـد كـان للغـدر لازمًا
شـراه زهيـر بـن الأغـر وجـامع (٢) وكـانا جـمـيـعًا يـركـبـان المحـارمـا
أجـرتم فـلمَّا أن أجـرتم غـدرتم وكنتم بـأكناف الرجـيع لهـاذمـا (٣)
فليـت خـبـيـبًا لم تخنه أمـانة وليت خـبـيـبًا كـان بالقـوم عـالمًا

وإن كان هذا أخف ما قيل فى هذيل ، لكن أشد ما قاله حسان فيهم فهو :

إن سرّك الغـدر صرفًا (٤) لا مزاج له فـأت الرجـيع فـسل عن دار لحـيـان

(١) بنو عمرو : قوم خبيب .
(٢) زهير وجامع : هما اللذان باعا خبيبًا لقريش .
(٣) لهاذم : من رواه بالذال فهو السيف القاطع ، ومن رواه بالزى فيعنى به الضعفاء والفقراء .
(٤) الغدر الصرف : الغدر الخالص .

قـــوم تواصـــوا بأكل الجـــار بيـنهم فـالكَلب والقـرد والإنسـان مـثـلان
لو ينطق التـيـس يومًا قـام يخطبـهـم وكـان ذا شـــرف فـيـهـم وذا شـان

إنه الناطق الإعلامى الإسـلامى ، وتتناقل أبياته الركـبان فى كل مكان ، وها هو ينقب عن كل مثلبة فيهم يسلط عليها الضوء ، أو يفريهم بلسانه فرى الأديم ، فقد بلغه أن أبا كبير الهذلى الشاعر أسلم ثم أتى النبى ﷺ فقال : أحل لى الزنا . فقال : « أتحـب أن يؤتى إليك مثل ذلك ؟ » قال : لا قال : « فـارض للناس ما ترضى لنفسك » . قال : فادع الله أن يذهب ذلك عنى .

فانتهزها حسان فرصة ليقول لهذيل :

سالت [1] هذيل رسول الله فاحشة[2] ضلَّت هذيـل بما سـالت ولـم تصب
سـالوا رسـولهم مـا ليس مـعطيَهم حـتى المـمـات وكـانوا سُبَّة الـعـرب
ولن تـرى لهـــذيـل داعـــيًا أبدًا يدعـو لمكرمــة عن منزل الحَرَبِ [3]
لقد أرادوا خلال [4] الفحش ويحهم وأن يحلوا حـــرامًا كـان فـى الكتب

ومـا له يبحث عن عـيوبهم وقـد وقعـوا فى العـيب الأكبـر ، والغدر البـين الواضح .

لعـمرى لقـد شانت هذيل بن مـدرك أحـاديث كـانت فى خبـيب وعـاصم

وها هو لأول مرة يعود إلى باقى السرية فيذكر أميرها عاصم .

أحـاديث لحـيـان صلوا بقـبـيـحـهـا ولحـيـــان جـرَّامـون شـــر الجـرائم
أناس هم من قومهم فى صميمهم [5] بمنزلة الزمعان [6] دبر [7] القوادم [8]

فهم المجرمـون ، وهم وإن كانوا من صميم قـومهم ، لكنهم بمنزلة الدُبْر من

---

(١) سالت هذيل : أراد سألت ، وهى لغة غـير لغة حسان ، ونبعد أن يكون هذا عند إسـلام هذيل فهذا قد تأخر للسنة التاسعة للهجرة ، ولهذا اخترنا إسلام أبى كبير أحد شعرائهم .
(٢) الفاحشة : الزنا .
(٣) الحَرَب : السلب .
(٤) الخلال : الخصال .
(٥) الصميم : خالص النسب .
(٦) الزمعان : الشعر فوق الرسغ .
(٧) دُبْر : خلف .
(٨) القوادم : اليدان .

قومه ، فماذا فعلوا ؟

هم غـــدروا يوم الرجـــيع وأسـلمت أمـــانتـــهم ذا عـــفـــة ومـكارم
رسـول رسـول اللـه غـدراً ولم تكن هذيـل توفـى منـكرات المحـــــارم

وينتقل إلى إعلان الحرب عليهم :

فـســـوف يرون النصـر يومًا علـيـهم بقتل الذى تحميه [1] دون الحرائم [2]
أبابيل[3] دُبْر [4] شمَّس[5]دون لحمه حـمـت لحم شـهَّاد عِظـام الملاحم
لـعل هـذيلاً أن يـروا بمـصـــابـه مـصـــارع قـتلى أو مـقـــامًا لمأثم

ولأول مرة كذلك يشير إلى حماية النحل لجسد عاصم ﷺ حين أرادوا أخذ رأسه بعد قتله ، وسماه شهاد عظام الملاحم ، أى بطل المعارك العظيمة ، وسوف يذوقون الهزيمة النكراء جزاء قتل هذا الربانى العظيم ، وسوف تقام المآثم فى دورهم . ممن ؟

ونوقع فـيـهم وقـعـة ذات صـولة يوافى بهـا الركــبـان أهل المواسم
بأمـــر رســـول اللـه إن رســـوله رأى رأى حـزم بلـحـيـان عـالم

ثم يعود بنا إلى مثالبهم واحدة تلو الأخرى ، فلا هم يعرفون الوفاء ، ولا هم يدفعون الضيم :

قُبـــيَلةٌ لـيس الوفـــاء يـهـــمـــهم وإن ظُلمـــوا لم يـدفـعـــوا كـف ظالم

وإذا أقام الناس بالفضاء المتسع فمقامهم مَخارم السيل التى تحمل زبده .

إذا الناس حـلو بالفــضـــاء رأيتـــهم بمجـرى مـسـيل الماء بين المخـارم [6]

هذا مقامهم ، أما رأيهم فهم ورأى البهائم سواء .

(١) بقتل الذى تحميه : هو عاصم ﷺ الذى حمته الدبر .
(٢) دون الحرائم : دون أن يمس أحدًا من الكفار .
(٣) الأبابيل : الجماعات .
(٤) الدبْر : اسم لجماعة النحل .
(٥) الشمّس : المدافِعة .
(٦) المخارم : مسائل الماء التى يخرمها السيل .

مـــحلُّهم دار البـــوار [1] ورأيـهـم | إذا نابهـم أمـر كـــرأى البـــهـــائم[2]

ورغم أن هذه أطول قصـائده ، وأوسعـها أفقًا ، وأغـزرها معنى ، فقـد جاء بقصيدة مثلها ، بالمعانى نفسها مع قافية جديدة .

لحى [3] الله لحيانًا فليست دماؤهم [4] | لنـا من قـتـيـلى غـدرة بوفـاء
هم قـتلوا يوم الرجـيع ابن حـرة | أخـا ثقـة فى وده وصـفـاء

وكلهم لو قُتلوا لا يعادلون قتيلنا الذى حمته الدبر منهم .

فلو قُتـلوا يوم الرجـيع بأسـرهم | بـذى الدبـر [5] مـا كـانوا لـه بكفاء
قـتـيل حـمـتـه الدبر بين بـيـوتهم | لذى أهل كـفـرٍ ظـاهر وجـفـاء
فـقـد قـتلت لحـيـان أكـرم منهم | وباعـوا خـبـيـبًا ويـحـهم بلفـاء [6]
فـأف للحـيـان على كـل حـالة | على ذكـره فى الذكـر كل عـفـاء [7]
قُبـيِّلة بـاللؤم والغـدر تـعـتـزى | فلم تمس تـخـفى لؤمـهـا بخـفـاء

ليس هنا إبداع شـعرى ، أو تجـديد فنى ، إنما رسـائل إنذار إلى هذه القبـيلة المعتدية :

فلـو قُتِّلوا لم تـوف منه دمـاؤهم | بلى إن قـتل القـاتلـيـه [8] شفـائى
فـإلا أمـت أذعـر [9] هذيلاً بغـارة | كغادى[10] الجهام[11] المفتدى بإفاء[12]
بأمـر رسـول الله والأمـر أمـره | يبـيـت لحـيـان الخنـا بفـناء
يصـبِّح قـومًا بالرجـيع كـأنهم | جداء [13] شـتـاء بتن غيـر دفـاء [14]

---

(1) البوار : الهلاك .
(2) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ٢٥٦ ـ ٢٥٧ .
(3) لحى الله لحيانًا : أضعفهم ، وبالغ فى ضرهم .
(4) ليست دماؤهم . . . بوفاء : أى قتلاهم جميعًا لا تعادل قتيلنا .
(5) ذى الدبر : عاصم بن ثابت .
(6) اللفاء : الشىء الحقير الضئيل .
(7) العفاء : الدرس والتغير .
(8) القاتليه : وهو شاذ فى وجود أل التعريف والإضافة فى كلمة واحدة . وفى الديوان : القاتلين .
(9) أذعر : أفزع .
(10) الغادى : المبكر .
(11) الجهام : السحاب .
(12) الإفاء : المطر الذى صاحبه .
(13) الجداء : جمع جدى .
(14) دفاء : من الدفء .

وقدِّم لنا هذه الصورة اليتيمة للحيان ، وهى ترجف من الخوف والرعب ، كما تقرقف الجداء فى الشتاء القارص ، مع الصورة الثانية التى يحدثنا فيها عن الغارة الشعواء التى تنزل على هذيل ، كما يهجم السحاب المسود بمائه المهراق على القوم .

وحين يجردهم من الخلق ، ها هو يجردهم من الدين كذلك ، سواءً كان جاهليًا أو إسلاميًا ، فهم لا يعظمون حرمة لعهد ولا لبيت .

فلا والله ما تدرى هذيل ... أصاف ماء زمزم أم مشوب [١]
ولا لهم إذا اعتمروا وحجوا ... من الحجرين [٢] والمسعى نصيب
ولكن الرجيع لهم محل ... به اللؤم المعين والعيوب
كأنهم لدى الكنات [٣] أصلاً [٤] ... تيوس بالحجاز لها نبيب [٥]
هم غروا بذمتهم خبيبًا ... فبئس العهد عهدهم الكذوب

ولا ينسى قبل وداعنا أن يعدد لنا أفراد سرية الرجيع ، فيرثيهم جميعًا فى هذه الأبيات الخمسة .

صلى الإله على الذين تتابعوا ... يوم الرجيع فأكرموا وأثيبوا
رأس السرية مرثد وأميرهم ... وابن البكير إمامهم وخبيب [٦]
وابن لطارق [٧] وابن دثنة منهم ... وافاه ثم حِمامه [٨] المكتوب
والعاصم المقتول عند رجيعهم ... كسب المعالى إنه لكسوب
منع المقادة أن ينالوا ظهره ... حتى يجالد إنه لنجيب [٩]

---

(١) مشوب : مخلوط غير صاف .

(٢) الحجرين : حجر الكعبة ، ومن رواه الحَجَرين : يعنى الحجر الأسود وحجر مقام إبراهيم .

(٣) الكنات : شىء يلصق بالبيت يكنّ فيه .

(٤) أصلاً : أراد أُصُلاَ جمع أصيل ، والتيس معروف .

(٥) النبيب : الصوت .

(٦) قوله : وخبيب فى قافية واحدة مع قوله المكتوب هو من عيوب قوافى الشعر ، ويسمى عندهم التوجيه ، وهو أن يختلف ما قبل الردف ، وهو هنا الياء أو الواو .

(٧) قوله ابنٌ لطارق : ترك تنوين طارق هنا ضرورة لإقامة وزن الشعر ، وهو سائغ على مذهب الكوفيين والبصريين لا يرونه .

(٨) الحمام : الموت .

(٩) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ٢٥٩ .

فهو يثنى على الذين جالدوا ورفضوا النزول على عهد مشرك ، كما يثنى على الذين غُدر بهم، وهم من عيون قومهم ، وتكاد تكون قصيدة خبيب ﷺ هى قمة هذه القصائد جميعًا إذ هى ثمرة تجربة شعورية عالية ، ومعاناة عظيمة ، وإن كانت أشعار حسان تمضى فى البيئة العربية أسرع من قصيدة خبيب ، فالأعراب يتبادلون الأشعار الخفيفة التى يهجون بها بعضهم أكثر من تبادلهم القصائد العصماء الطوال.

**بئر معونة :**

ذكر الواقدى غزوة الرجيع فقال : غزوة الرجيع فى صفر على رأس ستة وثلاثين شهرًا، وذكر غزوة بئر معونة فقال: غروة بئر معونة فى صفر على رأس ستة وثلاثين شهرًا، وكانت محنة أحد فى شوال على رأس اثنين وثلاثين شهرًا [١]. أى أن المسلمين خلال خمسة أشهر تعرضوا لثلاث محن هى أشد المحن فى حياتهم كلها . وفقدوا من الشهداء خلال هذه الأشهر الخمسة أكثر مما فقدوه خلال السنوات العشر فى المدينة المنورة. ومن هنا نلاحظ الجو المعنوى الذى سيطر على أجواء جزيرة العرب فى انخفاض الخط البيانى للثقة بانتصارات المسلمين ، وضرورة تأدية الشعر دوره فى صفوف القبائل العربية قبل أن تتكالب هذه القبائل وتطمع فى غزو المدينة والقضاء على الإسلام فى مهده .

لكن الظاهرة الغريبة التى تستوقفنا أن غزوة الرجيع بشهدائها السبعة أخذت حيزًا ضخمًا من الشعر بينما لم تأخذ غزوة معونة فى شهدائها السبعين إلا حيزًا ضئيلاً لا يكاد يذكر فى المجال الشعرى . فقد قدَّم حسان ﷺ خمسة أبيات فى رثاء شهداء بئر معونة هى:

على قتلى معونة فاستهلى [٢] ... بدمع العين سحًا [٣] غير نزر [٤]
على خيل الرسول غداة لاقوا ... مناياهم ولا قتهم بقدر
أصابهم الفناء بعقد قومٍ ... تُخوِّن [٥] عقد حبلهم بغدر
فيا لهفى لمنذر إذ تولى ... وأعنق فى منيته بصبر
وكائن قد أصيب غداة ذاكم ... مِنَ أبْيض ماجد من سر [٦] عمرو

(١) مغازى الواقدى ١ / ٣٤٦ و ٣٥٤ .
(٢) استهلى : أسبلى من دمعك .
(٣) السح : الصب .
(٤) النزر : القليل .
(٥) تُخوِّن : تُنقِص .
(٦) سر القوم : خيارهم وخالصهم .

وكأنما هو بيان مقتضب عن القتلى الذين أصيبوا وكيف أصيبوا ، إضافة إلى بيان آخر ببيتين يتيمين يرثى فيهما عبد الله بن رواحة نافع بن بديل بن ورقاء .

رحم الله نافع بن بديلٍ رحمة المبتغى ثواب الجهاد
صابر صادق وفى إذا ما أكثر القوم قال قول السداد

وبيان ثالث مقتضب لكعب بن مالك ﷺ ، يعيّر بنى جعفر بن كلاب الذين خفر عامر بن الطفيل بذمتهم .

تركتم جاركم لبنى سُليم مخافة حربهم عجزاً وهونًا [1]
فلو حبلاً [2] تناول من عقيل لمدَّ بحبلها حبلاً متينًا
أو القرطاء [3] ما إن أسلموه وقِدمًا ما وفوا إذ لا تفونا

إنه يدعو إلى الأخذ بالثأر ممن أخفر ذمة أبى براء ، فهل يرضى قوم أبى براء بنو جعفر بن كلاب أن تخفر ذمة سيدهم ويسكتون ، ولو كان المخفور ذمتهم عقيلاً أو القرطاء من هوازن لثأروا من الغادر بهم .

لكن حسان شد شدة منكرة على هذه الغدرة ، ووجه كلامه لابن أبى براء بن مالك .

بنى أم البنين [4] ألم يرعكم وأنتم من ذوائب أهل نجد
تهكم عامر بأبى براء ليُخفره وما خطأ كعمد
ألا أبلغ ربيعةً [5] ذا المساعى [6] فما أحدثت فى الحدثان بعدى
أبوك أبو الحروب أبو براء وخالك ماجد حكم بن سعد

وأثمرت هذه القصيدة فى تحرك ربيعة ، كما قال ابن إسحاق : ( فحمل ربيعة ابن عامر بن مالك على عامر بن الطفيل فطعنه بالرمح فوقع فى فخذه ،

---

(١) الهون : الهوان ، وهو لغة أهل الحجاز .
(٢) حبلاً : عهدًا ومدة . (٣) القرطاء : بطون من العرب من بنى كلاب .
(٤) بنى أم البنين : هى أم أبى براء ، وإخوانه ، وكانوا نجباء فرسانًا ، وهم الذين فخر فيهم لبيد بقوله : ( نحن بنى أم البنين الأربعة ) .
(٥) ربيعة : هو ربيعة بن أبى براء . (٦) المساعى : طلب المجد والكرم .

فأشواه [1] ، ووقع عن فرسه ، فقال : هذا عمل أبى براء ، إن أمت فدمى لعمى فلا يتبعن ، وإن أعش فسأرى رأيى فيما أتى إلىّ [2] .

وهذه قصة سرية بئر معونة كما ساقها ابن إسحاق :

( قدم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة على رسول الله ﷺ المدينة فعرض عليه رسول الله ﷺ ، ودعاه إليه فلم يسلم ، ولم يبعد من الإسلام ، وقال : يا محمد لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد ، فدعوهم إلى أمرك ، رجوت أن يستجيبوا لك ، فقال رسول الله ﷺ : « إنى لأخشى عليهم أهل نجد » قال أبو براء: أنا لهم جار فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك ، فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو ، أخا بنى ساعدة ، ( المعنق يموت ) [3] فى أربعين رجلاً من أصحابه، من خيار المسلمين منهم: الحارث بن الصمة ، وحرام ابن ملحان أخو بنى عدى بن النجار، وعروة بن أسماء بن الصلت السلمى، ونافع ابن بديل بن ورقاء الخزاعى ، وعامر بن فهيرة ، مولى أبى بكر الصديق ، فى رجال مسلمين من خيار المسلمين ، فساروا حتى نزلوا بئر معونة ، وهى بين أرض بنى عامر ، وحرَّة بنى سليم ، كلا البلدين منها قريب، وهى إلى حرة بنى سليم أقرب ، فلما نزلوها بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل ، فلما أتاه لم ينظر فى كتابه حتى عدا على الرجل فقتله ، ثم استصرخ عليهم بنى عامر فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه، وقالوا لن نخفرّ [4] أبا براء ، وقد عقد لهم عقدًا وجوارًا ، فاستصرخ عليهم قبائل من بنى سليم من عُصيَّة ورِعل وذكوان ، فأجابوه إلى ذلك فخرجوا حتى غشوا القوم ، فأحاطوا بهم فى رحالهم ، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ثم قاتلوهم حتى قتلوا من عند آخرهم يرحمهم الله إلا كعب بن زيد أخا بنى دينار بن النجار ، فإنهم تركوه وبه رمق ، فارتثّ [5] من بين القتلى حتى قتل يوم الخندق شهيدًا يرحمه الله ، وكان فى سرح القوم عمرو بن أمية الضمرى ، ورجل من الأنصار ، أحد بنى عمرو بن

---

(١) أشواه : أخطأ مقتله .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٢ / ٢٦٤ - ٢٦٥ .

(٣) المنذر بن عمرو : أحد النقباء الاثنى عشر ليلة العقبة سمى ( المعنق ليموت ) أى المسرع للموت ، وإنما لقب بذلك لأنه أسرع للشهادة .

(٤) لن نُخفر : لن ننقض .

(٥) ارتُثّ : أى رفع ، وبه جراح ، وبه بقية حياة .

عوف . . . فلم ينبئها بمصاب أصحابهما إلا الطير تحوم حول العسكر ، فقالا : والله إن لهذه الطير لشأنًا، فأقبلا لينظرا ، فإذا القوم فى دمائهم ، وإذا الخيل التى أصابتهم واقفة فقال الأنصارى لعمرو بن أمية : ما ترى ؟ قال : أرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر، فقال الأنصارى : لكنى ما كنت لأرغب بنفسى عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو ، وما كنت لتخبرنى عنه الرجال ، ثم قاتل القوم حتى قتل ، وأخذوا عمرو بن أمية أسيرًا ، فلما أخبرهم أنه من مضر ، أطلقه عامر بن الطفيل ، وجزَّ [1] ناصيته ، وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه ، فخرج عمرو بن أمية حتى إذا كان بالقرقرة من صدر قناة ، أقبل رجلان من بنى عامر . . . حتى نزلا معه فى ظل هو فيه ،وكان مع العامريين عقد من رسول الله ﷺ وجوار ، لم يعلم به عمرو بن أمية ، وقد سألهما حين نزلا : ممن أنتما ؟ فقالا : من بنى عامر ، فأمهلهما حتى إذا ناما عدا عليهما فقتلهما ، وهو يرى أنه أصاب بهما ثؤره من بنى عامر فيما أصابوا من أصحاب رسول الله ﷺ ، فلما قدم عمرو بن أمية على رسول الله ﷺ فأخبره الخبر ، قال رسول الله ﷺ : « لقد قتلت قتيلين لأدينهما ! » [2] .

وإذا كانت رواية ابن إسحاق أنهم أربعون فرواية صحيح البخارى عن أنس أنهم سبعون ، كما وردت فى البخارى قال : ( إنما قنت رسول الله ﷺ بعد الركوع شهرًا أنه كان بعث ناسًا يقال لهم القراء وهم سبعون رجلاً إلى ناس من المشركين ، وبينهم وبين رسول الله ﷺ عن قِبلَهم . . ) [3] وفى رواية ثانية : إن النبى ﷺ بعث خاله ـ أخ لأم سليم ـ فى سبعين راكبًا ، وكان رئيس المشركين عامر بن الطفيل . . )[4] .

وتبقى هذه الظاهرة لا تجد التفسير المناسب ، ظاهرة ندرة الشعر فى الشهداء السبعين ، ووفرته فى شهداء الرجيع السبعة ، حتى نقب فى الكتب فنجد بيتين آخرين عند الواقدى ، وقد أوردا فى الديوان فى رثاء المنذر بن عمرو رضي الله عنه أمير السرية .

---

(١) جز ناصيته : قصّ مقدمة شعر رأسه .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ٢٦٠ ـ ٢٦٤ .
(٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧ / ٣٨٩ ( ح ٤٠٩٦ ) .
(٤) المصدر نفسه ٣٨٦ ( ح ٤٠٩١ ) .

صلى الإله على ابن عمرو إنه ... صدق اللقاء وصَدقُ ذلك أوفق
قالوا له أمرين فاختر منهما ... فاختار فى الرأى الذى هو أوفق [1]

أما هذا الخيار فقد أورده الواقدى بقوله: ( وبقى المنذر بن عمرو فقالوا له : إن شئت أمنَّاك فقال: لن أعطى بيدى، ولن أقبل منكم أمانًا حتى آتى مقتل حرام، ثم برئ منى جواركم فأمنوه حتى أتى مصرع حرام ثم برئوا إليه من جوارهم ، ثم قاتلهم حتى قتل ، فذلك قول رسول الله ﷺ : « أعنق ليموت » [2].

أما أثر مقتل السبعين فى المدينة ، فكان أشد من وقع أثر شهداء أحد .

يقول أبو سعيد الخدرى : ( لم يجد رسول الله ﷺ على قتلى ما وجد على قتلى بئر معونة ، وكان أنس بن مالك يقول : أنزل الله فيهم قرآنا قرأناه حتى نسخ : (بلغوا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا ورضينا عنه ) [3] .

ولعل كون المعركة بين قريش والمسلمين هى أشد ما تكون ، ولم يرض رسول الله ﷺ أن يهيج معركة بينه وبين عرب نجد من سليم ، وعامر فى تلك المرحلة هو الذى أصمت الشعراء المسلمين ، عن شهداء معونة ، بينما انطلقت ألسنتهم فى هجاء عرب هذيل ولحيان فى الحجاز .

وها نحن نودع سرية بئر معونة لنجد آخر حلقاتها هو افتتاح المعركة الشعرية والدموية مع اليهود ، كما سنرى فى الفصل القادم .

(١) مغازى الواقدى : ١ / ٣٥٣ . (٢) المصدر نفسه ٣٤٨ .
(٣) مغازى الواقدى ٣٥٠ . وهو عند البخارى ٧ / ٣٨٩ ( ح ٤٠٩٥ ) .

# الفصل الثانى

# المعركة الشعرية والدموية مع يهود بنى النضير

## أمر إجلاء بنى النضير

قال ابن إسحاق :

ثم خرج رسول الله ﷺ يستعينهم فى دية ذينك القتيلين من بنى عامر اللذين قتل عمرو بن أمية الضمرى للجوار الذى كان رسول الله ﷺ عقد لهما كما حدثنى يزيد بن رومان ، وكان بين بنى النضير وبين بنى عامر عقد وحلف ، فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم فى دية ذينك القتيلين ، قالوا : نعم يا أبا القاسم ، نعينك على ما أحببت ، مما استعنت بنا عليه، ثم خلا بعضهم ببعض ، فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ، ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار فى بيوتهم قاعد ، فمن رجل يعلو هذا البيت ، فيلقى عليه صخرة ، فيريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جِحاش بن كعب فقال : أنا لذلك ، فصعد ليلقى عليه صخرة ، كما قال ، ورسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه ، فيهم أبو بكر وعمر وعلى رضوان الله عليهم ، فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم فقام وخرج راجعًا إلى المدينة ، فلما استلبث النبى ﷺ أصحابه قاموا فى طلبه ، فلَقوا رجلاً مقبلاً من المدينة ، فسألوه عنه فقال : رأيته داخلاً المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه فأخبرهم الخبر ، بما كانت يهود أرادت من الغدر به ، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم ، ثم سار بالناس حتى نزل بهم .

قال ابن هشام : وذلك فى شهر ربيع الأول ، فحاصرهم ست ليالٍ ، ونزل تحريم الخمر .

قال ابن إسحاق : فتحصنوا منه فى الحصون ، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخيل والتحريق فيها ، فنادَوْه أن يا محمد ، قد كنت تنهى عن الفساد ، وتَعيبُه

على من صنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها ! .

وقد كان رهط مـن بنى عوف بن الخزرج منهم عدو الله عـبد الله بن أبى بن سلول ووديعة ومالك بن أبى ، وسويد ، وداعس قـد بعثوا إلى بنى النضير : أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم،إن قوتلتم قاتلنا معكم وإن أخرجتم خرجنا معكم ، فتربصـوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا ، وقـذف الله فى قلوبهم الرعب ، وسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ، ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة (١)، ففـعل . فاحـتملوا من أمـوالهم ما استـقلت به الإبل ، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف (٢) بابه،فيضعه على ظهر بعيره، فينطلق به، فخرجوا إلى خيبر ، ومنـه ممن سار إلى الشام ، فكان أشرافهم من سار منهم إلى خيبر،سلام بن أبى الحقيق ،وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق ،وحيى بن أخطب ، فلما نزلوها دان لهم أهلهـا . قال ابن إسحاق : فحدثنـى عبد الله بن أبى بكر أنه حُدِّث أنهم استقلوا بالنساء والأبناء والأموال معهم الدفوف والمزامير والقيان يعزفن خلفهم . . بزُهاء (٣) وفخر مارئى مثله من حىّ من الناس فى زمانهم (٤).

ولابد أن يستـثمر هـذا النصر ، ويوظَّف لصالح المسلـمين ، خاصـة والعرب تتابع باهتمام كل المعارك النبوية فى الساحة العربية ، وهذا شاعر جديد عربى سبق أن عرضنا له قطعة من قبل هو ابن لقيم العبسى .

قال ابن إسـحاق : وكـان مما قيل فى بنى النضـير من الشـعر قول ابـن لقيم العبسى ، ويقال قاله : قيس بن بحر بن طريف .

أهلى فـداء لامـرئ غـيـر هالك  أحل اليـهـود بالحِسى (٥) المـزنم (٦)
يقيلون فـى جمر العـضاة (٧) وبدِّلوا  أهيضب(٨) عودى بالودى(٩) المكمم(١٠)

---

(١) الحلقة : السلاح .
(٢) نجاف بابه : عتبته .
(٣) الزهاء : الإعجاب الكثير .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ٢٦٧ ـ ٢٦٩ .
(٥) الحسى : مياه تفور فى الرمل ، أو طعام يحسى كما فسرها السهيلى .
(٦) المزنم : المقلَّل اليسـير . ومن رواه بالحشى أراد به حـاشية الإبل ، والمزنم صـغارها ، والمعنى بُدلوا :بالمال الكثير والإبل الكوم رذال المال وتافهه .
(٧) العضاة : شجر واحدتها عضة ، أو الغضاة شجرة جمعها الغضاء .
(٨) الأهيضب : المكان المرتفع .
(٩) الودى : النخيل الصغار .
(١٠) المكمم : الذى خرج طلعه .

وتخرج قصيدة ابن لقيم من الإطار المحلى الذى يتحدث عن ذل اليهود بعد جلائهم عن المدينة ، حيث أحلَّهم بأرض غربة ، ويغير عشائرهم ، يقيلون فى ظل أشجار العضاة المحرقة ، وأصبح نصيبهم الأراضى الوعرة بعد أن كانوا بالأرض ذات النخل ، ويرسل إلى غطفان حلفاء يهود رسالة إنذار خطيرة .

فإن يك ظنى صادقًا بمحمد ... تروا خيله بين الصلا [(١)] ويرمرم [(٢)]
يؤم بها عمرو بن بُهشة [(٣)] إنهم ... عدوٌ وما حى [(٤)] صديق كمجرم

وهذا الخيل

عليهن أبطال مساعير [(٥)] فى الوغى ... يهزون أطراف الوشيج المقوَّم [(٦)]
وكل رقيق الشفرتين [(٧)] مهنَّدِ ... تورِّثن من أذمان عاد وجرهم [(٨)]

ثم ينتقل من غطفان العدو اللدود للإسلام إلى قريش العدو الألد يحذره ، وينذره أن يكون مصيره مصير اليهود من بنى النضير .

فمن مبلغ عنى قريشًا رسالة ... فهل بعدهم فى المجد من متكرم
بأن أخاكم فاعلمُنَّ محمدًا ... تليد [(٩)] الندى [(١٠)] بين الحجون وزمزم
فدينوا له بالحق تجسم أموركم ... وتسموا من الدنيا إلى كل معظم

وهو النذير لقريش أن خيله سوف تتجاوز الصلا ويرمرم عند غطفان إلى الحجون وزمزم فى مكة ، وذلك بعد ذل قادة اليهود بنى النضير ، وينقلب بعد هذا الإنذار العسكرى المبكر إلى داعية لهذا الدين الجديد ، والنبى المصطفى عليه الصلاة والسلام .

نبى تلاقته من الله رحمة ... ولا تسألوه أمر غيب مرجم [(١١)]
فقد كان فى بدر لعمرى آية ... لكم يا قريشًا والقليب الملمَّم [(١٢)]

---

(١) الصلا : موضع .
(٢) يرمرم : موضع كذلك .
(٣) عمرو بن بُهشة : قال ابن هشام : من غطفان
(٤) الحى : القبيلة .
(٥) مساعير : يسعرون الحرب ويهيجونها .
(٦) الوشيج المقوم : الرماح .
(٧) رقيق الشفرتين : السيوف .
(٨) جرهم : قبيلة قديمة كانت تقطن مكة .
(٩) التليد : القديم .
(١٠) الندى : الكرم .
(١١) المرجم : المظنون .
(١٢) الملمَّم : المجموع .

غـداة أتى فى الخـزرجـيـة عـامـدًا إليـكم مـطيـــعًا للـعظـيم المـكرَّم
مـعـانًا بروح القـدس ينكى[1] عـدوه رسـولاً من الرحـمـن حـقًا بمعلم [2]
أرى أمـــره يزداد فى كـل مـــوطن علوًا لأمـر حـمَّه الله [3] مـحكم [4]

إن الإسلام يملأ عليه كيانه وقلبه ، وحـرصه على هدى قريش أكبر بكثير من حرصه على هلاكها ، وها هو يذكـرها بأيام الله الخالدة فى بدر حيث ثوى قادتهم فى قليبـه، وروح القدس جبريل يقـاتل مع المسلمين ، وهذا القرآن المتلو صـباح مساء والموحى به من عند الله،أو ليس علو أمر رسول الله ﷺ دليل صدق بعثته، ويقين نبوءته ؟

**وعلى بن أبى طالب :**

الذى نشهد له فى كل موقعة مقطوعة ، على احتمال ضعف نسبتها إليه ، قال ابن إســحاق: وقال عـلى بن أبى طالب يذكر إجـلاء بنى النضيـر وقتل كـعب بن الأشرف .

قال ابن هشام : قالها رجل من المسلمين غـير على بن أبى طالب فيما ذكر لى بعض أهل العلم بالشعر ، ولم أر أحدًا منهم يعرفها لعلى [5] .

ولا يعنينا كثيرًا أن تكون لعلى ﷺ أو لغيره بمقدار مـا يعنينا أنها قيلت بهذه المناسبـة التى استـجاشت مشـاعر المسلمـين ، وغاب من خلالهـا الشعـر الجاهلى ومعانيه كلها لتـبرز حلة قشيبة إسلامية خالصـة ، وانتصار المسلمين ، وجلاء بنى النضير له مدلول ضخم أكبر من مدلول انتـصار المسلمين على قريش ، فاليهود هم الأعـداء الفكريون للإسلام ، هم الذيـن يزعمـون أن لهم وراثة الأرض ، وأنهم شعب الله المختار ، فـهزيمتهم تعنى اندحار مقولتـهم : إنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأن محمدًا غير حق ، ولهذا جـاءت هذه المقطوعة حوارًا عقديًا بحتًا ، على خط أختها القصيدة السابقة :

عــرفـت ومن يعـــتـدل يعـــرف وأيقـنت حـــقًا ولـم أصـــدف [6]

(١) ينكى عدوه : يبالغ فى ضرره .
(٢) المَعْلم : الموضع المرتفع المشرف .
(٣) حمَّه الله : قدَّره .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ٢٧٣ ـ ٢٧٥ .
(٥) المصدر نفسه ٢٧٥ .
(٦) لم أصدِف : لم أُعرِض عن الحق .

عن الكلم [١] المحكم اللاء [٢] من ... لدى الله ذى الرأفة [٣] الأرأف
رسائل تدرس فى المؤمنين ... بهنَّ اصطفى أحمدَ المصطفى [٤]
فأصبح أحمد فينا عزيزاً ... عزيز المقامة والموقف

ومن المعركة الفكرية إلى المعركة المادية:

فيا أيها الموعدوه سَفَاهًا ... ولم يأت جوراً ولم يعنف
ألستم تخافون أدنى العذاب ... وما آمن الله كالأخوف
وأن تُصرعوا تحت أسيافه ... كمصرع كعب أبى الأشرف
غداة رأى الله طغيانه ... وأعرض كالجمل الأجنف
فأنزل جبريل فى قتله ... بوحى إلى عبده ملطف
فدس الرسول رسولاً له ... بأبيض ذى هبّة [٥] مرهف
فبانت عيون له معولات [٦] ... متى ينعَ [٧] كعب لها نذرف
وقلن لأحمد ذرنا قليلاً ... فإنا من النوح لم نشتف

والملاحظ أنه نظم عادى لا يملك روحًا شاعرية عالية ، إلا فى هذه الصورة التالية التى تربط بين مقتل ابن الأشرف وجلاء بنى النضير ، وأنهم إنما استأذنوا بالاستمرار بالبقاء بعد مقتل كعب من أجل أن يتموا نياحتهم عليه، وأنهى رسول الله ﷺ هذا الإذن بإجلائهم.

فخلاهم ثم قال اظعنوا [٨] ... دُحوراً [٩] على رغم آنف [١٠]
وأجلى النضير إلى غربة ... وكانوا بدار ذوى زخرف
إلى أذرعات [١١] رُدافى [١٢] وهم ... على كل ذى دبر أعجف [١٣]

ونرجح أن هذه القصيدة ليست لعلى رضي الله عنه ، فهى أدنى من مستواه فصاحة

---

(١) الكلِم : كلام الله تعالى : القرآن.
(٢) اللاء : بمعنى الذى .
(٣) ذى الرأفة : ذى الرحمة .
(٤) المصطفى :الله تعالى .
(٥) ذى هبة مرهف :سيف قاطع .
(٦) مُعولات : باكيات .
(٧) ينُع : يذكر خبر قتله .
(٨) اظعنوا : ارحلوا .
(٩) دحوراً : مهانين .
(١٠) على رغم الآنف : صاغرين مذلولين .
(١١) أذرعات : موضع بالشام .
(١٢) ردافًا : مرتدفين بعضهم عقب بعض .
(١٣) ذى دبر أعجف : جمل هزيل مجرَّح .

وبلاغة ونصاعة بيان ، لكنها دخلت فى شعر النقائض حيث تلقفها سماك اليهودى ليرد عليها بنقيضة مقابلة.

إن تفخروا فهو فخر لكم بمقتل كعب أبى الأشرف
غداة غدوتم على حتفه ولم يأت غدرًا ولم يخلف

وكذب سماك وأشر ، فهو الذى أعلن خيانته ، وانضمامه لمعسكر قريش ضد المسلمين .

فعلَّ الليالى وصرف الدهور يديل من العادل المنصف (١)
بقتل النضير وأحلافها وعقر النخيل ولم تقطف
فإن لا أمت نأتكم بالقنا وكل حسام معًا مرهف
بكف كمىء (٢) به يحتمى متى يلق قرنًا له يتلف
مع القوم صخر وأشياعه إذا غاور القوم لم يضعف
كليث بترج (٣) حمى غيلة (٤) أخى غابة هاصر (٥) أجوف (٦) (٧)

ومستوى القصيدة ونقيضتها واحد ، فلا تجديد فى الأسلوب أو إبداع فى العرض، إنما هو وصف لما تم نظمًا دون نثر ، والعودة إلى التهديد بالحرب بجيش مدجج بالرماح والسيوف والأبطال التى تقارع الأبطال ، لكن المعنى الجديد هنا هو الإشارة إلى أن عدو عدوك صديقك ، وبشكل طبيعى سيكونون حلفاء قريش وزعيمها صخر بن حرب أبى سفيان حيث يوقف العرض وآلة التصوير عنده ،فهو الليث الهزبر الذى يحمى عرينه،ويذود عن غابته، وهو الهاصر الذى يكسر فريسته إذا أخذها ، وهو عظيم الجوف فى حرص على ابتلاع خصومه والإجهاز عليهم .

**فارس الساحة كعب بن مالك :**

وقال كعب بن مالك يذكر إجلاء بنى النضير ، وقتل كعب بن الأشرف .

---

(١) العادل المنصف : يقصد به رسول الله ﷺ ، يعرض بعدله وإنصافه .
(٢) الكمىء : الشجاع .
(٣) ترج : موطن تنسب إليه الأسود .
(٤) غيلة : أجمة الأسود .
(٥) الهاصر : الذى يكسر فريسته .
(٦) الأجوف : العظيم الجوف .
(٧) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ٢٧٥ ـ ٢٧٨ .

لقد خزيت بغدرتها الحبور [1] ... كذاك الدهر ذو صرف يدور
وذلك أنهم كفروا برب ... عزيز أمره أمر كبير
وقد أوتوا معًا فهمًا وعلمًا ... وجاءهم من الله النذير
نذير صادق أدَّى كتابًا ... وآيات مبيّنة تنير
فقالوا ما أتيت بأمر صدق ... وأنت بمنكر منا جدير [2]
فقال : بلى لقد أديت حقًّا ... يصدّقنى به الفهم الخبير
فمن يتبعه يُهد لكل رشد ... ومن يكفر به يُجز الكفور
فلما أشربوا غدرًا وكفرًا ... وحاد [3] بهم عن الحق النفور
أرى الله النبى برأى صدق ... وكان الله يحكم لا يجور
فأيده وسلَّطه عليهم ... وكان نصيره نعم النصير

والملاحظ أن القصائد معظمها تنحى نحو التوجيه الدينى ، والحوار الفكرى ، لأن الصراع العقائدى بين اليهود والمسلمين قد أخذ مداه ، وبعد أن كانوا هم الذين يبشرون الناس بمحمد ﷺ وهجرته إليهم صاروا هم الذين يكذبونه ويزعمون أنه ليس هو النبى المرسل ، فلا بد إذن أن تدحر مقولاتهم الفكرية ، وكانوا هم المسيطرين على الساحة العربية فى العلم ، وهم الذين أشاعوا فرية تكذيب محمد فيها ، ومن أجل ذلك كان دور الشعر بليغًا فى دحر هذه الادعاءات ، فجاءت كما رأينا قصيدة كعب رضي الله عنه فى أكثر من نصفها فى تفنيد مزاعم أهل الكتاب ، وأن الحرب التى تمت لهم هى بأمر الله الذى أراد أن يعاقبهم لكتمانهم الحق وجحودهم الرسالة والرسول ، وكان كعب بن الأشرف كما رأينا سيدهم وحبرهم ، وسبق أن ذكرت أبيات كعب بن مالك فى مقتل كعب بن الأشرف وهى جزء من هذه القصيدة .

فغودر منهم كعب صريعًا ... فذلَّت بعد مصرعه النضير
على الكفين ثمَّ وقد علته ... بأيدينا مشهرة ذكور
بأمر محمد إذ دسَّ ليلاً ... إلى كعب أخا كعب يسير
فما كره فأنزله بمكر ... ومحمود أخو ثقة جسور

(1) الحبور : جمع حبر ، وهو العالم .
(2) جدير : حقيق .
(3) حاد بهم : مال بهم .

وقد سبق أن تناولنا مقتل كعب وشرح هذه الأبيات من قبل لنتابع مع كعب حديثه عنهم ، وقد تم جلاؤهم عن المدينة ، كما ذكر القرآن الكريم : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) ﴾ [ الحشر ] .

فإن كانت هذه الآيات للصف الداخلى من المؤمنين أما القصائد فهى للعرب المشركين خارج المدينة ، تبرز المعركة بين الفريقين .

فتلك بنو النضير بدار سوء ... أبارهم [1] بما اجترموا [2] المبير [3]

غداة أتاهم فى الزحف رهواً [4] ... رسول الله وهو بهم بصير

وغسان الحماة [5] موازروه [6] ... على الأعداء وهو لهم وزير

فقال السلْمَ ويحكم فصدّوا ... وحالف أمرهم كذب وزور

فذاقا غبَّ [7] أمرهم وبالاً [8] ... لكل ثلاثة منهم بعير

وأجلوا عامدين لقينقاعٍ ... وغودر منهم نخل ودور [9]

وتكاد تكون هذه الأبيات الثلاثة فقط هى التى تصدق مغادرة اليهود وجلاءهم عن المدينة حيث يعتقب كل ثلاثة منهم بعيراً واحداً ، ومضوا لأذرعات حيث أجلى قبلهم بنو قينقاع ، وخلوا خلفهم النخيل والدور التى لم تخرب بعد .

ولم يكن فى ساحة اليهود إلا سمّاك الذى عارض كعبًا بقصيدته هذه :

أرقت وضافنى هم كبير ... بليل غيره ليل قصير

أرى الأحبار تنكره جميعًا ... وكلهم له علم خبير

وكانوا الدارسين لكم علم ... به التوراة تنطق والزبور

(١) أبارهم : أهلكهم .

(٢) اجترموا : أجرموا وكسبوا .

(٣) المبير : هو الله تعالى هنا .

(٤) الرهو : مشى فى سكون .

(٥) غسان الحماة : كناية عن الأوس والخزرج .

(٦) موازروه : مساعدوه ونصراؤه .

(٧) غبَّ أمرهم : عاقبة أمرهم .

(٨) وبالاً : نكالاً وثقلاً .

(٩) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ٢٧٨ ـ ٢٨٠ .

وكانت هذه الفقرة ردًا على الحرب الفكرية ، أما مقتل كعب الذى ذبحهم وذبح قيادتهم فقال فيه :

قتلتم سيد الأحبار كعبًا ... وقدمًا كان يأمن من يجُير
تدلى نحو محمود أخيه ... ومحمود سريرته الفجور
فغادره كأن دمًا نجيعًا [1] ... يسيل على مدارعه [2] عبير [3]
فقد وأبيكم وأبى جميعًا ... أصيبت إذا أصيب به النضير

ويمر على الجلاء والاستسلام مرورًا عابرًا ليعود معرضًا بالثأر من المسلمين .

فإن نسلم لكم نترك رجالاً ... بكعب حولهم طير تدور
كأنهم عتائر [4] يوم عيد ... تذبح وهى ليس لها نكير
ببيض [5] لا تليق [6] لهن عظمًا ... صوافى الحد [7] أكثرها ذكور [8]
كما لاقيتم من بأس صخر [9] ... بأحد حيث ليس لكم بصير

وليس له من مجد يعتز به إلا صخر بن حرب أبا سفيان وما أوقع بالمسلمين بأحد من محنة .

## النقائض الأربع :

وتتسع رقعة المعركة حتى لتتنادى قبائل العرب لتشارك فيها ، فهذا عباس بن مرداس شاعر بنى سُليم يفتح جبهة جديدة على المسلمين ، معلنًا تحالفه مع بنى النضير ، وحزنه على ما ألم بهم ، وسبق أن رأينا قبائل من سليم ، وكيف انضمت إلى عامر بن الطفيل، وقتلت السبعين من الأنصار فى بئر معونة .

قال عباس بن مرداس أخو بنى سُليم يمتدح رجال بنى النضير :

---

(1) النجيع : الدم الطرى .

(2) مدارعه : بالدال جمع مدرعة ، وهى ثوب الصوف ، ومن قرأها مذارعه : أى يداه ورجلاه .

(3) العبير : الزعفران .

(4) عتائر : جمع عتيرة ، وهى الذبيحة .

(5) البيض : السيوف .

(6) لا تليق : هنا لا تبقى .

(7) صوافى الحدّ : حدّها شديد .

(8) ذكور : المذكر من السيف ذو الماء .

(9) صخر : أبو سفيان بن حرب

لو أنَّ أهل الدار لم يتصدعوا (١) رأيت خلال الدار ملهى وملعبا
فإنك عمرى هل أريك ظعائنًا (٢) سلكن على ركن الشطاة (٣) فتيأبا (٤)
عليهن عين (٥) من ظباء تبالة (٦) أوانس يصبين (٧) الحليم المجربا
إذا جاء باغى الخير قلن فجاءة له بوجوه كالدنانير مرحبا
وأهلاً فلا ممنوع خير طلبته ولا أنت تخشى عندنا أن تؤنبا (٨)
فلا تحسبنّى كنت مولى ابن مشكم(٩) سلام ولا مولى حيى بن أخطبا (١٠)

ونلاحظ هنا ارتفاع المستوى الشعرى فعباس بن مرداس من فحول شعراء الجاهلية ، فهو يبدع فى عرض صورة فنية لهؤلاء الذين طردوا من المدينة ، فيقف بنا لاستقبالهم ، وقد مضت بهم الظعائن ، لكن على ظهورها حور عين من ظباء تبالة ، توقع الصبابة والفتنة فى قلب الحليم المجرب ، وفتنتهن فى وجههن المشرق أنهن لا يمنعن يد لامس، يرحبن بعاشقيهم ويستقبلن المتيم بهن ، ثم يعود ليؤكد أنه ليس فردًا من يهود أو مولى لأحد زعمائهم سلام بن مشكم أو حيى بن أخطب ، إنما هو حليف عربى لهم سَلبت غيدهن عقله ولبَّه .

فيبرز له شاعر مغمور نسمعه لأول مرة وهو خوات بن جبير ﷺ يغمز من قناته ، ويعيره بمديح يهود وظبائهم قائلا له :

تبكى على قتلى يهود وقد ترى من الشجو (١١) لو تبكى أحب وأقربا
فهلاً على قتلى ببطن أرينق (١٢) بكيت ولم تعوِل(١٣) من الشجو مسهبا
إذا السلم دارت فى صديق رددتها وفى الدين صداداً وفى الحرب ثعلبا (١٤)

وبعد أن يعيره ببكائه على يهود ، يعيره بخذلان قومه العرب ، ونصر اليهود عليهم :

---

(١) لو أن أهل الدار لم يتصدّعوا : لم يتفرقوا .
(٢) الظعائن : النساء فى الهوادج .
(٣) الشطاة : موضع .
(٤) تيأب : موضع كذلك .
(٥) العين :جمع عيناء وهو الكبير العين .
(٦) تبالة : موضع .
(٧) يصبين : يذهبن العقل .
(٨) تؤنب : تلام.
(٩) مولى ابن مشكم : حليف وموال .
(١٠) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ٢٨١ - ٢٨٢ .
(١١) الشجو : الحزن .
(١٢) أرينق : موضع أو واد ببنى سليم .
(١٣) لم تعول : لم ترفع صوتك بالبكاء .
(١٤) فى الحرب ثعلب : كثير الروغان لا يصدق فيها .

عمدت إلى قَدرٍ لقومك تبتغى لهم شبهًا كيما تعز وتغلبا
فإنك لما أن كلفت [1] تمدحًا لمن كان عيبًا مدحه وتكذُبا
رحلت بأمر كنت أهلاً لمثله ولم تُلفِ فيهم قائلاً لك مرحبًا

وإذا نبذك اليهود فهلا جعلت مديحك لقومك الملوك أبناء الملوك .

فهلا إلى قوم ملوك مدحتهم تبنوا من العز المؤثل[2] منصبا [3]
إلى معشر صاروا ملوكًا وكُرّموا ولم يلف فيهم طالب العرف مجدبا[4]
أولئك أحرى من يهود بمدحة تراهم وفيهم عزة المجد تُرتبا [5]

فالأنصار فرع من دوحة غسان الذين صاروا ملوك الشام ، وها هم الآن ملوك المدينة ،فالمجد أثيل مؤثل ، وأصيل مؤصل عندهم ، وليس طارئًا عليهم .

وينبرى عباس بن مرداس صاحب اللسان الشهير ليعيد الكرة على خوات بن جبير فى الذود عن يهود والتغنى بأمجادهم وكرمهم ، فراح يهاجم خواتًا بقوله :

هجوت صريح[6] الكاهنين[7] وفيكم لهم نعم كانت من الدهر ترتبا
أولئك أحرى [8] لو بكيت عليهم وقومك لو أدوا من الحق موجبا
من الشكر إن الشكر خير مغبة [9] وأوفق فعلاً للذى كان أصوبا
فكنت كمن أمسى يُقطّع رأسه ليبلغ عزًا كان فيه مركبا

فاليهود أولو نعمة ويد عند الأوس والخزرج،وما كان جزاؤهم الطرد والإهانة بعد تلك الأيادى البيضاء لهم عند المسلمين ، فهم أحرى بالبكاء عليهم ، وشكر معروفهم ، وهو الصواب بعينه،أما أن تأتى لتعاقب الأمجاد على كرمهم ، فأنت كمن يقطع رأس غيره ،ليركبها لنفسه،ليبلغ مجد هؤلاء ثم يعود ليحث خواتًا على

---

(١) كلفت تمدحًا : الكلف : زيادة الحب . (٢) المؤثل : القديم .
(٣) المَنصب : منزلة الشرف والحسب .
(٤) مجدب : من الجدب وهو القحط وقلة الخير .
(٥) ترتبًا : ثابتًا . (٦) صريح الكاهنين : ثابت النسب وأصيله .
(٧) الكاهنين : قبيلان من يهود المدينة يزعمون أنهم من بنى هارون بن عمران عليه الصلاة والسلام.
(٨) أحرى : أحق وأولى . (٩) خير مغبة : أى خير ما يُستقبل بعد .

العودة إلى الحق ، والاعتراف بالفضل الصريح لبنى إسرائيل أولاد موسى وهارون .

فابك بنى هارون واذكر فعالهم وقتلهم للجوع إذ كنت مجدبا
أخوات أذر الدمع بالدمع وابكهم وأعرض من المكروه منهم ونكّبا [1]
فإنك لو لاقيتهم فى ديارهم لألفيت عما قد تقول منكّبا
سراع إلى العليا كِرام لدى الوغى يقال لباغى الخير أهلاً ومرحبا

لقد كانت بنو النضير أعز يهود ، وها هم يغادرون المدينة .

والنساء فى الهوادج عليهن الحرير والديباج ، فجعلوا يمرون قطاراً إثر قطار ، فحُملوا على ستمائة بعير ، يقول رسول الله ﷺ : « هؤلاء فى قومهم بمنزلة بنى المغيرة من قريش » . . ومروا يضربون الدفوف ويزمرون بالمزامير ، وعلى النساء المعصفرات حلى الذهب يظهرن تجلداً .

ولا عجب أن تفتن نساء بنى النضير عباس بن مرداس ، فهذا وصف لهن من أبى سعيد الخدرى يقول :

لقد مرَّ يومئذ نساء من نسائهم فى تلك الهوادج قد سفرن عن الوجوه ، لعلى لم أر مثل جمالهن قط ، لقد رأيت الشقراء بنت كنانة يومئذ كأنها لؤلؤة غواص ، والرواع بنت عمير مثل الشمس بازغة ، فى أيديهن أسورة الذهب ، الدر فى رقابهن .

وكانوا حلفاء الأوس ضد الخزرج وخوات بن جبير من سادات الأوس .

ويتقدم كعب بن مالك ﷺ ليختم هذه المتناقضات الأربع قائلاً :

لعمرى لقد حكّت رحى الحرب بعدما أطارت لؤيًا [2] قبل شرقًا ومغربا
بقية آل الكاهنين [3] وعزُّها وعاد ذليلاً بعدما كان أغلبا [4]
فطاح [5] سلام وابن سعية عنوة [6] وقيد ذليلاً للمنايا ابن أخطبا

---

(١) نكّب : عرّج عنهم ودع هجاءهم .
(٢) لؤى : كناية عن قريش .
(٣) آل الكاهنين : بنو النضير .
(٤) الأغلب : الشديد .
(٥) طاح : ذهب وهلك .
(٦) العنوة : القهر والذلة .

وأجلب يبــغى العــز والذل يبــتــغى　　　خــلاف يديـه مـا جنى حـين أجـلبـا

فقـد فقدوا عـزهم جزاء غـدرهم وخيانتـهم ، وقد جلبـوا الكتائب لمواجـهة المسلمين يبتغون العزة والنصرة عليهم فأذلهم الله وأذل رأسهم حيى بن أخطب .

كتارك سـهل الأرض والحزن [1] همه　　　وقد كان ذا فى الناس أجدى[2] وأصعبا

وسـاس وغـزال وقـد صليا بهـا　　　ومـا غـيّبـا عن ذاك فـيـمن تغـيّبا

وعوف بن سلمى وابن عـوف كلاهما　　　وكـعب رئيس القوم حـان [3] وخُيّبا

فـبـعـدًا وسحـقًا للنضـيـر ومـثلهـا　　　إن أعقب فتح أو إن الله أعقبا [4] [5]

وها هو يذكر كل قياداتهم وما جـمعت وجلبت وكيف باءت بالفشل الذريع ، ورحلت مع من رحل .

**غزوة بدر الآخرة :**

قال ابن إسـحاق : ثم خـرج فى شعبـان إلى بدر لميعاد أبـى سفيـان ، حتى نزله[6] .

قال ابن هشام : واستعمل على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول الأنصارى .

قال ابن إسحاق : فأقام عليه ثمانى ليـالٍ ينتظر أبا سفيان ، وخرج أبو سفيان فى أهل مكة حتى نزل مـجنة من ناحية الظهران ، وبعض الناس يـقول : قد بلغ عُسفان ، ثم بدا له فى الرجوع . فقال: يا معشر قريش ، إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعـون فيه الشجـر، وتشربون فيه اللبن ، وإن عـامكم هذا عام جدب، وإنى راجع فارجعوا ، فرجع الناس فسـماهم أهل مكة جيش السويق ،يقولون :

---

(١) الحزن : ما علا من الأرض .　　　(٢) أجدى : لم ينجح فى سعيه .

(٣) حان : هلك .

(٤) إن الله أعقبا : جاء بالنصر عليه ، ومثل النضير سليم أو بقية اليهود .

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٢ / ٢٨٣ ـ ٢٨٤ .

(٦) يذكر الواقدى أن الغزوة كانت فى أول ذى القعدة ( وكانت بدر الصفـراء مجمعًا يجتمع فيه العرب ، وسوقًا تقوم لهلال ذى القعدة إلى ثمانى ليالِ خلون منه ، فإذا مضت ثمانى ليالِ تفرَّق الناس إلى بلادهم ) المغازى ١ / ٣٨٤ .

إنما خرجتم تشربون السويق .

وأقام رسول الله ﷺ على بدر ينتظر أبا سفيان لميعاده ، فأتاه مخشى بن عمرو الضمرى ، وهو الذى كان وادعه على بنى ضمرة فى غزوة ودان ، فقال : يا محمد أجئت للقاء قريش ، على هذا الماء ، قال : « نعم يا أخا بنى ضمرة ، وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ما كان بيننا وبينك ، ثم جالدناك حتى يحكم الله بيننا وبينك » . قال : لا والله يا محمد ، مالنا بذلك منك حاجة .

فأقام رسول الله ﷺ ينتظر أبا سفيان ، فمرَّ به معبد بن أبى معبد الخزاعى ، فقال وقد رأى مكان رسول الله ﷺ وناقته تهوى به :

قد نفرت من رُفُقَتى محمد ... وعجوة [1] من يثرب كالعنجد [2]
تهوى [3] على دين[4] أبيها الأتلد [5] ... قد جعلت ماء قديد [6] موعدى
وماء ضجنان [7] لها ضحى الغد

لقد استعاد المسلمون اعتبارهم بعد غزوة بنى النضير ، ولا تزال العرب تترقب الموعد الجديد بين قريش ومحمد ﷺ فى موسم بدر الذى يجتمع فيه العرب فى سوقها من كل صوب فى شهر شعبان ، أو ذى القعدة على رأى الواقدى [8] .

أما الواقدى ، فقد ساق لنا سبب هذه الأبيات التى قيلت فيها:

وسمع بذلك معبد بن أبى معبد الخزاعى فانطلق سريعًا وكان مقيمًا ثمانية أيام، وقد رأى أهل الموسم ، ورأى أصحاب رسول الله ﷺ ، وسمع كلام مخشى ، فانطلق حتى قدم مكة ، فكان أول من قدم بخبر موسم بدر ، فسألوه ، فأخبرهم بكثرة أصحاب محمد ، وأنهم أهل ذلك الموسم ، وما سمع من قول رسول الله ﷺ للضمرى ، وقال : وافى محمد فى ألفين من أصحابه ، وأقاموا ثمانية أيام حتى تصدَّع أهل الموسم ، فقال صفوان بن أمية لأبى سفيان : قد والله نهيتك يومئذ أن تعد القوم ، وقد اجترؤوا علينا ، ورأوا أنا قد أخلفناهم ، وإنما

---

(١) العجوة : ضرب من التمر.
(٢) العنجد : حب الزبيب .
(٣) تهوى : تسرع .
(٤) الدين : الدأب والعادة .
(٥) الأتلد : القديم .
(٦) قديد : موضع .
(٧) ضجنان : موضع أيضًا .
(٨) المغازى للواقدى ١ / ٣٨٨ ـ ٣٨٩ .

خلّفنا الضعف عنهم ) . فأخذوا فى الكيد والنفقة فى قتال رسول الله ﷺ واستجلبوا من حولهم من العرب ، وجمعوا الأموال العظام ، وضربوا البعث على أهل مكة ، فلم يترك أحد منهم إلا أن يأتى بما قلّ أو كثر ، فلم يقبل من أحد منهم أقل من أوقية لغزوة الخندق .

وقال معبد : لقد حملنى ما رأيت أن قلت شعراً . .[1].

وذكر الأبيات السابقة التى تشير إلى ضخامة الجيش النبوى ، فهذه ناقته تهوى به قاصدة قُديد وضجنان ، تقطع المراحل الشاسعة فى أسرع زمن خوفًا من هذا الجيش ، وهذا الجيش قد تعبأ أعظم تعبئة ،فالإبل ممونة بعجوة يثرب التى تساعدها على مشاق الصحراء ، ولظى الهاجرة .

**القذائف المتبادلة :**

وكان هذا إثر غزوة بدر الآخرة .

قد تخلّف أبو سفيان عن موعده ، ولم يف بتحديه ،وجاء المسلمون للحرب والمواجهة ، ونكثت قريش عن الحضور ، فأرسل عبد الله بن رواحة هذه القذائف الموجهة لأبى سفيان بعد تخلفه الذى شهده العرب فى الموسم.

قال ابن إسحاق : وقال عبد الله بن رواحة فى ذلك .

قال ابن هشام : أنشدنيها أبو زيد الأنصارى لكعب بن مالك [2] .

وعدنا أبا سفيان بدراً فلم نجد ... لميعاده صدقًا وما كان وافيا

فأقسم لو وافيتنا فلقيتنا ... لأُبت ذميمًا [3] وافتقدت[4] المواليا [5]

تركنا بها أوصال عتبة وابنه ... وعمراً أبا جهل تركناه ثاويًا [6]

وأن تشهر بقائد عربى بالنكث بوعده هو نحر له ، فكيف إذا ارتبط هذا النكث بالجبن والخوف ؟ ! وهى مناسبة للافتخار بنصر بدر فى بدر ، ليعود ،

---

(1) المغازى للواقدى ١ / ٣٨٨ ـ ٣٨٩ .

(2) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ٢٩٤ .

(3) قوله : لأبت دميمًا : رجعت .

(4) افتقدت : هنا معناه فقدت .

(5) الموالى : هنا القرابة .

(6) الثاوى : المقيم ، وحيث كان الموعد فى بدر ، فكانت الإشارة لمقتل عتبة بن ربيعة وابنه فى غزوة بدر ، وكذلك مقتل عمرو بن هشام أبى جهل .

فينطلق من حمى العقيدة الخالدة ، فلا تضيع لمعركة فى متاهات الجاهلية ، وأيام العرب ، ولابد أن يفقه العرب أنهم أمام حرب عقيدة لا حرب ثارات .

عصيتم رسول الله أف [1] لدينكم — وأمركم السيىء [2] الذى كان غاويا
فإنى وإن عنفتمونى [3] لقائل — فدى لرسول الله أهلى وماليا
أطعناه لم نعدله [4] فينا بغيره — شهابًا لنا فى ظلمة الليل هاديا [5]

والدليل الدامغ على أن المعركة عقيدة هى أن فخر الأنصار بمحمد رسول الله ﷺ القرشى الهاشمى ، حيث يعيّر قريشًا بعصيانها له واتباعها غوايتها فى حربه ، أما محمد بالنسبة للأوس والخزرج ، اليمنيين القحطانيين فهو الحياة ، وهو الأهل وهو الوجود .

فإنى وإن عنفتمونى لقائل — فدىً لرسول الله أهلى وماليا

وانتهى عهد العصبيات المقيتة ، والانتصار للقبيلة والعشيرة ، والثأر للنفس والقوم، انتهى عهد ذلك كله عند المسلمين ، وودعوه فيما ودعوه من ظلمات الجاهلية بعد أن جاء الشهاب الساطع فى ظلمة الليل الحالكة فبدّد تلك الظلمات ، ومعاذ الله أن ندع لنا قائدًا نتبعه ونطيعه غير هذا الشهاب الهادى للسبيل .

**﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ (٥٣) ﴾** [ الشورى] .

ونرجح أن القصيدة لابن رواحة ؛ لأنه هو أكثر الفرسان الإسلاميين الثلاثة تفاعلاً مع المعانى الإسلامية ، وبعدًا عن النزعات الجاهلية والافتخار بقيمها فى شعره، ولا غرو فهو أحد النقباء الاثنى عشر الذين قامت عليهم ركائز الدولة الإسلامية.

**بين حسان وأبى سفيان :**

ويأتى عبقرى الشعر حسان بن ثابت ليوظف هذا الحدث المهم فى تغيير

---

(١) أف : كلمة تقال عند تعذر الشىء .

(٢) السيئ : أراد السيِّئ فخفف كما يقال هيِّن وهين .

(٣) عنفتمونى : لمتمونى .

(٤) لم نعدِله : لم نسوّه مع غيره .

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ٢٩٤

الصورة كلها عن قريش ومحمد ﷺ ، ويغـزو قريشًا فى حجرها مهاجمًا إياها بكل ما ألهم من إبداع ، بحـيث يقدم الرسول ﷺ سـيد الساحـة العربية ، وقـد غدت طرق الحجاز كلها بيديه ، ولتبحث قريش عن مخرج من هذا الخِناق .

دعوا فلجات [1] الشام قد حال دونها ... جلاد كأفواه المخاض [2] الأوارك [3]
بأيدى رجـال هاجـروا نحـو ربهم ... وأنصـاره حـقًا وأيدى الملائك
إذا سلكت للغور[4] من بطن عالجٍ [5] ... فـقـولا لهـا ليس الطريق هـنالك

عليكم يا قريش أن تصرفوا النظر عن تجارتكم مع الشام ، فقد انتهى الأمر ، فأمامكم أبطال من المقاتلين مـثل فحولة الإبل تقضم بأفواهها كل ما تجـد أمامها ، ولعل خير وصف لها ما وصفـها به أبو جهل ذات يوم ( والله ما هو إلا أن ضرب على بابى ، وسـمعت صـوته فملئت رعـبًا ، ثم خرجت إلـيه ، وإن فـوق رأسه لفحلاً من الإبل ما رأيـت مثل هامته [6] ، ولا قصرته[7] ،ولا أنيـابه قط ، والله لوأبيت لأكلنى[8] .

وممن هؤلاء الرجال ، إنه طراز لم تشـهد البشـرية مثيلاً له بعـد ، فهم أناس تعاقدوا مع الله خالق السموات والأرض ، وهاجروا إليه ، وآخرون رهنوا حياتهم على الموت معه ، وفوق هؤلاء وهؤلاء ملائكـة السموات العلا ، هم الذين سدوا طريق تجارتكم للشام،وأنا لكم ناصح أمين ،فإن سلكت طريق الغور نحو الشام ، فـأخبـروها : ليس هذا طريقك ، فـهو طـريق محـروس بالملائكة والربانيـين من الأرض .

أقمنا على الرسّ [9] النزوع [10] ثمانيًا ... بأرعن [11] جرارٍ عـريض [12] المبارك
بكل كمـيت جوزُه [13] نصف خلقـه ... وقب[14] طوال مشرفات الحوارك [15]

(١) فلجات الشام : الفلجات : الأودية .
(٢) المخاض : الحوامل من الإبل .
(٣) الأوارك : التى ترعى الأراك .
(٤) الغور : المنخفض من الأرض .
(٥) عالج : اسم مكان فيه رمل كثير .
(٦) الهامة : الرأس .
(٧) القصرة : أصل العنق .
(٨) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٢ / ٣٤ .
(٩) الرس : البئر .
(١٠) النزوع : التى يخرج ماؤها بالأيدى .
(١١) الأرعن : الجيش الكثير الذى له فضول .
(١٢) عريض : متسع .
(١٣) جوزه : وسطه ، وأراد بطنه .
(١٤) قُبّ : جمع أقب ، وهو الضامر .
(١٥) الحوارك: جمع حارك وهو أعلى الكتفين .

ترى العرفج العامى [1] تذرى أصوله مناسم [2] خفاف المطى الرواتك [3]

لقد أقمنا على بئر بدر ثمانية أيام ، ولعلك يا أبا سفيان تعرف من كان هناك ، أقمنا بجيش جرار قد اتسعت مبارك إبله حتى ملأت الساح أما الخيل فبطنها نصف حلقها من الضمور ، طويلة المدى ، قوية الأكتاف ، ترعى العرفج فتلتهمه التهامًا رغم مرور العام عليه ، حتى تقلع أصوله وتطرحه ، وأخفاف المطى من الإبل هى التى تقتلعه لشدة حركتها واندفاعها وتطؤه بهيجانها .

فإن تلق فى تطوافنا والتماسنا فرات بن حيان يكن رهن هالك
وإن تلق قيس بن امرئ القيس بعده يُزد فى سواء لونه لون حالك [4]
فأبلغ أبا سفيان عنى رسالة من غرّ الرجال الصعالك [5]

وفرات بن حيان ، هو دليل العرب المشهور ، ولا دور له هنا أمام هذا الزحف، وقيس بن امرئ القيس ، سوف يلقى مصير أبيه لو حاول قطع هذه المفازات.

إنها رسالة موجهة إلى أبى سفيان بن حرب ، أو أبى سفيان بن الحارث ، فلا يغررك جمعك ، واعرف من تواجه .

ووصلت الرسالة أبا سفيان بن الحارث ، ابن عم رسول الله ﷺ وهو الشاعر الذى نشهده قد نزل إلى الساحة بعد ، وهو أحد الخمسة الكبار من شعراء مكة ، ولعله كان مؤثرًا الصمت من قبل ، أو أن أشعاره لم تصل إلينا ، ولم تنقلها لنا الرواة ، فكانت هذه الرسالة الجوابية العنيفة :

أحسان إنا يا ابن آكله الفغا [6] وجدك نغتال [7] الخروق كذلك
خرجنا وما تنجو اليعافير [8] بيننا ولو وألت [9] منا بشد مدارك [10]

---

(١) العامى : الذى مر عليه العام . (٢) المناسم : جمع منسم ، وهو طرف خف البعير .
(٣) الرواتك : المسرعة . (٤) الحالك : الشديد السواد .
(٥) الصعالك : جمع صعلوك ، والفقير .
(٦) ابن آكلة الفغا : الفغا غبرة تعلو التمر قبل أن يطيب ، وأراد أنهم أهل نخيل .
(٧) نغتال : نقتطع . (٨) اليعافير : جمع يعفور ، وهو ولد الظبية .
(٩) وألت : اعتصمت والتجأت . (١٠) المدارك : المتابع .

إذا مـا انبـعـثنا مـن مناخ حـسـبـتـه مدمَّن [1] أهل المـوسم[2] المتعارك[3]

وهكذا تقتضـى النقائض ، فقد راح يصف جمـعه ، كما كـان حسان يصف جمعه فى المقطع الأول ، فنحن لها ، لهذا الجيش الجرار الذى تفخر فيه ، ونحن نخترق كل هذه الكتائب المدججة بالسلاح ، وتحسب أنا لم نخرج للقائكم ، فأنت واهم لقد خرجنا بجيش يصغر أمامكم جيشه ، حتى أن الظباء سمعت وئيد جيشنا فراحت تختبئ بـالجبال فارة من زخفنا ، وحين نغادر المواقع التى نتـركها ، تحسب أن أهل الموسم جميعًا من العرب كانوا هنا يتعـاركون فيما بينهم ، أما إقامتك على بئر بدر التى أعلمتنا بها

أقـــمت عـلى الرس الـنزوع تريـدنا وتتـــركنا فى النخـل عند المدارك [4]
على الـزرع تمشى خـيـلنا وركــابنا فـمـا وطئت ألصـقتـه بالدكـادك [5]

تتحدث عن بئر بدر ، وتريدنا عليهـا ، وهل نسيت قبل عام نزولنا فى نخلكم حيث صرتم بمتـدارك يدنا ، حيث تمشى خيلنا وركابنا ، فسـوَّت الحشيش بالأرض من هولها وكثافتها ، حيث

أقـــمنا ثـلاثًا بيـن سلع وفـــارع بجـــرد الجـــيـــاد والمطـى الروامك
حـسـبتم جـلاد القـوم عند قـبـابهم كمأخـذكم بالعين [6] أرطال آنـك[7]

وهل تقـيســون ما نزل بكم يوم أحـد ، ونحن فى نحوركم بين سلـع وفارع بالجياد الجرد والمطى المسرعات ، وهل تحسبون جلاد القوم وقتلاهم مثل ربح المال والدر ، وشراد الأوانى والأثاث والمتاع

فـلا تبـعث الخـيل الجـيـاد وقل لهـا على نحو قـول المعصم المتـماسك [8]
سـعـدتم بهـا وغـيـركم كـان أهلهـا فـــوارس من أبناء فـــهـر بن مـــالك
فـــإنك لا فى هجـــرة إن ذكـــرتهـــا ولا حـــرمـــات الدين أنـــت بناسك[9]

---

(١) المدمَّن : مكان آثار الدواب والإبل .
(٢) أهل الموسم : جماعة الحجاج .
(٣) المتعارك : مكان ازدحام الناس .
(٤) المدارك : الأماكن القريبة .
(٥) الدكادك : رمل لين جمع دكداك .
(٦) العين : المال الحاضر .
(٧) الآنك : الأسرف وهو القزدير أو القصدير .
(٨) المعصم المتماسك : المستمسك والمعتصم بالشىء .
(٩) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٢ / ٣٥١ ـ ٣٥٢ .

وعلى طريقة حسان الذى نصح قريشًا أن تدع فلجات الشام ( وقولا لها : ليس الطريق هنالك ) ، استعمل أبو سفيان الإبداع فى الحرب النفسية بالطريقة نفسها أن يوفروا الخيل وجمعها عليهم ، فليسوا هم أهلها ، إنما أهلها أبناء فهر بن مالك ، ونجد أبا سفيان يضطر أن يرد ، ولو بكلمة واحدة على حرب العقيدة التى يشنها عليه حسان ، لكنه لم يصل إلى البراعة التى بلغها خصمه ، إنما اكتفى بنفى الهجرة والنسك والعبادة عنه ، وليدع الحديث عن المهاجرين وأنساكهم ، فإنما هو خزرجى خارج عن أهل الحرم .

لقد حرص أبو سفيان بن الحارث على أن يتجنب الهجوم على المهاجرين وعلى رسول الله ﷺ وعلى قومه ، وهم الذين يحاربونه ، إنما شدد فى هجومه على الأنصار قوم حسان .

ونحن نشهد أول مرة أبا سفيان ابن عم محمد ﷺ ينزل إلى ساحة المعركة ، ولم نشهده فى بدر ، فقد كان قد فر منها ورأى بعينه الملائكة ، وهو الذى قال لعمه أبى لهب:

والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاؤوا ، ويأسروننا كيف شاؤوا ، وايم الله ما لمت الناس ، لقينا رجالاً بيضًا على خيل بلق بين السماء والأرض ، والله ما تبقى شيئًا ،ولا يقوم لها شىء .

ونبحث عنه فى أحد ، فلا نعثر على خبر عنه فى خضم المعركة ، لا ندرى أحضرها أم لا ؟ ولهذا تأخر فى دخول المعركة الشعرية التى برز هنا فى بدر الموعد .

وإلى المعركة الكبرى معركة الخندق التى قلبت الموازين كلها ، لصالح الوجود الإسلامى ، والتى مثلت أعتى تجمع للمشركين فى الأرض العربية ضد الإسلام ، ونبحث عن الشعر ماذا يقول فى هذا المقام .

# الفصل الثالث
# الشعر فى غزوة الخندق

**قصة غزوة الخندق :**

لابد أن نتابع حيى بن أخطب زعيم بنى النضير الذى طرد وقومه من المدينة نتيجة خيانتهم وغدرهم .

( إنه كان من حديث الخندق أن نفرًا من اليهود منهم سلام بن أبى الحقيق النضرى، وحيى بن أخطب النضرى ، وكنانة بن أبى الحقيق النضرى ، وهوذة بن قيس الوائلى ، وأبو عمار الوائلى فى نفر من بنى النضير ، ونفر من بنى وائل ، وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ ، خرجوا حتى قدموا على قريش مكة ، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله ، . . . فلما قالوا ذلك لقريش سرَّهم ونشِطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ ، فاجتمعوا لذلك واتعدوا له ، ثم خرج أولئك النفر من يهود ، حتى جاؤوا غطفان ، من قيس عيلان ، فدعوهم إلى الحرب رسول الله ﷺ ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه،وأن قريشًا تابعوهم على ذلك ، فاجتمعوا معهم فيه .

قال ابن إسحاق : فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب ، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر فى بنى فزارة ، والحارث بن عوف بن أبى حارثة المرى فى بنى مرة ، ومسعر بن رخيلة . . بن أشجع بن رنث ابن غطفان فيمن تابعه من قومه من أشجع ، فلما سمع بهم رسول الله ﷺ ، وما أجمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة ، فعمل فيه رسول الله ﷺ ترغيبًا للمسلمين فى الأجر ، وعمل معه المسلمون فيه ، فدأب فيه ودأبوا ، وأبطأ عن رسول الله ﷺ وعن المسلمين فى عملهم ذلك رجال من المنافقين ، وجعلوا يورون بالضعيف من العمل ، ويتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن ، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التى لابد منها

يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ويستأذن فى اللحوق بحاجته ، فأذن له ، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله ، رغبة فى الخير، واحتسابًا له . . . )[1] .

### الرجز فى الخندق :

قال ابن إسحاق :

وعمل المسلمون فيه حتى أحكموه ، وارتجزوا فيه برجل من المسلمين يقال له جعيل سمّاه رسول الله ﷺ عمرًا . فقال :

سمّاه من بعد جعيل [2] عمرا  وكان للبائس يومًا ظهْرا [3]

فإذا مروا ( بعمرو ) قال رسول الله ﷺ : « عمرًا » وإذا مروا بظهر قال رسول الله ﷺ ) « ظهرًا » .

وعن حميد قال : سمعت أنسًا رضي الله عنه يقول : خرج رسول الله ﷺ ، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون فى غداة باردة ، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم،فلما رأى ما بهم من النصب والجوع [4] قال:اللهم إن العيش عيش الآخرة ، فاغفر للأنصار والمهاجرة ، فقالوا مجيبين له :

نحن الذين بايعوا محمدا  على الجهاد ما بقينا أبدا [5]

وقال أبو سعيد الخدرى : لكأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ ، وهو يحفر الخندق مع المسلمين والقوم يرتجزون ورسول الله ﷺ يقول :

هذا الحمال لا حمال خيبر  هذا أبر ربنا وأطهر [6]

وعن البراء رضي الله عنه قال : كان النبى ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتى أغمر بطنه ، أو اغبر بطنه ، يقول :

(١) السيرة النبوية لابن هشام مقتطفات ذ / ٣ / ٢٩٨ ـ ٣٠٢ .

(٢) جعيل : هو جعيل بن سراقة الضمرى ، وقد سماه رسول الله ﷺ (عمرًا) .

(٣) وكان للبائس يومًا ظهرًا : والظهر هنا القوة والمنعة ، أى كان النبى ﷺ ظهرًا وقوة للبؤساء والضعفاء .

(٤) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧ / ٣٩٢ ( ح ٤٠٦٩ ) .

(٥) المغازى للواقدى ٢ / ٤٤٩ .

(٦) المصدر نفسه ٤٤٨ .

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا ) (١)

وعند الحارث بن أبى أسامة من طريق سليمان التيمى عن أبى عثمان قال : ضرب النبى ﷺ فى الخندق ثم قال :

بسم الله وبه بدينا ولو عبدنا غيره شقينا
فحبذا ربًا وحبذا دينا

وعند الحارث بن أبى أسامة من مرسل طاوس زيادة فى هذا الرجز:

والعن عضلاً والقارة (٢) هم كلفونا ننقل الحجارة

والأول غير موزون ولعله كان : والعن إلهى عضلاً والقارة . وفى الطريق الثانية لأنس أنه قال ذلك جوابًا لقولهم : نحن الذين بايعوا محمدا . .وفيه أن فى إنشاد الشعر تنشيطًا فى العمل ، وبذلك جرت عادتهم فى الحرب ، وأكثر ما يستعملون فى ذلك الرجز (٣) .

هذا كله ما نقله لنا الشعر عن أجواء حفر الخندق ، ونقل لنا صورة التفاعل الحى والالتحام العظيم بين القائد وجنده ، والكل يعملون فى حفر الخندق ، وقلوبهم ضارعة إلى ربهم على ما حباهم به من نعمة الإيمان والإسلام ، كما تنقل إصرارهم على مواجهة العدو مهما كان شأنه ، ومهما عظمت قوته .

وإن أرادو فتنة أبينا فثبت الأقدام إن لاقينا

وتنقل كذلك هذه الأرجاز الروح الجماعية التى يعمل المسلمون فيها ، فأقل واحد فيهم جعيل بن سراقة يفرحون له لاهتمام النبى به وتغيير اسمه ، فيصبح نشيدهم الجماعى :

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧ / ٣٩٢ ( ح ٤١٠٤) .
(٢) عضل والقارة : القبيلتان اللتان غدرتا بالمسلمين فى بئر معونة .
(٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧ / ٣٩٤ ـ ٣٩٥ .

سمـاه من بعـد جـعـيل عـمـرا وكـان لـلبـائس يومًا ظـهـرا

وكان جعيل دميمًا ﷺ ، وكان فقيرًا [(١)] فغدا هتاف المسلمين فى الخندق ، والكلمة الأخيرة فى الهتاف يشترك بها القائد وجنده .

وينقل الشعر كذلك الآم هذا الجيل الذى فقـد أعز أحبابه فى بئر معونة ، ولا يزال الجرح يرعف الدم وينزف .

فـالعن عـضـلاً والقـارة هم كلفـونا ننقل الحـجـارة

وينتقل الرجـز كذلك فى قلب نحر العـدو ، حيث تجمع اليـهود فى خيـبر ، دون أن ينقص هذا من شأن المسلمين .

هذا الحـمـال لا حـمـال خـيـبر هـذا أبـرُّ ربـنا وأطـهـر [(٢)]

ولعل أقوى ما برز لنا من هذا الالتحام فى أثناء حفر الفندق ، هو تلك البيعة التى يرددها المهاجرون والأنصار على الموت والجهاد :

نحن الـذين بايعـوا مـحـمـدا علـى الجـهـاد مـا بـقـينـا أبدا

وتقرُّ عين المصطفى ﷺ بهؤلاء الأبطال الأحـبة من جنده ، ويرى ما يرى من بؤسهم وفاقتهم وهم جادون فى الحفر بعزم وتصميم ، يفل الحديد ، يقول لهم :

اللهـم لا عـيش إلا عـيش الآخـرة فـاغـفـر للأنـصـار والمـهـاجـرة

لكن الشعر لم ينقل لنا الوضع النفـسى الذى عانى منه المسلمون ، وهو الذى جاء القرآن ليعرضه فى آية جامعة مانعة جلته أوضح جلاء :

**﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ**

---

(١) روى ابن إسحاق فى المغازى قال: قيل : يا رسول الله أعطيت عيينة بن حصن والأقرع بن حابس مائة مائة ، وتركت جعيـلاً فقال : «والذى نفسى بيـده لجعيل بن سراقـة خير من طلاع الأرض مثل عـيينة والأقرع ، ولكنى أتألفـهما ، وأكل جـعيلاً إلى إيـمانه » . هذا مرسل حـسن . الإصابة لابن حـجر ١ / ٢٥٠ (ت ١١٦٨) .

(٢) لـم يشـر الواقـدى إلى الرجز فى هذا البيت فى الخـندق ، وإنما ذكر ذلك فى بناء مسـجد المدينة عند بقـية الرواة ، ومعناه أن حمل اللبن أحب عند الله من حمل التمر والزبيب من خيبر .

وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً (١١)﴾ [ الأحزاب ].

كما أن الشعر لم ينقل لنا وضع المنافـقين الذين انهاروا إيمانياً بعد زلزلة الرعب لقلوبهم ، وقد تعرض القرآن لهذا الأمر فى ثمانى آيات ، وجدنا ديوان الشعر فى الخندق قد تجاوز هذا الوضع دون أن يقف عنده .

لقـد كـان هنـاك أربع قضايا محورية دار حولها الشعر فى غزوة الخندق،وبنى قريظة ، وهذه القضايا هى :

١- مقتل عمرو بن ود العامرى عند المشركين .

٢- استشهاد سعد بن معاذ عند المسلمين .

٣- شدة الحصار وهى القضية التى عنت المشركين ،فوجهوا شعرهم نحوها .

٤- عودة قريش خائبة والمعجـزات الربانية ، وهى القضية التى عنت المسلمين فوجهوا شعرهم نحوها .

وسنتناول هـذه القـضـايا الأربع من المنظور الإسلامى والجـاهلى كمـا تناولها أصحـابها ، ونعود بعـدها للوقوف عند الجوانب الفنيـة والإبداعية فى هذا السـفر الجديد .

**المحور الأول :**

**مقتل عمرو بن ود العامرى :**

قال ابن إسحاق: فأقام رسول الله ﷺ والمسلمون ، وعدوهم محاصروهم ، ولم يكن بينهم قتال ، إلا أن فوارس من قـريش ، منهم عمرو بن عبد ود بن أبى قـيس أخو بنى عـامر بن لؤى ، وعكرمـة بن أبى جـهل ، وهبيـرة بن أبى وهب المخزومـيان ، وضـرار بن الخطاب الشاعر بـن مرداس أخو بنى مـحارب بن فـهر تلبسوا لـلقتال ثم خرجوا علـى خيلهم حتى مروا بمنازل بنى كنانة فـقالوا : يا بنى كنانة تهيؤوا للحرب فستعلمون من الفرسان اليوم ، ثم أقبلوا تعنق [1] بهم خيلهم حتى وقفوا على الخندق ، فلما رأوا قـالوا : والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها .

---

(١) تعنق بهم خيلهم : تسرع بهم .

قال ابن هشام : يقال إن سلمان الفارسى أشار به على رسول الله ﷺ .

قال ابن إسحاق : ثم تيمموا مكانًا ضيقًا من الخندق ، فضربوا خيلهم ، فاقتحمت منه ، فجالت بهم فى السبخة بين الخندق ، وسلع ، وخرج على بن أبى طالب عليه السلام فى نفر معه من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة [١] التى أقحموا منها خيلهم ، وأقبلت الفرسان تعنق نحوهم ، وكان عمرو بن عبد ود قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة ، فلم يشهد يوم أحد ، فلما كان يوم الخندق خرج مُعْلِمًا [٢] ليرى مكانه) [٣] .

وفى دلائل النبوة للبيهقى :

وذكر ابن إسحاق خروجهم ، ودعاء عمرو إلى البراز [٤] على وجه آخر فى الإسناد الذى ذكرناه . . .

قال : وخرج عمرو بن عبد ود فنادى من يبارز ، فقام على رضي الله عنه ، وهو مقنَّع فى الحديد ، أظنه عمرا ، فقال : أنا لها يا نبى الله ، فقال : « إنه عمرو ، اجلس » . نادى عمرو : ألا رجل ؟ !

وهو يؤنبهم ويقول : أين جنتكم التى تزعمون أنه من قُتل منكم دخلها ؟ أفلا تبرزون إلى رجلاً ؟ فقام على فقال :أنا يا رسول الله ، فقال : « اجلس » ، ثم نادى الثالثة، فقال :

| | |
|---|---|
| لقد بُحِحتُ من النداء بجمعكم | هل من مبارز |
| ووقفت إذ جبن المشجع | موقف القرن [٥] المناجز [٦] |
| ولذاك إنى لم أزل | متسرعًا قبل الهزاهز [٧] |
| إن الشجاعة فى الفتى | والجود من خير الغرائز |

فقام على فقال : يا رسول الله : أنا ، فقال : « إنه عمرو » . قال : وإن

(١) أخذوا عليهم الثغرة : هى الثلم الذى كان هناك فى الخندق .

(٢) المُعْلَم : الذى جعل لنفسه علامة ليعرف بها .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ٣١١ ـ ٣١٢ .

(٤) البراز : الظهور للحرب .

(٥) القرن : من القوم : سيدهم .

(٦) المناجز : المقاتل .

(٧) الهزاهز : تحريك البلايا والحروب للناس .

كان عمرًا ؟ فأذن له رسول الله ﷺ ، فمشى إليه حتى أتاه ، وهو يقول:

| | |
|---|---|
| لا تعجلن فقد أتاك | مجيب صوتك غير عاجز |
| ذو نية وبصيرة | والصدق منجى كل فائز |
| إنى لأرجو أن أقيم | عليك نائحة [1] الجنائز |
| من ضربة نجلاء [2] يبقى | ذكرها عند الهزاهز |

فقال له عمرو: ومن أنت ؟ قال : أنا على. قال: ابن عبد مناف ؟ فقال : على بن أبى طالب. فقال: غيرك يا ابن أخى ، ومن أعمامك من هو أسنُّ منك ، فأنا أكره أن أهريق دمك، فقال على رضي الله عنه :لكنى والله ما أكره أن أهريق دمك ، فغضب ، فنزل وسلَّ سيفه كأنه شعلة نار ، ثم أقبل نحو على مغضبًا ، واستقبله على بدرقته [3] فضربه عمرو فى الدرقة فقدها [4] ، وأثبت [5] فيها السيف ، وأصاب رأسه فشجَّه، وضربه على على حبل العاتق [6] فسقط ، وثار العجاج [7]، وسمع رسول الله ﷺ التكبير ، فعرف أن عليًا قتله[8] .

وبالعودة إلى رواية ابن إسحاق فى السيرة :

. . . فبرز له على بن أبى طالب ،فقال له:يا عمرو إنك قد كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه .قال له : أجل . قال له على: فإنى أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام . قال : لا حاجة لى بذلك . قال : فإنى أدعوك إلى النزال . فقال له : يا ابن أخى فوالله ما أحب أن أقتلك. قال له على: لكنى والله أحب أن أقتلك . فحمى [9] عمرو عند ذلك، فاقتحم عن فرسه فعقره،وضرب وجهه ، ثم أقبل على على ، فتنازلا ، وتجاولا، فقتله على رضي الله عنه ،وخرجت خيلهم منهزمة،حتى اقتحمت من الخندق هاربة.

قال ابن إسحاق : وقال على بن أبى طالب رضوان الله عليه فى ذلك :

---

(١) النائحة : الرافعة صوتها بالندب .
(٢) نجلاء : واسعة .
(٣) الدرقة : الجحفة أو الترس .
(٤) قدَّها : قطعها .
(٥) أثبت فيها السيف : لم يستطع إخراجه منها .
(٦) العاتق : موضع الرداء من العنق : وقيل : بين العنق والمنكب .
(٧) العجاج : الغبار .
(٨) دلائل النبوة للبيهقى ٣ / ٤٣٨ ـ ٤٣٩ .
(٩) حمى عمرو : اشتد غضبه .

نصر الحـجارة [1] من سـفـاهة رأيه ... ونصـرت رب مـحـمـد بصـوابى
فـصددت حـين تركـتـه متـجندلاً [2] ... كالجذع [3] بين دكادك[4] وروابى [5]
وعــفــفت عــن أثوابه ولوَ أنــنى ... كنـت المقـطر [6] بـزّنـى [7] أثوابـى
لا تحـسـبن اللـه خــاذل ديـنه ... ونبـيّه يا مـعـشـر الأحـزاب

قال ابن هشام : وأكثر أهل العلم بالشعر يشك فيها لعلى بن أبى طالب .

قال ابن إسحاق : وألقى عكرمة بن أبى جهل رمحه يومئذ ، وهو منهزم عن عمرو، فقال حسان بن ثابت فى ذلك :

فـفـر وألقى لـنا رمـحـه ... لـعلك عـكـرم لـم تفـعـل
وولَّيت تـعـدو كـعـدو الظلـيـ ... ـم [8] مـا إن تجـور عن المعـدل
ولم تـلق ظهـرك مـسـتـأنسًا ... كـأن قـفـاك قـفـا فُرعل

قال ابن هشام : الفرعل : صغير الضباع ، وهذه الأبيات فى أبيات له .

وكان شعـار أصحاب رسول الـله ﷺ يوم الخندق ، وبنى قريظة : حم ، لا ينصرون [9].

لقد استقصينا الحديث عن مقـتل عمرو بن عبد ود ، لما كان له من أثر خطير فى دنيـا العرب ، ولو أن هذه الروايات فـقط هى التى ذكرت مـقتلـه ، لاعتبـرنا الرواة قد جنحوا لمبالغة فيـها ، لكن الشعر الذى رافق الحدث هو الذى أعطاه هذه الأهمية .

وأول ما نلاحظ على هذه الروايات ، هو الجو النفـسى الذى عاشه المسلمون حتى ليتحدى الفرسان صفوفـهم يطلبون المبارزة ، فيتطاؤون عن المواجهة ، وهذا شىء لم نعرفه من قبل فى الصف الإسلامى .

---

(1) الحجارة : الأصنام .
(2) مجندلاً : لاصقًا بالأرض ، وهى الجدالة .
(3) الجذع : فرع النخلة .
(4) الدكادك : جمع دكدك وهو الرمل اللين .
(5) الروابى : جمع رابية ، وهى الكدية المرتفعة .
(6) المقطر : الذى ألقى على أحد قطريه أى جنبيه .
(7) بزنى : سلبنى .
(8) الظليم : ذكر النعام .
(9) السيرة النبوية لابن هشام ذ / 3 / 313 ـ 314 .

لقد انفرد البيهقى فى رواية عن مبارزة سبقت مقتل عمرو ،وهى التى قادها الزبير رضي الله عنه لمواجهة نوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومى.

( وخرج نوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومى يسأل المبارزة ، فخرج إليه الزبير بن العوام رضي الله عنه فضربه ضربة شقه باثنتين ، حتى فُلَّ فى سيفه فلا ، فانصرف وهو يقول:

إنى امرؤ أحمى وأحتمى عن النبى المصطفى الأمى [1]

لقد كانت غزوة الخندق معركة أعصاب وحرب نفسية أكثر مما كانت مواجهة عسكرية .

تقول أم سلمة رضي الله عنها :

قد شهدت معه مشاهد فيها قتال وخوف : المريسيع ، وخيبر ، وكنا بالحديبية وفى الفتح ، وفى حنين ، لم يكن من ذلك شيء أتعب لرسول الله ﷺ ، ولا أخوف عندنا من الخندق ، وذلك أن المسلمين كانوا فى مثل الحرجة ، وإن قريظة لا نأمنها على الذرارى ، والمدينة تحرس حتى الصباح ، يسمع تكبير المسلمين فيها حتى يصبحوا خوفًا، حتى ردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال ) [2] .

وثانى ما نلاحظه كذلك هو الجرأة النادرة لفتى بنى هاشم وبطلها على بن أبى طالب، فهو لم يسبق له أن بارز عَمْرًا ، لكن سمعته كانت تملأ الأفق ، ومع هذا فلم يتردد منذ اللحظات الأولى أن يتقدم لمبارزة عمرو ، ولم يكن قد ناهز الثلاثين بعد ، فهو فى السادسة والعشرين من عمره ،وأمثاله لم يعجم عودهم بعد ، فكيف يتقدم لمبارزة بطل أمضى فى الخبرة الحربية ضعف عمره ؟

ورسول الله يدرك المدى والفرق بين الرجلين فيكفه عن التحدى ، حتى أن بعض الروايات تشير إلى مدى خوف رسول الله ﷺ على فتاه الحبيب وأخيه فى الدنيا والآخرة ، وقرة عينه من بنى هاشم، فيقول وقد أجازه فى المبارزة : « إلهى أخذت عبيدة منى يوم بدر ، وحمزة يوم أحد ، وهذا على أخى وابن عمى ، فلا

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٣ / ٤٣٧ .
(٢) المغازى للواقدى ٢ / ٤٦٧ .

تذرنى فردًا وأنت خير الوارثين » (١) .

فرسول الله ﷺ حين يأذن لعلى فى المبارزة ، إنما يضحى بأغلى ما عنده فى حياته .

وثالث ما نلاحظه : هو نفسية هذا الفتى المغوار الذى ملأ الإيمان نفسه وحشاشته من رأسه إلى أخمص قدميه ، فهو حين يلتقى بعمرو ، لا تزال نفسية الداعية إلى الله هى التى تملأ كيانه ، فهو يحب الإيمان لعمرو ، ولا يملأ قلبه الحقد والثأر والتشفى ، ولهذا دعاه فى هذا الموطن إلى الله ورسوله ، فأبى عمرو ذلك إباء شديداً .

ونلحظ عظمة البناء الربانى النبوى لهذا الفتى يوم سقط قرنه المناجز صريعًا بين رجليه ، إنه لم يفقد صوابه ، ويجن جنون العظمة بقتل فارس العرب ، ويفقد توازنه أعظم نصر حققه فى حياته ، إنما كان ابن الدعوة الإسلامية الخالصة ، فراح يتحدث عن الإسلام العظيم الذى اعتنقه وفداه بروحه قبل أن يتحدث عن بطولته ، ويجن أنانية بعظمته وعبوديته لذاته .

نصر الحجار من سفاهة رأيه ونصرت رب محمد بصواب

إننا نجد الأفق الأعلى فى العقيدة عنده حين لم يتحدث حتى عن نصر رسول رب العالمين محمد ﷺ ، وهو أحب ما فى وجوده ، إنما تحدث عن نصر رب محمد جل شأنه ، بينما ينعى على عمرو نصر الأصنام والأوثان ، وهو لم يعير عمراً بجبن أو ضعف ، إنما تحدث عن عظمة تطبيق الإسلام فى نفسه حين عفَّ عن أثوابه ودرعه ، وهى أشهر درع فى العرب ، وختم أبياته بالأمل العظيم والقلب الخفاق بنصر الإسلام لا نصر ذاته ، وتمكين الدين ، لا تمكين صنمه ، وهو يعلم أن النصر بيد الله يؤتيه من يشاء ، فهو لم يحقق هذا النصر ، إنما هو التمكين الربانى .

لا تحسبن الله خاذل دينه ونبيه يا معشر الأحزاب

بهذه النفسية يقدم على ﷺ على مصاولة فحل قريش عمرو بن عبد ود .

---

(١) السيرة الحلبية لابن برهان الدين الحلبى ٢ / ٦٤١ ، ٦٤٢ .

( وفى تفسير الفخر أنه ﷺ قال لعلى كرم الله وجهه بعد قتله لعمرو بن عبد ود : « كيف وجدت نفسك معه يا على ؟ » قال : وجدته لو كان أهل المدينة كلهم فى جانب وأنا فى جانب لقدرت عليهم ) .

ولا عجب ، فهو أول من يجثوا للخصومة بين يدى الرحمن ، كما فى الصحيحين عنه ﷺ .

ونعود إلى رجاء على ﷺ :

إنى لأرجو أن أقيم ... عليك نائحة الجنائز
من ضربة نجلاء يبقى ... ذكرها عند الهزاهز

فهل تحقق هذا الرجاء لفتانا على ﷺ ؟ وهل مضى ذكر هذه الضربة النجلاء عند المعارك والحروب ؟ نسأل ديوان الشعر ، فيفتح لنا هذه الكنوز فيه عن هذه الضربة .

إن الغريب أن هذه الضربة قد برزت لدى شعراء مكة أكثر مما برزت لدى الشعراء الإسلاميين ، وذلك ضمن بكاء ومرثيات عمرو بن عبد ود .

مسافع بن عبد مناف بن وهب بن حذافة بن جمح أحد الشعراء التسعة المشهورين فى مكة،والذين أوردهم ابن سلام الجمحى فى طبقات فحول الشعراء، يحدثنا عن لقاء هذين البطلين القرمين .

قال ابن إسحاق : وقال مسافع بن عبد مناف بن وهب بن حذافة الجمحى يبكى عمرو بن عبد ود ، ويذكر قتل على بن أبى طالب إياه .

عمرو بن عبد كان أول فارس ... جزع[1] المذاد[2] وكان فارس يليل[3]
سمح الخلائق[4] ماجد[5] ذو مرة[6] ... يبغى القتال بشكة[7] لم ينكل[8]

---

(١) جزع : قطع .
(٢) المذاد : المكان الذى عسكر فيه المسلمون فى غزوة الخندق .
(٣) يليل : وادى بدر .
(٤) سمح الخلائق : جمع خليقة وهى هنا بمعنى سجية ، أي طبعه سهل سمح .
(٥) ماجد : سيد فى قومه .
(٦) ذو مرة : القوى .
(٧) الشكة : السلاح .
(٨) لم ينكل : لم يرجع .

ولقـــد علـمــتـم حين ولوا عنـكم — أن ابن عــبـد فـيـــهم لم يعـــجل
حتى تـكنَّفه[1] الكمـــاة [2] وكلــهم — يبــغـى مــقــاتله وليـس بمؤتل [3]
ولقـــد تكـنفت الأسنـة فـــارســـاً — بجنوب سلع[4] غير نكس[5] أميل[6]

إنه إعلام بالفارس العربـى الأول الذى كان فارس بدر ، وها هو الآن فارس الخندق ، إذ كـان أول من قطع المذاد وصار داخل المدينة بين ظهـرانى المسلمين ، مدجج السلاح لا يهاب الموت ، ولا ينكل من الخوف ذو خلق سمح وقوة متينة ، ولقد علم المسلمون أن الذى فاجأهم، ورفض أن يولى عنهم هو عمرو بن عبد ود، وأحاطت به الأبطال من كل جانب تبغى قتله ، وهو ليس قاصراً عن مواجهتهم ، لقد تكنفته الأسنة ، ثم ماذا كان مصير أول الفوارس وبطلهم المغوار ؟!

تســل النزال علــى فــارس غـــالب — بجـنوب سلـع ليـــتـــه لم يـنزل
فـــاذهب علىّ فـــمـــا ظفـرت بمـثله — فـخرًا ولا لاقـيت مـثل المعـضل [7]
نفـســى الفـداء لفــارس مــن غــالبِ — لاقى حـمـام الموت لم يـتـحلحل [8]
أعنى الذى جـــزع المذاد بمهـــره — طلبًا لثــأر مـعــاشــر لــم يخــذل [9]

والفضل ما شهدت به الأعداء .

وكيف يجرؤ الفتى على أن يسل فارس لؤى بن غالب النزال ، وليتك يا على لم تنزل .

فامض به فخـراً إلى الأبد على العرب جميعًا أن قـتلت فارس بنى غالب ، لا يدانيك فيه أحد ، نفسى الفداء للفارس الأول الذى لاقى مصرعه ، ولم يتحلحل عن موقـعه شبراً واحـدًا ، يريد أن يثأر لقومـه من المسلمين ، وطاب له الموت ، ولـم يطب له الفرار.

أما غيـره من رفاقه الأبطال الأشاوس فقـد لاذوا بالفرار ، ومن أجل هذا لم

---

(١) تكنفه : أحاطوا به .
(٢) الكماة : الشجعان .
(٣) بمؤتل : بقاصر .
(٤) سلع : جبل .
(٥) النكس : الضعيف من الرجال .
(٦) الأميل : الذى لا رمح له .
(٧) المعضل : الأمر الشديد .
(٨) لم يتحلحل : لم يبرح من مكانه .
(٩) السيرة النبوية لابن هشام ذ/ ٣ / ٣٧٠ ـ ٣٧١ .

يسلموا من لذع هجوم مسافع .

وقال مسافع أيضًا يؤنب فرسان عمرو الذين كانوا معه فأجلوا عنه وتركوه :

| | |
|---|---|
| عمرو بن عبد والجياد يقودها | خيلٌ تقاد له وخيل تُنعل [1] |
| أجلت فوارسه [2] وغادر رهطه | ركنًا عظيمًا كان فيها أول |
| عجبًا وإن أعجب فقد أبصرته | مهما تسوم [3] على عمرًا ينزل |
| لا تبعدن فقد أصبت بقتله | ولقيت قبل الموت أمرًا يثقل |

فهو لا يستطيع أن يمر على الغصة التى ملأت حلقة من مقتل عمرو على يد على بن أبى طالب من غير أن يشير إليها ، ويتحدث عن مصابه الثقيل وهمه الجسيم لقتله،بعد أن غادره رهطه ، وساومه على على العودة عن القتال فرفض ، بينما فر أصحابه من حوله وتركوه مجندلاً فى الساحة :

| | |
|---|---|
| وهبيرة المسلوب ولى مدبراً | عند القتال مخافة أن يقتلوا |
| وضرار كان البأس منه محضراً | ولى كما ولى اللئيم الأعزل [4] |

قال ابن هشام : وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها له ، وقوله : عمرًا ينزل عن غير ابن إسحاق ) [5] .

وماذا عن هبيرة بن أبى وهب : الفارس الشاعر ؟

يجيبنا الواقدى عن هذا الفرار فيقول : وهرب عكرمة وهبيرة فلحقا بأبى سفيان ، وحمل الزبير على هبيرة فضرب ثَفَر [6] فرسه ، وسقطت درع كان محقبها [7] الفرس ، فأخذ الزبير الدرع ، وفر عكرمة ، وألقى رمحه ، فلما رجعوا إلى أبى سفيان قال : هذا يوم لم يكن لنا فيه شىء ! ارجعوا ).

ولابد أن يذود هبيرة عن نفسه ويعتذر عن فراره .

(١) خيل تُنعل : خيل تصفَّح أى تهيأ للكر . (٢) أجلت فوارسه : تفرقت .

(٣) تسوم : تطلب . (٤) الأعزل : الذى لا سلاح له .

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ٣٧٠ ـ ٣٧١ .

(٦) النقر : بالتحريك السير فى مؤخر السرج .

(٧) محقبها : حزمها بحقو البعير ومؤخرته .

قال ابن إسحاق : وقال هبيرة بن أبى وهب يعتذر عن فراره ، ويبكى عمرًا ، ويذكر قتل على إياه :

لعمرىَ ما وليت ظهرى محمدًا وأصحابه جبنًا ولا خيفة القتل [1]
ولكننى قلبت أمرى فلم أجد لسيفى غناءً إن ضربت ولا نبلى
وقفت فلما لم أجد لى مقدمًا صددت كضرغام [2] هزبر أبى شبل
ثنى عِطفه[3] عن قرنه[4] حين لم يجد مكرًا وقدمًا كان ذلك من فعلى

إنه يفخر حتى بفراره ، ويشبه نفسه بالأسد الضرغام أبى الشبل الذى لم يجد مجالاً للكر على خصمه فعاد ينتهز فرصة أخرى تواتيه لذلك ، ولم يدفعه إلى الفرار الجبن أو خيفة القتل .

ومهما أثنى على نفسه ، فعمرو بن عبد ود الذى قتل سيبقى رمزًا أضخم منه فى تاريخ المواجهة مع محمد وصحبه .

فلا تبعدن يا عمرو حيًا وهالكًا وحُقَّ لحسن المدح مثلك من مثلى
ولا تبعدن يا عمرو حيًا وهالكًا فقد بنت محمود الثنا [5] ماجد الأصل
فمن لطراد الخيل تُقدع [6] بالقنا وللفخر يومًا عند قرقرة [7] البزل [8]
هنالك لو كان ابن عبد لزارها وفرَّجها حقًا فتىً غير ما وغل [9]

وهو لا يرضى لنفسه أن يكون دون عمرو بن عبد،فحُق لمثله أن يمدح عمرًا، وأنت يا عمرو لم تبعد فى قلوبنا حيًا وهالكًا ، لقد غادرتنا محمود الثنا كريم الأصل والحسب ، سيدًا مقدامًا فى قومك ، وحين تجول الخيل ويبدأ الطراد بينها وطعن القنا فيها ، وحين تهيج الإبل القوية فى المعترك ، فنفتقد بطل الحرب والنزال عمرو بن عبد ود ،ومن لها مثله ، ولو كان العامرى حيًا لشق الصفوف ،

---

(١) المغازى للواقدى :٤٧٢ .
(٢) الضرغام : الأسد ، وكذلك الهزبر .
(٣) عطفه : جانبه .
(٤) القرن : الذى يقاوم فى شدة أو قتال .
(٥) الثنا : الذكر الطيب .
(٦) تُقدَع : تكف.
(٧) القرقرة : من أصوات فحول الإبل .
(٨) البزُل : الإبل القوية وضربه مثلاً للمفاخرين إذا رفعوا أصواتهم بالفخر .
(٩) الوغل : الفاسد من الرجال .

ومزق الخيل ، وهدَّ الإبل ، ومن فوق الخيل والإبل ، إنه طيب الثنا غير وغل ولا فاسد .

وفى غصة قاتلة كذلك ، يتوجه إلى على بن أبى طالب ، ويشارك مسافعًا فى الفخر الأعلى الذى حازه ابن أبى طالب فى قتل ابن عبد ود .

فعنك على [١] لا أرى مثل موقف وقفت على نجد [٢] المقدم كالفحل
فما ظفرت كفاك فخراً بمثله أمنت به ما عشت من زلة النعل [٣] [٤]

لقد غدا على رضي الله عنه موضع الحقد الأسود ، وموضع الإعجاب الأعلى فى صفوف قريش ، وما يتحدث عن هذا غمرة الناس ، إنما يتحدث عنها فرسانهم وقادته وصناديدهم ، فأن تأتى الشهادة من فارس بنى مجزوم وشاعرها هبيرة ، ومن شاعر مكة مسافع ، لهى دليل على أن هذا الفخر قد عمَّ العرب قاطبة ، وماذا يكون حديث المجالس العربية ، وهم يسمعون ثناء شعراء مكة على بطولة على ، وأنوفهم راغمة .

وهذا ثناء آخر على البطلين العنيدين من هبيرة بن أبى وهب :

لقد علمت عليا لؤى بن غالب [٥] لفارسها عمرو إذا ناب نائب
لفارسها عمرو إذا ما يسومه [٦] على وإن الليث لابد طالب
عشية يدعوه علىٌّ وإنه لفارسها إذ خام [٧] عنه الكتائب
فيا لهف نفسى إن عمراً تركتُه بيثرب لا زالت هناك المصائب

ولم يجد فخراً يفخر به ببطولة عمرو إلا رفضه مساومة على بن أبى طالب له أن يسلم أو ينصرف ،ورفضه لهذه المساومة ، وإذا كانت الكتائب تجفل عن عمرو وتتراجع، أمامه فالفتى على هو الليث الذى وقف له وأذاقه مصرعه .

ونحس من جهة ثانية فى أعماق مسافع وهبيرة ، وهما يثنيان على بطولة على

(١) فعنك على : اسم فعل معناه تباعد . (٢) النجد : الشجاع .
(٣) أمنت من زلة النعل : كناية عن أن هذه المفخرة ستغطى كل زلة تقع منك بعد .
(٤) السيرة النبوبة لابن هشام ذ / ٣ / ٣٧٢ ـ ٣٧٤ .
(٥) عُليا لؤى بن غالب : رؤساؤها وأعلى قبائلها . (٦) يسومه : يكلّفه .
(٧) خام : رجع هيبة وخوفًا .

والفخر الذى حازه ولن يحوز مثله، أنهما سعيدان أن يكون على بن أبى طالب القرشى الهاشمى هو الذى جندل عمرو بن عبد ود العامرى . وهما لا يريدان أن تكون هذه البطولة للخزرج أو للأوس ، أو لغير قريش ، فليُقتل عمرو ، وليكن على هو القاتل فهو من أرومتهم ومن قبيلتهم ، لكنه العار كل العار أن يكون الخزرج هم الذين صرعوه ، ولهذا نجد حسانًا ﷺ يفخر بقتل عمرو دون أن يروى غصتهم بذكر على قاتله .

بقيتكم عمرو أبحناه [1] بالقنا بيثرب نحمى والحماة قليل
ونحن قتلناكم بكل مهندِ ونحن ولاة الحرب حين نصول
ونحن قتلناكم ببدر فأصبحتَ معاشركم فى الهالكين تجول

قال ابن هشام : وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها لحسان [2].

ويعيد الكرة ثانية فى الفخر بقتل عمرو دون الإشارة إلى قاتله :

أمسى الفتى عمرو بن عبد يبتغى بجنوب يثرب ثأره لم ينظر [3]
فلقد وجدت سيوفنا مشهورة ولقد وجدت جيادنا لم تقصر [4]
ولقد لاقيت غداة بدر عصبة ضربوك ضربًا غير ضرب الحُسَّر [5]
أصبحت لا تدعى ليوم عظيمة يا عمرو أو لجسيم أمر منكر [6]

فقد طلَّ دم عمرو ولا ثائر يثأر له ، وحين جئت إلى المعركة تحسب أن الساحة لك، فوجئت بالسيوف المشهورة والضربات القاتلة ، أعادت إلى ذاكرتك أيام بدر ، يوم وليت تلعق جراحك أما اليوم وقد ثويت قتيلاً فى ثرانا ، فمن يدعوك ليوم كريهة ، ومن يناديك لجسائم الأمور ؟ بعد أن صيرت بِلى من البلى .

لقد شهدنا فى بدر بعض الفخر بأبطال قريش المسلمين ، ثم غابت هذه الظاهرة فى أحد ، وانصب الفخر بالنصر على الجميع من المهاجرين والأنصار ،

---

(١) أبحناه بالقنا : قتلناه فيها واستبحنا دمه .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٥ / ٣ / ٣٧٣ .
(٣) لم ينظر : لم يؤخر .
(٤) لم تقصر : لم تكف .
(٥) الحسر : جمع حاسر وهو من لا درع له .
(٦) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ٣٧٤ .

وها نحن نشهده هنا يبرز ثانية ليعترف ببطولة على الخالدة حتى أننا لا نجد فى الشعر الإسلامى من خلَّد هذه البطولة ، إنما نجدها فى الشعر الجاهلى .

ولا ينسى حسان أن يهاجم عكرمة بن أبى جهل الذى فرَّ من مواجهة الأبطال بعد مقتل عمرو بن عبد ود .

فــــفـــــر وألقى لــنا رمـــــحـــــه ولـيــــــتـك عكـرم لم تـفـــــعل
ووليــت تعـــــدو كـــعــــدو الظلـيم مــــا إن تجــــور عــن المعـــــدل
ولم تــلق ظهـــــرك مـــســـتـــــأنسًا كـــأن قـــــفــــاك قـــفـــا فــــرعل

**المحور الثانى :**

**استشهاد سعد بن معاذ :**

ولننتقل إلى سعد بن معاذ رضي الله عنه فى الصف الإسلامى .

قال ابن إسحاق : وحدثنى أبو ليلى عبد الله بن سهل بن عبد الرحمن بن سهل الأنصارى أخو بنى حارثة أن عائشة أم المؤمنين كانت فى حصن بنى حارثة يوم الخندق، وكان من أحرز حصون المدينة ، قال : وكانت أم سعد بن معاذ معها فى الحصن ، فقالت عائشة : وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب ، فمر سعد وعليه درع مقلَّصة [١]، قد خرجت منها ذراعه كلها ، وفى يده حربته يرقد [٢] فيها يقول :

لبث قليلاً يشهد الهيجا جمل [٣] لا بأس بالموت إذا حان الأجل

قال : فقالت له أمه : الحق ، أى بنى فقد والله أخَّرْت ، فقلت لها : يا أم سعد والله لوددت أن درع سعد كانت أسبغ مما هى . قالت : وخفت عليه حيث أصاب السهم منه [٤] ، فرمى سعد بن معاذ بسهم ، رماه كما حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة أحد بنى عامر بن لؤى ، فلما أصابه قال : خذها منى ، وأنا ابن

---

(١) مقلصة : قصيرة .

(٢) يرقد : يسرع . وقيل يرقل . وقال بعض اللغويين :الارقداد سعى النافر.

(٣) جمل : جمل هنا اسم رجل . وهذا الرجز قديم تمثل به سعد .

(٤) الرواية فى دلائل النبوة عن ابن إسحاق أوضح من هنا . ( فقالت عائشة : يا أم سعد لوددت أن درع سعد كانت أسبغ مما هى :فخافت عليه حيث أصاب السهم منه ) .

العَرِقة . فقال له سعد: عرَّق الله وجهك فى النار .

اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئًا فأبقنى لها ، فإنه لا قوم أحبَّ إلى من أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه ، اللهم وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لى شهادة ، ولا تمتنى حتى تقرَّ عينى من بنى قريظة .

قال ابن إسحاق : وحدثنى من لا أتهم عن عبد الله بن كعب بن مالك أنه كان يقول : ما أصاب سعدًا يومئذ إلا أبو أسامة الجشمى ، حليف بنى مخزوم ، وقد قال أسامة فى ذلك شعرًا لِعكرمة بن أبى جهل :

| | |
|---|---|
| أعكرمَ هلا لمتنى إذ تقول لى | فداك بآطام [1] المدينة خالد |
| ألستُ الذى ألزمتُ سعدًا مرشة [2] | لها بين أثناء المرافق [3] عاند [4] |
| قضى نحبه [5] منها سعيد فأعولت[6] | عليه مع الشمط[7] العذارى[8] النواهد[9] |
| وأنت الذى دافعت عنه وقد دعا | عبيدة جمعًا منهم إذا يكابد |
| على حين ما هم جائر عن طريقه | وآخر مرعوب[10] عن القصد قاصد |

والله أعلم أى ذلك كان :

قال ابن هشام : إن الذى رمى سعدًا خفاجة بن عاصم بن حبَّان حليف بنى مخزوم .

وعلى رواية عبد الله بن كعب بن مالك التى تشير إلى أن أبا أسامة الجشمى حليف بنى مخزوم هو الذى قتل سعدًا ﷺ يعطينا إضاءات جديدة على شعور قريش بالهدف الضخم الذى حققوه بمقتل سعد ، فهم يعرفون أنه سيد الأوس بلا

---

(١) الآطام : الحصون : ولعل خالد هنا هو خالد بن الوليد المخزومى .
(٢) مرشّة : يعنى رمية أصابته فأطارت رشاش الدم منه .
(٣) المرافق : هنا ما يعتمد عليه .
(٤) العاند : العرق الذى لا ينقطع منه الدم .
(٥) قضى نحبه : أى أجله .
(٦) أعولت : بكت .
(٧) الشمط : جمع شمطاء ، وهى التى خالط شعرها الشيب .
(٨) العذارى : الأبكار .
(٩) النواهد : جمع ناهد ، وهى التى برز نهدها .
(١٠) المرعوب : المفزوع .

منازع ، وأنه لا يدانيه أحد من الخزرج كذلك ، فحق لأبى أسامة الجشمى أن يعاتب عكرمة ويفخر عليه بأنه قاتل سعد على حين فر الأبطال ومنهم عكرمة ، إنه هو الذى ألزم سعداً فراش الموت وخضبه بدمائه من تلك الرمية التى أصابت أكحله ، فأعولت المدينة عليه عذاراها ومسناتها.

ونعود إلى رواية البخارى التى ترى أن ابن العرقة حِبان هو الذى رمى سعداً رضي الله عنه : ( عن عائشة رضي الله عنها قالت : أصيب سعد يوم الخندق رماه رجل من قريش يُقال له حبان بن العرِقة ، رماه فى الأكحل ، فضرب النبى ﷺ خيمة فى المسجد ليعوده من قريب،فلما رجع رسول الله ﷺ من الخندق وضع السلاح ،واغتسل ، فأتاه جبريل عليه السلام ، وهو ينفض رأسه من الغبار ، فقال : قد وضعت السلاح ؟ ! والله ما وضعتُه ، اخرج إليهم .قال النبى ﷺ : « فأين » فأشار إلى بنى قريظة ، فأتاهم رسول الله ﷺ فنزلوا على حُكمه ، فردَّ الحكم إلى سعد . قال :فإنى أحكم فيهم أن تقتل المقاتلة ، وأن تسبى النساء والذرية ، وأن تُقسم أموالهم . قال هشام : فأخبرنى أبى عن عائشة أن سعداً قال : اللهم فإنى أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فإن كان بقى من حرب قريش شىء فأبقنى له حتى أجاهدهم فيك ، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها ، واجعل موتتى فيها ، فانفجرت من لبته،فلم يرعهم - وفى المسجد خيمة من بنى غفار - إلا الدم يسيل إليهم ،فقالوا : يا أهل الخيمة ما هذا الدم الذى يأتينا من قبلكم ، فإذا سعد يغذو جرحه دمًا ، فمات منها رضي الله عنه ) (١) .

وحبان بن العرقة هو من بنى عامر بن لؤى ، ولعله أدرك بذلك ثأر عمرو بن عبد ود العامرى ،لأن عمراً من هذا الفرع من قريش،وأخذ مقتل سعد من جهة ، وحكمه فى بنى قريظة من جهة ثانية دوراً رئيسيًا فى مدينة النبوة حيث كان الحدث المحورى الأول الذى أهم المسلمين فى الخندق كما أن استشهاد حمزة رضي الله عنه هو الحدث الأهم فى أحد .

قال ابن إسحاق : وقال حسان بن ثابت فى يوم بنى قريظة يبكى سعد بن معاذ ويذكر حكمه فيهم :

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧ / ٤١١ - ٤٢١ ( ح ٤١٢٢) .

لقد سجمت [1] من دمع عينى عبرة  وحُقَّ لعينى أن تفيض على سعد
قتيلٍ ثوى فى معرك [2] فجعت به  عيون ذوارى[3] الدمع دائمة الوجد[4]
على ملة الرحمن وارث جنةٍ  مع الشهداء وفدها أكرم الوفد
فإن تك قد ودعتنا وتركتنا  وأمسيت فى غبراء[5] مظلمة اللحد[6]
فأنت الذى يا سعد أُبت بمشهد  كريم وأثواب المكارم والحمد

ويحسن ألا ننسى أن سعد بن معاذ هو أوسى أو سيد الأوس ، وحسان بن ثابت من وجوه الخزرج ، لكن الإسلام قد ألف بينهم : ﴿ **لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ** ﴾ [ الأنفال : ٦٣] فالدموع المدرارة والوجد الدائم لما فجع به المسلمون من مقتل سعد ، والهم هو هم المسلمين لا همه ، فهو قد مضى على ملة الرحمن ،موعوداً بميراث جنة الخلد مع الشهداء فى أكرم وفد ، وحق لحسان أن يتحدث عن هذا الوافد العظيم ، بعد أن تحدث عنه المصطفى ﷺ بين ظهرانى أصحابه ، ونقول : قد عجز الشعر عن نقل هذا الاحتفال العظيم فى السماوات والأرض باستشهاد سعد .

أ ـ ( عن عمرو بن شرحبيل قال: ( لما انفجر جرح سعد،عجّل إليه رسول الله ﷺ ، فأسنده إلى صدره والدماء تسيل عليه ، فجاء أبو بكر ، فقال :وانكسار ظهراه على سعد ! فقال رسول الله ﷺ : « مهلاً يا أبا بكر » فجاء عمر فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ) . رواه شعبة عنه ) [7] .

ب ـ عاصم بن عمرو عن محمود بن لبيد قال: لما أصيب أكحل سعد فثقل ، حولوه عند امرأة يقال لها رفيدة تداوى الجرحى،فكان النبى ﷺ إذا مر به يقول : «كيف أمسيت ؟ كيف أصبحت ؟ فيخبره ، حتى كانت الليلة التى نقله قومه فيها وثقل، فاحتملوه إلى بنى عبد الأشهل إلى منازلهم ، وجاء رسول الله ، فقيل : انطلقوا به . فخرج وخرجنا معه ، وأسرع حتى تقطعت شسوع نعالنا ، وسقطت أرديتنا ، فشكا ذلك إليه أصحابه ، فقال : « إنى أخاف أن تسبقنا إليه الملائكة

---

(١) سجمت : سالت .
(٢) المعرك : موقع القتال من الحرب .
(٣) ذوارى الدمع : أى سائله .
(٤) الوجد : الحزن .
(٥) فى غبراء : يعنى القبر .
(٦) اللحد : ما يلحد للميت فى جانب القبر .
(٧) سير أعلام النبلاء للذهبى ١ / ٢٨٤ . وقال المحقق فيه : إسناده حسن .

فتغسله كما غسلت حنظلة » فانتهى إلى البيت ، وهو يغسل وأمه تبكيه وتقول :

ويل أم سعدا سعدا حزامة وجدا

فقال : « كل نائحة تكذب إلا أم سعد » ثم خرج به ، قال : يقول له القوم : ما حملنا يا رسول الله ميتًا أخف علينا منه ، قال : « ما يمنعه أن يخف ، وقد هبط من الملائكة كذا وكذا لم يهبطوا قط قبل يومهم قد حملوه معكم » (١) .

ج ـ ( شعبة عن سماك سمع عبد الله بن شداد يقول : دخل رسول الله ﷺ على سعد وهو يكيد نفسه ، فقال : « جزاك الله خيراً من سيد قوم ، قد انجزت ما وعدته ، ولينجزنك الله ما وعدك » (٢) .

د ـ ( حماد بن سلمة عن محمد بن زياد عن عبد الرحمن بن سعد بن معاذ أن بنى قريظة نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فأرسل إلى سعد فجىء به محمولاً على حمار، وهو مضنى من جرحه ، فقال له : « أشر على فى هؤلاء » قال : إنى أعلم قد آمرك بأمر أنت فاعله . قال : « أجل ، ولكن أشر » قال : لو وليت أمرهم لقتلت مقاتلتهم وسبيت ذراريهم ، قال : « والذى نفسى بيده ، لقد أشرت على فيهم بالذى أمرنى الله به » ) (٣) .

هـ ـ (قال النضر بن شميل حدثنا عوف عن أبى نضرة عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « اهتز العرش لموت سعد بن معاذ » ثم قال النضر ، وهو إمام أهل اللغة : اهتز : فرح ) (٤) .

هذا سعد عند الأمة المسلمة ، وها نحن نستمع إلى الشعر ينقل لنا هذا الحديث :

فأنت الذى يا سعد أبت بمشهد ... كريم وأثواب المكارم والحمد
بحكمك فى حى قريظة بالذى ... قضى الله فيهم ما قضيت على عمد
فوافق حكم الله حكمك فيهم ... لم تعفُ إذ ذكّرت ما كان من عهد

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى ١ / ٢٨٤ . وقال المحقق فيه : إسناده حسن .
(٢) المصدر نفسه ٢٨٨ . وقال المحقق فيه : رجاله ثقات .
(٣) المصدر نفسه ٢٨٨ . وقال المحقق فيه : أخرجه أحمد والبخارى .
(٤) المصدر نفسه ٢٩٢ ـ ٢٩٣ . وقال المحقق فيه: أخرجه أحمد وابن سعد، والحاكم، وصححه، ووافقه الذهبى .

وهنا يشير حسان إلى محاولات قومه الأوس يدعون فيها سعدًا ليعفو عن بنى قريظة حلفاء الأمس ، كما شفع عبد الله بن أبى إلى حلفائه بنى قينقاع.

ثم أقبلوا ـ أى الأوس ـ معه إلى رسول الله ﷺ ، وهم يقولون : يا أبا عمرو ! أحسن فى مواليك ، فإن رسول الله ﷺ إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم ، فلما كثروا عليه، قال : « لقد آن لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم » . فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بنى عبد الأشهل ، فنعى لهم رجال بنى قريظة قبل أن يصل إليهم سعد لكلمته التى سمع منه ) [1] .

ولم يجد سعد رضي الله عنه فى قلبه فسحة للعفو عن قوم نقضوا العهد ونكثوه ، وقد ضرع إلى ربه قائلاً : ولا تمتنى حتى تشفنى من بنى قريظة .

ويختم حسان قصيدته بعبق الجنان :

| | |
|---|---|
| فإن كان ريب الدهر أمضاك فى الأولى | شروا هذه الدنيا بجناتها الخلد |
| فنعم مصير الصادقين إذا دعوا | إلى الله يومًا للوجاهة والقصد ) [2] |

ثم كانت الجولة الثانية لحسان : فى الموضوع نفسه يبكى سعدًا ، والشهداء الذين أصيبوا معه :

| | |
|---|---|
| ألا يا لقومى هل حُمَّ [3] دافع | وهل ما مضى من صالح العيش راجع |
| تذكّرت عصرًا قد مضى فتهافتت [4] | بنات الحشى[5] وانهل [6] منى المدامع |
| صبابة [7] وجد [8] ذكّرتنى أحبة | وقتلى مضى فيها طفيل[9] ورافع [10] |
| وسعد فأضحوا فى الجنان وأوحشت | منازلهم فالأرض منهم بلاقع [11] |

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ٣٣٤ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ٣٧٥ ـ٣٧٦ .

(٣) حُمَّ : قدر .

(٤) تهافتت : سقطت بسرعة .

(٥) بنات الحشى : القلب وما اتصل به .

(٦) انهلَّ : سال .

(٧) الصبابة : رقة الشوق .

(٨) الوجد : الحزن .

(٩) طفيل : هو طفيل بن النعمان شهد بدرًا واستشهد بالخندق .

(١٠) رافع : هو رافع بن المعلّى وهو عقبى استشهد فى بدر .

(١١) بلاقع : قفار خالية .

إن الأسى يقطر من صدر حسان ، فينساب شعرًا ويفجر الألم ، فينسكب نواحًا على هؤلاء القوم من قوافل الشهداء ، منذ بدر حتى الخندق ، وكيف أصبحت الأرض منهم بلاقع موحشة بعد أن نزلوا فى جنان الخلد .

وفوا يوم بدر للرسول وفوقهم ... ظلال المنايا والسيوف اللوامع
دعا فأجابوه بحق وكلهم ... مطيع له فى كل أمر وسامع
فما نكلوا حتى تولوا جماعة ... ولا يقطع الآجال إلا المصارع
لأنهمُ يرجون منه شفاعة ... إذا لم يكن إلا النبيون شافع

نحن مع الشعر الإسلامى الخاص الموجه للصف الإسلامى الداخلى ، فلا حاجة لشىء من قيم الجاهلية ، ومفاهيمها ، أن هذا الشعر السهل المتنع هو بضاعة المؤمنين، وهذا الصف الذى ارتبط بقائده عليه الصلاة والسلام ، ارتباط الحياة بالموت ، لا يزال على العهد : ﴿ **فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً** (٢٣) ﴾ [ الأحزاب ] ، ولن تغير قوافل الشهداء المسار ، ولن تثنى الدماء المتفجرات العزيمة ، فهم مع قائدهم حتى آخر رجل فيهم ، وحتى آخر قطرة من دمائهم .

فذلك يا خير العباد بلاؤنا ... إجابتنا لله والموت ناقع (١)
لنا القدم الأولى(٢) إليك وخلفُنا (٣) ... لأوَّلنا فى ملة الله تابع
ونعلم أن الملك لله وحده ... وأن قضاء الله لابد واقع (٤)

وإلى بنى قريظة :

حيث حل بهم قضاء الله النافذ ، لابد أن يقدّم الشعر الإسلامى ، هذه الحادثة للعرب جميعًا ، الذين يتربصون بالمؤمنين ، فنصر بنى النضير الذى حققه المسلمون حين أجلوهم عن أرضهم يتوَّج الآن بنصر بنى قريظة الذين خانوا ونكثوا العهد :

---

(١) ناقع : ثابت .
(٢) القدم الأولى : السبق إلى الإسلام .
(٣) خلفنا : آخرنا .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ٣٧٦ ـ ٣٧٧ .

لقــد لقيت قــريظة مـا ســآها [١] | ومــا وجــدت لذلٍ من نصــيــر
أصــابـهم بـلاء كــان فــيــه | سوى [٢] مـا قد أصـاب بنى النضيـر
غــداة أتـاهمُ يهــوى إليــهم | رســول الله كــالقــمــر المنيــر
له خــيل مـجنَّبــة [٣] تعــادى [٤] | بفــرســانٍ عـليـهــا كــالصـقــور
تركـناهم ومــا ظـفــروا بـشىء | دمــاؤهم عليــهم كـالعــبيــر [٥]
فـهم صـرعى تحـوم الطيـر [٦] فيـهم | كذاك يدان[٧] ذو العند [٨] الفجور[٩]
فــأنذر مــثلهــا نصــحًا قــريشًا | من الرحــمن إن قـبـلت نذيرى [١٠]

وهذه بنو قريظة على أعتـاب بنى النضير ،لقوا ما الذل ما لقـيه بنو النضير ، لقد جـاءهم رسول الله ﷺ بخيلـه ، وعلى رأسها جـبريل عليه الصـلاة والسلام على فرسه ، حيث حاصرهم رسول الله ﷺ خمسةً وعشرين يومًا حتى نزلوا على حكمه ، وهو قـتل المقاتلة وسبـى النساء والذرية ، وأما خـيانتهم فـلابد من إلقاء الضوء عليها كما وردت فى السيرة النبوية .

(وخرج عدو الله حيى بن أخطب النضرى حتى أتى كعب بن أسد القرظى ، صاحب عقـد بنى قريظة وعهدهم ، وكان قد وادع رسـول الله ﷺ على قومه ، وعاقده على ذلك وعاهده ، فلمـا سمع كعب بحيى بن أخطب ، أغلق دونه باب حصنه ، فاستأذن عليه ، فأبى أن يفتح له ، فناداه حيى : ويحك يا كعب ؟ افتح لى ، قال : ويحك يا حـيى ؟ إنك امرؤ مشـؤوم ، وإنى قد عاهدت محـمدًا ، فلست بناقض ما بينى وبينه ، ولم أر منه إلا وفـاء وصدقًا ، قال : ويحك ! افتح لى أكلمـك ، قـال : مـــا أنا بفـاعل . قـــال : والله إن أغلـقت دونى إلا عن حشيشتك [١١] أن آكل معك. فأحفظ[١٢] الرجل ففتح له . فقال: ويحك يا كعب !

---

(١) ما سآها : أراد ما ساءها فقلب . والعرب تفع ذلك فى بعض الأفعال .
(٢) فى الديوان : شِوىّ ، والشوى : المقتل . (٣) خيل مجنبة : أى تقاد .
(٤) تعادى : تجرى وتسرع . (٥) العبير : هنا الزعفران .
(٦) تحوم الطير فيهم : تدور . (٧) يُدان : يجازى .
(٨) العند : الفجور عن الحق .
(٩) الفجور : وخفضه على الجوار ، وقد كان يجوز فيه الرفع على الإقواء فى القوافى .
(١٠) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ٣٧٧ ـ ٣٧٨ .
(١١) الحشيشة : طعام يصنع من البر يطحن غليظا ، وهو يعيّره هنا بالبخل .
(١٢) أحفظ الرجل : أغضبه . والحفيظة : الغضب .

جئتك بعز الدهر وببحر طام [1] ، جئتك بقريش على قادتها وسادتها ، حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال [2] من رومة ، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقمى [3] إلى جانب أحد ، قد عاهدونى وعاقدونى على ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه . فقال له كعب: جئتنى والله بذل الدهر ، وبجهام [4] قد هراق ماؤه ، فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء ، ويحك يا حيي ! فدعنى وما أنا عليه ، فإني لم أر من محمد إلا وفاء وصدقًا . فلم يزل حيي بكعب يفتله بالذروة والغارب [5] حتى سمح له ، على أن أعطاه عهداً من الله وميثاقًا : لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك فى حصنك حتى يصيبنى ما أصابك ، فنقض كعب بن أسد عهده ، وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ ، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ الخبر وإلى المسلمين ، بعث رسول الله ﷺ سعد ابن معاذ بن النعمان وهو يومئذ سيد الأوس ، وسعد بن عبادة بن دليم وهو يومئذ سيد الخزرج ، ومعهما عبد الله بن رواحة ، أخو بنى الحارث بن الخزرج ، وخوات بن جبير ، أخو بنى عمرو بن عوف ، فقال : انطلقوا حتى تنظروا، أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان حقًا فالحنوا [6] إلى لحنًا أعرفه ، ولا تفتُّوا [7] فى أعضاد الناس ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به بين الناس . قال : فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم ، فيما نالوا من رسول الله ﷺ وقالوا : من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد ، فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه،وكان رجلاً فيه حِدَّة ، فقال له ابن عبادة : دع عنك مشاتمتهم ، فما بيننا وبينهم أربى [8] من المشاتمة . ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه ثم قالوا : عضل والقارة ـ أى غدر كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع ـ فقال رسول الله ﷺ : « الله أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين » .

---

(١) بحر طام : بحر مرتفع .
(٢) مجتمع الأسيال : اسم موقع قرب المدينة .
(٣) ذنب نقمى : اسم موقع كذلك .
(٤) الجهام : السحاب الرقيق الذى لا ماء فيه .
(٥) يفتله فى الذروة والغارب : الذروة والغارب أعلى ظهر البعير . وأراد بذلك إنه لم يزل يخدعه كما يُخدع البعير إذا كان نافراً ، فيمسح باليد على ظهره حتى يستأنس .
(٦) ألحِنوا إلى لحنًا : اللحن هنا اللغز ، وهو أن يخالف ظاهر الكلام معناه .
(٧) تفتوا فى أعضاد الناس : يقال : فتَّ فى عضده ، إذا ضعّفه ووهنه .
(٨) أربى من المشاتمة : أعظم من المشاتمة .

قال : وعظم عند ذلك البلاء ، واشتد الخوف ، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، حتى ظن المؤمنون كل ظن ، ونجم [1] النفاق من بعض المنافقين ، حتى قال معتب بن قشير ، أخو بنى عمرو بن عوف : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط ) [2] .

فهم المعاندون الذين فجروا بحق رسول الله ﷺ ، وواطؤوا عدوه عليه ، وهموا بغزو المسلمين ، لولا الحراسة التى كانت على المدينة حتى الصباح .

ولم ينس حسان أن يرسل نذيراً إلى قريش ، بالنهاية المفجعة نفسها إن أصرت على بغيها وفجورها ، ويعود ليؤكد خبر مقتل بنى قريظة عن آخرهم فى أبيات أربعة أخرى :

| | |
|---|---|
| لقد لقيت قريظة ما ساءها | وحلَّ بحصنها ذل ذليل |
| وسعد كان أنذرهم بنصح | بأن إلهكم رب جليل |
| فما برحوا بنقض العهد حتى | فلاهم [3] فى بلادهم الرسول |
| أحاط بحصنهم منا صفوف | له من حرّ وقعتهم صليل [4] |

إنه الإنذار المبكر الذى قاده السعدان إليهم يذكرانهم بالعهد والميثاق ، وبسخط الله على الخونة المارقين ، ولكن دون جدوى فما برحوا بنقض العهد يتباهون ويفتخرون ، ويحتقرون المسلمين وعهودهم حتى جاءهم القتل .

**﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) ﴾** [ الأحزاب] .

ونودع حسانًا فى أربعة أبيات أخرى ينهى فيها حديث بنى قريظة ، يركّز فيها على تجاهلهم لكتابهم التوراة .

| | |
|---|---|
| تفاقد [5] معشر نصروا قريشًا | وليس لهم ببلدتهم نصير |

(١) نجم النفاق : ظهر .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ٣٠٧ ـ ٣٠٩ .

(٣) فلاهم : قتلهم بالسيوف .

(٤) الصليل : الصوت كصليل الفخار وغيره .

(٥) تفاقد : فقد بعضهم بعضًا .

هم أوتوا الكتاب فضيعوه  وهم عُمى (١) من التوراة بور (٢)
كفرتم بالقرآن وقد أتيتم  بتصديق الذى قال النذير
فهات على سراة بنى لؤى (٣)  حريق بالبويرة (٤) مستطير (٥)

فهو يضرب عدة أهداف بسهم واحد : حين يعيّر قريشًا بخذلانها اليهود ، وتركهم وحدهم فى الساحة ، فقد افتُقدوا عندما كان اليهود بحاجة لنصرتهم ، فغدوا لا نصير لهم، وحقَّ أن يقع بهم هذا المصير الأسود فهم قد تركوا حكم التوراة وعموا عنها حين لم يصدقوا نبوة محمد ﷺ،والتوراة هى التى بشرَّت به ، فهلكوا لأنهم ضيَّعوا كتابهم ، ولم يصدّقوا القرآن ،الكتاب الخاتم ، الذى جاء مصدقًا لما بين يديهم من التوراة ، وقد هان على سراة بنى لؤى من قريش ، هذا المصير والحريق للنخل والقتل للناس من بنى قريظة ، فلم يهبوا لنصرتهم لهوانهم عليهم ، مما اضطر أبا سفيان بن الحارث ، أن يدفع عن قريش هذا العار قائلاً :

أدام الله ذلك من صنيع  وحرَّق فى طرائفها السعير
ستعلم أينا منها بنزهٍ (٦)  وتعلم أن أرضينا تضير (٧)
فلو كان النخيل بها ركابًا  لقالوا لا مقام لكم فسيروا

وهذه الأبيات الثلاثة مشكلة أن تنسب إلى أبى سفيان بن الحارث ، فكيف يدعو بدوام هذا الصنيع،ويدعو باستمرار السعير فى طرقها ،وهو حليف اليهود ، إلا إذا اعتبرنا أن قريشًا اعتبرت بنى قريظة قد نقضت عهدها معهم ، فلم تقاتل محمدًا فى اللحظات الحاسمة ، وطلبت من قريش الرهائن ثمنًا لقتالها ، فهو يشمت بها ،ويعتبر ما حلَّ بها قدرًا مبرمًا ، لخيانتها لقريش ، ثم يوجه خطابه لحسان ، أنك ستعلم من منا تنجو أرضه ، ومن منا ستخرب أرضه ،ويبقى الإشكال قائمًا إلى أن نلقى حلاً له فى رواية أوردها الحافظ ابن حجر فى فتح البارى يقول فيها : ( وعند شيخ شيوخنا أبى الفتح بن سيد الناس فى عيون الأثر

---

(١) عُمى : من العمى .
(٢) بور : هلكى .
(٣) سراة بنى لؤى : خيارهم .
(٤) البويرة : موضع بنى قريظة .
(٥) مستطير : مشتد .
(٦) بنزه : النزه : البعد : فلان يتنزه عن الأقذار ، أى يباعد نفسه عنها .
(٧) تضير : تضرّ .

له عن أبى عمرو الشيبانى أن الذى قال له : ( وهان على سراة بنى لؤى ) هو أبو سفيان بن الحارث ، وأنه إنما قال : (وعز) بدل (وهان) وأن الذى أجاب بقوله :

( أدام الله ذلك من صنيع . . ) للبيتين هو حسان . قال : وهو أشبه من الرواية التى وقعت فى البخارى ، ولم يذكر مستنداً للترجيح ، والذى يظهر أن الذى فى الصحيح أصح )[١] .

ويرتفع صوت واحد يدافع عن اليهود من جبل بن جوال الثعلبى يبكى على بنى النضير وبنى قريظة ، وذلك قبل أن يسلم :

ألا يا سعدُ سعد بنى معاذ ... لما لقيت قريظة والنضير
لعمرك إن سعد بنى معاذ ... غداة تحملوا لهو الصبور
فأما الخزرجى أبو حباب[٢] ... فقال لقينقاع لا تسيروا
وبُدِّلت الموالى من حضير ... أسيداً والدوائر قد تدور
وأقفرت البويرة من سلام ... وسعية وابن أخطب فهى بور
وقد كانوا ببلدتهم ثقالاً ... كما ثقلت بميطان[٣] الصخور

وهنا يعرّض جبل بن جوال بسعد بن معاذ ، لكنه يقدمه ذمًا بصيغة المدح ، والصبور سعد هنا يعنى أنه صبور على ضيم حلفائه ،ولم يحرك ساكنًا لحمايتهم ، أو يثأر لقتلهم ، فالصبر هنا مذمّة ، أما الخزرجى عبد الله بن أبى ، فقد حمى حلفاءه ، وقال لقينقاع : لا تسيروا ، فهو قد ربط مصيره بمصيرهم ، ثم يعرّض بالسيد الثانى للأوس أسيد بن حضير ، فأين أبوه حضير بن السماك الذى كان يقود الحروب لحماية حلفائه الأوس ، لقد بدل حضير بابنه أسيد الذى ترك اليهود يذبحون دون أن يحرّك ساكنًا لحمايتهم .

وأقفرت البويرة من سلام ... وسعية وابن أخطب فهى بور

لقد أقفرت أرض النضير من سيدها سلام بن أبى الحقيق وسيدها حيى بن

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧ / ٣٣٣ .

(٢) الخزرجى أبو حباب : هو عبد الله بن أبى بن سلول زعيم المنافقين .

(٣) مَيطان : اسم جبل بالمدينة ليس به شىء من النبات .

أخطب، وسيدها سعية فصارت بوراً خلاءً منهم ، وقد كانوا هم الوزن والقيمة لبلادهم ، كما تقوم الصخور الشم فى الجبال الرواسى :

| | |
|---|---|
| فإن يهلك أبو حكم سلام | فلا رث [1] السلاح ولا دثور [2] |
| وكل الكاهنين وكان فيهم | مع اللين الخضارمة [3] الصقور |
| وجدنا المجد قد ثبتوا عليه | بمجد لا تغيبّه البدور [4] |
| أقيموا يا سراة الأوس فيها | كأنكم من المخزاة عور [5] |
| تركتم قِدركم لا شىء فيها | وقِدر القوم حامية تفور [6] |

وقد هلك سلام بن أبى الحقيق ، بعد مهلك قومه بنى النضير ، وهو بيته بخيبر ، فلابد من الثأر له ، وما هلك السلاح ، وما اندرس بعد ، وأبناءه الكاهنين لا يزالون أحياء للثأر بخيبر ، ومع لينهم فهم الأجواد الكرماء ، والأبطال العظام، قد نبتوا فى المجد ، ولن يغيب المجد عنهم ، ولن تُغيب البدور مجدهم ، وهى كر الليالى عليهم ، أما أنتم يا سراة الأوس الذين خذلتم حلفائكم وشاركتم فى ذبحهم إنما قلعتم عينكم بالخزى الذى نزل بكم بهذه المواقف حيث تركتم قدر حلفائكم تحترق ، وقدركم خالية من الهم والغم ، والقدر هنا بمعنى الحرب المشتعلة فى بنى قريظة ، بينما هى هادئة وساكنة عند الأوس حلفائهم.

---

(١) الرث : الخلَق . (٢) الدثور : الدارس المتغير .

(٣) الخضارمة : الأجواد الكرماء .

(٤) لا تغيّبه البدور : أى لا تغيره الأيام والليالى .

(٥) عور : جمع أعور .

(٦) السيرة النبوية لابن هشام ذ/ ٣ / ٣٧٩ ـ ٣٨٠ .



# الفصل الرابع
# المحوران الباقيان والنقائض

**الآبدة الأولى :**

كعب بن مالك الشاعر البطل يخلد لنا غزوة الخندق فى قصيدتين رائعتين صاغهما ابتداء ، يعبّر فيهما عن الكتيبة المسلمة ، بعيدًا عن رد الفعل ، وانطلاقًا من وحى هجوم الأحزاب على المسلمين :

ألا أبلغ قريشًا أن سلعًا (1) ... وما بين العريض إلى الصماد (2)
نواضح (3) فى الحروب مدربات ... وخوص (4) ثقِّبت (5) من عهد عاد
رواكد (6) يزخر (7) المرار (8) فيها ... فليست بالجمام (9) ولا الثماد (10)
كأن الغاب (11) والبردى (12) فيها ... أجشٌّ (13) إذا تبقَّع (14) للحصاد
ولم نجعل تجارتنا اشتراء الـ ... حمير لأرض دوس (15) أو مراد
بلاد لم تثر إلا لكيما ... بخالد إن نشطتم للجلاد
أثرنا سكة (16) الأنباط (17) فيها ... فلم ترَ مثلها جلهات (18) واد
قصرنا كل ذى حضر(19) وطولٍ (20) ... على الغايات (21) مقتدر جواد

---

(1) سلع : اسم جبل .
(2) الضماد : فى بلاد بلغازى بمنطقة جازان .
(3) النواضح : الإبل التى يستقى عليها الماء .
(4) خوص : آبار ضيقة .
(5) ثقبت : حفرت .
(6) رواكد : ثابتة دائمة .
(7) يزخر : يعلو ويرتفع .
(8) المُرَّار : الذى يمر فيها .
(9) الجمام : جمع جمة وهى البئر الكثيرة الماء .
(10) الثماد : جمع ثمد وهو الماء القليل .
(11) الغاب : الشجر الملتف .
(12) البردى : شىء ينبت فى البرك تصنع منه الحصر الغلاظ .
(13) أجش : عالى الصوت .
(14) تبقع : صارت فيه بقع صفر .
(15) دوس : قبيلة وكذلك مراد .
(16) السكة : الصف من النخل .
(17) الأنباط : قوم من العجم .
(18) الجلهات : جمع جلهة وهى ما استقبلك من الوادى .
(19) حضر : الجرى ويقصد الخيل ومن رواه الخطر أى القدر .
(20) الطول : الفضل .
(21) الغايات : حيث ينتهى طَلَق الفرس .

إنها بالأسلوب الجاهلى ، وبلغة الجاهليين التى يفهمونها ، فهو بضع حمىً يمتد من المدينة إلى منطقة الضماد فى اليمن كلها ممتلئة إبلاً مدربة على الحرب حين تحين الحرب ، وتسقى الحرث والضرع حين يكون السلم وكل هذه الآبار الممتدة فيها والمترعة بالمياه ، أو الضنينة فيها بما تحمل من حشائش وطحالب ، كلها معدة للجلاد والمواجهة حين يحين الجلاد . ونحن لم نخلق لتجارة الحمير ، إنما اخترنا الزرع والضرع فى مرابعنا لنكون على أهبة الاستعداد لصد كل باغ يروم مس حمانا والنيل منه . لسنا دعاة قتال وإرهاب ، إنما ندعوكم إلى الله وحده ، لكن إن أصررتم على البغى كما فعلتم فى الخندق ، وجئتم بأوشاب العرب من كل فج تريدون غزو المدينة ، واستئصال شأفتنا والإجهاز علينا . فماذا لكم عندنا ؟

| | |
|---|---|
| أجيبونا إلى ما نجتديكم [1] | من القول المبين والسداد |
| وإلا فاصبروا لجلاد يوم | لكم منا إلى شطر [2] المذاد [3] |
| نصبّحكم بكل أخى حروب | وكل مطهم [4] سلس القياد |
| وكل طمرَّة خَفِق حشاها | تدف [5] دفيف صفراء الجراد |
| وكل مقلَّص[6] الآراب [7] نهدٍ [8] | تميم الخلق من أُخُرٍ وهادى [9] |
| خيول لا تضاع إذا أضبعت | خيول الناس فى السَّنة الجماد [10] |
| ينازعن الأعنة مصغيات [11] | إذا نادى إلى الفزع المنادى |

لقد أخذ كعب الإشارة من رسول اله ﷺ إلى أن جولة المشركين قد انتهت ، وأن الدورة عادت للمؤمنين بعد الخندق إذ يقول عليه الصلاة والسلام بعد رحيل الأحزاب:

( ولما انصرف أهل الخندق عن الخندق ، قال رسول الله ﷺ فيما بلغنى :

---

(١) نجتديكم : نطلب منكم .
(٢) الشطر : الناحية والقصد .
(٣) المذاد : موضع .
(٤) المطهم : الفرس التام الخلق .
(٥) تدف : تطير فى جريها .
(٦) المقلص : المنشمر الشديد .
(٧) الآراب : جمع أُربة بضم الهمزة وهى القطعة من اللحم .
(٨) النهد : الغليظ .
(٩) الهادى : العنق .وأراد أنه تام الخلق من مقدم ومؤخر .
(١٠) السنة الجماد : السنة القحط .
(١١) مصغيات : مستمعات .

« لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، ولكنكم تغزونهم » . فلم تغزهم قريش بعد ذلك كان هو الذى يغزوها حتى فتح الله عليه مكة .

وفى رواية البخارى عن أبى إسحاق قال : سمعت سليمان بن صرد يقول : سمعت النبى ﷺ يقول حين أجلى الأحزاب: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم » [1] .

إنه لابد قادم هذا اليوم حين نصبحكم بالأبطال أبناء الحروب ، فرسانَ وراجلين ، والخيل معقود فى نواصيها الخير ، بكل حصان تام الخَلْق سلس القيادَ إلى الحرب ، وكل فرس سبوح تطير طيران أسراب الجراد وحشاها يخفق من السرعة ، نتسابق مع الحصان المهند الذى تم خلقه بمقدمه ومؤخره .

هذه الخيول خلقت للحرب حين تضيع خيول الناس فى الأيام المجدبة والسنين الشداد . ما إن يصل إلى مسامعهن صوت المنادى للجهاد وصهيل الخيل إلا ويثبن فى مكانهن ينازعن الأعنة واللجم يردن الطيران إلى ساحة الوغى . إنها صور تتزاحم وتتلاحق حتى كأنما الساحة ملئت أمامنا خيلاً ورجلاً ، مما بين طائر سبوح إلى هدفه ومنازع لأعنته جموح يريد الانقضاض على العدو ، وهو منظر أبدع كعب فى عرضه، حتى يبرز لنا كل جزئية فيه من خفق القلوب ، ومنازعة الأعنة ، وجمال التكوين ، وخفة الحركة وألوان الخيل ، فاختيار كلمة المفهم لتعطينا كل صفات هذا الجواد فهو دقيق الجسم بارع الجمال ، تام الخلق ، وكأنما الساحة تموج أمام أعيننا بآلاف الخيول .

وفجأة يبرز الإسلام فى بيت واحدٍ لا يعرفه إلا أبناء الإسلام .

إذا قالت لنا النذر استعدوا ... توكلنا على رب العباد

فاللجوء إلى الله والاعتماد عليه لا على الذات ، والقوة والكثرة ، ويعود ثانية من الخيل إلى القوم .

وقلنا لن يفرّج ما لقينا ... سوى ضرب القوانس [2] والجهاد

(١) صحيح البخارى ٣ / ٥ / ٤٩ .

(٢) القوانس : أعالى بيض الحديد .

فلم تـر عـصـبـة فـيـمـن لقـينا — من الأقـوام من قـارٍ [1] وبـادى [2]

أشـد بسـالة [3] مـنا إذا مـا — أردنـاه وألـيـن فـى الـوداد

إذا مـا نـحن أشـرجـنا [4] عليـها — حياد الجدل [5] فى الأرب [6] الشداد

قـذفنا فـى السـوابغ [7] كل صـقـر — كـريم غـيـر مـعـتلث [8] الـزنـاد

أشـم [9] كـأنه أسـد عـبـوسٌ — غـداة بدا ببطن الجـزع [10] عـادى

يغـشى هـامـة البطل المـذكى [11] — صبى السيف [12] مسترخى النجاد [13]

ونحن نعلم أنه بعد التوكل على الله لا ملجأ لنا إلا سيوفنا ، وجهاد عدونا ، وضرب هامات أبطاله وأعالى بيض الحديد فى رأسه . فهل رأيت فيمن لقيت من أهل الحاضر والبادية أشد بأسًا منا إذا التقينا ، وألين عريكة منا إذا نادمنا ، ونحن حين نقذف الدروع فى أعناقنا ، ونمضى إلى الموت ، وكأنما الصقور الشداد والآساد العظام هى التى تقذف فى الدروع هم كرام الخلق ، أسد عبوس أشم العرانين . لا يعرف إلا الموت حين يرى مقدم العدو نحوه . ولا يتركه حتى يغشى هامة أبطاله بالسيوف الصلتة الحداد. طويلة النجاد،وما هو الهدف وراء هذا كله ؟

لنظهر دينك اللهم إنا — بكفك فاهدنا سبل الرشاد

فنحن جند الرحمن ، اصطفنا على عينه ، نربو فى كفه ، ونتلمس الهدى من نوره .

إن عظمة هذه القصيدة أنك لو نزعت منها هذين البيتين . بيت التوكل على رب العباد وبيت إظهار دين الله وشريعته ، لما شككت أبدًا أنها قصيدة جاهلية مغرقة فى الأدب الجاهلى فى ألفاظها ومبانيها ومعانيها .

---

(١) القارى : من كان من أهل القرى .

(٢) البادى : من أهل البادية .

(٣) البسالة : الشدة والشجاعة .

(٤) أشرجنا : ربطنا .

(٥) الجَدْل : جمع جدلاء وهى الدرع المحكمة النسج .

(٦) الأزب : بالزاء الشديد والضيق ، ومن رواه فى الأرب فهو جمع أربة وهى العقدة الشديدة .

(٧) السوابغ : الدروع الكاملة .

(٨) الزناد المعتلث : هو الذى لا يورى نارًا.

(٩) أشم: عزيز .

(١٠) الجزع : جانب الوادى .

(١١) المذكَّى : الذى بلغ الغاية من القوة .

(١٢) صبى السيف : أوسطه وذبابه .

(١٣) النجاد : حمائل السيف .

وفى وضع هذين البيتين فى قلب القصيدة ونهايتها ، عادت فصبغت القصيدة كلها صبغة إسلامية وذلك حين يتضح الهدف من الحرب ، وحين تُغمَرُ القلوب بالتوكل على الله إذا ما جاء الباغى يقتحم الديار .

قال ابن هشام : بيتيه : قصرنا كل ذى حضر وطول . والبيت الذى يتلوه والبيت الثالث منه . والبيت الرابع منه ، وبيتيه : أشم كأنه أسد عبوس . والبيت الذى يتلوه عن أبى زيد الأنصارى [1] .

**الآبدة الثانية :**

وإذا كانت القصيدة الأولى تتحدث عن مطالع الغيب ، وأفق المستقبل فهذه القصيدة إنما هى وصف حى لجو الخندق ، وجو رجاله وأبطاله :

من سرَّه ضرب يمعمع بعضه ... بعضًا كمعمعة [2] الأباء [3] المحرَق

فليأت مأسدة [4] تسن سيوفها ... بين لمذاد [5] وبين جزع [6] الخندق

دَربوا بضرب المعلمين [7] وأسلموا ... مهجات [8] أنفسهم لرب المشرق[9]

فى عصبة [10] نصر الإله نبيه ... بهمُ وكان بعبده ذا مرفَقِ

فى كل سابغة[11] تخط فضولها [12] ... كالنهى [13] هبت ريحه المترقرقِ

بيضاء محكمة كأن قتيرها [14] ... حدق الجنادب[15] ذات شك[16] موثَقِ

جدلاء [17] يحفزها[18] نجاد مهند ... صافى الحديدة صارم ذى رونق

إنه يقف بنا ابتداء عند لقاء الجمعين حيث التفت الآلاف المؤلفة . واشتجرت

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام / ٣/ ٣٦٦ - ٣٧٠ .

(٢) المعمعة : صوت التهاب النار وحريقها .

(٣) الأباء : القصب ويقال الأغصان الملتفة .

(٤) المأسدة : موضع الأسود يعنى بها هنا موضع الحرب .

(٥) المذاد : موضع .

(٦) الجزع : الجانب هنا .

(٧) المعلمون : الذين يعلمون أنفسهم فى الحرب بعلامة يعرفون بها .

(٨) المهجات : جمع مهجة وهى النفس .

(٩) لرب المشرق : أراد المشرق والمغرب .

(١٠) العصبة : الجماعة .

(١١) السابغة : الدروع الكاملة .

(١٢) يحط فضولها : يبخر على الأرض ما فضل منها .

(١٣) النهى : الغدير من الماء .

(١٤) القتيرة : مسامير حلق الدروع .

(١٥) الجنادب : ذكور الجراد .

(١٦) الشك : إحكام السرد .

(١٧) جدلاء : درع محكمة النسج .

(١٨) يحفزها : يرفعها .

مع بعضها كما تلتف أشجار الغابة . وقد مضى كل فريق إلى سيوفه يسن حديدتيها وإلى سهامه يبرى ريشها . ثم يغادر الأحزاب إلى صف هذه العصبة الفريدة في التاريخ والتى اختصت بضرب الأبطال الموسومين المعلمين ، لأن قلوبهم تعيش مع الرحمن رب السموات والأرض فَمِمّ يهابون ؟ هذه العصبة الخالدة هى كتيبة الإيمان فى الأرض التى أعدّها رب العزة جل جلاله لينصر بها نبيه .

ويعود بنا من أعماق القلوب ليصف مظاهر القتال وعدته . إنهم يتحركون بدروعهم السابغة التى تخط الأرض بفضولها ، وكأنما أتت بجوار غدران المياه وقد هبت الريح ، فأسلست نغماته ، ولا يكتفى أن يجول بنا من بعيد . ها هو يقترب بنا لنتفحص هذه الدروع هل هى محكمة كما هى سابغة ؟ نعم ! إنها من مسامير حلق الدروع كأنها الجراد المبرقة المتأججة ، وقد تشابكت فى بعضها وانتظمت فى سردها ، لا تكاد ترى الجسم فيها إلا حين ترفعها حمائل السيف القاطع ، الذى أعدّ للموت الزؤام.

وإذا به يفاجئنا بلباس آخر غير الدروع المحكمة . هذا اللباس لا يعرفه الجاهليون أبدًا :

تلكم مع التقوى تكون لباسنا ... يوم الهياج وكل ساعة مصدق
نصل السيوف إذا قصرت بخطونا ... قُدُمًا ونُلحقها إذا لم تلحق
فترى الجماجم [1] ضاحيًا[2] هاماتها ... بَلْهَ [3] الأكف كأنها لم تُخلَق
نلقى العدو بفخمة [4] ململومة [5] ... تنفى الجموع كفصدر رأسى المشرق[6]
ونعد لأعداء كل مقلَّصٍ [7] ... وَرْدٍ ومحجول القوائم أبلق
تردى [8] بفرسان كأن كماتهم [9] ... عند الهياج أسود طل[10] مُلْثِقِ [11]
صدق يعاطون الكماة حتوفهم ... تحت العماية[12] الوشيج[13] المزهِق[14][15]

---

(١) الجماجم : جمع جمجمة وهى الرأس . (٢) ضاحيًا : بارزًا للشمس .
(٣) بله : اسم سمى به الفعل ، ومعناه اترك ودع والألَف منصوب به .
(٤) الفخمة : كتيبة . (٥) الململومة : المجتمعة .
(٦) المشرق: هنا جبل ومن رواه كرأس قدس المشرق فيعنى يقدس هنا جبلاً وهو غير مصروف والمشرق نعت له.
(٧) كل مقلص : يعنى فرسًا خفيفًا مشمرًا. (٨) تردى : تسرع .
(٩) الكماة : الشجعان . (١٠) الطل : الضعيف من المطر .
(١١) الملثق : الذى يبل واللثق البلل. (١٢) العماية : سحابة الغبار وظلمته .
(١٣) الوشيج : الرماح . (١٤) المزهق : المذهب للنفوس .
(١٥) السيرة النبوية ذ/ ٣/ ٣٦٤-٣٦٥ .

ولباس التقوى ذلك خير . ما كان يمكن أن يمر كعب رضي الله عنه دون أن يشير إليها كما تعلم من مدرسة الإيمان الخالدة . ثم تنجلى الصورة الحية فى البيت الذى يليه :

نصل السيوف إذا قصرن بخطونا قدمًا ونلحقها إذا لم تلحق (١)

إن سيوفنا إذا كانت قصيرة . لكن همتنا وسرعة اندفاعنا الخاطفة نتلافى هذا القصر ، فخطونا الخاطف نحو العدو يجعلنا نلحق به ولما يتحرك . فما ترى إلا هامات تهوى بعد أن سقطت عنها جماجمها . أما الأكف والسواعد فكأنها عند البتر لم تخلق أصلاً ، وما تذكر بجوار سقوط الجماجم . ونحن نلقى عدونا بالكتيبة الضخمة المجتمعة على قلب رجل واحد ، فتمزق الأحزاب والأعداء والجموع وتجليهم كجبل قدس المشرق ونعد للأعداء الخيول المحجلة ذات القوائم البلق . وعلى متنها الفرسان ( وأبطالهم عند الهياج أسود طل ملثق . والطل معروف واللثق ماسك ؟ عن الطل من زلق وطين ، والأُسد أجوع ما تكون وأجرأ فى ذلك الحين ) (٢) .

وهم صدق عند اللقاء مهمتهم أن يعطوا الكماة الأبطال من خصومهم حتوفهم بأيمانهم تحت سحابة الغبار وظلمته بالرماح المزهقة للنفوس . لينهى وجود هؤلاء الكماة.

إنه بعد أن يبلغ قمة الإبداع فى وصف القوة الإسلامية صوراً حية تتراءى وتتراقص أمامنا . يعود ثانية إلى القلوب العامرة بالإيمان إلى كتيبة الإسلام . فهو يكلم بيئته العربية باللهجة التى يفهمون بها . ومنها يأتى بهذه البيئة ليعرض عليها الإسلام ويضعها فى محضنه .

أمر الإله بربطها لعدوه فى الحرب إن الله خير موفق
لتكون غيظًا للعدو وحيَّطا (٣) للدار إن دلفت(٤) خيول النّزق (٥)
ويعيننا الله العزيز بقوة منه وصدق الصبر ساعة نلتقى

(١) الروض الأنف للسهيلى ٢ / ٣ / ٣٠١ . (٢) المصدر نفسه ص ٣٠١.
(٣) حُيَّط : جمع حائط وهو اسم الفاعل من حاط ويحوط .
(٤) دلفت : قربت . (٥) النزق : جمع نازق وهو الغاضب السيئ الخلق .

ونطيع أمر نبينا ونجيبه ... وإذا دعا لكريهة لم تُسبَق
ومتى يُناد إلى الشدائد نأتها ... ومتى نرى الحومات [1] فيها نعنق[2]
من يتبع قول النبى فإنه ... فينا مطاع الأمر حق مصدق
فبذاك ينصرنا ويظهر عزنا ... ويصيبنا من نيل ذاك بمرفق
إن الذين يكذبون محمدًا ... كفروا وضلوا عن سبيل المتقى

قال ابن هشام : أنشدنى بيتيه : ( تلكم مع التقوى تكون لباسنا ) وبيته ( من يتبع قول النبى ) أبو زيد ، وأنشدنى (نبغى الجموع كرأس قدس المشرق)[3] .

هذا البيان الشامخ للقصيدة الذى يمكن أن نوزعه ثلاثة أثلاث . أما الثلثان الأولان ، فهو المأسدة التى تمت بين الفريقين فى الخندق ، وعظمة البطولة للفريق الثانى، حتى ليتجاوز فى الفخر بقوة المسلمين الوضع المحلى إلى البيئة العالمية . ويكون عبقرى الإبداع فى وصف هذه البطولة .

نصل السيوف إذا قصرن بخطونا ... قدمًا ونلحقها إذا لم تلحق
فترى الجماجم ضاحيًا هاماتها ... بله الأكف كأنها لم تخلق
صدق يعاطون الكماة حتوفهم ... تحت العماية بالوشيج المزهق

وكما فعل فى رائعته الأولى .نلقاه فى ثلثى هذه القصيدة يضمن بيتين فقط . فيصبغها الصبغة الإسلامية الخالصة .

وأما البيت الأول:

فى عصبة نصر الإله نبيه ... بهم وكان بعبده ذا مرفق

أما البيت الثانى:

تلكم مع التقوى تكون لباسنا ... يوم الهياج وكل ساعة مصدق

لكنه لا يرتوى حتى يجعل الثلث الأخير ونيف ، كله نَفَسًا إسلاميًا خالصًا إنهم عصبة الإله . ولباسهم التقوى وخيولهم كذلك جزء من بنائهم الجديد . فقد

---

(١) الحومات : جمع حومة وهى موضع القتال . (٢) نعنق : نسر .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ٣٦٣ ـ ٣٦٥ .

أمر الله تعالى بربطها فى سبيل الله لمجاهدة أعداء الله :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٦٠) ﴾ [ الأنفال] . فهى غيظ لأعداء الله وحماية للدار إن همّ الأعداء فى الاقتراب منها .

ويمكن القول أن روح غزوة الخندق برزت فى هذه الأبيات الأخيرة . روح الصبر والمجالدة ، ومواجهة العدو الزاحف ، والتغلب على الخوف حيث بلغت القلوب الحناجر ، وحيث تمت الزلزلة ، ها هو ينقل لنا روح الكتيبة المؤمنة التى قال الله تعالى فيها : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) ﴾ [الأحزاب] فها هو ينقل هذا الجو الصعب بقوله :

ويعيننا الله العزيز بقوة　　　منه وصدق الصبر ساعة نلتقى

وهو يشير إلى طاعة أمر رسول الله ﷺ والاستجابة له فى هذه الأهوال المخيفة ( وإذ أدى لكريهة لم نسبق ) واستعمال جو الكريهة هنا له إقاعاته النفسية عن الجو الصعب فى الخندق ، وكذلك كلمة الشدائد في قوله : ومتى يناد إلى الشدائد نأتها ، ويربط بعد هذا كله النصر بالله رب العالمين وحده ، وسبيل هذا النصر هو طاعة النبى الحبيب القائد والاستجابة لأمره .

فبذاك ينصرنا ويظهر عزنا　　　ويصيبنا من نيل ذاك بمرفق

أما العصاة الآبقون المكذبون فقد كفروا وضلوا سواء السبيل .وجنحوا عن صراط المتقين .

إن هذه الأبيات الأخيرة هى العرض الصادق والأمين لغزوة الخندق وأجوائها التى سبق وتحدثنا عنها فى بداية الفصل السابق . وهى رسالة إلى العرب قاطبة حين يعجبون من فشل الأحزاب فى آلافها العشرة من أن تحقق أدنى كسب أو تحقق أدنى انتصار ، إنه الصبر على المكاره ، والثبات على الشدائد ، والاعتصام بالله سبحانه من دون الناس ، واللجوء إليه وحده دون الأسباب ، إنها الأمة

الفتية التى ســادت وراء قائد واحد هو نبيها ورسول رب العــالمين إليها وإلى الناس كافة .

### من النقائض بين ضرار وكعب :

لابد من الحديث عن ضرار بن الخطاب الشاعر الفارس البطل ودوره فى غزوة الخندق لندرس نفسيته من خلال المعركة كما شهدناها فى أُحد .

فهو واحد من خمسة أبطال اقتحموا الخندق . ودخلوا إلى الساحة الإسلامية يتحــدون المسلمين . وإنــه بألفين . إذا عُدَّ أبطال الرجــال ، وهو واحد من تســعة شعراء ساقهم صاحب طبقات فحول الشعراء فى مكة .

( فعــبر عكرمة بن أبى جــهل ، ونوفل بن عبــد الله ، وضرار بن الخطاب ، وهبيرة بن أبى وهب ، وعمرو بن عبــد . وقام سائر المشركين من وراء الخندق لا يعبرون، وقيل لأبى سفيان : ألا تعبر ؟ قال : قد عبرتم ، فإن احتجتم إلينا عبرنا ، ولننظر إلى مصير هؤلاء الخمسة .

**أما عمــرو بن عبد ود** : ( فدنا أحــدهما من صاحــبه (على وعــمرو ) وثارت بينهما غبرة فما نراهما ، فسمعنا التكبــير تحتها فعرفنا أن عليًا قتله فانكشف أصحابه الذين فى الخندق هاربين . وطفرت بهم خيلهم .

**إلا أن نوفل بن عــبد الله** : وقع به فرســه فى الخندق ، فرمى بالحجــارة حتى قتل . ورجــعوا هاربين ، وخــرج فى أثرهم الزبيــر بن العوام وعمــر بن الخطاب فناوشوهم ساعة . ويقال : حمل الزبير على نوفل بن عبد الله بن المغيرة بالسيف حتى شقه باثنــين وقطع أندرج سرجه . . . فقيل : يا أبا عبد الــله . ما رأينا سيفًا مثل سيفك . فيقول : والله ما هو بالسيف ولكنها الساعد .

**وهرب عكرمة وهبيرة** : فلحقــا بأبى سفيــان ، وحمل الزبير على هبــيرة ، فضرب ثغر فرسه فقطع ثغر فرسه وسقطت درع كان محقبها الفرس ، فأخذ الزبير الدرع ، وفر عكرمة وألقى رمحه )[1] .

**وحمل ضرار بن الخطاب** : على عمر بن الخطاب بالرمح حتى إذا وجد عمر

---

(١) المغازى النبوية للواقدى ( مع تقديم وتأخير ) ٢ / ٤٧١ ، ٤٧٢ .

مسَّ الرمح رفعه عنه وقال : هذه نعمة مشكورة فاحفظها يابن الخطاب ! إنى قد حلفت لا تمكننى يداى من رجل من قريش أبدًا . فانصرف ضرار راجعًا إلى أبى سفيان وأصحابه وهم قيام عند جبل أبى عبيد )[1] .

هذا هو مصير القادة الخمسة قتل اثنان منهم ، وفر ثلاثة . لكن أخلاق الفارس الشهم قد برزت عند ضرار بن الخطاب الفهرى . حيث رفض قتل عمر رضي الله عنه . لأنه حلف ألا يقتل قرشيًا أبدًا . فنحن مع بطل جاهلى له قبة الجاهلية وبطولته وآداب فروسيته.

وبعد هذا العرض نعود إلى قصيدته :

ومشفقة نظن بها الظنونا ... وقد قدنا عرندسة [2] طحونا [3]

كأن زهاءها [4] أحد إذا ما ... بدت أركانه للناظرينا

ترى الأبدان [5] فيها مسبغات [6] ... على الأبطال واليلب [7] الحصينا

وجردًا كالقداح مسومات ... نؤم بها الغواة الخاطئينا

كأنهم إذا صالوا وصلنا ... بباب الخندقين مصافحونا

أناس لا نرى فيهم رشيدًا ... وقد قالوا ألسنا راشدينا

ولا بد أن يفخر ضرار بالأعداد الضخمة التى غزت المسلمين . فقد تحركوا فى جيش لم تشهد الجزيرة العربية مثيلاً له من عشرة آلاف مقاتل شاركت فيها قبائل الحجاز وقبائل نجد . فهى من الضخامة كأنما تنظر إلى جبل أحد حين تراها ولا تقع عينك إلا على الدروع السابغات ، والتروس والرماح . أما الفوارس فقد علوا ظهور الجياد والعتاق معلمات كالسهام. يريدون أن ينهوا هذا العصيان المسلح الذى قاده محمد ﷺ ضدهم . وحين تكون المواجهة بين الفريقين تتم المصافحة بالسيوف عوضًا عن الأكف .

---

(١) من الملاحظ أنه لا قرابة بين ضرار بن الخطاب الفهرى ، وعمر بن الخطاب العدوى ، إلا أنهما من قريش، لكن بطنيهما فهر وعدى متباعدة .

(٢) عرندسة طحونًا : العرندسة الشديدة القوة .

(٣) الطحون : التى تطحن كل ما مرت به .

(٤) زهاءها : عددها .

(٥) الأبدان : هنا الدروع .

(٦) المسبغات : الشاملة .

(٧) اليَلَب : هى التَرَسة ويقال الدَرَق .

وهم مصرون على غيّهم ومنابذتهم لنا . وينتقل إلى الفخر الثانى بعد العدد والعدة إلى قوة الحصار الذى ضربوه على المسلمين :

فأحجرناهم شهرًا كريتًا [1] وكنا فوقهم كالقاهرينا
نراوحهم ونغدو كل يوم عليهم فى السلاح مدججينا [2]
بأيدينا صوارم مرهفات [3] نقدُّ [4] بها المفارق [5] والشؤونا [6]
كأن وميضهن معريَّاتٍ إذا لاحت بأيدى مصلتينا [7]
وميض عقيفة [8] لمعت بليلٍ ترى فيها العقائق مستبينا

وهو وصف حقيقى لما فعلته الأحزاب بالمسلمين . لقد تجاوز الحصار شهرًا أو دنا منه على اختلاف الروايات . والمسلمون فى موقف الدفاع لا فى موقف الهجوم ، يغدو المشركون عليهم كل يوم فيناجزهم المسلمون ويبرزوا لهم .

وقد أعد المشركون عدتهم الرئيسة من الصوارم القاطعة لتغط الرؤوس وتفصلها عن الأجساد ، ووميض هذه السيوف ولمعانها يشبه وميض البرق فى الليلة الظلماء .

فلولا خندق كانوا لديه لدمرنا عليهم أجمعينا
ولكن حال دونهم وكانوا به من خوفنا متعوذينا
فإن نرجل فإنا قد تركنا لدى أبياتكم سعدًا رهينا
إذا جن الظلام سمعت نوحى [9] على سعدِ يرجّعن المنينا

وتأتينا الفقرة الثالثة من قصيدة ضرار ، التى يفخر فيها بمقتل سعد بن معاذ . ونجد روح الغيظ تنفث من خلال مواجهة المسلمين لهم بالخندق . وأنه لولا الخندق لدمروا المسلمين أجمعين . لكنه الخوف الذى دفع المسلمين لذلك . ولم

---

(١) كريتًا : تامًا كاملاً . (٢) المدجج : كامل السلاح .
(٣) مرهفات : قاطعات . (٤) تقد : تقطع .
(٥) المفارق : جمع مفرق وهو حيث يتفرق الشعر فى أعلى الجبهة .
(٦) الشؤون : هنا مجمع العظام فى أعلى الرأس .
(٧) المصلب : الذى جرد سيفه من غمده . (٨) العقيفة : السحابة التى تشق عن البرق .
(٩) النوح : جماعة النساء اللاتى ينحن .

يجد ما يفخر به من المعركة كلها بعد نشوبها فخراً حقيقياً غير مقتل سعد الذى يرجع الأنين النوحى عليه .

ولذلك لا يجد بدًا من أن يهدد ويتوعد للجولة القادمة :

وسوف نزوركم عما قريب ... كما زرناكم متوازرينا [1]

بجمع من كِنانة غير عزلٍ [2] ... كأسد الغاب قد حمت العرينا [3] [4]

ونجد نفس ضرار يضعف فى نهاية القصيدة بعد العز الشديد الذى دخل فيها من العرندسة الطحون إلى الزيارة القادمة بجمع من كنانة ، وأى تهديد هذا ، وقد جاؤوا اليوم بكنانة وغطفان وأسد وعامر وباؤوا أجمعهم بالفشل . وحين يشبه جمعه القادم بالأسد التى تحمى العرين لا يوفَّق فى هذا التشبيه لأنه إنما يغزو المسلمين فى عرينهم ، فلو شبَّه المسلمون أنفسهم بهذا التشبيه لكان أوفق وأبدع .

ويبرز كعب لضرار يواجهه بقصيدة مثل قصيدته فى عدد أبياتها وقافيتها ورويّها ومعانيها :

وسائلة تسائل ما لقينا ... ولو شهدت أرتنا صابرينا

صبرنا لا نرى لله عدلاً ... على ما نابنا متوكلينا

وكان لنا النبى وزير صدقٍ ... به نعلو البرية أجمعينا

نقاتل معشراً ظلموا وعقوا ... وكانوا بالعداوة مرصدينا [5]

نعاجلهم إذا نهضوا إلينا ... بضرب يعجل المتسرعينا

ولكن مطلع كعب فى قصيدته يخالف مطلع ضرار . فهو يدخل مدخل الهادئ المعترف بصعوبة الحصار وظروفه . ويبتدئ بالحديث مباشرة عن الصبر . والتوكل على الله . وإذا كان ضرار يريد تدمير المسلمين أجمعين . فعند كعب أنهم وزراء صدق لمحمد ﷺ . وبه يعلون البرية أجمعين . وحين يتحدث ضرار

(١) متوازرين : متعاونين .

(٢) العزل : الذين لا سلاح معهم واحدهم : أعزل .

(٣) العرين : موضع الأسد واحدته عرينة .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ٣٥٣ ـ ٣٥٤ .

(٥) مرصدينا : المرصد المعدّ للأمر يقال : أرصدت لهذا الأمر كذا وكذا أى أعددت له .

عن الغواة الخاطئين. يرد كعبًا عليه بأنهم يقاتلون الذين ظلموا وعقوا من قومهم ، وقد أرصدوا العداوة وصمموا على العدوان .

ويبدأ نفس كعب بالارتفاع والقوة عكس ما شهدنا ضرارًا عليه :

ترانا فى فضافض [١] سابغات [٢] ... كغدران [٣] الملا [٤] متسربلينا [٥]
وفى أيماننا بيض خفاف ... بها نشفى مراح [٦] الشاغبينا
بباب الخندقين كأن أسدًا ... شوابكهن [٧] يحمين العرينا
فوارسنا إذا بكروا وراحوا ... على الأعداء شوسًا [٨] معلمينا [٩]

إنه التشبيه المستمر دائمًا لأصوات الدروع السابغات بأصوات الغدران . أما السلاح الرئيسى فهو البيض الصوارم التى تكون دواء للمعتدين . ولا يمكن للأسد أن يدعنِ أحدًا يقتحمن عرينهن . فلذلك تمضى الفوارس معلمات مع البكور والرواح . يذرن كل عاد على الحمى والديار يقع بين براثنهن .

ويعلن بعدها الهوية الإسلامية الخالصة . وهو يناقض ضرارًا الذى يدعى الرشد ويتهم غيره بالغواة الخاطئين قائلاً :

لننصر أحمدًا والله حتى ... نكون عباد صدق مخلصينا
ويعلم أهل مكة حين ساروا ... وأحزاب أتوا متحزبينا
بأن الله ليس له شريك ... وأن الله مولى المؤمنينا

فالله تعالى هو الذى صرفكم وأخزاكم خائبين نادمين ، حتى اعتبرتموه نصرًا لكم فى قتل سعد ، هو نصر لسعد بدخوله الجنة :

فإما تقتلوا سعدًا سفاهًا ... فإن الله خير القادرينا
سيدخله جنانًا طيبات ... تكون مقامة للصالحينا

---

(١) الفضافض : الدروع المتسعة .
(٢) سابغات : مسبغات أى كاملة .
(٣) الغدران : جمع غدير .
(٤) الملا : المتسع من الأرض .
(٥) متسربلون : لابسون للدروع .
(٦) المِراح : النشاط .
(٧) الشوابك : الذى يتثبت بها فلا يفلت .
(٨) الشوس: جمع أشوس وهو الذى ينظر نظر المتكبر بمؤخر عينه .
(٩) العلَم :

ودليل الوحدانيـة الخالص ، ودليل صدق النـبوة ، ودليل حمـاية الله تعالى لحزبه ، هو ارتدادكم خاسئين بريح صرصر عاتية كما قال أبو سفيان لجيشه :

يا معشر قريش،إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ،لقد هلك الكراع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذى نكره ، ولقـينا من شدة الريح ما ترون ما تطمئن لنا قدر ،ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فإنى مرتحل [1] .

وقد صاغ كعب هذا المعنى شعراً بقوله :

كـمـا قـدروكم فـلا [2] شـــريداً [3] بغـــيظـكم خـــزايا خـــائبـــينا

خـــزايـا لم تنـالوا ثم خـــيـــراً وكـــدتم أن تـكونوا دامـــريـنا [4]

بـريح عـــــاصف هـبَّت علـيكـم فكنتم تحـتـهـا مـتكـمـينا [5] [6]

**بين ابن الزبعرى وحسان وكعب :**

ويتقدم ابن الزبعرى الشـاعر الأول فى مكة ، ليبلغ آثار هذه الغزوة إلى أرض العرب من خلال إعلام مكة :

حى الديار مـحـا مـعـارف رسـمـهـا طول البلى [7] وتراوح الأحـقاب [8]

فكأنما كـتب اليـهـود رسـومـهـا إلا الكنيف [9] ومعـقد الأطناب [10]

فـقـراً كـأنك لم تكن تـلهـو بهـا فى نـعـــمـــة بأوانـس أتراب [11]

فـاترك تذكـر مـا مضى مـن عيشـة ومـحلـة خلق المقـــام يبـاب [12]

إنه عـود على بدء . على البكاء على الأطلال التى انمحى رسـمهـا من طول بلاها ومرور الدهور عليها . ولم يبق مـن آثار هذه الديار إلا الحفائر التى اتخذت

---

(١) السيرة النبوية : لابن هشام ذ / ٣ / ٣٢٢ ـ ٣٢٣ .

(٢) الفل : القوم المنهزمون.

(٣) الشريد : الطريد .

(٤) دامرين : هالكين من الدمار .

(٥) المتكمه : الأعمى الذى لا يبصر .

(٦) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ٣٥٤ ـ ٣٥٥ .

(٧) البلى : الفناء .

(٨) تراوح الأحقاب : مرور السنين .

(٩) الكنيف : الحفيرة والزرب الذى يصنع للإبل .

(١٠) الأطناب : الحبال .

(١١) الأتراب : من هم فى سن واحدة ، واحدتها ترب .

(١٢) اليباب : القفار .

كنفًا ومعاقد حبال الخيام قفر كأنما لم يمر بهـا ساكن ولم يله أوانس خفرات . دع عنك هذا التذكر . وهذا المحل لبباب الخرب ، وامض بنا إلى حدث الساعة .

واذكــر بلاء مـعــاشـر واشـكرهم ... سـاروا بأجـمعـهم من الأنصـاب [1]

أنصــاب مكة عــامـديـن ليـثــربِ ... فى ذى غياطل[2] جحفل جبجاب [3]

يدع الحـزون[4] مـناهـجًا [5] معلـومة ... فى كـل نشــر [6] طاهر وشــعـاب

فيـها الجيـاد شوازب [7] مـجنوبة [8] ... قُبٌّ [9] البطون لواحق[10] الأقراب[11]

من كل سَلهـبـة [12] وأجرد سلهب ... كالسـيد [13] بادر غـفـلَة الرُّقـابِ

وكمـا هى الحال فى وصف تعبئـة الجيش المتـحرك من مكة إلى المدينـة بعد منادمة الأطلال ومغادرتها ، فهؤلاء الأحزاب قد ساروا بأجمعهم ناصرين للأنصاب فى مكة وقاصدين يثرب فى جيش جحـفل جرار أصواته تسد الأفق إذا مر بالمرتفع من الأرض سوّاه بـالمنخفض فـيه من هول مطلعـه وكثـرة جنده ، كيف والخـيول الضامرات تطأ السهل والوعر يقودها الأبطال يعدونهـا لحرب المسلمين واستئصالهم ضامـرة البطون والخواصر طويلة الجسـد أفراسًا وجيـادًا مثل الذئب الذى يريد أن ينقض على فريـسته . أما قـائد هذه الجمـوع كلها ، فهـما البطلان الزعيـمان أبو سفيان بن حرب سيد البطحاء ، وعيينة بن حصن سيد غطفان .

جـيش عــيـينة قــاصـد بـلوائه ... فـيــه وصـخــر قــائد الأحــزاب

قرمـان [14] كالبـدرين أصبح فـيهـما ... غـيث الفقـيـر ومعـقِل [15] الهـراب

حـــتى إذا وردوا المـدينـة وارتدوا ... للمـوت كل مــجـرَّب قـضـاب [16]

شـهـرًا وعـشـرًا قـاهرين مـحـمـدًا ... وصــحابه فى الحـرب خيـر صحـاب

---

(١) الأنصاب : الحجارة المعظمة .

(٢) الغياطل : الأصوات .

(٣) جبجاب : كثير .

(٤) الحزون : جمع حزن وهو ما ارتفع من الأرض .

(٥) مناهج : جمع منهج وهو الطريق البين .

(٦) النشر : المرتفع من الأرض .

(٧) الشوازب : الضامرة .

(٨) المجنوبة : المقودة .

(٩) قب : ضامرة .

(١٠) لواحق : ضامرة .

(١١) الأقراب : جمع قرب ، وهو الخاصرة وما يليها .

(١٢) السلهبة : الطويلة .

(١٣) السيد : الذئب .

(١٤) قرمان : فحلان سيدان.

(١٥) المعقل : الملجأ .

(١٦) قضاب : قاطع .

نادوا برحلتهم صبيحة قلتم … كدنا نكون بها مع الخياب
لولا الخنادق غادروا من جمعهم … قتلى لطير سغَّبِ [1] وذئاب

هذان البدران اللذان يقودان هذه الجموع . وهما ليسا بنكرتين . فهما غيث الفقير . وملجأ الخائفين . وقد وردوا المدينة بهذه الأحزاب ، وارتدوا للموت . سلاحه المقاتل من السيوف القاطعة. وقد قهروا محمدًا وصحبه شهرًا وعشرة أيام . ثم ارتحلوا بعدها بعزهم وجاههم . لولا اللجوء إلى الخنادق التى خندقها محمد حول المدينة لكان جيشه كله طعامًا للذئاب الكاسرة والطيور الجارحة الساغبة فيهن وزير الإعلام الإسلامى حسان ليجيبه على الوزن والقافية والمبنى نفسه ، يعود معه كما بدأ إلى منادمة الأطلال :

هل رسم دارسة المقام يباب[2] … متكلم لمحاور بجواب
قفر عفا [3] دهِمٍ[4] السحاب رسومه … وهبوب كل مطلة [5] مرباب[6]
ولقد رأيت بها الحلول [7] يزينهم … بيض الوجوه ثواقب الأحساب
فدع الديار وذكر كل خريدة [8] … بيضاء آنسة الحديث كعاب [9]

وهل يتكلم رسم الديار البالية اليباب . ويرد بالجواب على من يحاوره ، لقد أزال آثاره ورسومه المطر الغزير والرياح الهوج . وما أعزها من ذكريات عندما كان يحل بهذه الديار السادة بيض الوجوه . كرام الحسب والنسب ، والآن هذه الأطلال من جدوى مناجاتها ، وجدوى ذكرها وذكر الخفرات الكواعب فيها دع عنك هذا . وتعالى إلى حديث القوم الطغاة الذين قصدوا المدينة لإبادتها وأهلها :

واشك الهموم إلى الإله وما ترى … من معشر ظلموا الرسول غضاب
ساروا بأجمعهم إليه وألّبوا [10] … أهل القرى وبوادى الأعراب
جيش عيينة وابن حرب فيهم … متخمطون [11] بحلبة [12] الأحزاب

---

(١) لطير سغب : جائعة .
(٢) اليباب : القفر .
(٣) عفا : غير ودُرِس .
(٤) دهم : جمع دهمة وهى المطر .
(٥) مطلة : مشرفة .
(٦) مربات : دائمة وثابتة .
(٧) الحلول : البيوت المجتمعة .
(٨) الخريدة : المرأة الناعمة الحبيبة .
(٩) الكعاب : التى نهد ثديها .
(١٠) ألبوا : جمعوا .
(١١) متخمطون : مختلطون ويقال : المتخمط الشديد الغضب والمتكبر .
(١٢) الحلبة : جماعة الخيل .

حتى إذا وردوا المدينة وارتجوا   قتلى الرسول ومغنم الأسلاب
وغدوا علينا قادرين بأيدهم (1)   ردوا بغيظهم على الأعقاب
بهبو معصفة (2) تفرّق جمعهم   وجنود ربك سيد الأرباب

وهو لا يكابر فى قوة الأحزاب ، ويمضى مع ابن الزبعرى فى تأكيد قوتهم وضخامتهم وزعامتهم،حيث ألقت قياد غطفان لعيينة ، وقياد قريش لأبى سفيان . وهو يؤكد ما هدَّد وتوعد به ابن الزبعرى فقد وردوا المدينة وقصدهم قتل محمد رسول الله ﷺ وصحبه ونهبها واستلابها . وغدوا بعددهم وقوتهم قادرين على القضاء على المسلمين . فمن الذين تدخَّل وغيَّر نتيجة المعركة ؟ ما هى القوة العظمى التى وصلت فى اللحظة الحاسمة ونصرت المسلمين ، وحدت بأن تعود هذه الأحزاب على أعقابها خاسرة . إنه يتأدب بأدب الإسلام ، وأدب القرآن ، ويبرأ من حوله وقوته وحول المسلمين وقوتهم ، كما قال الله تعالى له :

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا** (٩) ﴾ [ الأحزاب ] .

الله تعالى هو الذى حسم المعركة بجنود من عنده ، وريح عاتية هى من جند الله كذلك أعادت العدو خاسئًا يكاد يأكل قلبه من الغيظ . بل يستعمل التعبير القرآنى نفسه .

﴿ **وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا** (٢٥) ﴾ [ الأحزاب] .

فكفى الإله المؤمنين قتالهم   وأثابهم فى الأجر خير ثواب
من بعد ما قنطوا ففرق جمعهم   تنزيل نصر مليكنا الوهاب

إنه يتحدث عن الجند الثالث الذى بعثه الله تعالى وأنزل نعيم بن مسعود الذى فرَّق جمعهم ومزَّق صفهم .

وأقر عين محمد وصحابه   وأذل كل مكذب مرتاب

---

(1) الأيد : القوة .

(2) هبوب معصفة : ريح شديدة .

عاتى الفؤاد [١] موقَّع ذى ريبة [٢] في الكفر ليس بطاهر الأثواب
علق الشقاء بقلبه ففؤاده في الكفر آخر هذه الأحقاب [٣]

ويطالعنا كعب بن مالك رضي الله عنه في نقيضته لابن الزبعرى متجاوزًا تلك المقدمات الغزلية ومنادمة الأطلال والحديث عن الأحبة . حيث يدلف إلى الحرب مباشرة ويعرضها بنمط مستقبل لا مثيل له من قبل الأرض :

أبقى لنا حدث الحروب بقية من خير نحلة ربنا الوهاب
بيضاء مشرفة الذرى [٤] ومعاطنًا [٥] حُمُّ [٦] الجذوع [٧] غزيرة الأحلاب [٨]
كاللوب [٩] يبذل جمها [١٠] وحفيلها [١٢] للجار وابن العم والمنتاب [١٢]

هكذا قالوا لرسول الله ﷺ يوم بايعوه بيعة العقبة : نعم والذى بعثك بالحق نبيًا لنمنعك مما نمنع منه أزرنا ، فبايعنا يا رسول الله فنحن أبناء الحروب وأهل الحلقة ، ورثناها كابرًا عن كابر .

وحدث الحروب أبقى لهم هبة من الله عز وجل أرضًا بيضاء . مشرفة الذرا ومراعى للإبل . ومواطن للزرع . ترتع فيها الإبل فتكون محافل للحليب تدر الخير الكثير علينا . وحراتنا القاسية الصلدة . بينها تمتد أرضنا المعطاء . وهى تنتج خيراتها وبركاتها للقصاد من الجيران والضيفان والأقربين لا نمنعها عن أحد الخيل : وهذه الأرض مع أنهـا مرتع للإبل فهى كذلك مرتع للخيل التى تُعلَفُ الشعير والحشائش وتعد للحروب فتنبت فيها اللحم القوى . والظهر الأملس والقوائم الشديدة . وتترعرع حتى يكمل نموها وطولها . وقد حبست لله ولرسوله ترد العداة خاسئين إذا هموا بالاعتداء ، وتحوط الديار وتحمى الذمار ، وتردى العدو

---

(١) عاتي الفؤاد : قاسيه .
(٢) موقَّع : ذى عيب وأصله من التوقيع فى ظهر الدابة وهو انسلاخ يكون فيه .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ٣٥٦ ـ ٣٥٨ .
(٤) الذرا : الأعالى . (٥) المعاطن : مباول الإبل حول الماء .
(٦) حُمٌّ : سودٌ . (٧) الجذوع : يعنى أعناقها .
(٨) الأحلاب : ما يحلب منها .
(٩) اللوب : جمع لوبة وهى الحَرَّة ويقال أيضًا : لابة ، والحرة أرض ذات حجارة سود .
(١٠) جَمُّها : ما اجتمع من لبنها . (١١) حفيلها : كذلك .
(١٢) المنتاب : القاصد الزائر .

وتعود بالأسلاب .

ويمعن كعب فى الحوشى من اللفظ والغريب منه ، حتى وكأنه غير كعب الشاعر الذى نعرفه وهو يصف هذه الخيل التى شرحنا وصفها فيما مضى ، وكأنما نحن من شاعرٍ من القرون الخوالى ، وليس كعب السهل الممتنع عبارة وإشراقًا يوم يتناول الإسلام.

ونزائعًا (١) مثل السراح (٢) نمى بها ... علف الشعير وجزة (٣) المقضاب
عرى الشوى(٤) منها وأردف نحضها(٥) ... جرد (٦) المتون (٧) وسائر الآراب (٨)
قود (٩) أتراح إلى الصباح إذا عذت ... فعل الضراء (١٠) تراح للكلاب
وتحوط سائمة الديار وتارة ... تردى (١١) العداء تؤوب(١٢) بالأسلاب
حوش(١٣) الوحوش مطارة(١٤) عند الوغى ... عبس اللقاء مبينة (١٥) الإنجاب
علقت على دعية(١٦) فصارت بُدَّنا (١٧) ... دخس(١٨) البضيع(١٩) خفيفة الأقصاب(٢٠)

هذه الخيل التى أعدها الأنصار لنصرة الله ورسوله يحدثنا رسول الله ﷺ عنها فيقول :

« الخيل ثلاثة : هى لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل وزر . فأما الذى هى له أجر ، فرجل ربطها فى سبيل الله ، فأطال لها فى مرج أو روضة ، فما أصابت فى طيلها من المرج والروضة كانت لها حسنات ، ولو أنها بطعت طيلها

---

(١) نزائعًا : يعنى الخيل العربية التى حملت من أرضها إلى غير أرضها .
(٢) السراح : الذئاب .
(٣) جزة المقضاب : يعنى ما يحتفر لها من النبات منقضمة .
(٤) الشوى : القوائم .
(٥) نحضها : لحمها.
(٦) الجرد : الملمس .
(٧) المتون : الظهر .
(٨) الآراب : جمع إربة وهى القطعة من اللحم .
(٩) قود : جمع أقود وقوداء ، أى طوال .
(١٠) الضراء : الكلاب الضارية للصيد .
(١١) تردى : تهلك .
(١٢) تؤوب : ترجع .
(١٣) حوش : نافرة .
(١٤)مطارة : مستخفة .
(١٥) مبنية الإنجاب ، أى نجيبة الولد والنسل الأصيل .
(١٦) على دعية: على نعمة .
(١٧) البدَّن : السمان .
(١٨) دخس : كثير اللحم .
(١٩) البضع : اللحم .
(٢٠) الأقصاب : جمع قصب وهو المعى .

فاستنت شرفًا أو شرفين ، كانت آثارها وأرواثها حسنات له ، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقيها كانت له حسنات ، ورجل ربطها تفنيًا وسترًا وتعففًا ثم لم ينسَ حق الله فى رقابها وظهورها فهى له ستر ، ورجل ربطها فخرًا ونواءً لأهل الإسلام فهى له وزر. هذه هى الخيل التى أبدع كعب فى وصفها ، وقد أعدت للجهاد فى سبيل الله»[1].

**السلاح :**

يغدون بالزعف [2] المضاعف شكة [3] وبمترصات [4] فى الثقات صياب[5]
وصوارم نزع الصياقل غلبها [6] وبكل أروع [7] ماجد [8] الأنساب

**الفارس :**

يصل اليمين بمارن [9] متقاربِ وكِلَت وقيعته [10] إلى خباب [11]
وأغر [12] أزرق فى القناة كأنه فى طخية [13] الظلماء ضوء شهاب

**الكتيبة :**

وكتيبته ينفى القران [14] قتيرها [15] وترد حدقوا حد النشاب
جأوى [16] ململمة [17] كأن رماحها فى كل مجمعة ضريمة [18] غاب
يأوى إلى ظل اللواء كأنه فى صعدة[19] الخطى[20] فىء عُقاب[21]
أعيت أبا كرب [22] وأعتب تبعًا [23] وأبت بسالتها على الأعراب [24]

---

(١) مالك وأحمد والبخارى والستة إلا أبو داود .
(٢) الزغف : الدروع اللينة .
(٣) الشك : النسج .
(٤) المترصات : الشديدات وهى الرماح .
(٥) صياب : صائبة .
(٦) غُلُبها : خشونتها .
(٧) الأروع : الذى يروع بكماله وجماله .
(٨) ماجد : شريف .
(٩) المارن : الرمح اللين .
(١٠) وقيعته: صنعته وتطريقه .
(١١) خباب : هو خباب بن الأرت الذى يصنع السيوف .
(١٢) الأغر الأزرق : السنان .
(١٣) الطخية : شدة السواد .
(١٤) القران : تقارن النبل .
(١٥) القتير : مسامير حلَقِ الدرع .
(١٦) جأوى : يخالط سِوادها حمرة .
(١٧) ململمة : مجتمعة .
(١٨) الضريمة : اللبن المتوقد .
(١٩) الصعدة : القناة المستوية .
(٢٠) الخطى : الرماح .
(٢١) العُقاب : طائر جارح .
(٢٢) أبو كرب : ملك من ملوك اليمن غزا المدينة .
(٢٣) تبع : مثله .
(٢٤) الأعراب : هنا الأحزاب المحاصرة للمسلمين .

ويمضى كعب ﷺ يخرج لنا من مكنون بحره اللغوى الزاخر ، ومكنون الصور والتشبيهات والأخيلة من لا تمكن من ملاحقته فيها وهو يعرضها متتابعة متسلسلة من الأرض ، للخيل للفرسان لتسليحهم ، للكتائب بعد ، فبعد أن عرض علينا الخيل التى نمت وترعرعت ، وغدت معدة للموت والوصول والهجوم ،يرتفع فوق الخيل ليرينا الفارس فى شكة سلاحه وقد لبس درعه ، وأعد رمحه ، وجهز سيفه وصقله وهومن السيوف المشهورة المنتسبة إلى بلدانها المشهورة . أما رمحه اللين النفاذ الذى وكّل به خباب بن الأرت ﷺ فهو الذى كان يثقف الرماح بمكة والمدينة ، وسنان الرمح يلمع كضوء الشهاب فى الظلمة الداجية ، هذه الكتيبة بهذا السلاح والعتاد تصد الهامُ فيها بمسامير الدروع ، وترد أقواس النشاب . تبدو وكأنها سوداء من هول السلاح فيها ، تلمع رماحها كحرائق الغابات ، وعظمة هذه الكتيبة ممعنة فى القدم موغلة فى التاريخ منذ غزا أبو كرب بيثرب وغزاها تبع كذلك ، فاستعصت عليه . وها هى اليوم تستعصى على الأعراب من غطفان وتميم وأسد ، فيرتدون عنها حسرًا مقهورين .

ولعل الذى مثل هذه الصورة لصد الأعراب وغيظهم الرسائل المتبادلة بين أبى سفيان ورسول الله ﷺ :

عن أبى وجزة قال : لما ملئت قريش المقام ، وأجدب الخباب ، وضاقوا بالخندق ، وكان أبو سفيان على طمع أن يغير على المدينة كتب كتابًا فيه : ( باسمك اللهم ، فإنى أحلف باللات والعزى ، لقد سرت إليك فى جمعنا ، وإنا نريد أن لا نعود إليك أبدًا حتى نستأصلك ، فرأيتك قد كرهت لقاءنا ، وجعلت مضايق وخنادق ، فليت شعرى من علَّمك هذا ؟ فإن نرجع عنكم فلكم منا يوم كيوم أحد ، تبقر [1] فيه النساء ) . وبعث بالكتاب مع أبى أسامة الجشمى ، فلما أتى بالكتاب ، دعا رسول الله ﷺ أُبى بن كعب ، فدخل معه قبته ، فقرأ عليه كتاب أبى سفيان وكتب إليه رسول الله ﷺ :

من محمد رسول الله إلى أبى سفيان بن حرب . . أما بعد : فقديمًا غرك بالله الغرور ، أما ما ذكرت أنك سرت إلينا فى جمعكم وأنك لا تريد أن تعود

---

(١) تُبقر : تشق البطون .

حتى تستأصلنا (1) . فذلك أمر يحول الله بينك وبينه ، ويجعل لنا العاقبة حتى لا تذكر اللات والعزى ، ورب قولك : من علمك الذى صنعنا من الخندق ، فإن الله تعالى ألهمنى ذلك لما أراد من غيظك به وغيظ أصحابك .

هذه هى النقائض التى كانت بين قائدى الجيشين ،أما المورد على غزوة كغزوة أحد فكان بهذه العظمة النبوية الخالدة :وليأتين عليك يوم تدافعنى بالراح (2) ، وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى ، وإساف ونائلة (3) وهبل حتى أذكرك ذلك (4) .

وكما ختم المصطفى ﷺ رسالته بانتصار العقيدة الذى يمثل الهدف فها هو كعب يعرض فى ختام قصيدته عقيدة هذه الكتيبة وقائدها .

الإسلام :

ومواعظ من ربنا نُهدى بها ... بلسان أزهر (5) طيّب الأثواب

عرضت علينا فاشتهينا ذكرها ... من بعدما عرضت على الأحزاب

حكيمًا يراها المجرمون بزعمهم ... حرجًا (6)، ويفهمها ذوو الألباب (7)

﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36) ﴾ [ القلم ] .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (19) وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ (20)﴾ [ فاطر ] .

ويختم قصيدته ختام مسك يخاطب به قريشًا أنه إن كانت ترى أنها تغالب ربها فما لهم قبل ولا طاقة ، والمعركة بيننا وبينها معركة عقيدة ، معركة هذه الآيات ، معركة المؤمن بها والكافر بها .

جاءت سخينة (8) كى تغالب ربها ... فليُغلبنَّ مغالبُ الغلاب

وحين ختم قصيدته ، وأودعها بهذا البيت ، لم يدر أن رب السموات

(1) الاستئصال : القضاء عليه من الجذور والأصل . (2) الراح : الأيدى .
(3) إساف ونائلة والعزى : من آلهة العرب التى تقدسها .
(4) المغازى النبوية للواقدى 2 / 491 - 493 . (5) الأزهر : هنا رسول الله ﷺ .
(6) الحرج : الحرام الضيق . (7) الألباب : العقول .
(8) سخية : كناية عن قريش يعيرها العرب بطعام تأكله اسم السخية .

والأرض سيهديه جائزة عليه ، ويكون الوسيط والحامل لها رسول ، هو رب العالمين فى أسعد خبر تلقاه من ربه وعلى لسان نبيه فى اليوم الثانى حين لقى قائده الحبيب عليه الصلاة والسلام يزجى له التهانى ، بجائزة رب العالمين ، فقد نام عنها وملائكة السموات السبع حفية ربها .

قال ابن هشام : حدثنى من أثق به قال : حدثنى عبد الملك بن يحيى بن عباد ابن عبد الله بن الزبير قال : لما قال كعب بن مالك :

جاءت سخية كى تغالب ربها فليُغلبنَّ مغالبُ الغلاب

قال له رسول الله ﷺ :« لقد شكرك الله يا كعب على قولك هذا »[1] .

ويعود كعب ، فيلخص معركة الخندق وغزوة الأحزاب فى ستة أبيات ، جمعت كل ما فى المعركة من صراع نفسى ومادى وفكرى فيها .

لقد عم الأحزاب حين تألبوا علينا وراموا ديننا ما نوادع[2]

ولماذا لا يوادعون ، أليسوا الأهل والصحب وأبناء العم والعشائر الواحدة تجمعهم رابطة العروبة الخالدة ؟ فالآخرون هم :

أضاميم[3] من قيس بن عيلان أصفقت وخندف[4] لم يدروا بما هو واقع

وهذا هو جواب التساؤل :

يذودوننا عن ديننا ونذودهم عن الكفر والرحمن راء وسامع

ونحن نأوى إلى الرحمن ربنا :

إذا غايظونا فى مقام أعاننا على غيظهم نصر من الله واسع
وذلك حفظ الله فينا وفضله علينا ومن لم يحفظ الله ضائع
هدانا لدين الحق واختارنا له ولله فوق الصانعين صنائع[5]

(١) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ٣٥٩ ـ ٣٦٢ .
(٢) نوادع : نصالح .
(٣) أضاميم : جماعات .
(٤) خندف : قريش ومن والاها .
(٥) السيرة النبوية لابن هشام ذ / ٣ / ٣٦٦ .

# فهرس الموضوعات

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|